أدباء العرب

في

الجاهلية وصدر الإسلام

حياتهم – آثارهم – نقد آثارهم

تأليف

بطرس البستاني

« الطبعة السادسة »

زيد عليها دراسات جديدة

مكتبة صادر

بيروت

١٩٥٣

العصر الجاهلي

٥٠٠ ؟ - ٦٢٢ م

يبتدىء

بنهضة الشعر وتنوع ابوابه وبحوره ،

وينتهي

بظهور الاسلام وهجرة رسوله .

لمحة تاريخية

ديار العرب

اذا قيل ديار العرب تبادرت الى الذهن خيالات جزيرتهم الصحراوية العارية، مع انه كان لقوم منهم مواطن في الربوع الشامية والعراقية، إلاّ ان هذه المواطن، على جمالها وتحضّر بعضها، لم تكن الا غديراً من غدران الجزيرة، وطللاً من اطلال البادية. فالجزيرة مهد العروبة الخالصة، وكل عربي صحيح النجار يعتزي اليها، وان شطت به الدار عنها.

وسميت جزيرة من قبيل التوسع، لأن البحر لا يكتنفها الا من ثلاث نواحيها: من الغرب البحر الأحمر؛ ومن الشرق بحر فارس او خليج العجم؛ ومن الجنوب المحيط الهندي؛ واما الشمال فمتصل بأرض الشام والعراق.

والجزيرة خمسة اقسام: الأول اليمن في الجنوب، ويقال لها الخضراء، لما فيها من المزارع والاشجار والمراعي والمياه، وهي خمسة اصقاع: حَضْرَمَوْت، ومَهْرة، والشِّحْر، وعُمَان، ونَجْران. ومدنها الشهيرة: صَنْعاء، وكانت سرير ملوك اليمن، وفيها قصر غُمْدان؛ ومأرِب ويقال لها سَبَأ، وفيها العَرِم؛ وزَبيد، وعَدَن، وظَفار قاعدة بلاد الشِّحْر.

والقسم الثاني العروض وتشمل البحرين واليمامة ، سميت بذلك لاعتراضها بين اليمن ونجد .

والقسم الثالث تِهامة ، على شاطىء البحر الأحمر ، بين اليمن والحجاز ، وفيها طريق القوافل الى الشام . ومن مدنها مكة ، وفيها البيت والكعبة ، وغار حِراء .

والقسم الرابع الحجاز ، بين نجد وتهامة ، اشهر مدنه يثرب (مدينة الرسول) ، والطائف ، وخَيْبَر ، وفيه سوق عُكاظ ، وماء بدر .

والقسم الخامس نجد ، بين العراق شرقاً ، وبادية الشام شمالاً ، والحجاز غرباً ، واليمامة جنوباً : صقع مرتفع ، طيب الهواء ، يلهج بذكره الشعراء ، وفيه ارض العالية التي كان يحميها كليب .

وفي الجزيرة جبال وأودية ، وصحراوات ، وحَرّات . فمن جبالها أَجأ وسلمى ، في جنوبي بادية السماوة ، وهما منازل لبني طيء ؛ ورَضْوى بالقرب من يَنْبُع ، وأُحُد في شمالي يثرب ، وابو قُبَيْس في شرقي مكة ، وأبان الأبيض في شمالي وادي الرمة . ومن اوديتها وادي القُرى بالقرب من يثرب ، ووادي الرُّمة بعالية نجد . ومن صحراواتها بادية السماوة ، رمال وُعْث شاقة السير ، قليلة الماء والكلأ ؛ والدهناء ، سبعة أَجْبُل من الرمل بين يَبْرين وفَيْد[1] ، كثيرة الكلأ على قلة ماء . قال ياقوت : « اذا اخصبت الدهناء ، ربّعت العرب جمعاء . » ورمال الأحقاف بأرض اليمن بين عمان وحضرموت . ومن حرّاتها حَرة سُلَيم في عالية نجد ،

---

[1] يبرين : رمل كثير بين اليمامة والبحرين . فيد : بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة .

وحرة واقم شرقي يثرب ، وفيها كان يوم الحرة في خلافة يزيد بن معاوية.

وهواء الجزيرة يختلف باختلاف ارتفاعها وانبساطها ، ففي الجبال وعلى شاطىء البحر الجنوبي ينسم معتدلاً ؛ وفي السهول يلفح حاراً ؛ وتهب ريح محرقة من الجنوب والغرب تعرف بالسّموم .

ويهطل المطر شرقي اليمن في اوانه ، وشماليّها من حزيران الى تشرين الثاني ، وتكثر الأمطار في حضرموت ايام الربيع . واما الاقاليم الشمالية فقليلة المطر ، قليلة الميـــاه ، لا تنبت العشب ولا الشجر الا في بعض الأماكن ، واكثر شجرها شائك لظمئه الى الماء ، ويشتد البرد اذا احتبس المطر، وثارت الريح من ناحيـة الشآم[١]، ريح الشمال ، فاذا اقلعت خفّ القرّ ، وسال الوادي ، وتفيض الغـدران ، وتبشر الأرض الصالحـــة بربيع قريب .

مراجع

ياقوت : معجم البلدان .

الالوسي : بلوغ الارب .

نوفل الطرابلسي : صناجة الطرب .

Henri Lammens Le berceau de l'Islam.

---

١ الريح الشآمية تنذر البدوي بالبرد والقحط والجوع ، فاشتق منها التشاؤم. والريح اليمانية تهب رخاء ، وتبشر بالمطر والربيع والشبع ، فاشتق منها التيمن ، وصار يتطير بكل ما يأتيه من ناحية الشمال ، ويتفاءل بكل ما يأتيه من ناحية اليمن .

الجيل العربي

يرى جمهرة المؤرخين ان الشعوب السامية ، اي التي تحدرت من سام بن نوح ، هم : الأشوريون والبابليون والعبرانيون والفينيقيون والآراميون والحبشان والعرب[1] . ويقال ان هذه الشعوب كانت في عهدها الأول تستوطن ارضاً واحدة ، اختلف المؤرخون فيها ، فزعم بعضهم انها شطوط الفرات ، وآخرون انها بادية العرب ، وقال غيرهم بانها أرمينية ، ومنهم من رأى انها الحبش . فلما تكاثروا وضاقت بهم ارضهم ، شتت الدهر شملهم فتفرّقوا وتشعّبوا ، وتفرعت لغتهم الى لهجات مختلفة باختلاف الديار والأمصار .

واتخذ العرب ارض الجزيرة موطناً لهم يعيشون فيها بدواً يألفون الخيام، وحضراً يعمرون المدائن والقرى ؛ وكان معظم البدو في الشمال ، ومعظم الحضر في الجنوب ، ومنهم من نزل باطراف الشام والعراق. ويقسم العرب الى بائدة وعرباء[2] ومستعربة؛ فأما البائدة فأصلها مجهول، واما العرباء فهي القحطانية ، واما المستعربة فهي العدنانية .

---

١ نبّه المستشرق نيكلسون في كتابه تاريخ الادب العربي على ان هذا التقسيم غير محقق اجتماعياً بدليل ان التوراة تذكر في سفر التكوين ان السبئين والكنعانيين من ذرية حام. ومعلوم ان السبئيين عرب ، وان الفينيقيين من الكنعانيين .

٢ العرباء والعاربة : اي المعرقة في العروبة .

العرب البائدة

المراد بالعرب البائـدة القبائل التي محتها الحروب كطَسْم وجديس ، أو اهلكها الله بغضب منه كعاد وثمود . ولا نعلم عن هـذه القبائل إلاّ اخباراً موجزة ذكرها القرآن ، واساطير مستملحة وشّاها الرواة : منها ان طسماً كانت تسكن البحرين ، وان جديساً كانت تسكن اليمامة . وكان على طسم ملك غاشم يقال له عملاق ، فغلب على جديس ، واستبد بها ، وهتك حرمة نسائها . فثارت جديس على طسم ، وبطشت بها وهي غافلة في وليمة دعتها اليها . ونجـا طسمي فلجأ الى اليمن واستغاث تُبّع حسّان ، فأمده بجيش من قحطان فأفنى جديساً .

ومنها ان عاداً كانت تسكن حضرموت ، فبغت في الارض وعبـدت الأصنام ، فبعث الله اليهم نبيّاً اسمه هود ليصلح فسادهم ، فكذّبوه ، فدعا عليهم ، فاحتبس المطر عنهم ثلاث سنين ، وامحلت الارض ، فأوفدوا الى مكة نفراً يستسقون لهم ، فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية فلم تبقِ منهم احداً .

ومنها ان ثمود كانت تسكن الحِجْر من وادي القرى ، فسخرت بنبيها صالح ، وابت ان تطيعـه او يصنع لها معجزة . فأخرج من الصخر ناقـة وفصيلها ، واوصاهم ألاّ يمسوها بسوء ، فاجترأ احدهم قُدَار الاحمر وعقرها ، فغضب الله على ثمود كما غضب على عـاد ، فأبادهم بالزلزال ، وضرب المثـل بشؤم عاقر الناقة احمر ثمود .

ولم تخلُ اساطير العرب البائدة من الشعر ، ولكنه منحول وضعه الرواة تزييناً لأقاصيصهم فما يصح التعويل عليه .

العرب القحطانية

نزلت العرب القحطانيـة في الجنوب ، واتخذت اليمن موطناً لهــا . وقيل ان اول من نزلها يعرُب بن قحطان واولاده. وتزعم الرواية العربية انه اول من نطق باللسان العربي ، واول من جُعلت له التحايا الملوكيـة . قال حسان بن ثابت :

تعلّمتمُ من مَنطِق الشيخ يَعرُبٍ
أبينا ، فصِرتم مُعربين ذوي نَفْرِ[1]

وكنتم قديماً ما لكم غيرَ عُجمةٍ
كلامٌ ، وكنتم كالبهائمِ في القفرِ

واشتهر بعد يعرب حفيده عبد شمس سبأ ، مؤسس المملكة السبئية ، وباني السد العظيم[2] على بضعة اميال من قاعدتها مأرب توفيراً للري ، وصيانة للمدينة من الغرق ، لان النهر الذي يجري بقربها يجف ماؤه في الصيف ، فيخشى على الزرع ، ويطغى سيله في الشتاء فيخشى منه الفيضان .

وكانت ارض سبإٍ طيبـة الترب ، خصبة العشب ، فنمت زراعتها ، واثمرت غلالها . وزادها الله خيراً باحياء تجارتها ، فكانت السفن تقلّ حمولة الهند الى حضرموت ، ومنها الى مصر ، منذ القرن العاشر قبـل المسيح .

---

١ النفر : الجماعة يتقدمون في الامر .

٢ ينسب بعضهم بناء السد الى لقمان بن عاد ، وآخرون الى بلقيس .

وكانت الملاحة في البحر الأحمر عسيرة شاقة ، فعُدل عنها الى البر ، وتعهدت القوافل حمل بضائع الهند وحضرموت الى مأرب فمكة ، ففلسطين فمصر.

على ان هذا اليسر اخذ يتبدل عسراً منذ القرن الاول للميلاد اذ تحولت التجارة الهندية عن طريق البر في اليمن الى البحر الاحمر بتقدم الملاحة الرومانية ، واتساع نطاقها. فساءت أحوال السبئيين ، واضطربت جماعتهم فنفروا الى الشمال يلتمسون فيه موطناً جديداً لهم ، فأوحشت مرابعهم ، وضعفت شوكتهم . ثم كان انفجار السد[1] ففاضت المياه على مأرب ، فأزعجت عنها السكان ، وقضت على دولة السبئيين ، فتمزقوا أشتاتاً ، وضُرب بهم المثل فقيل : « تفرقوا ايدي سبا » وغلبت عليهم دولة الحميريين .

والحميريون شعب من ذراري السبئيين[2] اتسع سلطانهم فجاوز اليمن ، وانبسط على عرب الشمال . وكانت عاصمتهم صنعاء ، وملوكهم يلقبون بالتبابعة ، اولهم الحارث الرائش . وعرف بعضهم بالاذواء[3] . وفيهم ملوك

---

[1] تحمل الرواية العربية حادث انفجار السد زمن عمرو بن عامر بن مُزيقيا ، وكان ملكاً على سبأ في اواخر القرن الثالث للميلاد، وتعزو تهدمه الى جرذ خربه بمخالبه . وتدل النقوش الحجرية التي عثر عليها العلماء الاوربيون في اطلال مأرب على ان السد لم يتهدم بأجمعه وانما تهدم اجزاء منه فرمم بعضها ابرهة الحبشي خلال سنوات (٥٣٩ - ٥٤٢ م) ولبث السد قائماً حتى منتصف القرن السادس للمسيح. ويستدل ايضاً ان اول فيضان عرف له كان بين سنة ٤٤٧ وسنة ٤٥٠ ميلادية .

[2] تشعب عن السبئيين بنو حمير وبنو كهلان ، وصار الملك في اليمن الى الاولين ، وربما نازعهم اياه الآخرون. وحمير وكهلان عند نسابة العرب هما ابنا عبد شمس سبأ بن يشجب .

[3] امثال ذي يزن وذي نواس وذي جَدن وسواهم . وذو هنا اضيفت اليها اسماء مواضع او اسماء تدل على افعال او حروب .

صغار يسمون بالاقيال يسيطرون في مخاليفهم او اقطاعاتهم ، ويعودون بشؤونهم العامة الى تبّع الملك الاكبر .

وكان من أثر هجرة القحطانيين الى الشمال ان ضعفت شوكة اليمن ، كما ذكرنا ، فطمعت فيها الأحباش ، فوالت عليها الغارات البحرية ، يشدّ ساعدها قيصر الروم ، فافتتحت بعض بلادها سنة ٣٥٦ ، وجعلت عليها الولاة المسيحيين ، فتداولوا الملك فيها ، حتى قام ذو نواس في اواخر القرن الخامس للميلاد[١] . وكان يهودياً من أعقاب التبابعة ، فتعصّب لدينه واضطهد النصارى . وحدث ان قُتل طفلان يهوديان في نجران واتهم النصارى بقتلهما ، فسخط ذو نواس عليهم ، وخيّرهم بين اليهودية والقتل ، فأبوا ان يتهودوا ، فأعمل السيف فيهم ؛ وقيل انهم هم أهل الاخدود الذين اخبر عنهم القرآن ، أضرمت عليهم النار فكانوا لها وقوداً .

ولا شيء يدل على ان ذا نواس استطاع ان يستأصل شأفة النصارى ، ولكن نعلم ان جماعة منهم فزعوا الى يوستين الاول قيصر الروم يستغيثونه ، فكتب الى النجاشي هيلستيوس او الأصبح ، وكان من غلاة النصارى ، بان ينوب عنه في غزو اليمن ، والاثئار لقتلى نجران ، فأغزاها قائده أرياط بسبعين الفاً من الأحابيش ، فانهزم امامهم ذو نواس ، وخاض البحر بفرسه ، فلم يظهر له اثر . وصارت اليمن امارة حبشية في نحو سنة ٥٢٥ م ، تولاها ارياط ثم ابرهة الأشرم من بعده .

وفي نحو سنة ٥٧٠ م سار ابرهة بجيشه الى مكة يريد هدم البيت الحرام ،

---

١ يعتقد ذو برسفال ان ذا نواس ملك من سنة ٤٩٠ الى سنة ٥٢٥ م .

فدهاهم وباء الجدري ، وسرى فيهم يفتك فتكا ذريعاً ، ولم يسلم منه ابرهة فارتد عن الكعبة بمن نجا من جيشه ، ومات في صنعاء . وتُعرف غزوة ابرهة بعام الفيل ، لأن الرواية العربية تقول انه جاء مكة راكباً على الفيل .

وظل الحبش مستولين على اليمن حتى قام سيف ذو يزن سنة ٥٧٥ م يعمل لتحرير بلاده ، واسترجاع ملك آبائه ، فاستنجد كسرى ، فأمده بجيش من أهل السجون ، يقودهم وهرز الديلمي. وكان على اليمن مسروق ابن ابرهة ، فانكشفت الاحباش وقُتل مسروق ، وملك ذو يزن ، او خلفه ابنه معدي كرب ، وهو آخر ملوك اليمن من القحطانيين . ثم ثار على معدي كرب عبيده الاحباش فقتلوه، فاستولت الفرس على اليمن سنة ٥٩٧ م ، وجعلتها بعض ولاياتها ، فلم يتحقق لها استقلال حتى ظهر الاسلام.

وفي اساطير العرب القحطانية واخبارهم شعر موضوع لا يصح الركون اليه ، لانه جاءنا باللغة العدنانية ولم تكن يومئذ لغة اهل اليمن ، بل كانت الحميرية لغتهم ، وبينها وبين لسان عدنان اختلاف عظيم .

اليمانية المهاجرة

تفرقت القبائل القحطانية في وسط الجزيرة وشمالها بعدما نبت بها اليمن. فمنها من سكن البادية وعاش فيها عيشة الاعراب الجفاة ؛ ومنها من نزل القرى واطراف الشام والعراق . وكان الذين هاجروا من حمير قبائل قُضاعة ، فاستوطنت تنوخ العراق ، وكلب بادية الشام ، وعُذرة وادي القرى في الحجاز. وكان الذين هاجروا من كهلان قبائل الازد فنزلوا عُمان. ومنهم الغساسنة في الشام ، وخُزاعة بمكة ، والأوس والخزرج بيثرب .

ومن كهلان بنو لخم ملوك العراق ومنهم المناذرة ، وبنو طيء في جبلي أجأ وسلمى ، وبنو عاملة وبنو جُذام في بادية الشام ، وبنو كندة ، وكانوا أقيالاً في حضرموت يخضعون للتبابعة ، فاتسع سلطانهم الى الانحاء الشمالية ، فسادوا قبائل غطفان واسد في نجد ، وقبائل بكر وتغلب في ديار ربيعة ، حتى بلغ الامر بأحد ملوكهم الحارث بن عمرو ان ينافس المناذرة والغساسنة . واغار مرة على الحيرة فشرّد ملكها المنذر الثالث ابن ماء السماء . فلما عاد المنذر الى ملكه ، اوقع بالكنديين ، فاخذ منهم نحو خمسين اميراً وذبحهم بجفر الاملاك في ديار بني مَرينا بين دير هند والكوفة ، وفيهم يقول امرؤ القيس :

الا يا عينُ بكّي لي شَنينا ،
وبكّي لي الملوكَ الذاهبينا[1]

ثم قتل الحارث في ارض بني كلب ، وقتل بعده ابنه حُجر والد امرىء القيس الشاعر ، فتحلحل بناء كندة منذ اليوم ، وكر بعضهم الى مواطنه الاولى في حضرموت .

وكانت اللغة العدنانية صاحبة السلطان على القبائل القحطانية المهاجرة الى الشمال ، ذلك بانها لغة البلاد التي استوطنوها ، فاصطلحوا عليها في أدبهم ، ونظموا بها شعرهم ، ونبغ منهم شعراء مجيدون ، هدهدوا البادية بانغامهم ، وتبوّأوا سدة الرئاسة بشاعرهم امرىء القيس امير بني كندة .

---

[1] الشنين : قطران الماء .

ملوك العراق

كان العراق في أوائل القرن الثالث للميلاد يضم اليه شعوباً من القبائل اليمانية المهاجرة عرفوا جميعاً بالتنوخيين ، على ما فيهم من قبائل لخمية وازدية واخرى عدنانية . فعاش منهم جماعة عيشة البدو ، دأبهم الغزو وشن الغارات . وانصرف آخرون الى حرث الارض وعمارتها ، فأنشئت المزارع والقرى ، ومصّرت الحيرة[1] قاعدة الامارة اللخمية التي اقامها الفرس وقاية لحدودهم ، وسدّاً يدفعون بـه غارات الروم وعمالهم الغساسنة ، واقطعوها اليمانية ، كما اقطع الروم امارة الشام ، لما لقبائل اليمن من حضارة قديمة ، ويد سابقة في ادارة الملك وسياسة الرعية .

وكان اول امير من اللخميين عمرو بن عديّ ، ولي الملك من قبل سابور الاول في نحو منتصف القرن الثالث ، ثم تداول الملك خلفاؤه . وتقدمت الحيرة في عهدهم تقدماً بيّناً ، فانشئت فيها المدارس الفارسية ، فنالت قسطاً من الثقافة ، وشاعت بها الكتابة العربية ، ولا سيما عند القبائل النصرانية التي كانت تُعرف بالعبّاد ، لعبادتها الله . وفتح الأمراء ابواب قصورهم لشعراء البادية ، منافسين اعداءهم الأمراء الغسانيين ، متوسلين بالشعر الى بسط نفوذهم على القبائل العربية ليستعينوا بها في حروبهم ، ويستفيدوا منها في حياتهم الاقتصادية . فكان عَبيد بن الابرص يفد على المنذر الثالث

---

[1] الحيرة : هي حرتا السريانية ، اي المعسكر ، سمي بها الموضع الذي كان ينزل به عسكر الفرس والعرب ، ثم اطلقت على المدينة التي انشئت هناك ، على بعد عدة اميال من الكوفة ، وهي ذات موقع صحي جميل .

صاحب الغريين[1] . وعمرو بن كلثوم والحارث بن حِلِّزة وطرفة والمتلمّس والمُثقّب العبدي يفدون على عمرو بن هند[2]. والنابغة والمنخل اليَشكُري ولبيد وحسان بن ثابت والربيع بن زياد وسواهم يفدون على النعمان الثالث أبي قابوس . ونبغ في زمن النعمان هذا شاعر الحيرة الأوحد عدي بن زيد النصراني .

وكان ملوك الحيرة وثنيين ، مع انتشار النصرانية في العراق ، ومنهم من كان مزدكياً كالمنذر الثالث ، ويزعم بعضهم انه تنصّر ، وليس هذا بثابت ، وربما تنصر غيره من أمراء الحيرة .

وتضعضع ملك المناذرة بعد النعمان ابي قابوس[3]، وصارت ولاية الحيرة الى إيَاس بن قَبيصة الطائي . ثم تولاها الفرس حتى جاء الاسلام وافتتحها خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

قيل كان للمنذر الثالث نديمان يحبها ، فقتلها ، ثم نـدم على فعلته ، فبنى لهما قبرين ، وجعل يومين في السنة : يوم بؤس ويوم نعيم ، فكان يقتل اول طالع عليه يوم بؤسه وهو عند القبرين ، ويغرّيها بدمه ، اي يطليها ، ولذلك سمّيا بالغريين . وكان يعطي مائة من الابل لاول طالع عليه يوم نعيمه . وكان ملكه من سنة ٥٠٥ — ٥٥٤ م وكان يلقب بذي القرنين لضفيرتين له ؛ قتل في محاربته الغساسنة يوم حليمة .

عمرو بن هند : هو ابن المنذر الثالث ملك بعده وكان جباراً عاتياً ، حارب الروم والغساسنة وثأر لابيه . قتله عمرو بن كلثوم سنة ٥٦٩ م .

ولي النعمان الحيرة نحو سنة ٥٨٠ م. وكان الشاعر عديّ بن زيد ترجماناً وكاتباً لكسرى ، وكان يكثر من زيارة الحيرة موطنه الاول ، فوشى به بعضهم الى النعمان فحبسه . ثم علم ان كسرى طالبه فقتله تخلصاً منه . فجعل كسرى زيد بن عدي ترجماناً له مكان ابيه . فما زال زيد يكيد النعمان حتى حمل كسرى على استقدامه الى المدائن ، وحبسه حتى مات او القاه الى الفيلة فداسته وقتلته نحو سنة ٦٠٢ م .

ملوك الشام

هاجرت القبائل اليمانية الى أطراف الشام ، كما هاجرت الى أطراف العراق ، واتخذ القياصرة منها عمالاً لحماية الحدود ، كما اتخذ منها الأكاسرة . فكان الضجاعم من بني سَليح يلون البلقاء في عبر الاردن ، ويرجعون بأمورهم الى ملك الروم ، حتى جاء الغساسنة بنو جَفنة ، فزاحموهم في عقر دارهم ، وازعجوهم عنها في اواخر القرن الخامس ، واستولوا على البلقاء وما يليها من الاردن وحوران وغوطة دمشق . ولم يجد العاهل البيزنطي بأساً في استعمال الغسانيين بدلاً من الضجاعمة ، فأقطعهم تلك البلاد ، ومنح أمراءهم الألقاب السنية ، وألبسهم الأكاليل والتيجان .

واختُلف في اول من ملك منهم لغموض تاريخهم ، فقيل انه جفنة بن عمرو ، وقيل بل هو ثعلبة بن عمرو بن جفنة . وجارى نكلسون ابن قتيبة فجعله الحارث بن عمرو . اما نولدكه ، وهو اوثق من يُعتمد عليه في تاريخ الغساسنة ، فيرجح انه ابو شَمِر جبلة بن الحارث بن ثعلبة . بيد ان اول امير اشتهر منهم واتسع سلطانه هو الحارث بن جبَلة المعروف بالحارث الأكبر صاحب الغزوات المظفرة ، والألقاب الرفيعة[1] . وخلفه ابنه المنذر

---

[1] روى نولدكه عن المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ان الحارث بن جبلة بلغ رتبة الملك زمن القيصر يوستنيانوس ، وعن المؤرخ تيوفانوس انه كان يلقب بالطريق (Patricius) وزعيم القبيلة (Phylarch) . وكانت بينه وبين المنذر ن ماء السماء معارك كثيرة ، فأسر ملك الحيرة احد اولاده نحو سنة ٥٤٤ م. وضحى به للعُزى . ولم تخمد الحرب بينهما حتى قتل المنذر سنة ٥٥٤ يوم حليمة بالقرب من قنّسرين . وزار الحارث القسطنطينية سنة ٥٦٣ م فأحسنت فيها وفادته ، وكان له أثر بليغ في نفوس اهلها . وكانت وفاته في اواخر سنة ٥٦٩ م بعدما ملك نحو اربعين سنة .

فحارب اللخميين ، وقهر ملكهم قابوس بن المنذر سنة ٥٧٠ ، يوم عين أباغ[١] قرب الحيرة ، وزار عاصمة الروم سنة ٥٨٠ م ، وعليها طيباريوس ، فتوّج فيها . إلاّ ان القيصر لم يلبث ان سخط عليه ، فأمر باعتقاله ، وجاء به الى القسطنطينية في اواخر سنة ٥٨١ م[٢]، ومنع عن ابنائه الجعالة السنوية فثاروا في الشام ، وشنوا الغارات على الأراضي البيزنطية ، فطاردتهم جيوش الروم ، وأسرت النعمان أخاهم الأكبر ، فمال عرش الغساسنة الى الضعف ، وانفصلت عنه عدة امارات ، حتى اذا استولى الفرس على ديار الشام هوى العرش ، ودابت الامارات ، وخضع أكثر أصحابها للفاتحين . على انه عاد للغساسنة شيء من ملكهم بعدما طرد هرقل الفرس من سورية وفلسطين سنة ٦٢٨ ، فإن مؤرخي العرب يجمعون على ان جبَلة بن الأيهم آخر من ملك من بني جفنة ، وانه كان في مقدمة جيش الروم يوم اليرموك سنة ٦٣٦ ثم انحاز الى الأنصار وقال لهم : « انتم اخوتنا وبنو أبينا . » واظهر الاسلام ثم ارتد وخرج الى بلاد الروم[٣] . ويروون على اسلامه وارتداده أخباراً مختلفة لا تخلو من الاصطناع .

وكان للغساسنة قسط من الحضارة لا ينبغي انكاره لتأثرهم بحضارة البيزنطيين ، ولم تكن دولتهم بدوية خالصة ، لا عاصمة لها ، كما زعم بعض المستشرقين ، بل كان لهم مستقر في جابية الجَولان حيناً ، وفي جلّق[٤] آخر ،

---

١ نولدكه ، امراء غسان ، الترجمة العربية ، ص ٢٥ .

٢ توفي طيباريوس في سنة ٥٨٢ ، فخلفه موريقيوس ، وكان يكره المنذر لعداء قديم بينهما فنفاه الى صقلية .

٣ البلاذري ص ١٤١ .

٤ لا يعرف مكان جلق معرفة أكيدة ، ولكن يؤخذ من الشعر الجاهلي انها على بردى بالقرب من دمشق .

وربما كانت بُصرى من قواعدهم. ويضيف اليهم مؤرخو العرب بناء القصور العالية ، والبنايات العامة ؛ فمهما يكن في اقوالهم من الغلو ، فهي اقرب الى الدلالة على الترف والعمران منها على البداوة والخشونة . وفي بائية النابغة التي يمدح بها ابناء جفنة وصف لملابسهم وحفلاتهم الدينية يدل على نعمتهم وتقدمهم في الحضارة . ويذهب المستشرق نكلسون الى ان مدنية الغساسنة كانت اوثق من مدنية اللخميين .

ووفد شعراء البادية على قصورهم ، كما وفدوا على قصور ملوك العراق ، ومدحوهم بأحاسن الأشعار ، فرجعوا من عندهم بأحاسن الصلات . واشهر مدّاحيهم علقمة الفحل والنابغة وحسان بن ثابت .

وكان الغساسنة يدينون بالنصرانية ، على مذهب اليعقوبية المبتدعة ، فاسخطوا عليهم ، غير مرة ، قياصرة الروم الكاثوليكيين . ولكن حاجة هؤلاء اليهم كانت تحملهم على اخذهم بالحسنى والتساهل . وربما كانت عقيدتهم المخالفة من اسباب سقوط بعض ملوكهم ، كما سقط المنذر بن الحارث بعدما أمر القيصر باعتقاله ونفيه .

العرب العدنانية المستعربة

يعود المؤرخون بنسب العرب العدنانية الى اسماعيل بن ابراهيم من جاريته هاجر ، ويروون على ذلك انه لما ولد اسماعيل امر الله ابراهيم ان يذهب به وبأمه الى مكة ، ففعل. وجاءت جُرهُم وقَطُوراء ، وهما قبيلتان من اليمن ، فنزلوا مكة ، فتزوج اسماعيل من جرهم ، وكان من ذريته عدنان ابو العرب المستعربة . ومن عدنان كانت القبائل النزارية بشعبيها الكبيرين ربيعة ومُضَر . ولا تخلو سلسلة الانساب ، كما يرتبها النسابون متحدرة من

عدنان الى معدّ ، الى نزار ، الى ربيعة ومضر ، الى البطون والافخاذ المتفرعة ، من وهم واختلاط .

وكان الشمال موطن العرب العدنانية ، كما كان الجنوب موطن العرب القحطانية . وهذا لا يعني ان الشمال استأثر بالعدنانية وحدها ، ولا ان العدنانية لم يتخذ بعض قبائلها موطنه في الجنوب ، او في اطراف الشام والعراق .

وغلبت البداوة الخشنة وسكنى الخيام على عرب الشمال ، فكان العدنانيون في كثرتهم بدواً رحّلاً لا يأنسون بقرية ، ولا يتفيأون ظلّاً معموراً الا اقلهم كبني قريش في مكة ، وبني ثقيف في الطائف .

على ان هؤلاء البدو الجفاة هم الذين أنبتوا فحول الشعراء ، وجاءنا عنهم الشعر الكثير .

مراجع

المسعودي : مروج الذهب ١

الاصفهاني : الاغاني

البلاذري : فتوح البلدان

ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣

الالوسي : بلوغ الأرب ١ — ٢ — ٣

نكلسون : تاريخ الأدب العربي

نولدكه : امراء غسان الترجمة العربية زريق وجوزي .

الطبري : تاريخ الامم والملوك

ابن رشيق : العمدة

احمد امين : فجر الاسلام

الاب شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية .

احوال العرب الاجتماعية

عُرف الشعر الجاهلي باسم ديوان العرب لاشتماله على اخبارهم ، وسائر احوالهم ، فجدير بنا ، ونحن نمهد لهذا الشعر بلمحة تاريخية ، ان نلم باخلاقهم وصفاتهم ، وما لهم من عادات وعقائد ونُظم وعلوم ؛ وان الالمام بهذه الشؤون لمما يساعد على دراسة شعرهم واستجلاء مراميه .

شخصية العربي

للعربي شخصية قوية تظهر بانانيته ، ونزوعه الى الحرية والاستقلال ، وحبه الخير لنفسه دون غيره ، والاستئثار بالجاه والذكر الحسن وحميد الصفات . وتظهر في جلَده وصبره على الفقر والجوع والظمإ ومغالبة الطبيعة في صحرائه العاتية ، تلك الصحراء التي لفحته بحرها فتركته اسمر اللون يابس الجلد خفيف اللحم ، اسود العينين والشعر ؛ واستولت على احساسه بوحشتها ، فجعلته حديد السمع والبصر ، سريع التأثر ، متوتر الأعصاب ، مذعناً للقضاء والقدر ؛ وعلمته بقحطها الغزو والترحل في طلب الماء والكلأ ؛ وصيرته كريماً مقداماً يقري الضيوف ويلتقي الاهوال ، ويمنع الجار ويغيث الملهوف ، لتعرضه في ترحاله الى ان ينزل ضيفاً على غيره ؛ وفي مخاوفه الى ان يستغيث قوماً يجيرونه ، ويدفعون الضر عنه ، حتى اصبح حب القرى وحسن الجوار من طبائعه ، يفاخر بهما ، ويرى من العار عليه الا يكرم الضيف ويحامي عن الجار .

القبيلة

كانت عرب البادية تعيش قبائل متقاطعة ، لا يجتمع بعضها الى بعض الا في حِلف موقوت . فلم يستطيعوا في صحرائهم ، وما يقتضي لها من حياة قبلية ، ان ينشئوا مجتمعاً راقياً ، وقومية شاملة ، ودولة موحدة ؛ ولم تبتعد عصبيتهم عن القبيلة ، وان فاخروا بجنسهم واعتدّوا به على سائر الامم .

وبين الفرد والقبيلة صله مكينة تجعل الفرد بجميعه للقبيلة ، والقبيلة بجميعها للفرد . فاذا نزل عار بالقبيلة أصاب كل شخص منها ، واذا نبه ذكر شخص عاد فخره الى القبيلة بأمرها . وتتحمل القبيلة جناية اخيها ، وتنصره ظالماً او مظلوماً[1] .

السيد

والعرب في استقلالهم القبلي يكرون سيطرة الغريب عليهم ، ولا يقبلونها إلاّ على كره ، حتى اذا اصابوا فرصة ، انتقضوا عليه وازالوه ، كما انتقضت بنو اسد على الملك الكندي ، وعمرو بن كلثوم على عمرو بن هند . ولكنهم يدعنون لسيد منهم ، اذا رأوا في سيادته خيراً لهم ، فكان لكل قبيلة سيدها يجمع شملها ويقودها في الملمّ العصيب .

---

١ قد يتفق ان تخلع القبيلة من تكثر معراته ، او من لا تستطيع حمايته ، فيلجأ الى قبيلة اخرى ، او يعيش عيشة الصعلوك الشريد ، واحداً في الوحش اهلاً بأهل وجيراناً بجيران .

ولا تستقر السيادة في بيت واحد لأنانية العربي، ونزوعه الى المنافسة[1]، فكانت تتنقل في القبيلة من بيت الى آخر[2] وقلما تعددت في بيت واحد؛ فكان تعددها من مفاخرهم. واشرف البيوت عندهم بيت تتابعت فيه رئاسة آباء ثلاثة، ثم اتصلت بالرابع، فيسمى الكامل، كبيت حُذيفة بن بدر في بني ذبيان، وبيت ذي الجدّين في بني شيبان.

والبدوي في عُنجهيته وحبه للرئاسة لا يخضع لمساوٍ له، وانما يخضع لمن هو اقوى منه. وينبغي ان يتحلى الرئيس بصفات محمودة عندهم، لتحق له السيادة في قبيلتـه. وأجلّ هذه الصفات الغنى والكرم والحلم والشجاعـة والفصاحة. واذا قالوا: سيـدٌ معمّم، ارادوا ان كل جناية في العشيرة معصوبة برأسه. قال دُريد بن الصمّة:

عاري الاشاجع، مَعصوبٌ بلمّته
أمرُ الزعامـة، في عرنينه شَمَمُ[3]

على ان هذه الصفات يندر أن تجتمع كلها في سيد واحد، بل يندر ان

---

١ قال ابن خلدون: وهم متنافسون في الرئاسة، وقل ان يسلم احد منهم الأمر لغيره؛ ولو كان اباه او اخاه، او كبير عشيرته، الا في الاقل، وعلى كره من اجل الحياء، فيتعدد الحكام منهم والأمراء. المقدمة ص ٨٣.

٢ قال الاب لامنس: لا شيء يتبع نفس البدوي مثل هـذا التبدل المتوالي في الرؤساء، فانـه يقطع بـه تلك الوتيرة الواحدة التي تجري عليها الحياة في الصحراء. مهد الاسلام ص ٣٢٤.

٣ الأشاجع، مفردها اشجع: عروق ظاهر الكف، وعاري الاشاجع، اي قليل لحمها، وهو من الصفات المحمودة عندهم، تدل على القوة والصلابة.

يخلو الرؤساء من عيوب الرئاسة[1]

المرأة

تغلب صفرة اللون على النساء العربيات ، وتستحسن فيهن اذا كانت ضاربة الى البياض[2] ، ويوصفن بسواد الشعر والعينين ، واعتدال القامة ، ورقة الخصر وثقل الاوراك . والبدوي ينظر الى المرأة كأداة للذة والنسل يريد منها ان تلد له غلماناً ينافس بهم غيره من الناس . والمنافسة بكثرة البنين من عاداتهم لان الصبي يرجى للذود عن الحمى ، وإحياء الذِّكر ، وبه يتسلسل النسب . فكانوا يكرهون ولادة البنت ، وربما تشاءموا بها فوأدوها . وعُرف الوأد في قبائل العرب قاطبة ، بيد انه لم يكن شاملاً ، فاذا استعمله واحد تركه عشرة ؛ حتى جاء الاسلام فأبطله[3] .

---

١ روى الاصمعي عن ابي عمرو بن العلاء انه قال : «ما رأيت شيئاً يمنع من السؤدد الا قد رأيته في سيد . وجدنا الحداثة تمنع السؤدد ، وساد ابو جهل بن هشام وما طرّ شارباه ، ودخل دار الندوة وما استوت لحيته ؛ ووجدنا البخل يمنع السؤدد ، وكان ابو سفيان بخيلاً عاهراً ، وكان سيداً ؛ والظلم يمنع من السؤدد ، وكان كليب وائل ظالماً ، وكان سيد ربيعة ؛ والحمق يمنع السؤدد ، وكان عيينة بن حصن احمق ، وكان سيداً ؛ وقلة العدد تمنع السؤدد ، وكان شبل بن معبد سيداً ، ولم يكن بالبصرة من عشيرته رجلان ؛ والفقر يمنع السؤدد ، وكان عتبة بن ربيعة مملقاً ، وكان سيداً .

٢ قال امرؤ القيس :

كبكر المقاناة البياض بصفرةٍ غذاها نمير الماء غير محلل

٣ منهم من كان يئد البنت لفرط الغيرة ومخافة العار اذا سبيت او انتهكت حرمتها ، وهم بنو تميم وقبائل آخرون . ومنهم من كان يئدها اذا كانت زرقاء العينين او سوداء اللون او برشاء او كسحاء او عرجاء تشاؤماً بها . ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به ، ويقتلونهن ، وهم خزاعة وكنانة .

وكان يهمهم تزويج الحرة البيضاء ، لانها عرضة للسبي ، فاذا صارت في كنف زوج ، وضمها حماه كانت غلاً في عنقه. وقد تُخيّر في امر زواجها ، اذا كانت فطنة رشيدة ، كما خُيّرت الخنساء في دُريد بن الصمة .

والبدو يتزوجون صغاراً لطبيعة ارضهم ، ولرغبتهم في البنين . فالفتى يتزوج في الخامسة عشرة ، والفتاة في العاشرة . وكانوا يرغبون في زواج البعداء ليتألفوا أعداءهم بالمصاهرة ، ويكثروا الأحلاف ، وهم الى ذلك يعتقدون انه أنجب للولد وأبهى للخلقة ، ويجتنبون زواج الأهل والأقارب ، ويرونه مضراً بخَلق الولد ونجابته .

ويخطب الرجل الى الآخر ابنته ، فيصدقها ثم يُعقد له عليها . وله ان يعدد الزوجات مقدار طاقته ، إلاّ اذا اشترطت المرأة عدم التعدّد ، وتعاقدا عليه .

وكانوا لا يجمعون في الزواج بين الاختين ، ولا بين المرأة وابنتها ، ولكنهم استحلّوا زواج امرأة الأب ، فابطله الاسلام ، وسماه زواج المقت لأنه ممقوت .

وربما تزوج بعضهم نساء بعض في غاراتهم بلا عقد ، أو ذهبت المرأة الى عدة رجال ، فيأتي الولد لا يدري مَن أبوه ، فتلحقه امه بمن تريد من الرجال الذين عرفتهم ، ولا يرفضه الرجل اذا كان ذكراً ؛ او يلجأون الى القيافة ويلحقونه باقربهم اليه شبهاً .

ويفاخرون بالولد اذا كانت امه حرة بيضاء زاكية الأصل[1] ويسمونها

---

[1] قال الزوزني : ان وصف العرب بالبياض تلويح الى الاحرار الذين ولدتهم حرائر لم تعرف الاماء فيهن ، فتورثهم ألوانهن .

ام البنين ، ويفاخرون بالأخوال ، ويشبهون الأولاد بهم دلالة على النسب الحر ، اما الامة فتكون على الغالب سوداء ، ولا يُعترف بابنائها الا بعد ان تظهر نجابتهم ، كما اعترف شداد العبسي بعنترة ، وكما قال عمرو بن شأس في ولده عِرار :

وانّ عِراراً ، ان يكن غيرَ واضحٍ ،
فإني أُحِبُّ الجَونَ ، ذا المَنكِبِ العَمَمْ[1]

وللزوج عندهم حق الطلاق دون المرأة ، الا اذا اشترطته في عقد الزواج . ولا يحق للزوج ان يسترجع امرأته بعد تطليقها ثلاثاً ، ولكنه يسترجعها بعد تطليقها مرة او مرتين . واذا كانت المرأة في بيت من شعر ، وارادت الطلاق ، حوّلت بابه الى الجهة المقابلة ، فيعلم زوجها انها طلقته ، فلا يدخل الخباء ، شأن حاتم الطائي عندما طلقته زوجه ماويّة .

وإذا مات الزوج تربّصت سنة معتدّة[2] لا تخرج من بيتها ، ولا تمس ماء ، ولا تقلّم ظفراً ، حتى اذا استكملت عدتها خرجت بأقبح منظر واقذره . والعدّة للمرأة انتظار ليعلم فيها وجود الولد وعدمه .

ونساء العرب يصحبن رجالهن الى الحرب ، فيحضضنهم على الصبر في مواقف القتال ، ويمنعنهم ان يلوذوا بالفرار . ويداوين الجرحى ، ويحملن قِرَب الماء ، ويقتن الخيول ؛ قال عمرو بن كلثوم :

يقُتْنَ جيادَنا ، ويقُلْنَ : لستُمْ
بُعُولتَنا إذا لم تمنعونا

---

١ الواضح : الابيض . الجون : الاسود . العمم : الكامل التام .

٢ جعل الاسلام العدة اربعة اشهر وعشراً .

ولهن حق الجوار كما للرجال ، وعلى الرجل ان يحمي جار امرأته واخته وامه وجارته كما يحمي جاره .

وعُرف منهنّ غير واحدة بالشجاعة ، والفصاحة والشعر ، وحسن الرأي والحكمة والعرافة. على انهن مضعوفات في الجملة ، يحتقر الرجال مكانهن ، ويتشاءمون بولادتهن ، ويسيئون الظن باخلاقهن ، فينعتونهن بالكيد والمكر والخيانة والخداع .

غزواتهم

كان للعرب حروب كثيرة ، او هي غزوات غير منظمة ، يجعلون من ايامها مادة لفخرهم واخزاء اعدائهم. وكثيراً ما كانت تقع من اجل النهب والسلب ، او مزاحمة على الماء والكلأ ؛ ومنها ما كان يحدث لأسباب تافهة تعظمها عنجهية البدوي كحرب البسوس التي نشبت لمقتل ناقة ، وكان الدافع اليها الحفاظ على الجوار ؛ وحرب داحس والغبراء التي افضى اليها التنافس في الرهان بين سيدي القبيلتين . وقلما وقعت حرب لدفع عدو غريب كحرب ذي قار بين الفرس وبني بكر، وحروب اليمن والاحباش ، وانما كانت حروبهم في الغالب داخلية قبلية ، واذا خرجوا بها عن شبه جزيرتهم فإلى تخوم العراق والشام ليتقاتلوا في سبيل كسرى وقيصر .

وهذه الحروب ، على كثرتها ، لم تكن تفجع البدو بالعدد الجمّ من الضحايا ، لأن معظمها قائم على النهب والفرار بالغنيمة ، حتى ان حرب البسوس التي تعاود القتال فيها بنو بكر وبنو تغلب اربعين سنة لم يقتل بها سوى قليل من الرجال. فقد كان البدوي يتحامى القتل جهده ، لان تقاليدهم تقضي بأخذ الثأر او دفع الديات الثقيلة ؛ وربما لا تغسل الديات الأحقاد ، لما

في قبولها وترك الدم من غضاضة ، ثم لاعتقادهم انه اذا قُتل الرجل ، ولم يُدرَك بثأره ، خرج من رأسه طائر يشبه البوم يسمونه الهامة والصدى ، فلا يزال يصيح : اسقوني اسقوني ! حتى يقتل القاتل او احد اقاربه . قال دو الاصبع العدواني :

يا عمرو ، إلاّ تَدَعْ شتمي ومَنقصتي ،
أضرِبْكَ حتى تقولَ الهامـة : اسقوني !

فشريعة أخذ الثأر ، كما يسميها الأب لامنس[1] ، خففت حوادث القتل ، اذ جعلت الدم يدعو الدم ، وفرضت على الموتور ان يحرّم على نفسه احب الاشياء اليه كالنساء والخمر والعسل والطيب ، لا تحل له او يأخذ بثأره .

ولم تكن جيوشهم منظمة بل اشتاتاً يقودها سيد القبيلة ، ويقوم على رأس كل فصيلة قائد يقال له المَنكِب ، يأمر على خمسة عُرفاء . والعريف يأمر على نَفير[2] من الرجال . ومن عادة القبيلة ان تشترك كلها في الحرب للدفاع عن المال والنساء والاولاد ؛ والبدوي لا يصبر في القتال الا اذا خشي ان يستولي العدو على اهله وماله وولده . اما اذا غزا فانما هو يطلب الغنيمة ، فان فاتته طلب الهرب ، ولذلك كان الفر في حروبهم ملازماً للكر ، وقلما عرفوا قتال الزحف والثبات . ولا يستحي اشد فرسانهم بطشاً ان يحدثنا عن فراره ؛ قال عمرو بن معدي كرب :

---

١ الاب لامنس : الثأر عند العرب ، المشرق ٢ – ٣٥ – ١٩٣٥ .

٢ النفير : من الثلاثة الى العشرة .

ولقد أجمعُ رجليَّ بها ،
حذَرَ الموت ، وإني لفرُورُ[1]

وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والمِجَنّ ، ويلبس فرسانهم الدروع والمغافر. وكانوا يرفعون الرايات ، وربما اتخذوها من عمائم ساداتهم ، ويتغنون بالشعر ويرتجزون محمّسين انفسهم ؛ فاذا تم لهم النصر ، عادوا بالاسلاب والسبايا فاقتسموها أنصبة ؛ واما الاسرى فمصيرهم الى القتل او يقدموا الفداء ، ولا يطلقونهم الا بعد ان يجزُّوا نواصيهم ، فتُحفظ في كنائنهم لايام المفاخرات . قال الحطيئة :

قد ناضلوك ، فسلّوا من كنائنهم ،
مجداً تليداً ، ونَبلاً غيرَ أنكاسِ

معايشهم

كان عرب البادية يعتمدون في عيشتهم على رعاية الابل ، ثم على الغزو والصيد وحراسة القوافل . واما اهل الحواضر فان وسائل الرزق اتسعت عليهم ، وعرفوا اركان العمران الثلاثة : التجارة والزراعة والصناعة . وكانت اليمن في مقدمة البلاد العربية تحضراً وخصباً ، فانبسطت تجارتها ، ونمت زراعتها ، وتوافرت لها الصنائع ولاسيما الوشي والحياكة . وعرب الشمال على بداوتهم وخشونة عيشهم لم يحرموا التجارة في حواضرهم ، فقد كانت مكة ، في توسطها الطبيعي ومقامها الديني ، محطة لقوافل اليمن والشام ، وسوقاً رائجة تُعرض فيها بضائع التجار . واشتهر اهلها القرشيون برحلاتهم

---

[1] اجمع رجلي بها : اي بفرسي اضمها عليها .

التجارية ، فكانت لهم في السنة رحلتان : رحلة الصيف ، ورحلة الشتاء . وكذلك اهل يثرب عرفوا بالتجارة ولاسيا اليهود .

وهناك اسواق كانت تقام في اوقات معلومة للبيع والشراء ، وأعظمها سوق عكاظ . وكان عرب الحيرة يتّجرون مع الفرس ، ويتولون حماية قوافلهم في عرض القفار .

وكذلك كان للزراعة شأن في بعض الحواضر الشمالية كالطائف ويثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء . اما الصناعة فان الاعراب كانوا يحتقرونها ويعيّرون صاحبها ، فهم ابعد الناس عنها كما يقول ابن خلدون ، ومع ذلك ألمّوا بأشياء كالحدادة والنجارة والخياطة والصياغة ، وكانت في القرى المعمورة ، كمكة ويثرب والطائف .

وعلى الجملة فعرب الشمال لم يبلغوا شأو عرب الجنوب في الحضارة والأخذ بأسباب العمران ، فصرفوا همهم الى الغزو ينهبون الاموال ، ويسبون النساء والاولاد ، فيسترقّونهم او يبيعونهم في اسواق النخاسة ، والى رعاية الابل وحسن القيام على تربيتها ، لأنها تقضي جميع حاجاتهم : تحملهم وتحمل اثقالهم ، وتغذيهم بلحمها ولبنها ، وتكسوهم وتبني بيوتهم بأوبارها ؛ وبها يفتدون اسراهم ، وعليها يقايضون في المبايعات ، ومنها يؤدون المهور والديات والغرامات .

اديانهم

وكانوا في جاهليتهم على اديان مختلفة ، ومذاهب متعددة ، يؤلهون الاصنام والكواكب ، ويعبدون الله ، ويخلطون المذاهب بعضها ببعض ،

مازجين التوحيد بالشرك ، والعقائد السماوية بالعقائد الوثنية. وهم الى ذلك ليسوا على دين ثابت ، او عقيدة مكينة، شأنهم في حياتهم المتنقلة المضطربة.

وكان اليونان والرومان قد حملوا آلهتهم الى بادية الشام ، فأخذت العرب عنهم عبادة الأصنام ، واخذت المجوسية عن الفرس ، واليهودية عن الذين هاجروا من بني اسرائيل هاربين من وجه الاشوريين ، ثم من وجه الرومان بعد خراب الهيكل في السنة السبعين . واخذوا النصرانية عن الرسل الذين دخلوا مبشرين بالمسيح ، ثم عن اهل الشام زمن البيزنطيين ، ثم عن الحبش في غاراتهم على اليمن واستقرارهم فيها .

وكانت الوثنية في القبائل اعم واكبر انتشاراً ، والاصنام منصوبة في كل ناحية من نواحي الجزيرة ، ولاسيا الكعبة . وتزعم الرواية العربية ان اول من دعا العرب الى عبادة الأصنام عمرو بن لحي[1]، وكانوا على بقية من دين اسماعيل ، وأفسد عقائدهم .

والطواغيت الكبار ثلاثة : اللات والعُزّى ومَناة . وكل واحد منها

---

[1] روى ابن الكلبي في كتاب الأصنام ان عمرو بن لحي كان له رئي من الجن ، فقال له : ايت ضفّ جُدّة ، تجد أصناماً مُعدّة ، فأوردها تهامة ، ثم ادع العرب الى عبادتها . فأتى شط جدة ، فاستثار خمسة اصنام ، ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج ، فدعا العرب الى عبادتها فأجابوه . وهذه الاصنام هي ود ، وكان على صورة رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، عليه حلتان ، مؤتزر بحلة ، ومرتدٍ باخرى ، وعليه سيف قد تقلده ، وتنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، وجعبة فيها نبْل. وسواع، وكان على صورة امرأة ، ويغوث ، وكان على صورة اسد ، ويعوق ، وكان على صورة فرس ، ونسر ، وكان على صورة نسر .

لمصر من أمصار العرب ، فاللات[1] لأهل الطائف ، والعزى[2] لأهل مكة ، ومناة[3] لأهل المدينة. وكانت العرب تعظم هذه الربات ، وتقصدها من كل صوب ، وتجعل لها السدنة كما تجعلهم للبيت الحرام.

وأما أصنام الكعبة فكثيرة منتشرة حولها وفي جوفها ، واعظمها هُبَل[4] وكانوا يستقسمون عنده بالقداح[5] ، ويستخيرونه في شتى أمورهم وأعمالهم ، ولعله إله الحظ عندهم .

---

١ اللات : تحريف الالـهة ، وكان بيتها في الطائف ، وسدنتها من ثقيف ، تزعم اسطورتها انه كان رجل يلتّ السويق للحجاج ، فلما مات عكفوا على قبره مدة ، ثم اتخذوا تمثاله ، ثم بنوا عليه بنية مربعة ، وسموها بنت الربة .

٢ العُزّى : بيتها في بطن نخلة قرب مكة ، وكان سدنتها بنو شيبان وهم بطن من سُليم حلفاء بني هاشم . ومن الاساطير التي تروى عنها انه كان بالقرب منها شجرة يذبح عندها ، فأزالها خالد بن الوليد ، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها ، فضربها بالسيف ، ففلق رأسها ، فاذا هي حُممة ، اي فحم ورماد .

٣ مناة : هي اقدم الطواغيت الثلاثة ، وتأتي بعدها اللات ثم العزى . وكانت منصوبة على ساحل البحر بين مكة والمدينة ، تعظمها الاوس والخزرج ، وتسدنها هُذيل وخُزاعة .

٤ هبل : صنم من عقيق احمر على صورة الانسان ، مكسور اليد اليمنى ، ادركته قريش كذلك ، فجعلوا له يداً من ذهب .

٥ كانت قداح الاستقسام والاستخارة توضع عند سدنة الأصنام ، منها اثنان كتب في احدهما « صريح » وفي الآخر « ملصق » ، فاذا شكوا في مولود اهدوا الى هبل هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فان خرج صريح استلحقوه ، وان خرج ملصق دفعوه . ومنها ثلاثة كتب في احدها « امرني ربي » وفي الثاني « نهاني ربي » وترك الثالث غفلاً . فاذا ارادوا امراً اجالوا هذه القداح في خريطة ، ثم اخرجوا واحداً منها ، فان كان الآمر مضوا في شأنهم ؛ وان كان الناهي عدلوا عنه ؛ وان كان الغفل اعادوا الاستخارة حتى يخرج احد المكتوبين .

والكعبة مزار لأكثر القبائل ، يحجونها ، ويعتمرون اليها ، ويُحرِمون عندها ، ويطوفون حولها سبعاً ، ويلثمون حجرها الأسود ، ويكسونها الحلل والديباج ، ويهدون اليها الهدي ، وينحرونه متقربين ، ويريقون دمه على اوثانها ، ويسعون بين الصفا والمروة ، ويرمون الجمار في مِنى. وكانت السيادة لقريش دون غيرهم ، فهم سَدنة البيت ورفَدته وسقاته .

وفي العرب طائفة من عبَدة الكواكب كحمير قبل ان يتهودوا ، وكانوا يعبدون الشمس . وعبدت طائفة من تميم الدَّبَران[1] ، وعبد بعض قبائل لَخْم وجُذام وقريش الشعرى العبور[2] .

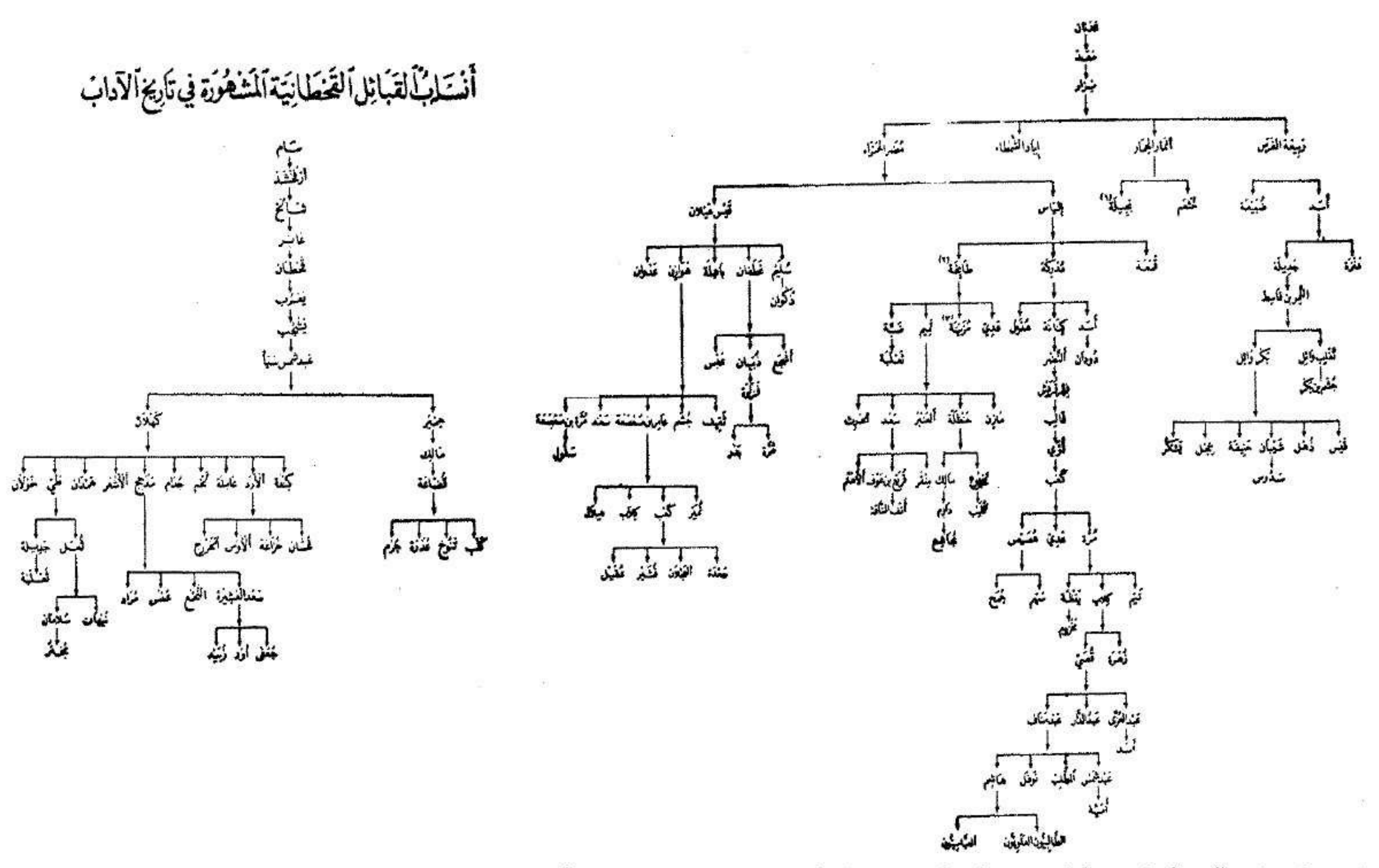
ومنهم من عبد النار ، او قال بالثنوية ، او بالدهرية. ومنهم من احلّ زواج الأب بابنته . وهذه العقائد سرت اليهم من الفرس والمجوس وما عندهم من معتقدات مزدكيّة ومانويّة . قيل ان المجوسية كانت في تميم ، وقد تزوج حاجب بن زُرارة ابنته مخالفاً سنَّة العرب ، متبعاً سنَّة مزدك. وقيل ان الزندقة في قريش ، ولعلها المانوية التي تقول بإله النور وإله الظلام ، أو لعلها الدهرية التي تنكر الخالق والآخرة .

على ان العرب ، مع اشراكهم وتعدّد معبوداتهم ، كانوا يميلون في جملتهم الى التوحيد ، ويتقربون الى الله بعبادة الاصنام والكواكب كأنهم يجعلونها ذرائع للوصول اليه . ولا ريب ان اليهودية والنصرانية كان لهما يد فعالة في توجيه الفكر العربي الى الوحدانية .

---

١ الدبران : منزل القمر ، مشتمل على خمسة كواكب في برج الثور .
٢ الشعرى العبور : الكوكب الذي يطلع في الجوزاء .

أنساب القبائل العدنانية المشهورة في تاريخ الآداب



(١) يرد بعض النسابة بجيلة وخثعم على القحطانية ويجعلونهم في أنمار بن كهلان على أنه كثيرهم ينكر ذلك ويردهم إلى أنمار بن نزار (٢) هؤلاء الثلاثة أمهم خندف وهي ليلى بنت حلوان وجميع ولد الياس بن مضر ينسبون إلى خندف (٣) نسبوا إلى أمهم مزينة بنت كلب بن وبرة

وكانت اليهودية في يثرب وفَدَك ووادي القُرى وخيبر وتَيماء واليمن ؛ فمنها قبائل عبرانيـة استعربت كالنضير وقريظة وقُيْنُقاع ؛ ومنها قبائـل عربية تهوّدت او تهوّد بعضها كحمير وكِندة وكِنانة والحارث بن كعب .

وكانت النصرانيـة في حوران وبادية الشام وبـين النهرين والعراق والبحرين وعُمَان واليمن ومكة والطائف . وانتشرت في قبائـل ربيعة وكندة وقضاعة وجُذام وغسان وتميم. وكانت كعبة نجران مزاراً للمتنصرة وحرماً كمكة لا يحـلّ انتهاكه . ولكن النصرانية التي شاعت في قبائـل العرب لم تكن صافية خالصة ، لأنهم اخذوهـا ، في الغالب ، عن المبتدعة المارقـين ، فمنهم النساطرة القائلون باقنومين في المسيح ، وهم نصـارى حوران وبادية الشام وبين النهرين واليمن ؛ ومنهم المريميّون ، وهم الذين يؤلهون مريم العذراء، وقد ورد ذكرهم في القرآن ؛ ومنهم الحنيفية ، ومذهبهم خليط من النصرانية واليهودية ، وكان منهم أميّة بن أبي الصَّلت وزيد بن عمرو بن نُفيل .

عقائدهم

كانت العرب تؤمن بوجود الجن والعفاريت ، وبمخالطتها للانس في السكنى والاستهواء والمؤاكلة والزواج . ولهم فيها شعر واخبار كثيرة . ويؤمنون بزجر الطائر ، يتفاءلون بـه اذا سنح ، ويتشاءمون اذا برح ؛ وبالكهانة والعرافة والهامـة ؛ ويعوّذون اطفالهم بسن ثعلب وسن هرّة خوفاً من الخطفة والنظرة ، ويتعوذون من الجن بالادعية وسواها . ويتطيرون من الغراب كما قال النابغة :

زعمَ العواذلُ انَّ فُرقتنا غــداً ،
وبـذاك خَبّرنا الغرابُ الاسـودِ

ولهم غير ذلك عقائد كثيرة سيمر شيء منها في دراستنا لاشعارهم .

علومهم

لم يكن للعرب في بداوتهم من العلوم الا بعض المام بما يحتاجون اليـه في حياتهم الفطرية ، فقد عرفوا شيئاً من الطب والبيطرة ، وكانوا يداوون مرضاهم بالعقاقير والكي والحجامة والاشربة ، وخصوصاً العسل ، عـلاج وجع البطن عندهم . وربمـــا استعملوا السحر والرُّقى والتعاويذ لابراء الملسوع واخراج الجن والشياطـين . واطباؤهم ، في الاغلب ، الكهـان والعرافون ، وقـلَّ من كانت له معرفة صحيحة بهذا الفن كالحـارث بن كلَدة الثقَفي[1] .

وعرفوا شيئاً من علم النجوم ومهابّ الرياح بكثرة تتبُّعها والنظر اليها ، لانهم كانوا يهتدون بها في اسفارهم ، ويستدلّون على سقوط الغيث .

وكانت لهم معرفـة بالانساب والايام والاخبــار والاساطير ؛ وبالقيافة ، وهي الاستدلال بهيئة الانسان واعضائه على نسبه ، والاستدلال بآثار الاقـدام على اصحابها ؛ وبالكهانة ، وهي معرفـة الامور المستقبلة وتعبير الرؤى والاحلام ؛ وبالعرافة ، وهي مختصة بالامور الماضية. وأشهر

تعلم الطب في بلاد الفرس واليمن ، وكان يقيم في الطائف ، توفي في السنة الثالثة عشرة للهجرة .

الكهان عندهم شِقّ وسطيح[1] وهما من اهل الاساطير . واشهر العرافين عراف نجد وعراف اليمامة .

وكان عرب اليمن والحواضر المتاخمة اوسع علماً وحضارة من عرب البادية لاتصالهم بالفرس والروم والسريان .

مراجع

المسعودي : مروج الذهب

ياقوت : معجم البلدان

ابن الكلبي : كتاب الاصنام

ابن خلدون : المقدمة

ابن خلدون : كتاب العبر

الاب شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

نكلسون : تاريخ الادب العربي (الترجمة العربية لحسن حبشي في مجلة الرسالة المصرية)

الالوسي : بلوغ الارب

جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية

نوفل الطرابلسي : صناجة الطرب

احمد امين : فجر الاسلام

Henri Lammens, le Berceau de l'Islam.

---

[1] زعموا ان شقاً وسطيحاً كانا من ابناء الخالات ، قريبين من ظهور الاسلام . وكان شق نصف انسان من اعلى الى اسفل ، وسطيح جسداً ملقى لا جوارح له ، يُدرج كالثوب ، ووجهه في صدره ، وليس له رأس ولا عنق ، ولا يقدر على الجلوس ، الا اذا غضب ، فانه ينتفخ ويجلس . وكانت ولادتهما في يوم واحد وقيل انهما عاشا ستمائة سنة ، وقيل ان سطيحاً عاش سبعمائة سنة ومات في زمن كسرى انوشروان .

لغة العرب وادبهم

العربية

العربية هي إحدى اللغات المشتقة من الأصل السامي ، وبينها وبين شقيقاتها مشابهات كثيرة . وكانت في العصر الجاهلي منقسمة على لسانين : الحِميري في الجنوب ، والعدناني في الشمال ، وكلاهما يغاير الآخر في اوضاعه واحكامه ، وان تشابها في كثير من الألفاظ والتراكيب . وكان عمرو بن العلاء يقول : «ما لسان حِمير واقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا .» وقال ابن خلدون في مقدمته : «ولغة حمير لغة اخرى مغايرة للغة مضر في كثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها .» ويرى المستشرق نكلسون ان الحروف الهجائية في لغة الجنوب اقرب الى الحبشية منها الى لغة اهل الشمال .

واللسان العدناني هو الذي نستعمله اليوم في الكتابة ، على ما لحقه من تحضّر وتبدّل ، وبه جاء الأدب الجاهلي ، ولم يأتنا أدب بلسان حِمير ، لأن لغة الجنوب فقدت سيادتها بعد كساد التجارة هناك ، وسيل العَرِم في مأرب ، وتشتت اهلها وهجرتهم الى الشمال ؛ ثم افضى بها الى الضعف غزوات الحبش والفرس ونزولهم في اليمن .

وكان اللسان العدناني متعدّد اللهجات بتعدّد القبائل التي تنطق به ، ولكنه لم يختلف في احكام التركيب والتصريف والاشتقاق بل اقتصر في

تغاير لهجاته على طائفة من الأوضاع تخالفت القبائل في استعمالها ، وعلى انحرافات لفظية من قلب وابدال وزيادات[1] .

وكانت مكة ، بما لها من تأثير ديني وتجاري ، مجتمعاً للقبائل العربية ، على اختلاف لغاتها ، يحضرون المواسم ، ويحجون البيت ، ويتقارضون الشعر. وكانت تقام الاسواق في عكاظ وغيرها ، فيؤمها الناس من كل صوب ، يبيعون ويشترون ، حتى اذا انتهوا من متاجرهم ، انصرفوا الى اللهو والطرب ، فينشد شعراؤهم على مسمع من الجماهير المحتشدة ، ويتناظرون ويتفاخرون.

فهذه المجامع ، بما لها من صبغة ادبية على حالتيها الدينية والتجارية ، مشت محمودة الخطى الى توحيد لسان عدنان ، فصار الشعراء والخطباء يختارون الألفاظ التي يألفها القبائل على اختلاف لهجاتهم ، ويهملون مستقبح الكلمات والانحرافات ، فنشأت عن ذلك لغة ادبية مهذبة عُرفت بلغة قريش ، لما لتلك القبيلة من نفوذ ديني واقتصادي في مكة وعكاظ ، واقتصر انحراف اللهجات او كاد يقتصر على لغة التخاطب . وامتد سلطان الأدب

---

[1] يظهر اختلاف اللهجات العدنانية في المترادفات الكثيرة للمعنى الواحد ، كأسماء السيف والرمح والخمر والداهية ؛ وفي اللفظ الواحد الذي يدل على معانٍ مختلفة، كاليد والخال والعين والعجوز ؛ وفي الالفاظ المتضادة كالجون للابيض والاسود ، وكالرائحة الذفرة للطيبة والمنتنة . واما الانحرافات اللفظية فكثيرة، منها القلب كقولهم: جذب وجبذ، وشاكي السلاح وشائك السلاح ؛ ومنها الابدال ، ويكون في اقامة بعض الحروف مقام بعض ، كقولهم : قصيت اظفاري بدلاً من قصصت . والايم والاين للحية . وكابدال الياء جيماً في الاضافة والنسب، كقولهم: علامج وبصرج، بدلاً من علامي وبصري؛ وكالعنعنة في لغة قيس وتميم يجعلون الهمزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون : عنك بدلاً من انك . ومنها الزيادات ، وهي في جملتها مكروهة ، كالكشكشة في ربيعة ومضر ، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً ، فيقولون: عليكش ورأيتكش . وللسيوطي في مزهره ابحاث مستفيضة في هذه الاشياء .

الى الجنوب لاختلاط القبائل بعضها ببعض في مهاجراتها واسفارها وشهودها المواسم؛ ثم لسيادة لسان عدنان بعد ضعف لسان حمير؛ ولذلك استطاعت وفود اليمن ان تفهم القرآن، وتجادل النبي فيه. ونزول القرآن بلغة قريش وطّد سلطانها، وجعل كل لهجة تغايرها تنهزم امامها.

ولسان العرب في جاهليتهم يمثل حالتهم الفطرية اصدق تمثيل بما له من ثروة متسعة في الألفاظ الدالة على حياة البداوة، وحدود مرافقها المادية، وبما به من فقر الى اوضاع تعبر عن الشؤون الحضرية المتنوعة، وفوارق الحالات النفسية الدقيقة، ومختلف العلوم والآداب والفنون.

ومع ان العرب اختلطوا في أسفارهم بالامم المتحضرة، وشاهدوا عن كثب اسباب عمرانها، لم يتأثروا بها تأثراً بليغاً، لأنهم لم يطلبوا العلم عندها لما هم عليه من الأمية والبداوة، بل اجتزأوا بالبيع والشراء، فكان ما اخذوه من الالفاظ العجمية وعرّبوه ليسدّوا به ثلمة لغتهم، قليلا جداً بالاضافة الى كثرة حاجاتها.

والألفاظ الدخيلة على اللغة أخذت في الغالب من الفارسية والرومية والهندية، وأكثرها يختص بالأدوات والمنسوجات والشجر والعقاقير، جاءت بها قوافل التجار وأصحاب الرحلات؛ ومن العبرانية والسريانية والحبشية، ولا سيما الالفاظ التي لها علاقة بالدين، ادخلها اليهود والنصارى الذين خالطوا العرب في الحجاز واليمن وامصار الشام والعراق.

وطبيعي ان تكون لغة العرب المتحضرة في اليمن وعمان والبحرين والحيرة والشام اكثر اتساعاً لمعاني الاجتماع والعمران من لغة اهل الوبر في الشمال، غير انها لم تصل الينا في جملتها، لأن الذين جمعوا اللغة من

المسلمين ، اهل البصرة والكوفة ، نبذوا كل لغة تخالف لغة القرآن ، واقتصروا على اللسان المضري ، ينقلون ألفاظه وتراكيبه عن قبائل مضرية خالصة البداوة ، ما جاورت الأعاجم ولا خالطتهم ، كتميم وقيس وأسد وكِنانة وهُذيل . ولم ينقلوا عن سكان الحواضر ، ولا عن سكان البراري المجاورة للامم الغريبة ، فحرموا اللغة اوضاعاً كثيرة تفتقر اليها ، ولم يخلص الينا من الألفاظ الدخيلة الا ما تكلمت به هذه القبائل ، او جرى على ألسنة الشعراء ، او اثبته القرآن[1] .

---

[1] قال ابن خلدون : « كانت لغة قريش افصح اللغات العربية واصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ؛ ثم من اكتنفهم من ثقيف وهُذيل وخُزاعة وبني كنانة وغطفان وبني اسد وبني تميم . واما من بَعُـد من ربيعة ولخم وجذام وغسان واياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاعاجم ، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد . » المقدمة . ص ٤٨٧ .
وقال السيوطي : « والذين عنهم نقلت اللغة العربية ، وبهم اقتدي ، وعنهم أخذ اللسان العربي ، من بين قبائل العرب ، هم قيس وتميم واسد . هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الاعراب والتصريف ؛ ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ؛ ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة ، فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم ؛ فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم اهل مصر والقبط ؛ ولا من قضاعة وغسان واياد ، لمجاورتهم اهل الشام ، واكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية (يعني الآرامية) ؛ ولا من تغلب ، فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ؛ ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ؛ ولا من عبد القيس وازد عُمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من اهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف واهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ؛ ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم ، وفسدت ألسنتهم . » المزهر . ج ١ . ص ١٢٨ .

واللغة الجاهلية قوية التعبير، لا تخلو من خشونة البداوة وغرابة اللفظ، كثيرة الايجاز، حافلة بضروب الكناية والمجاز، تسلس للشعر والوصف والاندفاعات الخطابية، ولا تلين للعلوم والآداب والفنون.

الكتابة

غلبت الأميـة على العرب في جاهليتهم، ولا سيما عرب البادية، لأن حياتهم الفطرية في حدودها السياسية والاجتماعية لم تتسع لصناعة الكتابة التي انما تنشأ بنشوء الجماعة المنظمة، وتنمو بنمو القوى المفكرة، وتعظم بعظم الحاجة اليها. بيد ان سكان الحواضر من اهل اليمن اصطنعوا الكتابة لما هم عليه من تقدم العمران، ويُعرف خطهم بالمُسنَد الحميري؛ حروفه منفصلة، وفيه شبه بالكتابة الحبشية، ومنه تفرع الخط الكوفي. وترك اليانون من آثارهم نقوشاً حجرية يرجع ابعدها عهداً الى المائة الثامنة قبل المسيح[1]، كشف عنها المنقبون الاوربيون من انكليز والمان وفرنسيين في النصف الاول من القرن التاسع عشر، وجُعلت اساساً للبحث التاريخي في مدنيتي سبأ وحِمير.

ولم يحرم عرب الشمال فن الكتابة على شيوع الامية فيهم. فان النصارى في العراق والجزيرة علّموا جيرانهم الخط المعروف بالجَزم[2]، وله صلة بالآرامي النبطي، فكانت الكتابة العربية في الأنبار والحيرة وما جاورهما. وكذلك

---

١ نكلسون : تاريخ الأدب العربي . الترجمة العربيـة لحسن حبشي في مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ص ١٨٨١ .

٢ سمّى العرب خطهم بالجزم لانـه جُزم من الآرامي النبطي ، اي اقتطع ، لا كما توهم مؤرخو العرب انه جُزم من المسند .

النصارى الانباط في فلسطين الثالثة[1] علّموا من جاورهم من عرب الشام الخط النسخي الجليل المتفرع من الجزم . وتعلّم بعض القرشيين خط الجزم من نصارى الحيرة في رحلاتهم التجارية الى العراق ، فحملوه الى مكة ، فظهرت فيهم الكتابة قبل الاسلام ، وظهرت ايضاً في يثرب والفضل في ظهورها لليهود.

ولبثت الكتابة قاصرة في الجاهلية لا يتعلمها من العرب الا افراد من اهل الحواضر ، واذا تعلموها لا يبلغون فيها حد الاحكام والاتقان ، ولا يستعملونها الا في شؤونهم الاقتصادية . ولم يخلّف الشماليون نقوشاً حجرية بلغتهم العدنانية الخالصة ، كما خلّف الجنوبيون بلغتهم القحطانيـة ، إلاّ ما كان من الآثار التي وجدت في حوران ، مكتوبة بلغة نبطية تغاير احكام اللسان العربي في كثير من ألفاظها وتراكيبها[2] .

---

[1] في القرن الرابع للمسيح قسمت نواحي عـبر الاردن والسّاْط والبلقاء والنبط والكرك ولايتين : فلسطين الثانية ، وحاصرتها بيسان ؛ وفلسطين الثالثة ، وحاصرتها سلع وهي بلاد النبط ، وتعرف بالعربية الصحرية . والانباط قوم خليط من الآراميين والعرب ظهروا في القرن الخامس قبل الميـلاد ، وقامت لهم دولة مستقلة في القرن الثـاني ، حتى تغلب عليهم الرومان في اوائل المائة الثانية للمسيح ، فجعلوا بلادهم في جملة ولاياتهم .

[2] ذكر جرجي زيدان انه عثر في اطلال النمارة بحوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطي نقشت على قبر امرىء القيس بن عمرو ملك الحيرة سنة ٢٢٣ لدخول بُصرى عاصمة حوران في حوزة الرومان ، اي سنة ٣٢٨ للميلاد ، جاء في اولها :

تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج .

وتفسيرها : هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي لبس التاج . تاريخ آداب اللغة العربية . ج ١ ص ٢٦ .

وذكر الاب لويس شيخو انه وجد اثر في حرّان من اعمال حوران مكتوب باليونانية والعربية ، تاريخه سنة ٤٦٣ لبصرى ، اي سنة ٥٦٨ للمسيح ، جاء فيه ان هناك مشهداً للقديس يوحنا المعمدان ، وهذا اوله بالعربية المتنبطة :

انا شرحبل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنة ٤٦٣ ، وتفسيره : انا شرحبيل بن ظالم بنيت ذا المرطول . والمرطول معرب اللفظ اليوناني (Martyrium) ، اي مشهد .

وبقي العرب لأول الاسلام لا يجيدون الكتابة ، ولا يسلمون من الغلط في الاملاء كما تدل المصاحف التي رسمها الصحابة بخطوطهم[1] حتى نزلوا الكوفة والبصرة ، واحتاجت الدولة الى الكتابة ، فعنوا باتقانها ، وكتبوا بالخطين النسخي والكوفي. ثم ترقت الخطوط بعد الفتوح الكثيرة ، وتشعبت فروعها في بغداد وافريقية والاندلس الى ان بلغت حالتها الحاضرة .

الأدب

كان الأدب الجاهلي شفهياً يحفظ في الذاكرة لا في الأوراق. والشعوب الفطرية أحدّ ذاكرة من الشعوب المتحضرة التي شاعت الكتابة عندها ، لأن الشعب الذي لا يملك الكتابة ليعتمد عليها في حفظ آثاره ، يضطر الى استخدام ذاكرته للحفظ ، فتقوى بالاستعمال ، ويسهل عليها اختزان مختلف الآثار . وتكثر الرواة في العصور الشفهية ، فتقوم مقام الكتب والدفاتر .

وكان لكل شاعر في الجاهلية راوية يحفظ شعره ، ويروّيه الناس. وربما روى الشعراء بعضهم لبعض، فقد كان زهير راوية لأوس بن حجَر، والحطيئة راوية لزهير . وقد تشتهر قصيدة لشاعر فترويها قبيلته كما اشتهرت معلقة عمرو بن كلثوم ، فكانت بنو تغلب تعظمها ، ويرويها كبارها وصغارها.

وبطريق الرواية دُوّن الأدب الجاهلي في الاسلام بعد شيوع الكتابة ، ولكنه لم يصل سالماً ، فقد ضاع منه شيء كثير لم ينقله الرواة ، او ضاعت روايته فلم تبلغ الينا[2] . ودخل عليه نحل مما وضعته العشائر والرواة والعلماء

---

[1] ابن خلدون : المقدمة . ص ٣٥٠ .

[2] قال عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافراً ، لجاءكم علم وشعر كثير . » ابن سلام : طبقات الشعراء ص ١٧ .

في الاسلام لأسباب : منها المنافسات القبلية[1]، ومنافسات الرواة في الحفظ، وحرصهم على التكسب والحظوة بـه . حتى انهم وضعوا اشعاراً على آدم وابليس والملائكة والجن ؛ وعلى عـاد وثمود والعمالقة . ومنهـا منافسات علماء البصرة والكوفة في ايراد الشواهد الشعرية لتفسير الالفاظ التي اشكل فهمها ، وتخريج المسائل اللغوية والنحوية .

على ان هذا النحل لا يجعل سبيلًا لتعميم الشك في الشعر الجاهلي، ولا سيما القصائد التي اجمع الأدباء العباسيون على روايتهـا ، ولم يختلفوا في نسبتها الى اصحابها . وكثير من الشعر المنحول اشار اليه النقاد الأقدمون كابن سلام والاصفهاني ، وكذبوا رواته . واما ما جاء بـه العلماء من الشواهد الشعرية ، فاذا كان في بعضه من اصطناع فانما هو مقتصر على ابيات متفرقة لا يتعداها الى القصائد .

والأدب الجاهـلي في معظمه قائم على الشعر ، لأن اكـثر ما جاءنا من النثر مشكوك فيه . حتى لو صحت الخطب التي خلصت الينا، لما رأينا فيها مادة كافية للدرس ، وهكذا يصح القول في الامثال وسجع الكهان .

والانسان الفطري ، في صفاء نفسه وفيض شعوره وصدق مخيلته ، شاعر بالطبـع ، ولذلك كانت لغة النثر في الشعوب القديمة محاكية لغـة الشعر في مجازها وخيالها وموسيقى ألفاظها . والأدب العربي في طفولته لا يخرج عن

---

[1] قال ابن سلام : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر ايامهـا ووقائعها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم . وكان قوم قلّت وقائعهم واشعارهم ، وارادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الاشعار . » طبقات الشعراء ص ٢٣ .

هذه السنّة الطبيعية ، فلغة النثر كلغة الشعر تكاد لا تختلف الا بالاوزان والقوافي . والشعر في اول امره لم يكن إلا اشطراً لا ضابط لها ، يرتبها البدوي على هواه ويتغنى بها ويحدو ابله ؛ والانسان من طبعه ان يميل الى الغناء في حزنه وسروره ، في خوفه وامنه ، في راحته وتعبه . ولعل السجع الذي كان ينطق به كاهن القبيلة وشاعرها ، هو المظهر الفني الأول للأدب العربي ، بل هو المادة المشتركة بين الشعر والنثر . ثم اخذ الشعر ينفرد بأوزانه وقوافيه ، فظهر اولاً بحر الرجز ألين البحور وادناها الى السجع في حال تطوره ؛ ثم تفرعت البحور وتنوعت ، فما تلألأت النهضة بالمهلهل وامرىء القيس إلا كان للشعر اوزان مستقلة، واصبحت القصيدة تُنظم على بحر واحد لا تحيد عنه مهما تطل ابياتها[1] .

واما بدء النهضة فما يمكن الرجوع به الى تاريخ معروف لضياع الآثار التي وجدت قبل الشطر الأخير من القرن الخامس . ولكن الرواة يتفقون على ان عهد المهلهل وامرىء القيس هو عهد ازدهار الشعر ، وظهور القصائد الطويلة ، واستقرار الاسلوب التقليدي . ويعود المؤرخون من اهل عصرنا بالنهضة الى الحروب التي حدثت ، فيرى المستشرق نكلسون ان فجر العصر الذهبي للشعر هو السنوات العشر الأولى من القرن السادس ، بعد اشتداد حرب البسوس ، واهتمام الشعراء بذكر ايامها[2] ! ويعود جرجي زيدان الى ابعد من ذلك ، الى استقلال عرب الحجاز عن اليمن في اواخر القرن الخامس

---

١ هذا لا يمنع وجود بعض قصائد تختلف في وزنها ، كقصيدة المرقش : هل بالديار ان تجيب صمم ، كما لا يمنع ان يظل بين عامة الاعراب من لا يفرق بين الشعر والنثر .

٢ نكلسون : تاريخ العرب الادبي ، ترجمة محمد حبشي ، الرسالة ١٩١ سنة ١٩٣٧ .

وما تلاه من حروب وغزوات كحرب البسوس، وحرب داحس والغبراء، وعام الفيل ، وحرب الفجار[1] .

ولا ريب ان الحروب لها أثر بليغ في اذكاء القرائح ، وعلى الأخص بعد انطفاء جذوتها ، وسكون النفوس المضطربة ، اذ لا يأتي عمل فني محكم ، والنفس جائشة لا قرار لها. فاذا اطمأنت الخواطر ظهر الشعر فخراً ومنافسة ووصفاً للمعارك يتغنى به المنتصرون ، وندباً ورثاء للسادة المقتولين ، وحضاً على الاخذ بالثأر ، تنوح به النادبات ويترنم الموتورون .

وكانت حروب العرب كثيرة ، واشدُّها دفعاً لقول الشعر أعظمها وقعاً في القبائل، كالحروب التي ذكرها زيدان وجعلها من اسباب النهضة ؛ وكذلك مقتل عمرو بن هند وما اعقب من وقائع بين تغلب والمناذرة ؛ ومقتل النعمان بن المنذر وما كان بعده من حرب ذي قار بين الفرس والعرب ، ثم حروب الأوس والخزرج . فهذه المعارك ، على اختلاف القبائل التي صلّت نارها ، اورثتنا شعراً غزيراً كان خير مستند لدرس الحياة البدوية قبل الاسلام . وذكر ابن سلام تأثير الحروب في نظم الشعر فقال : « والذي قلل شعر قريش انهم لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا »[2].

على ان اسباب النهضة لم تقتصر على الحروب ، فهناك هجرة اليمنيين واختلاطهم بالعدنانيين ، فهذا الاختلاط في السكنى والزواج ، احدث ، ولا بد ، تفاعلاً في الاذهان ، وولّد منافسات حزبية لا نهاية لها. وكذلك الأسواق ، وعلى رأسها عكاظ ، فانها استحثت قرائح الشعراء لاحتشاد

---

١ جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . ج ١ ص ٦١ .

٢ ابن سلام : طبقات الشعراء . ص ١٠٢ .

القبائل فيها للبيع والشراء ، والمفاخرة والمنافرة . والشاعر عند العرب له تأثير عظيم ومقام سامٍ ، فهو محامي القبيلة وخطيبها ومؤرخها ، وقد يكون كاهنها ايضاً ، لما له ، في اعتقادهم ، من صلة بالارواح اذ جعلوا له شيطاناً او تابعاً من الجن يوحي اليه الشعر ، ويلقنه الآراء والحِكَم والمواعظ . فهذه المنزلة الرفيعة في مجتمعه جعلته ينشط للقيام بمهمته كلما دعاه الأمر اليها . فكثر الشعر وقائلوه ، وتبارت القبائل في تقريب الشعراء واكرامهم ، ولا سيا الغرباء منهم ، ليمدحوهم ويشيدوا بذكرهم . وكانت قصور المناذرة والغساسنة تستقبل شعراء البادية ، وتحسن لهم الصلات ، فأثرت في نهضة الشعر تأثيراً بليغاً .

ويتفق المؤرخون الأقدمون على ان الشعر نهض اولاً في ربيعة ، ويعود ذلك ، ولا ريب ، الى حروبها الكثيرة ، سواء بينها وبين اليمن ، او بين قبيلتيها بكر وتغلب ، او بين بكر والفرس ، او بين تغلب واللخميين . ثم تحول الشعر في قيس عيلان ، وعرف شعراؤها في سوق عكاظ ، وفي حرب داحس والغبراء . ثم صار زمن النبوة الى قريش والأنصار بعامل الحروب التي حدثت بين المسلمين الأول والمشركين .

ولبث الشعر طوال العصر الجاهلي محصوراً في البادية لا يتنفس خارج الجزيرة الا بشعراء منها يقصدون الشام او العراق لمدح الغساسنة والمناذرة ؛ ولم يُعرف في الحيرة غير شاعر واحد هو عدي بن زيد ، وأصله من عرب الجزيرة من تميم . والظاهر ان اختلاف لغة مضر عن لغة الشام والعراق ، وهي غير خالصة العروبة لما شابها من الآرامية ، صرف الرواة المسلمين عن جمع اشعارها كما صرف اللغويين عن نقل ألفاظها وتراكيبها لمخالفتها

لغة القرآن. وهذا لا يمنع ان يكون بنو جفنة وبنو لخم قد عرفوا لغة مضر وفهموها، واستقدموا شعراءها الى قصورهم واجازوهم لكي يشيدوا بذكرهم في القبائل العربية، لحاجتهم الى بسط سلطانهم عليها، والافادة منها في حروبهم، فكانوا لذلك مضطرين الى معرفة اللغة العدنانية؛ وربما استرضعوا اطفالهم في البادية ليأخذوا اللسان عن الأعراب.

مراجع

ابن سلام : طبقات الشعراء
ابن قتيبة : الشعر والشعراء
ابو زيد القرشي : جمهرة اشعار العرب
الالوسي : بلوغ الأرب ٢ — ٣
نكلسون : تاريخ الادب العربي
جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١
المسعودي : مروج الذهب
طه حسين : الأدب الجاهلي
احمد امين : فجر الاسلام
ابن خلدون : المقدمة
السيوطي : المزهر
ابن هشام : السيرة النبوية
الاب شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

الشعر الجاهلي

ميزته

للشعر الجاهلي ابواب رئيسة مستقلة ، وهي الفخر والحماسة ، والمدح ، والهجاء ، والرثاء ؛ وأغراض اضافية غير مستقلة او ثانوية : كالغزل ، والطبيعة ، والخمريات ، والحِكَم والمواعظ .

والوصف اعظم ركن يعتمد عليه شاعرهم في شتى ابوابه واغراضه ، لما له من عين نافذة حديدة اللحظ دقيقة المراقبة ، تتنبه لكل ما يحيط بها من الموصوفات ، وهي محدودة في البادية. فاذا اراد ان يصف شيئاً ، ولا يصف الا ما يؤثر في نفسه مما يعايشه ويسمعه ويراه ، او مما يتوهمه فيحسه وتنطبع له صورة بليغة في خياله ، احاط بالموصوف من اظهر نواحيه ، او احاط بناحية منه يطلبها دون غيرها ، مشبعاً موصوفه على الحالين ، مخرجاً عنه صوراً حسّية رابية الملمس تنقله أحياناً نقلاً آليّاً مهذباً ، وتخلقه حيناً خلقاً شعرياً زكيّاً .

ويخرج من الوصف الى قصص قصيرة يحدّث بها عن مغامراته الغرامية ، او عن معاركه وغزواته ، او يروي شيئاً من الأخبار والأساطير مما انتقل اليهم او نشأ في باديتهم .

على ان خيال الجاهليين لم يتسع للملاحم والقصص الطويلة لانحصاره في

بادية متشابهة الصور ، محدودة المظاهر[1] ، ثم لماديّتهم وكثافة روحانيتهم ، ثم لفرديّتهم وضعف الروح القومية والاجتماعيــة فيهم ، ثم لقلة خطر الدين في قلوبهم وقصر نظرهم عما بعد الطبيعة ، فلم يلتفتوا الى ابعد من ذاتهم ، ولا الى عالم غير العالم المنظور[2] ، ولا تولدت عندهم الأساطير الخصيبة ؛ ولم يكن لأصنامهم من الفن والجمال ما يبعث الوحي في النفوس شأن أصنام اليونان والرومان ، فقلّ من ذكر منهم اوثانه واستوحاها في شعره .

ولم يساعـدهم مجتمعهم على التأمل الطويل وربط الأفكار وفسح آفـاق الخيال ، لاضطراب حياتهم برحيل مستمر ، فجاء نفَسهم قصيراً كاقامتهم ، وخيالهم متقطعاً كحياتهم ، صافياً واضحاً كسمائهم ، داني التصور محدود الألوان كطبيعتهم . وكانت ثقافتهم الأدبيــة فطرية خالصة يتغذى بعضهم من بعض ، ولا يقبلون لقـاح الآداب الاجنبية الراقية لجهالتهم واعـتزال باديتهم وتمردها . وكذلك كانت علومهم ساذجة لا تفتح نوافذ النور للنظر في النفس وما بعد عالم الهيولى .

وجاءت حروبهم في كثرتها اياماً وغزوات لا تجاوز البادية والقبيلة ، حروب كرٍّ وفرٍّ ، لا حروب زحف وفتح ؛ فلم يكن من شأنها ان تبدع

---

[1] نعلم ان بعض الشعراء كانوا يرحلون الى الامصـار المتحضرة ، ويشاهدون فيها العمران والطبيعة المختلفة الالوان والصور ، ولكنهم لم يفيدوا كثيراً من اسفارهم لتغلب البـداوة عليهم وقلة استئناسهم بالحواضر ، فما كان يطول لهم مقام فيها .

[2] لا يدحض هذا الرأي ما يروى لشعراء النصارى واليهود من شعر في ذكر الآخرة ، ولا ما ورد لبعض الشعراء الذين لم تثبت نصرانيتهم ولا يهوديتهم من ذكر الحساب والعقاب ، فانما هي هنات لا تذكر بجانب الكثرة المنغمسة في المادة .

ملحمة كملحمة هوميروس في حصار طروادة . فلهذه الاسباب كلها اقتصر شعرهم على اغراض وجدانية تغمرها الذكريات ، مبتورة القصص ، يتواطأون عليها باسلوب متشابه الاتجاه متداول المعاني والتعابير، فيستهلون على الغالب، ولا سيما القصائد الطوال ، بذكر الديار الخالية والوقوف عليها للبكاء او للتحية والسؤال ، معدّدين المواضع التي توصل اليها او تحيط بها ، متشوقين الى أحبّتهم يوم كانوا يعمرونها ، مشببين بهم مستعيدين ذكرى فراقهم. ثم يرحلون على ناقتهم مفرّجين بها همهم، قاصدين الحبيبة او الممدوح ، فيصفونها عضواً عضواً ، ويصورون سرعتها ونشاطها ؛ ثم ينتقلون الى المدح او الفخر او غير ذلك ، فيجتمع لهم في قصيدة واحدة عدة اغراض، ويكون انتقالهم في الأكثر اقتضاباً ووثباً ، وربما انتقلوا بواسطة ، كأن يقولوا : دعْ ذا ، وعدّ عن ذا .

وتشيع في شعرهم روح الفطرة بماديتها وسذاجتها وحريتها وأنفتها ، وبما فيها من صدق في ذكر الحقيقة ، اذا لم تثر في النفس عوامل عاطفية تحملها على الكذب والمغالاة . فالجاهلي صادق في الكلام على حياته واحواله ومجتمعه ، صادق في مدحه وهجائه الى حد لا يسلم عنده من الغلو ؛ كاذب في كثير من مفاخره ، وعلى الأخص اذا وصف الضيافات والقدور والحروب وكثرة العَدد والعُدد والقتلى ؛ مغالٍ مفرط في مراثيه ؛ واذا كان مرثيه قد مات مقتولاً يبالغ في ندبه وتعداد مناقبه ليستثير شعور القبيلة، ويحضها على الأخذ بثأره .

ولغة الشعر الجاهلي قوية المدلول في ألفاظها الوضعية ، حقيقياً كان التعبير او مجازيّاً ، خشنة كثيرة الغريب ، ولا سيما لغة الشعراء الذين نشأوا في

قلب البادية بعيدين عن الأمصار المتحضرة كشعراء مضر ؛ وهي الى ذلك متوافرة الصور في تشابيهها الحسية وما يختلف اليها من استعارات وكنايات ، قليلة الاحتفال بانواع البديع كالجناس والتورية والطباق ؛ جارية مع الطبع بريئة من التكلف ، سواء جاء اللفظ عارياً او كاسياً . فقوة الشعور الفني وحدها تهدي الجاهلي الى اختيار ألفاظه واخراجها من معدن واحد ، واجادة تنزيلها وتأليفها ، فتأتي محكمة التركيب ، متماسكة الاطراف ، تعبّر بتموجاتها واجراسها اصدق تعبير عن الحالة التي يحسها في نفسه ويتصورها في خياله .

وفي تشابيهه وكناياته واستعاراته دلالات بينة على حياته وطبيعة ارضه ، فأكثرها مستمد من الصحراء نباتها وحيوانها ، ومن مرافقها المحدودة ومعيشة اهلها ، ومن عاداتهم وعقائدهم واساطيرهم .

وقد ينحط الى تشابيه ننكرها في زماننا ، ولا تستنكرها فطرته ، كتشبيه امرىء القيس اصابع محبوبته بالأساريع[1] وتشبيه طرفة نفسه بالبعير المعبّد[2] .

ومن مذاهبهم، اذا شبّهوا ، ان يتركوا المشبّه وينصرفوا الى المشبّه به ، ليصفوه ويدققوا في وصفه ، حتى اذا اظهروا قوته وجماله ارتضت نفوسهم واطمأنت الى انها وفّت المشبّه حقه من الوصف والتبليغ ، وربما قصدوا الى ذلك بصورة التفريع البياني ، وهو ان يصدر الشاعر المشبّه به بما النافية ،

---

١ الأساريع : دود ابيض الابدان ، احمر الرؤوس ، مفردها اسروع ، ووجه الشبه بياض الاصابع وحمرة اطرافها بالخضاب .

٢ المعبّد : اي المطلي بالقطران لجربه .

ثم يأخذ في الكلام عليه لتبيان محاسنه؛ فاذا بلغ مراده جاء بافعل التفضيل ومن الجارّة ، ونفى افضلية المشبّه به على المشبّه . وهذا مستحسن مألوف عندهم اصطلحوا عليه وتداولوه ، كما تداولوا كثيراً من التعابير البيانية ، فأصبحت رواسم مشتركة بينهم فاقدة الشخصية . ومن المأنوس في شعرهم نداء الصاحب والصاحبين ، والاستفتاح بألا ، وادخال ولقد وواو ربّ والحلف بلعمري .

ومعاني الشعر الجاهلي لا تخلو من الغموض ويعود ذلك على غرابة الالفاظ وما فيها من ايجاز وحذف ، او على ما تتضمنه من تلميحات الى حوادث تاريخية ، او الى عقائدهم وعاداتهم مما لا تُدرك مقاصده الا بمعرفة حياتهم وأخبارهم . واما الغموض الفني فقليل عندهم لمادية ألفاظهم ، وبعدها من الرمز والتصوف؛ ثم لضعف روحانيتهم وضيق خيالهم ودنوّ تصورهم وعنايتهم بسرد الأخبار واظهار الحقائق المحسوسة ، واعتمادهم على الأساليب الخطابية الواضحة ، والحِكم والأمثال البدهيّة .

وجاءنا عنهم من الأوزان خمسة عشر بحراً ضبطها الخليل ، وزاد عليها الأخفش بحر الخبب ، ويسمّى المتدارك لأنه تداركه . وأكثر ما نظموا على الأبحر الكثيرة التفاعيل ، لفخامتها وصلاحها للوصف وذكر الحوادث كالطويل والبسيط والكامل ، ثم على الابحر اللينة التي تصلح للاغراض الوجدانية العاطفية كالوافر والرمل والخفيف[1] . ولم يخلُ شعرهم من زحاف مستكره نستقبحه اليوم ونأبى استعماله .

ومنظومهم قصيد ورجز ، واراجيزهم ، في الغالب ، قصيرة ، وهي

---

[1] راجع اوزان الشعر في مقدمة الالياذة لسليمان البستاني . ص ٩٠ .

مثل قصائدهم تجري على قافية واحدة ووزن واحد. ويستحسن عندهم تصريع المطلع او تقفيته ، وربما صرّعوا او قفّوا في غير المطلع . ولهم من سلامة الطبع ما يرشدهم الى اختيار القافية الملائمة للبيت في معناه ولفظه ، فما هي تجعله وسيلة لوجودها ، ولا هو يجرها اليه على الرغم منها ، بل تأتي متممة له في انسجامها وحسن وقعها وقرارها. ولكنها لم تخلص من عيوب مذمومة كالإقواء[1] والإكفاء[2] ، وانواع مكروهة من السناد[3] .

وبيت الشعر عندهم صورة لتقطّع افكارهم وخيالاتهم؛ يستقل بمعناه ولا يتعلق بما يليه ، وقليلاً ما عدلوا الى التضمين[4] ، ويكرهون المعاظلة[5]. وهذا الاستقلال البيتي جعل القصيدة عرضة للتشويش في مواضع جمة ، يُحذف منها ولا يُحَسّ نقصانها ، ويبدّل ترتيب ابياتها ولا يظهر خلل فيها .

على ان الشعر الجاهلي المستقل ببيته ، لا ببنايته ، يرتفع احياناً الى غاية الجمال ؛ وهو في الجملة اخلص الشعر القديم جوهراً ، واصدقه شعوراً وتعبيراً وايحاء ، يأتي به الشاعر بقوة الاحساس الفني ، على فطرته وصفاء نفسه ، مع ما فيه من بداوة ووحشية وخشونة .

---

١ الاقواء : اختلاف اعراب القوافي .

٢ الاكفاء : اختلاف الحروف في الرويّ .

٣ السناد : كل عيب يحدث قبل الرويّ .

٤ التضمين : ان لا يتم معنى البيت الا بالذي يليه .

٥ المعاظلة : التضمين في القافية .

الفخر والحماسة

اتفق مؤرخو الأدب ان يجعلوا الفخر والحماسة باباً واحداً لما بينهما من الاتصال الوثيق ، لأن الحماسة ليست سوى فخر الفارس ببطولته وذكر وقائعه ، ووصف فرسه وسلاحه . وباب الفخر في الجاهلية ، وان اتسع الى موضوعات غير الفروسية كالنسب والسيادة والكرم والأخلاق والأهل والولد والفصاحة ، لا يخلو اصلًا عن المباهاة بالشجاعة والاقدام . ومن العبث ان نبحث عن فخر شاعر بنفسه ، او مدح شاعر لغيره ، او رثاء شاعر لميت دون ان يكون للشجاعة القسط الراجح ، بحيث لا يمكن ان نفصل الفخر عن الحماسة ، لأنهما ُوجدا توأمين متلازمين ، فلا فخر بدون حماسة ، وكذلك الحماسة هي الفخر بعينه . ويحسن بالفروسية ان يرافقها شرف المحتد ومكارم الأخلاق ، حتى ان المضعوفين في نسبهم يدافعون عنه انبل دفاع ، كما دافع عنترة عن نسبه لأمه . ولا يرضى احد الصعاليك كالشنفرى والسليك ان ُيغمز في حميد صفاته .

وشعر الفرسان يشتمل على جميع الفضائل الجاهلية ، واخصها فضيلة الفروسية ، حيث ينصرف الشاعر الى ذكر حروبه مبالغاً في وصف البطل الذي يبارزه ويسطو عليه ، او وصف المعركة التي يخوض غمارها ، ويلقي بنفسه في مهالكها .

ويحدث عن القتلى والاسرى والسبايا والغنائم ، فلا يخلو حديثه عن تكثر او غلو . والتكثر والغلو من خصائص شعر الفروسية ، فان الواقعة

الصغيرة تبدو ملحمة كبيرة ، والعدد القليل يجر جيشاً عرمرماً ، ونفيراً من القتلى يعد بالمئات والالوف . على ان غلوهم لم يأت مستقبحاً ، وهو وليد العاطفة المتحمسة تجعله قريباً الى النفس ، والفطرة الساذجة تمسحه بجمالها الجذاب . يخالف الحقيقة ويصدق في شعوره الغني ، يجري مع الطبع في نشوة الخاطر المتدفق ، لا يهيئه العقل في يقظة الفكر المتكلف .

والشعر الحماسي، كسائر الشعر الجاهلي، يعتمد في الأكثر على الوصف ، وفي الأقل على القصص . وهو في كلا الحالين يؤثر الايجاز على التطويل ، ويلمح الجزئيات دون الكليات ، ويتعلق بالمادة اكثر من الروح. فلو اراد ان يصف معركة اجتزأ ببضعة ابيات ترينا جواده وسيفه ومضات من البرق جميلة في سرعتها وتلويحاتها . غير اننا لا نخرج منها بفكرة عامة او صورة تامة عن الواقعة ، فما ندري كيف جرت حركات المتحاربين ، وكيف انتظم الجيشان ، واين وقف الفرسان ، واين وقف الرجّالة ، وكيف تم الهجوم والالتحام . ولا نسمع من الأصوات الا غماغم يختلط فيها وقع السلاح ، وصياح الفرسان ، وحمحمة الجياد ، ودقدقة الحوافر . ولا نرى من صفات السلاح إلا سيفاً قاطعاً ، ورمحاً طويلًا ، ودرعاً سابغة ، وقليلًا ما يسهب الشاعر ويدقق في اوصاف السلاح كما يسهب ويدقق في نعت جواده ونعت الفارس المقاتل . على ان صورة الفارس لا تظهر في الغالب جليّة ، بل يتركها غامضة مغشاة. ويعطينا المعركة على الاجمال تهاويل مقطعة الخطوط والأوصال لا يتألف من اجزائها وحدة موضوعية متلاحمة .

والوصف عنده لا يتعدى الطبيعة ومرئياتها ، ولا يرتفع بها عن منزلتها الا" نادراً. فجواد عنترة، في شكواه وتألمه، صورة تكاد تكون فريدة في

روحانيتها ، وارتفاع الحيوان بها الى درجة الانسانية . وليس له اليد الطولى في استجلاء اسرار النفس وتفهم اهوائها وحركاتها ، فجاءت نفسيات الفرسان كتصاويرهم الخارجية يتغشاها سحاب من الابهام . فبراعته في الوصف لا تجاوز النقل عن الطبيعة في الجملة ، على شيء من الاحكام والتهذيب ، لأن البدوي له عين متنبهة لالتقاط المرئيات، ومخيلة مصورة تحسن تقليد الأشياء ، وليس له قوة الخيال المبدع الذي يختزن المحسوسات ويجمع بعضها الى بعض ، ثم يحلّلها ويركّبها، فيخترعها صوراً جديدة او يخلقها خلقاً مبتكراً الا في القليل المحدود . ومع ذلك فهو يجيد الوصف ويتقنه اكثر مما يجيد القصص، فان القصة في الشعر الجاهلي ضعيفة الفن لاقتصارها على الخبر البسيط والسرد السريع كما يفعل عنترة في تحدثه عن مبارزاته ، وتأبط شرّاً في حكاياته عن الغيلان ، ولا جرم ان الايجاز الذي درج عليه الجاهلي كان يحول بينه وبين الاسهاب في اخباره . وهذا الايجاز يعود في معظمه على قصر النَفَس ، ونزارة ينابيع الخيال المبدع ، فلم يتفر له عمل الملاحم والقصص الطويلة ، وقد فصلنا ذلك في كلامنا على ميزة الشعر الجاهلي .

الشعر السياسي

١ المدح

المدح في الجاهلية من الأبواب الرئيسة لاتصاله بالحياة القبلية . فقد كان على الشاعر ان يدافع عن اعراض قومه، ويمدح ساداتهم وفرسانهم ، ويطري فضائلهم ، ويمجّد اعمالهم ، ولذلك كانت القبيلة تغتبط وتتباشر اذا نبغ شاعر فيها ، وان لم يكن من الفرسان ، لأن حماية الاعراض والاحساب لا تقل شأناً عن حماية الارواح والاموال . ولا تلحق الشاعر غضاضة من هذا المدح لأن امجاد القبيلة ، وهو منها ، تعود اليه كما تعود الى غيره من ابنائها ، فخليق بهذا المدح ان يُعَدّ من الفخر ، فما كان عمرو بن كلثوم في معلقته إلاّ مفاخراً بقومه ، مدافعاً عنهم ، وكذلك الحارث بن حلزة في رده عليه والذود عن بني بكر، مع انه لم يكن سيد القبيلة ولا فارسها.

على ان الشاعر الجاهلي مضطر كغيره من البدو الى الترحل والنزول على قبيلة غريبة ، ضيفاً او جاراً ، فتحسن وفادته ، وتبالغ في قراه وايناسه ، أو تجيره وتؤمنه في خوفه ، وتساعده على حاجته ، فيرى من واجبه ان يشكر لها صنيعها ، ويمدح السيد الذي اضافه او اغاثه ، وهذا لا يعد من باب التكسب ، وانما هو شكر على معروف ، لا استجداء لصلة ، كما مدح امرؤ القيس القبائل التي كانت تضيفه او تجيره بعد مقتل ابيه ، فقال في المعلى التيمي حين أجاره من المنذر بن ماء السماء :

أقرّ حشا امرىء القيس بن حُجرٍ   بنو تَيم مصابيح الظلام

ولم يُعرف التكسب بالمدح إلاّ عندما اخــذ الشعراء ينزحون عن قبائلهم، ويترددون في الأحياء الغريبة ، ويقرعون ابواب الملوك والسوقة ، مادحين مستجدين ، هاجين من لا يحسن لهم العطاء . فهبطت منزلتهم عن منزلة الشعراء القبليين الذين ابوا ان يقبلوا الصلة ويريقوا ماء الوجوه .

بيد اننا لا نستطيع ان نرد بدء التكسب على شاعر قبل غيره لبعد العهد ، وضعف المستندات التاريخيــة ، وكثرة الشعراء الذين تكسبوا ، وعاصر بعضهم بعضاً ، الا ما كان من زعم جماعة من الرواة ان النابغة اول من سأل بشعره واستعطى ، وزعم آخرين انه الأعشى . ويعترض ابن رشيق في العمــدة على الذين يضيفون بدء التكسب الى ابي بصير فيقول : « وقد علمنا ان النابغة اسنّ منه واقدم شعراً . »

ونعلم من الرواة ان الشعراء قبـل النابغة كانوا يقصدون قصور الملوك ويمدحونهم ، فقد ذكروا ان المسيَّب بن علَس دخل على عمرو بن هنــد ومدحه ، ولقي هناك طرفة والمتلمس، وكان يـتردّد على القعقاع بن شور الدارمي ويمدحه وينال صلاته. ومع ذلك لم يعيَّر هؤلاء الشعراء، ولا غض الشعر منهم ، كما ان زهير بن ابي سلمى لم يؤخذ عليه مدحه لهرم بن سنان وقبوله العطاء منــه ، وما ذاك إلا لأنهم لم يتخذوا الشعر حرفة للتكسب كما اتخــذه النابغة والأعشى والحطيئة . وليس المسيّب بن علس من الذين يُذكرون مع كبـار الشعراء ليعنى الرواة بتسقط اخباره ، فنعلم دوافـع مدحه لعمرو بن هند والقعقاع الدارمي . ولم يتكسب زهير الا يسيراً من هرم بن سنان ، حتى قيل انه كان يتجنب التسليم عليه لئلا يتعرض لعطائه، وهو على كل حال مدح سيداً من قبيلة اقام في ارضها وانقطع اليها ، وتزوج

منها واصبح شاعرها وحكيمها يرشدها ويدافع عنها ، وامه تنتسب اليها .
واما النابغة فكان يتنقل من المناذرة الى اعدائهم الغساسنة ، يمدح هؤلاء واولئك ويستجديهم . ثم يبذل ما في وسعه لاسترضاء النعمان ابي قابوس ، خاشعاً متذللاً ليعود الى قصره بعد انقطاع رجائه من ملوك الشام. فعيّروه وقالوا : غض الشعر منه ، لأنه من أشراف القبيلة .

وأمّا الأعشى فقد كان اكثر منه تردداً في البلاد ، يأخذ الصلة من الملوك والسوقة ، وينفّر سيّداً على آخر فيهجو من لم يسىء اليه ليمدح منافسه على السيادة ، فعله بعلقمة بن عُلاثة تأييداً لعامر بن الطفيل ، ومدحه للمحلّق الصعلوك مشهور، ولذلك قالوا : جعل الشعر متجراً ؛ ومن قوله في تطوافه :

وقد طفت للمال آفاقَه عُمان فحمص فأورَى شَلِمْ
اتيت النجاشيَّ في أرضه، وارض النَبيط وارض العجم

وبلغ التكسب الى ادنى دركاته عند الحطيئة ، فقد اكثر من السؤال بالشعر ، وانحطاط الهمة فيه والالحاف ، حتى مُقت الشعر وذلّ أهله كما يقول ابن رشيق. يمدح الشخص ويتكسب منه ، ثم يهجوه تزلفاً الى عدوه، فعله بالزبرقان بن بدر عندما هجاه تقرباً الى بني شماس بعد ان نزل في جواره .

على ان المدح ، وان صار الى التكسب الدنيء في اواخر العصر الجاهلي، فقد كان تأثيره عظيماً في الأشخاص والقبائل ، يرفع شأن الخامل ، وينشر ذكره بين الناس كما ارتفع المحلّق الكلابي واشتهر بشعر الأعشى بعد

خموله ، وكما ارتفع بنو انف الناقة بشعر الحطيئة ، وكانوا يخجلون باسمهم، فصاروا يتطاولون بهذا النسب بعد قوله فيهم :

قوم هم الانف والاذناب غيرهمُ ، ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا؟

والتجاء طلاب السيادة الى الشعراء في مفاخراتهم دليل على ما للشعر من الأثر البليغ .

ولا يختلف المدح في صفاته العامة عن الفخر والحماسة ، فان الفضائل التي يفاخر بها الشاعر الجاهلي ، وينافس غيره من الشعراء والقبائل ، هي التي يمدح بها السادات والملوك شاكراً او متكسباً ، معتذراً او مستعطفاً ، لأنها خير ما يرى من حميد المزايا ومكارم الأخلاق ، في بدوه وفي حضره، فأضافها الى ممدوحيه مبالغاً في التحدث عنها مبالغة الشاعر الفارس في المباهاة بها ، وان تكن الحميّة عنده اخف منها عند الآخر ، لأن النفس التي تُدفع الى المدح والثناء غير النفس التي تندفع حماسة وفخراً .

ويختلف الشعراء في مبالغاتهم بين مقلّ ومكثر ، ولكنهم لا يجنحون الى الاحالة ، لأن طبع البدوي في صفائه ينفر من الغلو الا اذا رانت عليه العاطفة في حزن او حماسة ، فتخرج به الى غاية الاغراق والكذب ، غير معتدل ولا متأثم . وقلما سمعنا شاعراً مدّاحاً في الجاهلية يغلو غلو النابغة في وصفه سيوف الغساسنة حيث يقول :

تقدُّ السَلوقيَّ المضاعَفَ نسجُه، وتُوقِد في الصُفّاح نار الحُباحب

او في ذكره قِدر ابن الجُلاح الكابي قائد الغساسنة زاعماً انها تسع الجَزور بجملتها . فهذه المغاليات مأنوسة في المفاخر والمراثي اكثر منها في

المدائح ، ولكن تحوّل الشعر الى التكسب جعل الشعراء يفرطون في تعظيم الأشراف والملوك ، تملقاً لهم واستدراراً لأكفهم ، وان تكن السذاجة الفطرية لا تعدو تصوراتهم، مثل وصف النابغة للقِدر التي تسع الناقة العظيمة. وينضاف الى هذه التصورات ما نسمع من مدح الاشخاص بنعالهم وجودتها. فان الأشراف ينتعلون السِبت وهو الجلد المصبوغ ، فلا تأكله الكلاب كما تأكل غيره من الذي لم يُصبغ . قال النجاشي الحارثي يمدح هند ابن عاصم :

ولا يأكل الكلب السروقُ نعالهم، ولا تنتقي المخّ الذي في الجماجم

ومدح النابغة الغساسنة برقّة نعالهم ليدل على ملوكيتهم وترفهم ، وانهم لا يخرجون من منازلهم الا راكبين على خيولهم ، فما يحتاجون الى لبس النعال الغليظة .

ومثل هذا ما نرى من استنكار الأشراف لمآكل يجدون فيها غضاضة ، فيبتعدون عنها ، ويأنفون من أكلها ، فيمدحون بهذه العفة ، كما مدح النجاشي هند بن عاصم لان قومه لا يأكلون الأدمغة وهي ليست طعام السادات والملوك : « ولا تنتقي المخ الذي في الجماجم . »

وحمدوا جوار شخص وذموا جوار آخر بمقدار ما يحسن او لا يحسن قرى جيرانه ، ومن هنا مدح الكرام بنيرانهم وكلابهم ورمادهم . فالنار توقد ليلاً لهداية الضيفان ، ولا يوقدها الا السخي الجواد الذي يكثر رماده لكثرة طبائخه ، قال الحطيئة :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره ، تجد خير نار عندها خيرُ مُوقِد

والكلاب تنبح لتهدي الطارق الى المنزل ، ولكنها لا تنبح في وجهه اذا اقبل . قال حسان بن ثابت في الغساسنة :

يُغشون حتى ما تهرّ كلابهم، لا يسألون عن السواد المقبلِ

ولا يختلف مدح الملوك في اعتماد هذه الفضائل عن مدح السادات ، فان الشعراء الذين مدحوا الغساسنة والمناذرة افاضوا في ذكر حروبهم وانتصاراتهم، وجودهم وضيافاتهم ، وحلمهم وهيبتهم في النفوس ، لأن ملوك الشام والعراق لم يبتعدوا بذهنيتهم عن سيّد القبيلة ، وان اصابوا طرفاً من الحضارة . فالمدح الذي يصلح لصاحب القبة الحمراء، يصلح ايضاً لأمير جلّق والبريص، ولرب الخورنق والسدير .

وكان ملوك غسان ولخم يقربون شعراء البادية ، ويجزلون لهم الصلات ليتغنّوا بعظماتهم في الأحياء القريبة والبعيدة ، فيتمكن سلطانهم في نفوسها ، وينبسط نفوذهم على عشائرها ، لأنهم كانوا يحتاجون الى مؤازرتها في حروبهم واقتصادياتهم ، وحراسة قوافلهم ، فقضت عليهم السياسة بتقريب شعرائها واكرامهم للاستفادة من مدائحهم وسيرورة أشعارهم ، كما قضت عليهم بذلك ذهنية العربي في ارتياحه الى الحمد والثناء . فمدحهم الشعراء مثل مدحهم لسادات قبائلهم ، واضفوا عليهم سوابغ الاوصاف التي تعودناها منهم تحت الخيام. واذا كان من خلاف بين المدح البدوي والمدح الحضري، فانما هو يقتصر على صفات لا توحي بها خيمة الاعرابي وطلله ، ولا حياته الاجتماعية ، كوصف النابغة للفرات في مدح النعمان ، وتشبيه عظمته بعظمة سليمان ، او ذكر القصور المنيفة في المدن والعواصم ، كقول الاسود بن يعفُر في آل محرّق وبني اياد :

اهلِ الخَوَرنقِ والسديرِ وبارقٍ،   والقصرِ ذي الشّرفات من سِندادِ[1]

وكذلك المدح الديني ووصف الحفلات في الاعياد الكبرى كما مدح النابغة بني غسان ، وذكر موكبهم يوم الشعانين . ويتخلل المدح الحضري الأخبار والأساطير ، فعل النابغة والأعشى ، فنستدل بها على الثقافة التي اكتسبها شعراء البدو في رحلاتهم الى المدن والامصار، ومخالطتهم للشعوب المتحضرة .

ومما يحمد عليه الشاعر الجاهلي انه حافظ على كرامته في مدح الملوك والسادات ، فلم يتذلل لهم وهو في اشد الحاجة الى رفدهم ومعروفهم ، او عطفهم ومساعدتهم . ولم نجد شاعراً حط من نفسه غير النابغة في اعتذارياته للنعمان بن المنذر ، وغير الحطيئة في تصوير بؤسه وضعفه ، وفي متاجراته الدنيئة بأعراض الناس . ومع ان الاعشى اتخذ الشعر تجارة فلم ينحدر به الى الدنايا ، ولا بذل ماء وجهه الى ممدوحيه . وكذلك عدي بن زيد العبادي لم تغضض منه اعتذارياته الى النعمان ، وكان سجيناً عنده لا طليقاً كالنابغة ، وان بدا عليه الالم المرير حين يرينا نفسه مكبلاً بالحديد، مرتدياً ثياباً بالية، فهو يحافظ على عزة نفسه وكرامة محتده ، ولا يخشى ان ينافس ابا قابوس بالمجد والفضل ، فيذكره بما له ولأبيه من النعمة عليه وعلى والده ، ويذكره بالمصاهرة والمودة ، وانهم كانوا قبلهم ملوكاً ذوي سلطان :

---

[1] الخورنق والسدير : قصران للنعمان. بارق : ماء بالعراق بين البصرة والقادسية . الشرفات : جمع شرفة ، وهي مثلثات تبنى متقاربة في اعلى القصر . سنداد : منازل بني اياد وراء نجران الكوفة .

نحن كنا ، قد علمتم ، قبلكم ، عَمَدَ البيت ، واوتادَ الإصار[1]

ويستهل شعراء الجاهلية مدائحهم ، في الغالب ، بذكر الديار الخالية ، والوقوف عليها للبكاء او للتحية والسؤال، معددين المواضع التي توصل اليها ، او تحيط بها ، متشوقين الى احبتهم يوم كانوا يعمرونها ، مشببين بهم ، مستعيدين ذكرى فراقهم ، ثم يرحلون على ناقتهم مفرجين همهم ، قاصدين الى الممدوح ، فيصفونها عضواً عضواً ، ويصورون سرعتها ونشاطها ، ثم ينتقلون الى المدح بعد هذه المقدمة التقليدية التي تلزم الشريف ان يراعي حق الشاعر في قصده اليه دون غيره من مكان بعيد يعاني السهر والنصب ، وسرى الليل ، ولفح السموم . وربما جعل ناقته تتظلم شاكية ما يجشمها من مشقة الاسفار وشد الحبال ، وفي ذلك ما فيه من استعطاف الممدوح ، وايجاب حقه عليه . قال المتقّب العبدي :

اذا ما قمتُ أرحَلُها بليلٍ ، تأوَّهُ آهَةَ الرجلِ الحزينِ
تقول ، اذا دَرأتُ لها وَضِيني: أهذا دِينُه أبداً ودِيني ؟[2]
أكلَّ الدهر حَلٌّ وارتحالٌ ، أما يُبقي عليَّ وما يَقِيني ؟

وقد تلوم المرأة زوجها والبنت اباها على كثرة ترحاله ، خائفة عليه ، فيسكّن من جأشها ، ويهوّن الأمر عليها ، ويعدها بالثروة . قال الاعشى:

تقول ابنتي ، حين جدَّ الرحيلُ: ارانا سَواءً ومن قد يَتِمْ
فيا أبَتا ، لا تَرِمْ عندنا ، فإنّا بخيرٍ اذا لم تَرِمْ[3]

---

[1] الاصار : حبل الخباء يشدّ بالاوتاد .
[2] درأت : دفعت . الوضين : حزام الهودج . الدين : العادة والدأب .
[3] لا ترم : لا تبرح .

وقد تكون المرأة رفيقة له في الشعر وطلب الرزق ، فيدفعها امامه ، ويسير بها الى ممدوحه فعل الحطيئة :

سيري، أمامَ، فانّ الاكثرين حصىً،
والاكرمين ، اذا ما يُنسَبون، ابا

قوم هم الانفُ ، والاذناب غيرهمُ ،
ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا ؟

وشعراء المـــدح في الجاهلية كثر ، يتشابهون في نواحٍ من معانيهم وتعابيرهم ، على ما بينهم من اختلاف الطوابع الخاصة .

٢ الهجاء

الهجاء كالمدح باب رئيس متصل بسياسة القبيلة وحياتها الاجتماعية ، لأنها كانت تدفع شاعرها الى الذود عن اعراضها ، والرد على الشعراء الذين يهجونها ، فينشر مثالب اعدائها ، ويعدد انكساراتهم سارداً اخبارها بايجاز او بشيء من التفصيل ، كما فعل الحارث بن حِلّزة في رده على عمرو بن كلثوم يوم التقاضي، فعيّر بني تغلب الايام التي هُزموا فيها باسلوب ناعم موجع ليغض من شأنهم عندملك العراق ؛ وكما رد النابغة على عامر بن الطفيل فهجاه وذكّره انكسار قومه يوم حِسْي امام بني ذبيان، وفيه قُتل اخوه حنظلة بن الطفيل؛ وكما فضح حسان بن ثابت بني هُذَيل ، وكانت ترمى باكل لحوم الناس :

ان سرّكَ الغدر صِرفاً لا مزاج له ،
فأتِ الرجيع، وسل عن دار لـحيان[1]

---

[1] الرجيع : ماء لهذيل . لحيان : حي من هذيل .

قوم تواصَوا بأكل الجـار كلهم ،
فخيرهم رجـلًا والتيسُ مِثـلانِ

وعلى الشاعر ان يذود عن حلفاء قبيلته لما بينهم وبينها من تبادل المنفعة في الدفاع المشترك ، فنرى النابغة يهجو زُرعة بن عمرو تأييداً لحلف بني اسد ، مدافعاً عنهم ، مستفيضاً في وصف نجدتهم ومنعتهم كأنه يدافـــع عن قومه .

واذا استجار شاعر بقبيلة واعتدي عليه ، عنّفها وهجاها ليحرضها على اخذ حقه ، لانه يعلم ان الجوار مقدّس عندهم لا يجوز انتهاكه . فقد عنفت البَسوس بنت مُنقذ بني مرّة حين عقر كليب ناقة جارها سعد ، وهي جارة لهم، فجعلتهم امواتاً ونساء ، حتى اثارت جساساً فقتل كليب وائل ونشبت بينهم الحرب الطويلة المشؤومة .

وخرجوا بالهجـاء الى التكسب كما خرجوا اليه بالمدح ، فكان الشاعر منهم يدعى الى قبيلة غريبة عنه، فتضيفه وتكرمه ليهجو اعداءها ، لا تشفع له في هجائه عصبية قَبَليّة كما لو كان يدافع عن قومه ، وانما حب التكسب هو الذي حمله على شتم هـذا ومدح ذاك . فالحطيئة ما هجا الزبرقان بعد مجاورته اياه الا لان ابناء شماس انزلوه عندهم واكثروا له من التمر واللبن، واعطوه لقاحاً وكسوة فقال للزبرقان :

دع المكارم لا ترحل لبُغيتها ،
واقعد، فانك انت الطاعم الكاسي

بيد ان امثاله في الشعراء الجاهليين قليل ، فان الذين تكسبوا بالمدح

اكثر من الذين تكسبوا بالهجاء . وقلما فعل واحد منهم مثل الحطيئة يهجو ليعطى ويطعم .

واشد الهجاء عندهم ما كان فيه التفضيل ، خصوصاً بين الاقرباء ، وكلهم طامع في السيادة ، ويسمونه الهجاء المقذع. فان الزبرقان بن بدر امضّه ان يفضل الحطيئة عليه بغيض بن عامر بن شماس ، وهو مثله من بني تميم ، فشكاه الى عمر بن الخطاب فحبسه مدة ، ولما اطلقه قال له : « اياك والهجاء المقذع ! » قال : « وما المقذع يا امير المؤمنين ؟ » قال : « المقذع ان تقول : هؤلاء افضل من هؤلاء واشرف ، وتبني شعراً على مدح قوم وذمٍّ لمن تعاديهم .» فقال : « انت ، والله يا أمير المؤمنين ، أعلم مني بمذاهب الشعر ، ولكن حباني هؤلاء فمدحتهم ، وحرمني هؤلاء فذكرت حرمانهم ، ولم أنل من اعراضهم شيئاً . »

ومهما يكن من أمر هذه الرواية وزعمهم ان الحطيئة يجهل معنى الهجاء المقذع ، فانه وان لم ينل من اعراضهم ، فقد اخزاهم بتفضيل منافسيهم عليهم ، وذكر قعودهم عن المكارم . وليس القذف مما يحمد فيه الهجاء ، وانما هو سباب وبذاءة لا يليق بالشاعر ان ينحدر اليهما ، ولم يخلُ الشعر الجاهلي منه ، فقد افحش زهير في هجاء بني الصيداء عندما أسروا عبده يساراً . والمتلمس في هجاء عمرو بن هند بعد هربه منه ومقتل ابن اخته طرفة . وفي شعر حسان بن ثابت كثير من الأبيات التي تنهش الانساب وتمزق الاعراض ، ومنها ما قيل في الجاهلية ، ومنها ما قيل في الاسلام .

على ان الشاعر الجاهلي كان يتوخى ، في الغالب ، اسقاط المهجو من

منزلته الاجتماعية ، فيعنى ، على الأخص ، بان ينزع عنه الفضائل التي يحب البدوي ان ينعت بها ليعد اهلاً للسيادة ، فيرميه بالجهل والحمق والجبن والبخل والغدر، وقد يغمز من نسبه ليخرجه من قومه ، او يفضل اقرباءه عليه ليجعل لهم السيادة دونه . ومثل هذا الهجو له تأثير عظيم في نفوسهم ، يُكبرون امره ويخشون اصحابه ، بخلاف الهجو الذي يهتك حرمات النساء ويصب الشتائم والقبائح ، فانهم كانوا يذمون الناطقين به ويمقتونهم ، قال خلف الاحمر : « اشد الهجاء اعفه واصدقه . » ويستحسن فيه ما اخرجه الشاعر مُخرَج التهكم والتصوير الهزلي ، فانه يبلغ مأربه من مهجوه بالطعن عليه ، ويُضحك منه السامع بسخره وعبثه ، وهذا ما نسميه الهجاء اللاذع .

وقد يأتي الهجاء عن دافع شخصي لا بعامل قبلي او تكسبي، فان الشاعر ربما نالته اذية من شخص اورط عليه ، فيندفع الى الانتقام بشعره ، وهذا امر انساني تمليه العاطفة على صاحبها ، فيجد في نفسه حاجة الى التفريج عنها بذم من ضامه او اساء اليه ، كهجاء المتلمس لعمرو بن هند ، وهجاء طرفة له ولأخيه قابوس ، ثم لصهره عبد عمرو .

وأهاجي الجاهليين كمدائحهم صادقة التعبير عن ذهنية البدو وعاداتهم وتقاليدهم ، وما تواضعوا عليه من المذموم والمحمود ، وما يقع لهم في ذلك من خلاف وتناقض . فقد كانت القبيلة تعيّر الاخرى بأن شعراءها يرحلون بمدحاتهم الى الغرباء ؛ وقلما خلت قبيلة من شاعر يرحل بشعره . فقد فاخر يزيد بن عبد المَدان عامر بن الطفيل ان شعراء قومه لا يرحلون بمدائحهم الى قوم عامر ، اما شعراء قوم عامر فيرحلون بمدائحهم الى قومه . ويعيّرون الفارس اذا فرّ عن عشيرته في الحرب ، مع انهم لا يستنكفون

من التمدح بالفرار ، اذا كان فيه منجاة للفارس من الموت . قال عمرو بن معدي كرب وهو من الابطال المعدودين :

ولقد أجمعُ رِجلَيّ بها ، حذَرَ الموت ، واني لفَرورُ[١]

ويقبحون الغدر ويهجونه ، قيل انهم كانوا اذا غدر رجل واخفر الذمة جعلوا له تمثالاً من طين ونُصْب ، وقالوا : ألا ان فلاناً غدر فالعنوه ! قال عبد الله بن جعدة يهدد قوم الحارث بن ظالم الذي قتل خالد بن جعفر غدراً :

فلنقتلنّ بخالد سرَواتكم ، ولنَجعلنّ لظالم تِمثالا[٢]

غير انهم كانوا يستحلّون الغدر عند طلب التأر لما يلحقهم من المذمة في تركه. فأوسُ بن الحطيم فارس الاوس لم يُدرك تأره من قاتلَي ابيه وجده الا بالغدر القبيح ، فغسل عاره بقتله ، ولكنه لم يجد فيه غضاضة لان النوم عن الثأر مذلة الابد. وقد تسمع بعض الشعراء يرمي مهجوّه بالضعف ، اذا عجز عن الظلم والغدر . والظلم مكروه عندهم اذا اصاب الاقرباء ، محمود اذا اصاب الغرباء . قال النجاشي ، وهو شاعر مخضرم ، يهجو تميم بن مُقبل العَجلاني :

قبيلته لا يَغدِرون بذمّة ، ولا يَظلِمون الناسَ حبّةَ خَردلِ

فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب . فلمّا سمع البيت قال : ليت آل الخطاب كذلك ! ولم يحبسه إلاّ لأنه قال فيهم :

---

١ بها : الضمير يعود على فرسه .

٢ سرواتكم : اشرافكم ، جمع سراة ، جمع سريّ .

اولئك اخوانُ اللعين ، وأسوةُ الهجينِ ، ورهطُ الواهِنِ المتذلّلِ [1]

وكان العرب يحتقرون الصناعات ويذمّون أصحابها ، وينسبونهم الى الخمول والضعف ، لأنه ينبغي للفارس ان يكسب رزقه بسيفه وغزواته . فقد هجا عمرو بن كلثوم النعمان ابا قابوس ، وعيره امه سلمى ، وكانت بنت صائغ واخت صائغ :

لحا الله أدنانا الى اللؤم زُلفةً، وألأمَنا خالاً ، واعجزَنا أبا[2]

واجدَرنا ان ينفُخَ الكيرَ خالُهُ، يصوغ القروط والشّنوفَ بيَثرِبا[3]

ولم تكن التجارة احسن حظاً عندهم، وهي لم تُعرف في غير المدن كمكة ويثرب واليمن ، فهجيت قريش بها . روى ابن سلام ان الناس اصبحوا يوماً بمكة وعلى باب الندوة مكتوب :

ألهى قُصيّاً عن المجد الاساطيرُ ،
ورِشوةٌ مثلما ترشى السَّفاسيرُ[4]

واكلُها اللحم بحتاً لا خليط له ،
وقولُها : رحلت عيرٌ، اتت عيرُ![5]

واتهم بهما عبد الله بن الزِبَعْرى وهو من قريش . ولم يقصر هجوه على

---

١ الهجين : اللئيم ، وعربي ولد من امة .

٢ زلفة : قربة ، منزلة .

٣ الكير : ما ينفخ فيه الحداد والصائغ . القروط : الحلق . الشنوف : نوع من القروط .

٤ السفاسير : جمع سفسير وهو السمسار والخادم والتابع .

٥ العير : القافلة .

التجارة ، بل عيرهم اشتغالهم بالاحاديث والاخبار في ندوتهم لفراغ بالهم وقلة همومهم ، ونسب اليهم الرشوة كما ترشى السماسرة ، وعيرهم اكل اللحم الخالص . والعرب يتهاجون بكل شيء افرطوا في استعماله ، فقد هجيت بنو تغلب بكثرة روايتها معلقة عمرو بن كلثوم فقيل فيها :

ألهى بني تَغلبٍ عن كل مَكرُمةٍ
قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ

واذا اشتهرت قبيلة بأكلة عيرت بها ، ولو كانت من طيب الطعام ، فقريش هجيت بالسخينة[1] كما هجيت عبد القيس بالتمر ودلك عام بالحيين . وعيرت اسد باكل لحوم الكلاب ، قال مساور بن هند :

بني اسد ، ان يحلِ العامَ فقعسٌ ،
فهذا اذاً دهرُ الكلابِ وعامُها[2]

وربما عيرت القبيلة بعيب واحد منها. قال الجاحظ في البخلاء: « والعرب اذا وجدت رجلاً من القبيلة قد اتى قبيحاً ، الزمت ذلك القبيلة كلها ، كما تمدح القبيلة بفعل جميل ، وان لم يكن ذلك الا بواحد منها . »

وكان الكرم من اسباب السيادة ، فاكثروا من هجو الاشراف بالبخل والكزازة لاسقاط منزلتهم في الاحياء ، ويتبع ذلك ذكر النار وخمودها لقلة طبائخهم ، او لخشيتهم ان يعشو الى ضوئها الضيفان ؛ وذكرُ الكلب

---

١ السخينة : طعام رقيق يتخذ من الدقيق ، لقبت به قريش .
٢ فقعس : حيّ من اسد .

ونباحه في وجه الزائر لانه لم يألف الغرباء عند صاحبه، وسكوته عن النباح ليلًا لئلا يهدي الطارق والحائر، فاتهموا البخلاء بتخنيق الكلاب.

وللهجاء تأثير عظيم في النفوس، فقد كانت السادات والقبائل تتضور منه، ولا تصبر عليه، لسيرورة الشعر وكثرة رواته.

واكثر الشعراء رويت لهم اقوال في الهجاء، وان يكن بعضهم تميّز فيه عن بعض كالحطيئة وحسان بن ثابت الانصاري، وافضله ما جاء في الدفاع عن سياسة القبيلة والرد على خصومها، او ما جاء في ذم الاخلاق الرديئة وخلا من الفحش وتمزيق الاعراض.

الرثاء

يشغل الرثاء جانباً عظيماً من الشعر القبلي لانه ، في اكثره ، مصروف الى سادات العشيرة وفرسانها الذين لهم فيهـا المآثر المحمودة ، فليس موتهم موت واحد ، بل بنيان قوم تهدَّم ، كما قال عبدة بن الطبيب في رثاء قيس ابن عاصم. وكلما دنت القرابة بين الشاعر والميت ازداد الرثاء حسرة وتفجعاً ، واروعه ما نُدب به الابطال المجدَّلون في حومات القتال ، فان الشعراء ، في البكاء عليهم وفي تعداد مناقبهم ، يثيرون الاحقاد ويشحذون العزائم ، ويهيجون القبيلة للحرب والأخذ بالثأر ، كرثاء المهلهل لأخيه كليب ، والخنساء لأخويها صخر ومعاوية. وفيه تتدفق العاطفة لوعة وألماً ، ويشتد الغلو في ذكر اوصاف الميت وتعظيم المصاب به ، فليس الا الشعور يفيض دمعاً واسى عليه ، وفخراً ومباهاة به ، ومدحاً وتأبيناً له ، فتتفاعل مشاعر مختلفة من خسارة وحزن ، واعجاب واعتزاز ، وضغن ونقمة . وقد يبلغ بهم استعظام الخطب الى ان يتمنوا حدوث انقلاب في الكون كما قال المهلهل :

ليت السماءَ عـلى مَن تحتَها هبطت ،
وانشقّت الارضُ فانجابت بمن فيها !

ومثل هـذا التفجع والتهويل شائع عندهم في رثاء الملوك والرؤساء لا يقتصر على الاهل الأدنين . فقد رثى النابغة حصن بن حُذيفة بن بدر بقوله :

يقولون : حصنٌ ! ثم تأبى نفوسهم ،
وكيف بحصن ، والجبال جُنوحُ ؟ ![1]

ولم تلفظ الموتى القبورُ ، ولم تَزُل
نجومُ السماء ، والاديمُ صحيحُ ![2]

وسخط المهلهل على بني بكر ظاهر في تهديده ووعيده وضربه معجزات الشروط عليهم ليرضى بمصالحتهم، كما يظهر في رثاء الخنساء وحرقتها على اخويها، مع ما في اشعارها من المباهاة بالميت وتعظيم صفاته ومناقبه . وقلما قرأت شعراً في رثاء عظيم ، ملك او سيد ، الا آنست المغالاة في ذكر فضائله ، شأنك اليوم عندما تسمع النادبين والنادبات ، ولكن لا ترى في اقوالهم ما يُستهجن او تنبو عنه المسامع لانه صادر عن العاطفة المكلومة ، وكل ما تنطق به النفس على سجيتها لا يظهر عليه التكلف البغيض . فكعب بن سعد الغنوي لا يرى بعد اخيه ابي المغوار من يلبي طالب المعروف، فتصغي اليه غير مستنكر دعواه لما فيها من فطرة وشعور صادق :

وداعٍ دعا : يا من يُجيبُ الى الندى ؟
فلم يَستَجِبه ، عند ذاك ، مجيبُ

فقلتُ : ادعُ اخرى ، وارفعِ الصوت ثانياً ،
لعلَّ ابا المغوار منكَ قريبُ !

---

١ المعنى : يقولون : حصن مات ، ثم تأبى نفوسهم ان تنطق بذلك . وكيف بحصن يموت ، والجبال جنوح على الارض لا تقع ؟

٢ والاديم صحيح : اي وجه العالم صحيح لم يحدث فيه حادث .

وهم يصفون الميت بجميع الفضائل التي يفاخرون ويمدحون بها ، غير انهم يجعلون في كلامهم دلالات على ان المقصود به رثاء لا مدح ، بما يتخلله من عبارات فيها ذكر المصاب والدفن والقبر، وفيها التلهف والتفجع ونداء الميت : لا تَبعَدْ . قال مالك بن الرَّيب :

يقولون : لا تَبعَدْ، وهم يَدفِنونني ،
وأين مكانُ البُعدِ الا مكانيا ؟[1]

وقال النابغة في رثاء النعمان الغساني :

فلا تَبعَدَنْ ، انَّ المنيّة منهَلٌ ،
وكلّ امرئٍ يوماً به الحالُ زائلُ

وكثيراً ما ينعون تلك الفضائل مع الميت ، فكأنها ذهبت بذهابه ، فليس بعده من يجيب الى الندى كما قال كعب بن سعد ، ولا من يحمي النساء والاموال ويغيث الملهوف ، فقد دُفنت المكارم بدفنه ، وغُيّبت الاخلاق الطيبة في ثراه . قالت الخنساء :

يا صخرُ، ماذا يواري القبرُ من كرمٍ ،
ومن خلائِقَ عفّاتٍ مطاهيرِ ؟!

وربما سلكوا سبيلاً آخر ، وهو أن يأتي الشاعر بكأنّ ، فيقول : كأن فلاناً لم يركب جواداً ، ولم يوقد ناراً ، ولم يطعم جائعاً ، الى ما هنالك من

---

١ لا تبعد : لا تهلك .

المآثر الحميدة ليظهر انها مضت معه واصبحت خبراً من الاخبار . قال كعب بن سعد :

كأنَّ ابا المِغوار لم يوفِ مَرقباً ،
اذا ربأ القومَ الغُزاةَ رقيبُ[1]

ولم يَدعُ فِتياناً كراماً لِمَيسرٍ ،
اذا اشتدَّ من ريح الشتاء هُبوبُ[2]

وقد يستسلم للقضاء والقدر اذا لم يجد سبيلا الى ادراك الثأر ، او اذا ادركه ، او اذا كان الميت قضى غير مقتول بمرض او حادث طبيعي ، فيعمد الى تعزية نفسه بذكر مصائب الدهر ، وفلسفة الحياة والموت ، كما فعل لبيد في رثاء اخيه أربد وقد قتلته الصاعقة :

فلا جَزِعٌ ان فرَّق الدهرُ بيننا ،
وكلُّ امرىءٍ ، يوماً ، له الدهرُ فاجعُ !

وما المالُ والاهلون الا ودائعٌ ،
ولا بُدَّ يوماً ان تُرَدَّ الودائعُ

قال ابن رشيق في العمدة : « ومن عادة القدماء ان يضربوا الامثال ،

---

١ لم يوف : لم يُشرف على . المرقب : الموضع المرتفع لمراقبة العدو . ربأ القوم : صار لهم ربيئة ، اي طليعة ليراقب العدو .

٢ الميسر : القمار ، يفاخرون بالميسر لانه دليل الكرم والغنى ، وخصه بالشتاء حين يمتنع الغزو ويشتد الفقر والجوع .

في المراثي ، بالملوك الاعزّة ، والامم السالفة ، والوعول الممتنعة في قلل الجبال ، والاسود الخادرة في الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول اعمارها، وذلك في اشعارهم كثير موجود، لا يكاد يخلو منه شعر.» اهـ. وانما اتخذوا هذا الاسلوب ليستخلصوا حكمة ساذجة ، وهي ان هؤلاء الملوك والابطال والجبابرة من الشعوب الخالية لم يعفّ الموت عنهم. ومثلهم الحيوانات الضارية، او الممتنعة في الجو والآكام والاودية ، او الطويلة الاعمار . ولو نجا حي من الموت لكان اولئك الناس وتلك الحيوانات اولى من غيرهم بالنجاة . فيجدون عزاء لانفسهم بضرب هذه الامثال، ما دام الموت لا مهرب منه لكل ذي حياة. فمن ذلك رثاء ابي ذؤيب الهُذَلي لاولاده الخمسة ، وقد ماتوا بالطاعون في سنة واحدة، وقيل كانوا ثمانية فمات سبعة منهم. فذكر ان الدهر لا يبقى على حدثانه احد من الاحياء ، مهما يكن عليه من القوة والبأس والصلابة والتمنع . فقصّ اولاً خبر الحمار الوحشي اذ كان آمناً ، فادركه الصياد فرماه فأقصده ، فخر منجدلاً . ثم اتبعه خبر الثور الوحشي وكيف التجأ الى شجرة الأرطى ليلاً محتمياً من المطر حتى الصباح ، ففاجأته الكلاب فقاتلها وصرّعها بقرنيه ، فرماه صاحبها بسهم فارداه . ثم اخبر عن مصرع بطلين تبارزا ، ووصف سلاحهما وفرسيهما وعراكهما ، فاخرج قطعة ملحمية جميلة . واما كلامه على الثور والحمار والصيادين والكلاب فشائع متشابه في شعر الاقدمين .

فهذه التأسّيات تجعلهم احياناً لا يندفعون مع العاطفة الجازعة المتفجعة ، كما هي الحال عند ابي ذؤيب وعند لبيد ، بل يستسلمون الى القدر الذي

ؤمنون بسلطانه ويخضعون لاحكامه القاسية راضين على كره بما قسم لهم .
ال ابو ذؤيب :

وإذا المنية أنشبت اظفارَها ، ألفَيتَ كل تميمةٍ لا تنفـعُ

والنفس راغبة اذا رغّبتها ، وإذا تُرَدُّ الى قليل تقنـع

وقيل ان في البيت الثاني اشارة الى قناعته بالطفل الذي بقي حيـاً من ولاده . وقال اعشى باهلة في رثاء المنتشر اخيه لأمه :

فبتُّ مكتئباً حيرانَ اندبُه ، ولست ادفع ما يأتي به القدرُ

واذا ابتعدت المراثي عن الاهل والاقرباء ، وخرجت الى السادات الملوك الغرباء ، كان شأنها شأن المدح التكسبي ، عـلى غير آصرة صحيحة ربط الشاعر بالميت الا ذكر اياديه البيض عليه كرثاء النابغة للنعمان الغساني .

الغزل

يقوم اكثر الغزل الجاهلي على الوصف والتشبيب، واقله ما جاء قصصياً يحمل ذكريات المغامرات الغرامية يتخللها الحوار كما نجده عند امرىء القيس، وعند المنخّل اليشكُريّ في قوله :

ولقد دخلتُ على الفتا ةِ الخِدرَ في اليوم المَطيرِ

الكاعب الحسناء تر فُل بالدِمَقسِ وبالحريرِ

فدنت وقالت : يا مُنخّلُ ، ما بجسمِك من حَرورِ ؟

— : ما شَفَّ جسمي غير حبك، فاهدئي عني وسيري !

وفيه من العفة ما يحمد عليه صاحبه ، وان كان لا يخلو بعضه من فحش وذيلة ، ولا سيما شعر المترفين . وتسيطر عليه المادة من جميع نواحيه ، فما فيه من عمل الروح الا نفحات خفيفة تكاد لا تحس .

وليس الغزل عندهم فناً مستقلاً برأسه ، وانما هو غرض من الاغراض المتعددة التي تشتمل عليها قصيدتهم ، ولكن له حق الصدارة يُستهل به ثم يُنتهى منه الى غيره .

ويبدأون غزلهم في الغالب بذكر الطلول الدارسة تلعب بها الرياح ، وتعفو آثارها الامطار ، وتسرح بها الآرام مطمئنة لخلوها من سكانها . ثم يذكرون الفراق وانتقال الظعائن ، فتشجى نفوسهم ، وتفيض عيونهم بالبكاء ،

ويستعيدون صورة الحبيب النائي آخذين بوصفه وتمثيله، ذاكرين اسمه الحقيقي، او كانين عنه بغيره حرمة واستحياء .

والجاهلي شديد الشغف بذكر محاسن المرأة يصف اعضاءها وملامحها ومزاياها ، ويحيطها باحسن ما عنده من التشابيه، كما اقتضت الجماليّة القديمة عندهم . فهي كالبيضة ودرة الغواص في صيانتها وصفائها . وشعرها الفاحم كعناقيد النخل تضيع فيه المدراة؛ طويل اذا ارسلته ينعفر . ووجهها ابيض ضارب الى الصفرة، يضيء كالشمس او كالبدر[1] او كالنار، او كمنارة الراهب. وليس للعيون الزرق حظ لديهم[2] وانما هم يؤثرون العين السوداء والكحلاء والحوراء ، عين الغزال والمهاة . ويستحسنون بياض الاسنان وأشُرها ، ويشبهونها بالاقحوان والبَرد، ويمدحون الثغر ببرودة الريق، وحلاوة الطعم، وطيب النكهة لا تخلفه نومة الضحى . ويشبهونه بالخمر ولطيمة المسك والروضة الانف . قال المرقش الاصغر :

وما قهوةٌ صهباءُ كالمسك ريحها ،
تُعَلُّ على الناجودِ، طوراً، وتُقدح[3]

---

١ يشبه الجاهليون وجه المرأة بالشمس على الغالب. ويشبهون بالبدر السيد في الشهرة والسناء ، وقلما شبهوا به المرأة كما قال عمرو بن معدي كرب :

وبدت لميسُ كأنها   بدرُ السماء اذا تبدّى

٢ قال بعضهم :

مرّا على اهل الفضا ان بالفضا   رقارقَ لا زرق العيون ولا رُمدا

٣ القهوة : الخمرة . الصهباء : الخمرة الحمراء او الشقراء ، او المعصورة من عنب ابيض . تعل : تشرب تباعاً . الناجود : وعاء الخمر او المصفاة . تقدح : تغرف .

ثوتْ في سواء الدَنّ عشرين حِجّةً ،
يُطانُ عليها قَرمَدٌ ، وتُرَوَّحُ[1]

سباها رجالٌ من يَهودَ تباعدوا
بجَيلانَ ، يُدنيها الى السوقِ مُربِحُ[2]

بأطيبَ من فيها اذا جئتُ طارقاً
من الليل ، بل فوها ألذُّ وانضَحُ[3]

ويعجبهم الجِيد الاتلع ويرون له شبهاً في جيد الرئم ، والخصر الأهيف ، والكشح الهضيم ، والردف الثقيل ، والقامة اللدنة . ويشبهون الخصر بالجديل ، والردف بالكثيب ، والقامة بالغصن او بالرمح . ويصفون الانامل باللطافة ، حتى لتكاد تنعقد ، ويشبهونها بالعنم والاساريع . ولا تحمد الساق الا اذا كانت عبلة صامتة الحِجْل ريّا المخلخل .

وخير النساء الحرة المنعمة ، الكسول التي تنام الضحى ، ولا تقوم للعمل في المنزل ، القصيرة الخطى ، البطيئة اذا مشت . قال قيس بن الخطيم :

تنامُ عن كِبرِ شأنها ، فاذا قامت رُويداً تكاد تنغرِفُ[4]

ومن صفاتها ان تكون حلوة الحديث يتساقط كلامها تساقط الحلي ،

---

[1] ثوت : مكثت . سواء الدن : منتصفه ، ورويت في سباء الدن . القرمد : الجص يطلى به . تروّح : تعرّض للريح .

[2] سباها : اشتراها . جيلان : بلد في البحرين سمي باسم قوم من ابناء فارس نزلوا به . المربح : الكريم الذي ينحر لضيفانه .

[3] انضح : اي اكثر ريقاً ، لان الفم اذا جف ريقه خبثت رائحته .

[4] تنغرف : اي تنقصف من دقة خصرها .

حَصاناً عفـّـة ، وفية لزوجها كاتمة سره ، ولا تختتل لاسرار الجيران . قال قيس بن الخطيم :

خَودٌ يَغِثُّ الحديث ما صمتت ، وهو بفيهـا ذو لَذّةٍ طَرِفُ[1]

تخزُنه ، وهـو مُشتهىً حسنٌ ، وهو ، اذا مـا تكلمت ، أُنُفُ[2]

وقال الشنفرى :

أُمَيمةُ لا يُخزي نَثاها حليلَها ، اذا ذُكر النسوانُ عفّت وجلّتِ[3]

ولكن غزلهم في كثرته يدل على سوء ظنهم بالمرأة ، وشدة ما يعانون من غدرها وتبديلها الاصحاب ونفورها من الزوج اذا كبر وشاب. ولطالما حاول الشاعر ان يرد تهمة الكِبَر بذكر همته واستطالته على اللهو وتصبي النساء . قال علقمة بن عبدة :

فان تسألوني بالنسـاءِ ، فانني خبـيرٌ بأدواءِ النساء طبيبُ

اذا شاب رأسُ المرء، او قلّ مالُه ، فليس له في وُدّهِنّ نصيب

ووصف كعب بن زهير حبيبته سعاد بقوله :

فما تدوم على حالٍ تكون بها ، كما تَلَوّنُ في اثوابهـا الغولُ

ولا تُمسّكُ بالعهدِ الذي زعمت ، الا كما تُمسِكُ المـاءَ الغرابيلُ

وقال امرؤ القيس يرد على بسباسة التي اتهمته بالكِبر :

---

١ الخود : الشابة الناعمة . طرف : حسن مستطرف .

٢ انف : جديد .

٣ نثاها : ذكرها ، وما ذاع عنها .

الا زعمتْ بَسباسةُ اليومَ انني
كَبرتُ، وان لا يُحسنُ اللهوَ أمثالي[1]

كَذَبتِ! لقد أُصبي على المرء عِرسه،
وأمنَعُ عِرسي ان يُزَنَّ بها الخالي[2]

على ان الشاعر الجاهلي في ماديته لا يعنى كثيراً بوصف اخلاق المرأة، وعرض نفسيتها، وتحليل عواطفها، كما لا يعنى بتصوير لواعج نفسه، وتلمُّس خفاياها، واستخراج الأهواء المتدفقة فيها. فقد كان يحس كل الاحساس بالألم والخيبة، واللذة والامل، فتعبر عن هذه المشاعر دموعه وابتساماته، وتلهفه وابتهاجه، اكثر مما تعبر عنها صوره والوانه. فهو يحسن تصوير الاشياء المرئيّة التي تبعث فيه الشعور والاشتياق، ولا يحسن مع ذلك تصوير ما في النفس من خوالج وانفعالات. وربما ظهرت شخصية المرأة في شعرهم عامة مشتركة، لتواطئهم على اوصاف راتبة لا يجاوزونها، ولا يحيدون عنها، فقلما وجدت فرقاً بين واحدة واخرى من عرائس الالهام.

والغزل الجاهلي بما فيه من فطرة لا يخلو من سذاجة التعبير عن حب الشاعر وشكواه وتضجره من العواذل، ولكن فيه من الانفة والاباء ما يرفعه عن التذلل والعبودية وتعفير الوجه على اقدام الحبيبة. وكثيراً ما تمتزج الفاظ الحب بالفاظ الحرب، ولا سيما عند الشعراء الفرسان.

---

١ بسباسة: علم امرأة، قيل انها من بني اسد.
٢ العرس: الزوجة. يزنّ: يتهم. الخالي: العزب او من لا زوجة له. وربما اراد من يخلو بها.

الطبيعة

لا يُستغرب من الشاعر الجاهلي ان ينظر الى الطبيعة ويمعن في وصفها ، وهو يعايشها غير مصارم لها بهجران ، ويواصلها غير منفصل عنهـا بحائط او بنيان . يتكل عليها في حياته ورزقه ، مع ما هي عليه من الغلظة والقساوة وقلة العطاء . فقد وجد العرب في بادية عطشى قليلة الماء ، لا تجري فيها الينابيع الغزيرة فضلاً عن الانهار ، لتروي الارض وتبعث الخير من بواطنها . فآمالهم بالخصب معقودة على ماء السماء . وربما حطمتهم السنة وعضتهم الفاقة لاحتباس المطر واخلاف الربيـع ، فتُظلم الدنيـا في عيونهم من صحو دائم وصفاء راتب .

وفصل الامطار قصير في الصحراء ، ولكنه مستطيل على احياء الارض لما بها من قوة كامنة ، فلا يمضي على سقوط الغيث عشر ليـال حتى ينبت الربيع كما ذكر ابن دريد : « فما لبثنا الا عشراً حتى رأيتها روضة تندى . » ولطالما نشبت الحروب واستحكمت العداوات بينهم لتزاحمهم عـلى المياه والمراعي ، كما يتزاحم اهل الحضر ويتقاتلون على المرافق الاقتصادية .

وفي الشعر الجاهلي اوصاف كثيرة للربيع تنظر الى حياتهم المادية بدافع الرخاء والشدة ، لا الى حياتهم الروحانية بعامل المتعة والشعور الباطن . فكان الربيع عندهم نجعـة للابل ومورداً للرزق ، فاذا اخطأهم اجدبت المراعي وجف الضرع وعم الجوع والبلاء . فحياة البدوي من ابله ، وحياة الابل من الكلأ ، وقديمـاً قال قائلهم : « اذا اخصبت الدهنـاء ربّعت العرب

جمعاء . » واذا ربّعوا : « غُيّبت الشفار واطفئت النار » لانهم يشربون اللبن ولا ينحرون النياق فعلهم ايام القحط وانقطاع الامطار .

وحاجة البادية الى الماء جعلت لفصل الامطار شأناً خطيراً في الشعر الجاهلي ، لان البدوي يشعر بالجوع في اواخر الصيف ، ويحزنه ان يرى العشب يابساً والغدران والآبار جافة ، وتملّه الطبيعة بصحوها المستمر وحرها الخانق ، فتأخذه الكآبة خوفاً من الجدب اذا احتبس المطر ، وضجراً من حياة متشابهة . ويظل على هذه الحال خاضعاً للقدر ، مُرجّياً تبدّل وجه السماء لتأتيه بالغيث والفرج . حتى اذا اغبر الافق وسطع البرق ، ابتهج ومضى يتأمل هذه الظواهر الجديدة مترقباً نزول المطر ، كما قعد امرؤ القيس بن ضارج والعُذَيب ينظر فرحاً الى البرق والسيل الجارف يسحو الجبال ويمترس الصحراء ، فتنقلع الاشجار ، وتتهدم الآطام الا ما بُني بالحجارة ، وتسكر الطير وتوحّل السباع :

اصاحِ ، ترى برقاً أُريكَ وميضه ،
كلمع اليدينِ في حَبيٍّ مكلّلِ [1]

وكما وقف اوس بن حجَر يتلمس السحاب وقد اطبق عليه ، وتهدلت اذياله وفجّره الرعد بالقطار :

دانٍ مسِفٌّ ، فُوَيقَ الارض ، هيدبُه ،
يكاد يدفعُه من قام بالراح [2]

---

١ اللمع : الحركة . الحبيّ : السحاب المتراكم بعضه فوق بعض . المكلل : المستدير كالاكليل ، او هو السحاب الذي تراه كأنه ألبس عشاء ، ويقال له الاكليل .

٢ الهيدب : ذيل السحاب المتدلي . الراح ، جمع راحة : وهي باطن الكف .

كأنّ فيه ، اذا ما الرّعدُ فجّره ،
دُهْماً مطافيلَ قد همّت بارشاحِ[1]

وكما ارق ملحة الجرميّ للبارق الوامض ، فابتهج به وبشر الارض بالحياة بعد البلى :

ارقتُ ، وطال الليلُ ، للبارقِ الومْضِ ،
حَبيّاً سرى يجتابُ ارضاً الى ارض

كأنّ الشماريخَ العُلى ، من صبيره ،
شماريخُ من لبنانَ بالطول والعرض[2]

يباري الرياحَ الحَضرميّاتِ مُزنُه ،
بمنهمر الارواق ، ذي قزع رفضِ[3]

يروّي العروقَ الهامداتِ من البلى ،
من العَرفجِ النجديّ ذو بادَ ، والحَمض[4]

---

١ دهماً : اي نوقاً دهماً . مطافيل : لها اطفال . الارشاح : تدريب الطفل على المشي . يقول : ان قطع السحاب تشبه نوقاً امامها اولادها ، وهي القطع الصغيرة من الغيم ، فكأنها تدربها على المشي .

٢ الشماريخ : اعالي السحاب ورؤوس الجبال . الصبير : السحاب الذي يصير بعضه فوق بعض او القطعة الواقفة منه .

٣ الحضرميات : نسبة الى حضرموت . المزن : السحاب ذو الماء . الارواق : الامطار والمياه الصافية . القزع : قطع من السحاب . رفض : متبدّد .

٤ العرفج : شجر سهلي . ذو : الذي ، وهي الطائية . الحمض : ما ملح وامرّ من النبات وهو فاكهة الابل .

ويشتد ابتهاجهم عندما تهب الريح من جهة اليمن كما هبت ريح ملحة الجرميّ من ناحية حضرموت ، فانها تأتي رُخاء وتبشر بمطر غزير وخصب قريب ، ولذلك اشتقوا معنى اليمن من الريح اليمانية ، كما اشتقوا معنى التشاؤم من الريح الشآمية لانها تأتي بالبرد والصقيع ، وتنذر بانقطاع المطر والقحط والجوع .

والبدوي يؤثر البرد في جسمه لتعوده الحرارة ، ولا سيما الفقراء في اطمارهم البالية ، والمسافرون الذين يخبطون الليل في جوف الصحراء ، حتى انهم سموا البرد نحساً لتطيّرهم منه . وقد يضطر البدوي في شدة البرد الى ان يحطم قوسه ويشعلها ليستدفئ بها ، وهي عزيزة عليه . قال الشنفرى :

وليلةِ نحسٍ يصطلي القوسَ ربُّها ،
وأقطُعَه اللاتي بهـا يتنبّلُ[1]

وقد وصف الشاعر صحراءه في بردها وحرّها ، في برقها وامطارها ، في عواصفها ورياحها ؛ واحاط بجبالها وسهولها ورمالها ، وتكلم على نباتها واشجارها الشائكة ، وذكر طيرها وحيوانها ، واخرج عن الاماكن التي يمر بها في ترحله مصوّراً جغرافياً يكاد يكون وافياً . ووصف الليل الطويل وما ينتابه في ظلامه الدامس من الخوف والارق ، وسما الى الكواكب يتبين مطالعها ومغاربها ، ويتضجر من ثباتها اذا وجد الليل طويلاً في حزنه وهمومه . قال امرؤ القيس :

---

١ الاقطع : السهام القصيرة العريضة النصال . يتنبل : يرمي النبال .

فيا لك من ليلٍ كأنّ نجومَه ،
بكلّ مُغارِ الفَتلِ ، شُدّت بيَذبُلِ[1]

وقلما خرج الى تصوير الطبيعة الحضرية الغنية بمياهها واشجارها كما وصف النابغة الفرات وهو عند الملك النعمان . ولم يستفيضوا في الكلام على البحار لان سوادهم يقطن في قلب الصحراء . وما غرروا بارواحهم فركبوا في السفن ، وكافحوا جنون الامواج ، ليترك البحر اثراً في نفوسهم كما تركت الفيافي والقفار ، فما له عندهم الا ذكر عارض نرى له مثالاً في معلقة طرفة وهو ربيب البحرين .

على ان الشاعر الجاهلي ، في ماديته الكثيفة ، لم تظهر عنده عاطفة الطبيعة واضحة جلية ، فكان ينظر اليها ويتأملها مبتهجاً او مكتئباً لمرآها ، لا يستطيع ان يعبّر عن اختلاجات نفسه نحوها ، وما يعتريها من التأثرات في نظره اليها ، ولا ان يبث الحياة فيها ، فيجعل روضتها امرأة حسناء يشتهيها ويبادلها الشعور ، او يبدع منها اشخاصاً ، على ما يوحي اليه خياله ، يحلل نفسياتهم في ما يتبادلون من الاحاديث والنظرات والحركات ، فيمثل فيهم الغيرة والحسد والمراقبة والنميمة والرحمة والاشفاق كما يفعل الشاعر العباسي والاندلسي ؛ وبالاولى ألاّ ينظر اليها نظراً شاملاً للجماعة الانسانية وما يبدو في حياتها من خير وشر وقبح وجمال ، ليجرّد منها فكرة فلسفية كما يفعل الشعراء من ابناء زماننا . وانما كانت الطبيعة عنده محط الرحال ينقلها جزئيات صوراً والواناً ، لا نقطة السير يستلهمها كلياتٍ فكرة وخيالاً ،

---

[1] مغار الفتل : اي حبل محكم الفتل . يذبل : اسم جبل .

فيختزن المحسوسات وانطباعاتها ، ثم يجمع بعضها الى بعض ، ثم يحللهـــا ويركّبها ، ويخترعها صوراً جديدة او يخلقها خلقاً مُبتكراً سويّاً. بيد انه اجـاد تصويرها من النواحي التي سلكها ، وكانت له تخيلات جميلة في تمثيلها وتشبيهها .

الخمريات

كان اهل الجاهلية اصحاب لهو وشراب ، على حد تعبير الرواة والمؤرخين القدماء ، في كلامهم على الذين هجروا الخمرة منهم بعد اسلامهم ، او الذين كانوا من المحدودين فيها ، لانهم شربوها وهم مسلمون . ويدلنا ، على مبلغ كلفهم بها وتحدّثهم عنها ، ما في المعجم اللغوي من اوضاع لها تكاد لا تقل عما للبعير من اسماء وصفات. وهذا من تنبهات الاب لامنس في كلامه على الاخطل . مع ان الصحراء ليست موطناً للكروم والمعاصر ما خلا البلدان الصالحة لغرس الاعناب والنخيل كاليمن والطائف ويثرب ووادي القرى . وذُكر انه كان للاعشى مِعصر في أثافِت ، وهي قرية يمانية ذات كروم كثيرة. والخمرة تُصنع من التمر كما تصنع من العنب ، ولم نعثر على شعر جاهلي يفرق بين الشرابين ، او بين النبيذ والراح ، وانما نجد هذا الفرق في الاسلام .

على ان الشعر الخمري يتحدث عن التجار الغرباء : يهود او نصارى ، يأتون البادية بزقاق الخمر من نواحي الشام والعراق ، ويخالطون قبائل الاعراب ، فينصب التاجر خيمة ويرفع عليها راية يسمونها الغاية ، فيُقبل نحوها الشاربون حتى تفرغ الزقاق ، فيقلع غايته ، ويقفل الى بلده. ويتحدث ايضاً عن الشعراء الذين ينزلون الحواضر ، ويشهدون فيها مجالس اللهو والشراب ، ويسمعون غناء القيان يضربن على الصنج والعود. قال الاعشى :

ومستجيبٌ ، تخالُ الصَنجَ يَسمعُه ،
اذا تُرَجّعُ فيه القَينةُ الفُضُلُ[1]

وقال لبيد :

بصَبوحِ صافيةٍ ، وجَذبِ كَرينةٍ
بمُوتّرٍ تأتالُه إبهامُها[2]

ويبدو من كلامهم ان معاقرة الخمر من علامات الفتوة عندهم كما قال طرفة :

ولولا ثلاثٌ هنّ من لذة الفتى ، وحقّكَ ، لم احفِل متى قام عُوّدي
فمنهنّ سبقي العاذلاتِ بشَربةٍ كُمَيتٍ ، متى ما تُعلَ بالماء تُزبدِ

فيفاخرون بما بذلوا من المال لاجلها ، فقد انفق طرفة ثروته عليها ولم يجد غضاضة في ذلك . واستهلك عنترة ماله مباهياً بكرمه :

واذا شربتُ فانني مُستهلِكٌ مالي ، وعِرضي وافرٌ لم يُكلَمِ

ويؤدّون أثمانها ، في الغالب ، نوقاً او جياداً او ثياباً يبادلون بها لقلة الدراهم في ايديهم . قال الأعشى :

فقلتُ له : هذه هاتِها بأدماء ، في حبلِ مُقتادِها[3]

---

١ المستجيب : العود ، سمي بذلك لانه يجيب . الصنج : آلة طرب . الفضُل : التي في ثياب فضلتها ، وهي ثياب خفيفة للبيت . وقوله : الصنج يسمعه ، اي يسكت الصنج اذا ضربت القينة على العود.

٢ الصبوح : الشرب في الصباح . الكرينة : الجارية العوّادة . بموتّر : اي ذي اوتار . تأتاله : تصلحه .

٣ ادماء : ناقة مشربة سواداً او بياضاً . وقوله : هذه ، يريد بها الخمر .

وقال طرفة :

وإذا ما شربوها وانتَشَوا ، وهبُوا كلَّ أمُونٍ وطِمِرّ[1]

وربما دفعوا ثمنها دنانير ، كما قال عنترة :

ولقد شربتُ من المُدامةِ ، بعدما
رَكَدَ الهواجِرُ ، بالمَشُوفِ المُعلَمِ[2]

ويعتدّ صاحبها بانه يشرب ويسقي ندماءه ويبذل حتى تلومه عذّاله . ويمدحون الشارب اذا انزل غاية التاجر ، اي انه اشترى جميع ما عنده من الخمر ، قال عنترة :

رَبِذٍ يداهُ بالقِداحِ إذا شَتَا ،
هَتّاكِ غاياتِ التِّجارِ ، مُلوَّمِ[3]

على ان التمدح بعقارها واغلاء اسعارها لم يصرف الشاعر عن وصفها وذكر مجالسها ، فتراه يؤثر اصطباحها عند صياح الديك او قبله ، او حين تُضرب نواقيس الكنائس لصلاة الصبح ، فيسبق انتباه العواذل الى حانوت الخمّار في فتية من اصحابه بيض كرام يحبون اللهو والمنادمة. وربما اغتبقوها مساء

---

١ الأمون : المطية التي يؤمن عثارها . الطمر : الفرس الجواد .

٢ ركد : سكن . الهواجر : اشد اوقات النهار حراً . المشوف : المجلوّ . وقوله : بالمشوف المعلم ، اي بالدينار .

٣ ربذ : سريع ، اي رجل سريع اليدين . القداح : السهام ، اي سهام الميسر . الملوّم : من تلومه عذاله مرة بعد مرة . ولعب الميسر من صفة الفتوة كشرب الخمرة ، وخص الشتاء لأنهم يكثرون فيه اللعب لتفرغهم له .

بعد ان يلطف الجو وتخف الحرارة كما شربها عنترة . ولكنهم اكثروا من ذكر الصبوح ، قال عديّ بن زيد :

ثم ثاروا الى الصبوحِ فقامت قَينةٌ ، في يمينِها إبريقُ
قدّمتْهُ على عُقارٍ ، كعينِ الد يكِ ، صفّى زلالها الراوُوقُ[1]

ووصفوا لون الخمرة من كميت او حمراء كدم الذبيح او دم الغزال ، صافية كعين الديك . وربما ذكروا العنب الذي عُصرت منه . قال مُتمّم ابن نُوَيرة :

ولقد سبقتُ العاذلاتِ بشَربةٍ ريَّا ، وراووقي عظيمٌ مُترَعُ
جَفنٌ من الغِربيبِ ، خالصُ لونه كدم الذبيح ، اذا يُشَنُّ ، مشعشع[2]

ونوّهوا بطعمها ورائحتها وقدم عهدها ، فهي تلذع اللسان ، وتنفح كالمسك ، وتسُلُّ غمامة المزكوم . وأحاطوا بأوصاف الحانة وما فيها من زقاق ودنان وأباريق و كؤوس ، كما وصفوا النديم والساقية وطاقات الرياحين وما يُصيبون من الشواء على الشراب . وعند الأعشى شيء كثير من ذلك . ولعبدة بن الطبيب قصيدة في « المفضليّات » ذكر فيها مجلس لهوه باسهاب جميل ، فأخبر انه غدا الى التاجر عند الصباح ، وقرن الشمس منفتق ، والديك يصيح داعياً اسرته . يرافقه صديق كريم محب للذّات ، فاتّكآ

---

١ الراووق : المصفاة ، والناجود الذي تروّق به الخمر ، اي الاناء .

٢ الجفن : ضرب من العنب ، وأصل الكرم . الغربيب : من اجود العنب ، او هو الاسود منه . يشن : اي يصب الماء على الشراب . مشعشع : مرقق بالماء .

على فُرُش نُقشت فيها صور دجاج واسود. وكانا في كعبة[1] يضيئها مصباح، ولديهما دنّ مقطوع الرأس، وابريق مبرّد بمزاج الماء، معقود على قُلّته اكليل من الريحان. وجرّة ضخمة مثقوبة، وقطعة من كبش مشكوكة في سفّود، يسعى بها خادم نشيط منتطق، وفوق الخوان التوابل من الخل والأبازير. فاصطبحا كُميتاً من طيب الراح صرفاً مزاجاً، وغنت لهما آنسة جيداء، حسنة الصوت، في شعر جميل الوشي، فاطربتهما، فخلعا عليها ما يرتديان من البرود والسرابيل.

ويشربونها مبرّدة بريح الشمال، صرفاً أو ممزوجة بالماء، أو بالعسل والماء. قال حسان بن ثابت:

كأنّ سبيئةً، من بيت رأسٍ، يكونُ مِزاجَها عسلٌ وماءُ[2]

وقد يدخلون عليها المسك لتطيب رائحتها، أو حب الفلفل ليشتد لذعها. قال امرؤ القيس:

كأنّ مَكاكِيّ الجِواءِ، غُدَيَّةً، صُبِحنَ سُلافاً من رحيقٍ مُفلفلِ[3]

وشربوها ممزوجة بالماء السخين جرياً على عادة الروم، وهم العرب الذين جاوروا البزنطيين او خالطوهم مثل عمرو بن كلثوم حيث يقول:

---

١ كعبة: بناء مربع.

٢ السبيئة: الخمرة المشتراة. بيت رأس: قرية من نواحي حلب تنسب اليها الخمر.

٣ المكاكي: جمع مُكّاء، وهو طير من القنابر له صفير حسن. الجواء: البطن من الأرض والواسع من الأودية. صبحن: سقين صباحاً. الرحيق: الخالص من الخمر. يقول: ان المكاكي جعلت تصفر مبتهجة كأنها سقيت خمرة مفلفلة لذعت ألسنتها واسكرتها فجعلت تصفر من حدتها وتأثير نشوتها.

مُشعشعةً ، كأنَّ الحُصَّ فيها ، إذا ما الماءُ خالطَها سَخِينا[1]

ومثل عديّ بن زيد العِبَاديّ عندما جاء دمشق من الحيرة وأقام بها مدة فقال :

قد سُقِيتُ الشَّمُولَ ، في دارِ بِشرٍ ،
قهوةً مُزَّةً بماءٍ سخينِ[2]

وذكروا سورة الخمر وتأثيرها ، وحالة السكارى في معاقرتها . قال الحادرة الذبياني :

فسُمَيَّ ، ما يُدريكِ أن رُبَّ فتيةٍ ،
باكَرتُ لذَّتَهم بأدكَنَ مُترَعِ[3]

مُحمرَّةٍ ، عَقِبَ الصَّبوحِ ، عُيونُهم ،
بمَرًى ، هناكَ من الحياةِ ، ومَسمَعِ[4]

مُتَبطِّحينَ على الكنيفِ كأنهم
يبكون حول جنازةٍ لم تُرفَعِ[5]

---

١ مشعشعة : مرققة بالماء . الحص : الزعفران .

٢ الشمول : الخمر . القهوة : الخمر . المزة : الخمر يكون طعمها بين الحلو والحامض .

٣ سميّ : مرخم سمية ، محذوف حرف النداء . رب : مخفف ربّ بالتشديد . الأدكن : اي الزق الأسود .

٤ بمرى : اي بمرأى ، على ترك الهمزة .

٥ الكنيف : حظيرة من خشب او شجر تتخذ للابل .

بكَروا عليَّ بسُحرةٍ فصبَحتُهم
من عاتقٍ ، كدمِ الغزالِ ، مُشعشَعِ[1]

ووجدوا فيها طيب العيش ولذة الحياة ، تطرد عنهم الهموم وتفرج الكرب . قال متمّم بن نُويرة :

ألهو بها يومي ، وألهي فِتيةً عن بَثّهم ، إذ ألبِسوا وتقنّعُوا[2]

وتبعث فيهم نشوة وزهواً ، فتخرجهم من دنياهم الى دنيا جديدة ، يحسبون أنفسهم فيها ملوكاً ، ويزدادون شجاعة . قال المُنخّل اليَشكُريّ :

فإذا سَكِرتُ فانني ربُّ الخوَرنقِ والسَّديرِ[3]
وإذا صحَوتُ فانني راعي الشُّوَيهةِ والبعيرِ[4]

وقال حسان بن ثابت :

ونشربُها ، فتَترُكُنا ملوكاً ، وأُسْداً ما يُنهنِهُنا اللّقاءُ[5]

وعبّروا في حبهم اياها عن شعور صادق . واحاطوها بكل كرامة ، لا يرون خيراً في مصارمتها ، حتى بعد الممات . قال ابو مِحجَن الثقفي، وهو من المخضرمين :

---

١ العاتق : الخمر العتيقة القديمة . مشعشع : مرقق بالماء .
٢ البث : الحزن والغم. ألبسوا وتقنعوا : اي صار لهم من الهم لباس وقناع .
٣ رب الخورنق والسدير : ملك العراق النعمان الاكبر ، وهما قصران له . وقيل السدير نهر قريب من الخورنق .
٤ الشويهة : تصغير الشاة .
٥ ينهنهنا : يزجرنا ويكفنا . اللقاء : الحرب حيث تلتقي الجيوش .

إذا متُّ ، فادفِنّي الى اصلِ كرمةٍ ،
تُروّي عظامي ، بعد موتي ، عُروقُها

وإذا أرادوا أن يحثّوا نفوسهم على أخذ الثأر جعلوا تحريمها حافزاً لهممهم فلا يشربونها الا بعد ادراك طلبتهم . وتواضعوا على ان يجدوا طعمها في رضاب الحبيبة ، ونكهتها في فمها ، فعل كعب بن زهير والمُرقّش الأصغر حيث يقول :

وما قهوةٌ صهباءُ كالمسكِ ريحُها ،
تُعَلُّ على الناجودِ ، طوراً ، وتُقدَحُ[1]

ثوَتْ في سباء الدنّ عشرينَ حِجّةً ،
يُطانُ عليها قَرمَدٌ ، وتُروَّحُ[2]

سباها رجالٌ من يَهودَ تباعدوا
بجَيلانَ يُدنيها الى السوقِ مُربِحُ[3]

بأطيبَ من فِيها اذا جئتُ طارقاً
من الليلِ ، بل فُوها ألذُّ وأنْضحُ[4]

---

١ القهوة : الخمر . الصهباء : الخمر الشقراء او الحمراء . الناجود : المصفاة . تقدح : تغرف بالقدح .

٢ في سباء الدنّ : اي في اسره. القرمد: طين يطلى على رأس الدن . تروّح : تبرّد بالريح.

٣ سباها : اشتراها مع تسهيل الهمزة في سبأ . جيلان : بلد من بلاد العجم . المربح : الكريم المضياف .

٤ انضح : اي اكثر ريقاً . ورويت : انصح ، اي اخلص واطيب .

وإذا وقع احد الاشراف في الاسر ولم يجد منجاة من الموت ، سال أعداءه ان يقتلوه قتلة كريمة كما سأل عبد يغوث الحارثي بني تميم ، فسقوه خمراً وقطعوا له عرقاً يقال له الأكحل ، وتركوه ينزف حتى مات . ويذكر ابن قُتيبة ثلاثة من سادات العرب شربوا الخمر صرفاً حتى ماتوا ، وهم زهير بن جناب ، وأبو بَراء ملاعب الأسنَّة ، وعمرو بن كلثوم. وكان الغضب قد استولى عليهم لما نالهم من اذية لم تصبر عليها عنجهيتهم ، فآثروا الموتة الكريمة على احتمالها . وقد يُسقى ضريح الميت خمراً اذا كان من عشاقها في الحياة . فقد ذكر الرواة ان فتيان منفوحة كانوا يأتون الى قبر الأعشى ويسكرون عنده ، ويريقون الأقداح على ترابه .

ولكن الخمرة لم تسلم من ذم بعضهم والابتعاد عنها وانكارها ، فان قيس بن عاصم اقسم الا يذوقها طوال حياته بعدما قادته الى اثم كبير ، وقال فيها :

رأيتُ الخمرَ صالحةً ، وفيها خِصالٌ تُفسِدُ الرجلَ الحليما
فلا ، والله ، أشرَبُها صحيحاً ، ولا أشفي بها ، أبداً ، سقيما !
ولا أُعطي بها ثمناً حياتي ، ولا أدعو لها ، أبداً ، نَديما !

ولم يشأ زهير بن ابي سلمى ان يمدح صاحبه حصن بن حُذيفة بن بدر بشرب الراح حتى يستهلك ماله ، بل قال فيه :

أخي ثقةٍ لا تُتلِفُ الخمرُ مالَه ، ولكنه قد يُهلِكُ المالَ نائلُه[1]

---

[1] نائله : عطاؤه .

على أن الذين شربوهـا ومدحوها اكثر من الذين هجروها وذموهـا . وزهير نفسه كرّم الخمرة حين شبّه بها ريق صاحبته فقال :

كأنَّ رِيقَتها ، بعد الكَرى ، اغتَبقَتْ
من طيّبِ الراحِ لمّا يَعْـدُ أن عَتُقَا

وذكر انه شربها مع أصحابه اذ يقول :

وقد اغـدو على ثـُبةٍ كِرامٍ ، نَشاوى ، واجدينَ لمـا نشاء[1]
لهم راحٌ وراووقٌ ومِسكٌ ، تُعَلُّ به جُلودُهُمُ ، ومـاء

وهو لم ينزه ممدوحـه عن شربها وانما نزهه عن اتلاف ماله فيهـا ليجعله مُستهلَكاً في العطاء . ولم يهجرها قيس بن عاصم لأنه مقت ارتشافها ، او رآها غير صالحة لارواء غليله وشفاء نفسه ، وانما عقّها بعدما ورطته في اقبح المعرّات. فشعراء الجاهلية ، على الاجمال ، احبوا الخمرة وشربوها وافتنّوا في وصفها ، على ما بينهم من تفاوت ، فتركوا من معانيهم وتصاويرهم اشياء لمن جاء بعدهم من شعراء الدولتين .

---

١ الثبة : الجماعة من الناس .

الحكم والمواعظ

الحِكم في الجاهلية وليدة حوادث الدهر وتجاربه، لا وليدة العلم الصحيح والتفكير العميق والتأمل الطويل. فجاءت، في كثرتها، من الحقائق البدهية والفكر المشترك، موافقة لحياة القبيلة في الصحراء، وما تواضعت عليه في ناموسها الفطري من الآداب الخلقية والاجتماعية، ترشد البدوي الى منافعه، وتبعده عن مضاره، تزين له الفضائل التي تحمدها الحمية الجاهلية كتعظيم القوة وتحقير الضعف، وظلم البعداء والحلم على الاقرباء، والعفة عن الجارة، وادراك الثأر، وصنع المعروف لنيل الثناء واكتساب الذكر الجميل، كما تزين له فضائل انسانية لا يحدها زمان ولا مكان كالامانة والوفاء بالوعد، واصطفاء الصديق، وتجنب الرياء والخيانة، واباء الذل والصبر على المصائب. ونظروا في حياتهم الاقتصادية، فتكلموا على الكسب وجمع المال وتثميره وحسن القيام عليه. قال المتلمس:

لَحِفظُ المالِ خيرٌ من بُغاهُ، وسيرٍ في البلادِ بغيرِ زادِ
واصلاحُ القليلِ يزيدُ فيه، ولا يبقى الكثيرُ مع الفسادِ

وقابل عروة بن الورد بين الغني والفقير فرأى الناس يزدرون الفقير ولا يجعلون له وزناً في مجتمعهم ولو كان عاقلاً فاضلا؛ ورآهم يعظمون الغني مبالغين في اطراء فضائله، متناسين عيوبه وما يقترف من ذنوب، فقال يخاطب امرأته:

دعيني للغنى اسعى، فإني رأيتُ الناسَ شرُّهمُ الفقيرُ
وأبعدُهمْ واهونُهمْ عليهم، وان امسى له حسَبٌ وخِيرُ[1]

---

[1] الخير: الشرف والكرم والاصل.

ويُقصيه النَّـديُّ وتزدريهِ   حليلتُه ، ويَنهَرُهُ الصغيرُ[1]

ويَلقى ذا الغنى ، وله جلالٌ ،   يـكاد فؤادُ صاحبه يطـيرُ

قليلٌ ذنبُه ، والذنبُ جَمٌّ ،   ولكن للغـنى ربٌّ غفورُ

ولم تسمح لهم بيئتهم الطبيعية والاجتماعية بان يخرجوا في آرائهم الى نُظُم اصلاحية عامة ، فجاءت حكمهم جزئية يفيد منها المجموع ، لا كلية شاملة تتوخى خير الجماعة ، وتعنى بعلاج مشاكلهـا ، ووضع الشرائع والقوانين لتقويمها وصلاحها .

وتستوقفنا ظاهرة غريبة في آرائهم وهي اسرافهم في التحدث عن الموت والدهر الذي يبلي الحياة ، ويفرّق بين الاهل والاصحاب . فاكثر شعرهم يشتمل على شكوى الزمان وصروفه وتقلباته ، ويتراءى فيه شبح الموت ماثلًا نصب عين الشاعر ، يبعث القلق في صدره ، لاستغلاق غده ، وغموض مصير النفس عليه ، فيحمله على اليأس والسأم والاستسلام الى القـدر ، او على اقتحام المخاطر واغاثة المعوزين وذوي الحاجات طلباً لحسن الاحدوثة ، او على تبديد المال ومبادرة الملذات قبل فواتها ، ما دام المرء غير مخلّد . وقلّ من كان مصير النفس لا يلتبس عليه كعديّ بن زيد لنصرانيته ، حيث يقول :

اعاذلُ ، من تُكتَبْ له النـارُ يَلقَها
كِفاحاً ، ومن يُكتبْ له الفوزُ يَسعَدِ

فلم يسعَ الى طلب الملذات كغيره بل نبّه الغافل ليصلح امره قبل ان يسابقه الموت فيسبقه :

ايهـا النائم المغفَّـلُ ابصِرْ   ان تكون المبادِرَ المَبدورَا!

---

١ النديّ : النادي .

وعمل لتأديب نفسه وتزيينها بالتقوى . ووعظ وأدّب ، فشاعت في شعره روح دينية تحيي الامل وتخفف من دلك اليأس الوثني الذي يقلق الشاعر الجاهلي . قال :

فدعِ الباطلَ والحقْ بالتُقى ، فتُقى ربّك رَهنٌ بالرَشَدْ

وتأتي حِكمهم مقترنة بالمدائح كما نجدها عند زهير والنابغة والحطيئة اذ يقول في مدح بني شماس :

من يَفعلِ الخيرَ لا يَعدَمْ جوازِيَهُ ،
لا يذهبُ العُرفُ بين الله والناس

او مقترنة بالمفاخر كما تظهر في شعر حاتم الطائي مثل قوله في العفو عن المسيء :

وأغفِرُ عوراءَ الكريم ادّخارَهُ ، وأعرض عن ذات اللئيم تكرُّما[1]

وفي شعر عمرو بن معدي كرب اذ يقول في تعريف الجمال :

ليس الجمالُ بمئزرٍ ، فاعلمْ، وان رُدّيتَ بُردا
انّ الجمالَ معادنٌ ، ومَناقِبٌ أورَثنَ مَجدا

او مقترنة بالمراثي كما نتبيّنُها في رثاء لبيد لأخيه أربد ، وفي رثاء ابي ذؤيب الهُذليّ لاولاده حيث يقول في حُكم الموت الذي لا مَردّ له :

واذا المنيّةُ انشبت اظفارَها ، الفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

---

١ العوراء : الكلمة القبيحة .

او مقترنة بالاهاجي مثل قول زهير في بني حصن :

وانّ الحقّ مَقطَعُه ثلاثٌ : يمينٌ ، او نِفارٌ ، او جِلاء

او بالشكوى والعتاب والدفاع عن النفس كفلسفة طرفة في الحياة والموت واتباع الملذات .

وقد تأتي مواعظ مجردة يقصد منها النصح والارشاد كآراء زهير في معلقته ، وآراء عديّ بن زيد في مجمهرته . ومنها قول اميّة بن أبي الصَلْت في وصف السماء والملائكة ، وسوق الهالكين الى النار وهم ينادون بالويل والثبور ، وكان امية نصرانياً على مذهب الحنيفية :

وسيقَ المجرمون ، وهم عُراةٌ ، الى ذات المقامع والنكالِ[1]

فنادَوا : ويلَنا ، ويلا طويلًا ! وعجُّوا في سلاسِلها الطِوالِ[2]

وقلما رأينا شاعراً جاهلياً يخص قصيدة كاملة بالحكم والمواعظ ، دون ان يتناول غرضاً آخر او عدة اغراض ، ولا نستثني زهير بن ابي سلمى حكيم الشعراء ، فانه على شهرته في النصح والارشاد ، كان يبث الحكم ابياتاً في مختلف اشعاره لا ينظمها مستقلة برأسها ، وان تكن معلقته حوت طائفة حسنة من آرائه الخلقية والاجتماعية . ونستثني عديّ بن زيد فانه قصر مجمهرته على تأديب النفس واطراء الفضائل ، فجاءت في مجموعها ، تدعو الى الخير

---

١ المقامع ، جمع مقمعة : وهي العمود من حديد يضرب به رأس الفيل ، وخشبة يضرب بها الانسان على رأسه .

٢ عجوا : صاحوا ورفعوا صوتهم .

والصلاح في اكتساب الصفات المحمودة ومعاملة النـــاس بالاحسان ، ومنها قوله :

فنفسَكَ فاحفَظْها من الغَيِّ والردى ،
متى تُغوِهـا يَغوَ الذي بك يهتدي

ويضرب هذا المثل الجميل الذي يذكرنا بالمثل الفرنسي المأثور : « قل لي من تعاشر اقل لك من انت » :

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينه ،
فكلُّ قرينٍ بالمُقارنِ يَقتـــدي

وآراؤهم ، في الجملة ، فردية كأصحابها ، فكل بيت مستقل بحكمته ، لا يتصل بغيره الا قليلاً او نادراً . ويغلب عليها الاسلوب الخطابي بما فيه من امر ونهي وترغيب وترهيب ، وضرب المثل السائر في البيت العائر . وربما اصطنعوا الامثال القصصية يعظون بها وينصحون ويحذّرون ، واكثرها اساطير اشتبهت فيها حقيقة التاريخ ، وتبلورت بخيال يجنح الى الاغراب ، ولكنه لا يبلغ حد الابداع ، فجاءت قصصهم جافة في معظمها ، قصيرة النفَس لا يزيد اطولها على بضعة وعشرين بيتاً ، وتكاد تقتصر على الشعراء الذين سكنوا الحضر او ترددوا في الامصار كعديّ بن زيد والنابغة والاعشى واميّة بن ابي الصلت مما يدل على ان مخالطتهم لسكان الحواضر اكسبتهم ثقافة واطلاعاً على اخبار الامم والملوك ، وما حيك حولها من الخرافات والاساطير . فعدي بن زيد اكثر من الاعتماد على الامثال القصصية في قصائده ، ولا سيا شعره الذي قاله وهو سجين ، فكان ينظمها مسلّياً نفسه ، متأسّياً

بما اصاب الشعوب الخالية من غِيَر الايام والليالي ، او ينظمها ليعظ بها النعمان ابا قابوس عارضاً عليه صور الملوك الذين اذلهم الدهر بعد عزهم ، فذهبوا ضحية الغفلة والغرور ، او ضحية الخيانة والغدر ، وغيرهم من الذين اتعظوا قبل فوات الاوان ، فتركوا الدنيا ليربحوا الآخرة . فمنها اسطورة النعمان السائح رب الخورنق والسَدير ، واسطورة جزيمة الابرش والزباء ، واسطورة صاحب الحَضْر وابنته وسابور. قال في اسطورة النعمان السائح يخاطب ابا قابوس :

وتذكَّرْ ربَّ الخورنقِ ،اذ أشرفَ — يوماً ، وللهُدى تفكيرُ
سرَّه مالُه وكثرةُ ما يَملِكُ ، والبحرُ مُعرضاً ، والسديرُ
فارعوى قلبُه ، فقال : وما غبطةُ حيٍّ الى المماتِ يصيرُ ؟
ثم بعدَ الفَلاحِ والمُلك والإِمّةِ ، — وراتْهُمْ ، هناك ، القبُور[1]
ثم صاروا كأنهم ورقٌ جَفَّ فألوت به الصَّبا والدَّبور[2]

والنابغة الذبياني اصطنع الامثال في شعره ليعظ بها قومه او ممدوحه ، فعندما اراد ان يدعو النعمان الى نبذ اقوال الوشاة ، وان يكون صادق النظر في الحكم عليه ، قص عليه اسطورة زرقاء اليمامة التي استطاعت ان تعدَّ سرب القطا الطائر بين جبلين لصدق بصرها ، وان يكن نظر النعمان مرجعه العقل ، ونظر الزرقاء مرجعه العين ، فان الصدق هو الجامع بين النظرين .

---

١ الامة : النعمة .

٢ الصبا : الريح الشرقية ، وتقابلها الدبور .

وكذلك اسطورة الحية والاخوين ، فان هدفه فيها ان يقول لقومه ان الثقة المتبادلة انقطعت بينه وبينهم كما انقطعت بين الحية واخي القتيل بعدما اخذ الدية منها واقسم لها على الوفاء ، ثم خانها وغدر بها .

والاعشى يروي لشُريح بن السموأل خبر وفاء ابيه ليأمن في جواره. وامية بن ابي الصلت يعظ. ويذكّر بانباء التوراة كقصة لوط وخراب سدوم ، وخبر ابراهيم وتضحيته باسحق . ولا ينبغي أن تغفل قصة الثور الوحشي والحمار الوحشي عند ابي ذؤيب الهذلي في عظة نفسه وتعزيتها .

وشعراء الجاهلية ، على الاجمال ، نطقوا بالحكمة وضربوا الامثال ، على تفاوتهم في القلة والكثرة ، وشارك بعضهم بعضاً في الافكار والعظات ، فترددت آراؤهم مستعادة مكرورة ، تواطأوا عليها كما تواطأوا على شتى المعاني والتعابير ، وقلما وقعت على فلسفة شخصية يتميز فيها الواحد منهم عن الآخر ، مع ما يبدو عليها من سذاجة وضعف في الاحكام وتعليل الاسباب .

•

شعراء الجاهلية

الشنفرى

حياته : احد صعاليك العرب وعدّائيها . اختلف في مولده . ترك بني سلامان عاضباً . اسطورة موته .

آثاره : أشهرها لامية العرب .

ميزته : شعره صورة لحياته المطرية الخشنة . ينقل بأمانة أخبار غاراته . يقول الحقيقة ولا يأنف من ذكر أوساخه .

حياته

هو أحد صعاليك العرب وعدّائيها ، جاهلي قديم . والمشهور ان اسمه ثابت بن اوس الازدي والشنفرى لقب له لعظم شفتيه . اختُلف في مولده فقيل انه نشأ في قومه الازد ثم أغاظوه فهجرهم . وقيل ولد في بني سلامان او انهم سبوه صغيراً فنشأ بينهم حتى عرف حقيقة أمره فهرب مضمراً لهم الشر وأقسم أن يقتل منهم مائة ،فأخذ يترصدهم ويفتك بهم حتى اذا بلغ عدد القتلى تسعة وتسعين قبضوا عليه وقتلوه وطرحوا جثته وجمجمته عرضة للضواري لتفترسه ، فمر بجمجمته رجل منهم ورفسها برجله فدخلت فيها شظية

فأماتته وتمت به المائة ، فقرّت عين الشنفرى بعد موته وبرّ بقسمه . ومثل هذه الرواية كثير في أخبار العرب فلا ينبغي التعويل عليها .

آثاره

له أشعار متفرقة في كتب الأدب وكلها في وصف غاراته وشدة بأسه، وأشهرها قصيدته المعروفة بلامية العرب ، وشك بعضهم في نسبتها اليه وأضافها ابن دريد الى خلف الأحمر ، ونسبها غيره لشعراء صدر الاسلام . على ان هذا الشك لا يضيرها من حيث تعابيرها الجاهلية وموافقتها لحياة الشنفرى وما رافقها من شظف عيش وخشونة طباع .

وقد عني بشرحها كثير من العلماء كالمبرد وثعلب والزمخشري ودرسها المستشرقون ونقلوها الى لغاتهم .

ميزته

يمثل الشنفرى في شعره الخشن حياة البدوي الغليظ الطباع ، الذي جافاه قومه فأبت نفسه الحرة ان تحمل الضيم فتركهم ساخطاً عليهم ، لأنهم خذلوه في جناية اقترفها ، وأبوا ان ينصروه . ورأى ان الأرض لا تضيق على امرىء عاقل، وان السباع التي يعاشرها أفضل منهم ، لأنها أكتم للسرّ ولأن الجاني لا يخذل عندها .

وحياة هذا الشاعر حافلة بالجرائم ، فقد كان يقطع الطرق على المسافرين يستبيح أموالهم ويسبي ظعائنهم ، او يغير على الأحياء الآمنة فيلقي الذعر فيها ويقتل ويغنم . وفي لاميته الشهيرة يصوّر أخلاقه وعاداته أحسن تصوير ويصف غارة له في الليلة المظلمة الباردة ، وعودته قبل الصباح بعدما أيّم

النسوان وأيتم الأولاد ، فيمثل بايجاز بديع حياة صعاليك العرب وغزواتهم وما يصيبهم من جوع وبرد وخوف .

يفاخر بالتشرّد والفتك والسلب كما يفاخر بفقره وجوعه وقناعته . يكره الجشع إذا مُدت الأيدي الى الطعام ، ولا يرى غضاضة في ذكر قذارته ، بل يباهي بأن حياة التصعلك منعته من الاغتسال حولاً ، حتى تعلقت الأوساخ بشعره تعلق الأبعار باذناب الابل . ومن مناقبه ان يغالب القطا في الجري فيسبقها الى ورود الماء ، ولا بدع في ذلك وهو أحد العدّائين عند العرب ، فمن حقه ان يغالي في عدوه ، وان يكن هذا الغلو لم يخرجه عن فطرته التي تتمثل في جميع شعره ، فنجده متصلاً بالطبيعة والمادة ، بارز الأنانية في تحدثه عن نفسه ، وايثاره اياها بالشرف والفضائل ، وميله الى الانفراد عن قومه لئلا تنتقص حريتها ، وتضام في كبريائها وعنجهيتها . يثور عليهم ويشكو ويتظلم لأنهم لم ينصروه في جناياته ، ولا حملوا الديات عنه ، فهم في نظره مذنبون اليه لا خير يرجى منهم ، وأما هو فليس بمذنب ، وان حمّلهم أكبر الجرائم . تلك هي الفطرة بسذاجة تفكيرها وصدق تعبيرها ، وما في صاحبها من قوة الشخصية ، وخشونة الطباع .

وليست اللامية وحدها تشتمل على هذه الصفات بل سائر شعره يجري على سجيته ، صريحاً عارياً من التكلف والتمويه ، ولا سيما تائيته التي يستهلها بالغزل فيصف صاحبته خير وصف تظهر فيه المرأة المحمودة في الجاهلية خلقاً وأخلاقاً ، على ما فيه من ايجاز ، ثم يتطرق الى ذكر صديقه تأبط شراً في غزوة غزاها معه مفاخراً بشجاعته وشدة بأسه وأخذه بثأر ابيه . وفي التائية من غريب اللغة ووحشيها ما لا يختلف عما نجده في لاميته .

المهلهل

حياته	:	شجاع يحب الخمر واللهو والنساء . اول من هلهل الشعر . اختلف بموته .
حرب البسوس	:	كليب يبغي على قومه . الناقة سراب . جساس يقتل كليباً . الايام المشهورة .
آثاره	:	اشعار في رثاء اخيه .
ميزته	:	الرثاء والتفجع . احتلافه عن الشعري . اسلوبه الخاص التكرار والغلو .

حياته

هو أبو ليلى عَديّ بن ربيعة التغلبي اخو كليب وائل وجدّ عمرو بن كلثوم لأمه ، وقيل انه خال امرىء القيس الشاعر . وزعموا انه سمي مهلهلًا لأنه هلهل الشعر اي أرقَّه ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

. . . . . ومهلهل الشعراء ذاكَ الأولُ

وعُرف بالشجاعة والاقدام، غير ان ابن سلاّم يقول : «وزعمت العرب انه كان يتكثر ويدعي في قوله باكثر من فعله .» وكان يقضي اوقاته في اللهو ومعاقرة الخمر ومصاحبة النساء فلقبه اخوه كليب «زير نساء» اي كثير الزيارة لهن . ولم يكن ينظم من الشعر الا بعض أبيات في الغزل والملاهي حتى قُتل اخوه فأهابت به عاطفة الحزن فنظم القصائد الطوال في رثاء أخيه . ونشبت حرب البسوس بعد مقتل كليب بين تغلب وبكر فأبلى فيها المهلهل بلاء حسناً حتى مات .

موته

اختلفت الروايات في موتـه ، فابن قُتيبة يقول في كتابـه « الشعر والشعراء » انه مات في أسر عوف بن مالك بن ضُبيعة في البحرين ، ومنهم من يقول انـه مات عند اخواله من بني يشكر بعدما شـاخ وضجر من الحرب . وابن الكلبي يقول : بل قتله عبدان كانا يخدمانه فمـلّا منه وكان قد اسنّ وخرف . ونسب للمهلهـل انه لما احس ان العبدين يريـدان قتله أوصاهما أن ينشدا ابنته سليمى بيتاً من الشعر وهو :

مَن مُبلغُ الاقوامِ أنّ مهلهلاً ؛ للهِ درّكما ودرّ ابيكمـا

فلما انشداها البيت اوثقت العبدين وقالت : ما اراد أبي إلا ّ ان يقول :

مَن مُبلغُ الاقوامِ أنّ مهلهلاً ، أضحى قتيلاً في الفلاةِ ، مُجدّلا
للهِ درّكما ودرّ ابيكمـا ! لا يـبرح العبدانِ حتى يُقتلا

ولا يخفى ما في هذه الرواية من التفكيه والاغراب .

حرب البسوس ٤٩٤ — ٥٣٤ (؟)

روي ان وائل بن ربيعة قاد قبائل معدٍّ كلها يوم خزازى[١] فهزم جموع اليمن ، فاجتمعت عليه معد ونادوا به ملكاً عليهم وقدموا له الطاعة ، فداخله زهو شديد وبغى على قومه حتى بلغ به بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى حماه . ويقول : « وحش ارض كذا في جواري . » فلا يهاج . ولا تورد ابل أحد مع ابله ، ولا توقد نار مع ناره . وكان له كلب صغير

١ اسم جبل قيل امتنعت فيه قبائل معد عن ملوك اليمن وهزمت جموعهم .

يقذف به في المراعي فيعوي فـلا يدخلها احد إلاّ باذنه . ويفعـل ذلك في المناهل فلا يردهـا احد إلاّ بأمره . حتى قيل «اعزّ من كليب وائل» ثم التصق تصغير الكلب باسمه من طول ترداده في الافواه فصـار يعرف بكليب وائل .

وكانت جليلة امرأة كليب من بني مُرة بن ذُهل بن شيبان ، ولها عشرة اخوة منهم جسّاس وهو اصغرهم ، فنزلت عليه يوماً خالة له اسمها البَسوس بنت مُنقذ ، ونزل بالبسوس رجل من جَرْم من أخوال جسّاس اسمه سعد ومعه ناقة اسمها سراب ، فرعت مـع ابل جساس وكانت ابله وابل كليب مختلطة لما بينهما من المصاهرة . فأبصرها كليب فانكرها ، فرماهـا بسهم خرق ضرعها فولت الناقة تعج حتى بركت بفِناء صاحبها فلما رآها صرخ : يا لِذُلّ !... فسمعت البسوس فخرجت وصاحت : «واذلاّه ! واجوار جساس ! واجوار مرّة !..» ثم انشدت تعنف بني مرّة :

لعَمْريَ لو أصبحتُ في دارِ مُنقـذٍ ،
لمَا ضِيمَ سَعْـدٌ ، وَهْوَ جارٌ لأَبْياتي

ولكِنَّني أصْبَحْتُ في دارِ غُربـةٍ ،
متى يَعْدُ فيها الذئبُ ، يَعْدُ على شاتي[1]

فيا سَعْدُ ، لا تَغْرُرْ بنَفْسِكَ وأرتَحِلْ ،
فإنَّكَ في قومٍ عنِ الجـارِ أمْواتِ

---

١ يعدو : يسطو . الشاة : النعجة . تريد ان لا احد يدافع عن حقها في جوار جساس .

وَدُونَـكَ أذوادي إليـكَ ، فإنني
مُحـاذِرَةٌ أنْ يَغْدُرُوا ببُنَيَّـاتي[1]

وسِرْ نحوَ جَرْمٍ ، إنَّ جَرْماً أعِزَّةٌ ،
ولا تَكُ فِينا لاهِياً بَينَ نِسْوَاتِ[2]

والعرب تسمي هذه الأبيات بالمُوتِبات ، لأنها اثارت جساساً ، فطلب كليباً في الحمى فطعنه من ورائـه طعنة أرداه بها . فلما وصل الخبر الى المهلهل ، وكان يشرب وهمّاماً أخا جساس ، قال : « يد جساس اقصر من ذلك . » وظل يشرب ويقول : « اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ . » وشاع مقتل كليب في بني تغلب ، فقامت عليه النوائح وشُقت الجيوب ، وعُقرت الخيول. وأقام المهلهل زمناً على قبر اخيه يرثيه ولا يفعل شيئاً سوى الوعيد حتى يئس قومه منه . ثم هبّ للقتال فدارت رحى الحرب بين بكر وتغلب . وايامها المشهورة خمسة :

١ : يوم النَّهي ، وكان لتغلب على بكر .
٢ : يوم الذنائب ، انتصرت فيه تغلب وقُتل شَراحيل اخو جساس .
٣ : يوم عُنَيزة ، تكافأوا فيه .
٤ : يوم واردات ، وكان لتغلب على بكر وقُتل فيه همام اخو جساس .

---

[1] دونك : اسم فعل بمعنى خذ . أذواد : جمع ذَود وهي من النوق ما فوق الاثنتين ودون العشر وقيل الثلاثين . تقول : خذ ما لي من النوق بدل ناقتك فاني هنـا اخاف على بناتي الصغار من الغدر .

[2] جَرْم : قبيلة الرجل . تقول : اذهب الى جرم فانها عزيزة تحميك ولا تبق هنا في قوم كلهم نساء .

٥ : يوم تَحلاق اللِمم ، انتصرت فيه بكر وأسر الحارثُ بن عُباد المهلهلَ ثم اطلقه بعدما جز ناصيته .

وذكر ان حرب البسوس دامت اربعين سنة ، وان آخر من قتل فيها جساس قتله ابن اخته الهِجْرِس بن كليب . وقيل ان الملك المنذر والد عمرو بن هند ملك العراق هو الذي اصلح بين الفريقين بعد موت المهلهل .

آثاره

أشعار متفرقة في كتب الأدب كلها في رثاء أخيه كليب وتوعد قاتليه . وقد نحله القصاصون ديوان شعر ورواية تعرف «بقصة الزير» فيهما من ركيك العبارة ، وسخيف النظم ، وضعف التأليف ما يتبرأ منه المهلهل .

ميزته — الرثاء

نُسب الى المهلهل شعر في الغزل ولكنه قليل، وفي الأغاني انه اول من استعمل الغزل في الشعر ، غير ان ميزته الشعرية ليست في غزله بل في رثائه وتفجعه على أخيه ، في رقّة عاطفته التي اكسبت شعره سهولة وليناً حتى ليدهشنا ان نجدها في شاعر جاهلي قديم عاش هو والشنفرى في عصر واحد بعدما رأينا ما في شعر هذا البدوي الخشن من متانة وشدة اسر . فكيف تمت الرقة لأحدهما ولزمت الخشونة الآخر ؟ . .

ولكي نجيب على ذلك يجدر بنا ان ندرس نشأة الاثنين والبيئة التي عاشا فيها وما رافق حياتهما من المؤثرات الخارجية . فالشنفرى عرفناه لصّاً صعلوكاً يعيش مع الوحوش في الغابات والبراري بعدما طرده قومه ، يشن الغارات في الليالي المظلمة الباردة ، فيفتك وينهب ، فلا بدع ان يكون

شعره مرآة لحياتـه الخشنة . أما المهلهل فقد نشأ في بيت كريم النجار له السيادة على قبائل معد كلها ، فانصرف الى اللهو والطرب ومعاشرة النساء ، ومعاقرة الخمر شأن الأمراء امثاله . فليس من عجب ان تلين طباعه وترق عاطفته . ثم قتل اخوه كليب وما اخوه الا عز بني تغلب ومجدهم ، فاستولى عليه الحزن والجزع فسالت عاطفته على شعره فجاء رقيقاً مهلهلاً .

وهناك نظرة عامة لا نرى بدّاً من الاشارة اليها وهي ان اكثر شعراء ربيعة لا يخلو شعرهم من لين وسهولة ، ولعل قربهم من امصـار العراق والسواحل البحرية اكسبهم هذه الرقة ، وليس من ينكر تأثـير الاقليم في النفوس ، فابن الساحل أرقّ طباعاً من ابن الجبل ، والساكن في المـدن او على مقربة منها ألين عاطفة ممن يعيش بعيداً عنها . ونحن نعـلم ان اطراف جزيرة العرب المتاخمة للعراق والشام والحبش كانت في العصر الجاهلي اكثر حضارة من غيرها ، ومن المعقول ان تؤثر هذه الحضارة في نفوس شعرائها فترق عواطفهم وترق معها ألفاظهم .

ومن فاسد الرأي ان نحصر رقة العاطفة في عصر دون آخر فهي تعيش مع العصور كلها وتكون في البدوي كما تكون في الحضري . وقد نجدها في شاعر يعيش في البادية ولا نجدهـا في آخر يعيش في الأمصار . وربَّ شاعرين يعيشان في عصر واحد واقليم واحد ، ترى في شعر احدهما رقـة وفي شعر الآخر خشونة ، كجرير والفرزدق الشاعرين الامويين ، فالفرزدق في شعره لا يقل شدة وأسراً عن اخشن شاعر في الجاهلية ، على حـين ان جريراً ألينُ منه شعراً وأرق غزلاً وعاطفة . واي وجه للشبه بين شعر أبي نواس وشعر أبي تمـام ، وكلاهما عاش في العصر العباسي الأول وكلاهمـا

اتصل بالخلفاء وحظي عندهم ، فكان شعر أبي نواس رقيقاً ليناً ، وشعر ابي تمام متيناً خشناً مع ان الثاني جاء متأخراً عن الأول .

فأما وقد عرفنا ذلك فلا نعجب اذا قرأنا شعراً رقيقاً في الجاهلية بل ينبغي ان ندرس العوامل التي أثرت في نفس الشاعر فمنحته الرقة والسهولة . وقد عرفنا العوامل التي أثرت في نفس المهلهل فأرقّت عاطفته وهلهلت شعره ، فاذا هو يسمعنا في رثاء اخيه شبيه الماء سلاسة وعذوبة ، مثال ذلك رائيته الحسناء التي قالها بعد ان دفن اخاه واقام على قبره يرثيه :

أهَاجَ قَـذَاءَ عَيْني الإذِّكَارُ ؟ هُدُوءاً، فالدُّمُوعُ لها انْحِدارُ ؟[1]
وصَارَ اللَّيلُ مُشْتَمِلاً عَلَيْنَا ، كَأنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ لهُ نَهـار

وللمهلهل اسلوب خاص في رثائه وتفجعه تظهر فيه تعابيره الشخصية ، فهو اذا الح عليه الحزن صعّد الزفرات مكررة وبدا لك منه غلوّ في تهديده بني بكر وضربه عليهم معجزات الشروط ليرضى بمصالحتهم ، ولعل الرواة استغلوا هذه الخاصة في الشاعر فاضافوا اليه ما ليس له لاننا نقرأ في اشعاره ابياتاً كثيرة فيها اسفاف وابتذال لا يصح نسبتهما اليه مهما بلغ شعره من اللين والهلهلة . وهذا ما جعل الرواة يزعمون ان الاضطراب والاختلاف

---

١ في كتب اللغة هاج : ثار وتحرك . وهاجه اثاره وحركه . ولم يرد اهاج الا بمعى ايبس . فتكون الهمزة هنا للاستفهام، وقد وقع الوصل بين البيت الاول والثاني لاتفاقهما في الانشاء لان البيت الثاني وان تكن جملة الشطر الاول منه خبرية لكن لم يُرَد بها الاخبار بل اظهار التحسر والحزن ، وهو مجاز مركب يقصد به نقل الجملة من الاخبار الى الانشاء . القذاء والقذى: ما يقع في العين فيوجعها . الهدوء: الهزيع من الليل يهدأ فيه الناس اي ينامون. الانحدار : السيلان . يقول : ان ذكر كليب اثار قذى عيني ليلاً فسالت الدموع منها .

من صفات شعر المهلهل . قال ابن سلام : « وانما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلافه . من ذلك قول النابغة :

. . . . . أتاكَ بقولٍ هَلهَلِ النَّسجِ كاذبِ »

ومن غلوه الفاحش قولهُ :

ولولا الرِّيحُ أُسمِعَ مَن بِحُجْرٍ صَليلَ البَيْضِ تُقْرَعُ بالذُّكورِ [1]

وقد قيل انه اكذب بيت قالته العرب ، وبين حجر ، وهي قصبة اليمامة ، ومكان الواقعة عشرة ايام .

منزلته

وجملة القول ان المهلهل شاعر العاطفة في رثائه وتفجعاته المتصاعدة تكراراً ، شاعر الغلو في تهديده وادعائه. وهو يمثل احسن تمثيل رقة الشعر في قبائل ربيعة ، وتأثير الاقليم والنشأة وعيشة الترف في البدوي ، وما للعوامل النفسانية حزناً او سروراً من اثر في العاطفة ، وفي الشعر الذي يُستقطر من تلك العاطفة . ويعد من الطبقة الثانية في شعراء الجاهلية .

المعلقات

هي اجود ما وصل الينا من الشعر الجاهلي ، وتسمى السُّمُوط اي العقود. قال ابو زيد القرشي في كتابه « جمهرة اشعار العرب » ان ابا عبيدة قال: اصحاب السبع التي تُسمى السُّمُوط: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة ،

---

١ البَيض ، جمع بيضة : وهي الخوذة . الذكور، جمع ذكر : اصلب السيوف وأشدها يبساً .

والاعشى ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة . وقال المفضل : من زعم ان السبع التي تسمى السُمُوط لغير هؤلاء فقد ابطل . فاسقط من اصحاب المعلقات عنترة والحارث بن حلزة واثبت الاعشى والنابغة . واعتمد ابو زيد القرشي على ابي عبيدة والمفضل في ترتيب اصحاب المعلقات فجعلهم سبعة في مقدمة كتابه ولكنه خالف ذلك عند ذكر القصائد ، فأضاف اليهم عنترة فصاروا ثمانية . ولعل المخالفة من الناسخ لا منه . وجعلهم التبريزي عشرة مضيفاً الى من ذكرنا اسماءهم قصيدة عَبِيد بن الابرص. وجعلهم الزَوزني في شرحه المشهور سبعة وهم : امرؤ القيس ، وطرفة ، وزهير ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم، وعنترة، والحارث بن حِلِّزة. وهذا ما رأينا ان نتبعه نحن.

تعليقها على البيت الحرام

اختُلف في تسميتها بالمعلقات فزعم بعضهم ومنهم ابن عبد ربه وابن رشيق وابن خلدون ، ان العرب لشدة اعجابهم بها كتبوها في القَباطي[1] بماء الذهب وعلقوها على الكعبة فلذلك سميت المُذهَبات . اما النحاس المصري وهو معاصر لابن عبد ربه فقد انكر تعليقها على البيت الحرام وزعم ان حماداً الراوية هو الذي جمع السبع الطوال وقال للناس : هذه هي المشهورات . وقيل : بل كان الملك اذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هذه، لتكون في خزانته . ويرجّح اليوم انها انما سميت المعلقات لتشبيهها بالسُمُوط التي تعلق بالاعناق، وقد دعيت المُذهَبات لانها تستحق ان تُكتب بماء الذهب لنفاستها .

---

١ القَباطي : ثياب بيض رقاق من كتان ، سميت بذلك نسبة الى اقباط مصر الذين كانوا يتعاطون نسجها .

اصحاب المعلقات السبع

امرؤ القيس*

توفي نحو منتصف القرن السادس

حياته : ولد في نجد. ابوه ملك. نشأ ميالاً الى اللهو. تهتك بشعره. طرده ابوه . مقتل والده . ذهابه الى القيصر. موته .

آثاره : ديوان شعر مطبوع . اشهر ما فيه المعلقة ثم اللامية الاخرى ثم البائية ثم الرائية .

ميزته : الشاعر والطلل . اسلوبه وشاعريته . صوره المتحركة .

درس تاريخي : والدة امرىء القيس اخت كليب والمهلهل . خلو شعره من ذكرها. اللامية الاخرى نظمت في البلاد العربية ولم تنظم في القسطنطينية تغزلاً بابنة القيصر . زار بلاد الروم غير مرة . معرفته الالفاظ الرومية . معارفه في بعلبك وحمص.

صحة شعره : ضياع شعره . الشك في بعضه . نحلوه اشعاراً ليست له .

حياته

هو امرؤ القيس بن حُجر الكندي ولد في نجد وابوه ملك على بني اسد وغطفان ، وقيل ان امه فاطمة بنت ربيعة اخت كليب والمهلهل ، وقد اختلف في اسمه، والمشهور انه يدعى جَندحاً، وله كنيتان وهما ابو وهب

---

* اي رجل الشدة .

وابو الحرث ، وتلاثة القاب وهي ذو القروح[1] والذائد[2] والملك الضّلّيل[3].

نشأ امرؤ القيس ميالاً الى الترف واللهو شأن اولاد الملوك . ونظم الشعر فتيّاً وكان يتهتك في غزله ويفحش في سرد قصصه الغرامية، فغضب عليه والده ونهاه فلم ينته ، فطرده فذهب يطوف في احياء العرب وجماعة من اصحابه ، يصطاد ويشرب الخمر وينظم الشعر وتغني له القيان . وبينا هو بدمّون من ارض الشام اتاه نعي ابيه ، وكان بنو اسد قد خرجوا عليه وقتلوه، فهب للأخذ بثأره[4] واخذ يستنجد القبائل، فلم تنجده الا قليلا . فسار الى القيصر يوستنيانوس في القسطنطينية فعطف عليه ووعده بان يساعده على الاثئار لوالده. ثم ولاه فلسطين كما يقول المؤرخ الرومي «نونوز». فرحل اليها حتى بلغ انقره فاصيب بداء الجدري فمات، ولذلك لقب بذي القروح.

ويعزى عطف القيصر على امرىء القيس لأنه كان نصرانياً مثله. على ان هذا وحده لم يكن كافياً لاهتمام يوستنيانوس بمساعدة الملك الطريد لولا طموحه الى منافسة الاكاسرة وبسط سيطرته على جزيرة العرب. ويظهر ان عقبات قامت دون بغيته فلم يستطع ان يعيد الى الشاعر ملك ابيه فعوضه منه امارة فلسطين .

وقد احاطت بحياة امرىء القيس وموته طائفة من الاساطير فرأينا ان نضرب عنها صفحاً لعدم فائدتها .

---

١ قيل انه لقب بذلك لقوله : وبدّلت قرحاً دامياً بعد صحة .

٢ لقوله : اذود القوافي عني ذيادا .

٣ لتطوافه على القبائل مستنجداً .

٤ روي انه كان على شراب لما جاءه خبر ابيه فقال : اليوم خمر وغداً امر . وقد ذكر هذا المثل ايضاً للمهلهل لما نعي اليه اخوه .

آثاره

ديوان شعر طبع مراراً، شرحه البَطَليوسي النحوي المتوفى سنة ١١٠٠ م و ٤٩٤ هـ . وله المعلقة المشهورة وهي اولى المعلقات تحتوي على ثمانين بيتاً من البحر الطويل نظمها على اثر حادثة جرت له مع ابنة عمه عنيزة ، وكان يهواها ، فوصف الحادثة ثم انتقل الى وصف الفرس والصيد والبرق والمطر.

الشاعر والطلل

يخبرنا الرواة ان امرأ القيس هو اول من ذكر الديار في شعره ، فوقف عليها واستوقف ، وبكى واستبكى في قوله :

قِفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل ...

فاستحسن العرب منه هذه الطريقة ، واتّبعه عليها الشعراء ، فاصبحت من بعده اسلوباً تقليدياً، يطوي القرون ويتخطّى الاجيال، وفي كل عصر له اتباع وانصار حتى اوائل القرن العشرين .

على ان الامير الكندي ينفي عن نفسه هذه الاولية التي اضافها الرواة اليه ، فيقول من قصيدة :

عوجا على الطلل المُحيل لعلّنا نبكي الديار، كما بكى ابن حِذامِ

فقد جعل نفسه تابعاً لغيره ، لامبتدعاً طريقة ذكر الديار والبكاء عليها ، وان كنا لا نعرف شيئاً عن هذا الباكي الاول. فلو لم يذكره امرؤ القيس في شعره ، على فرض سلامة القصيدة من النحل ، لما جاءنا عنه خبر من الرواة الاقدمين . قال ابن سَلاّم في طبقات الشعراء: «هو رجل من طيء لم يُسمع شعره الذي بكى فيه، ولا شعرٌ غيرُ هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس.» ويختلف الرواة في ضبط اسمه ، فيقول بعضهم انه ابن خـذام بالخاء

المعجمة ، وبعضهم الآخر يرويه ابن حُمام ، ولكنهم يقتصرون جميعاً على هذا الحد من التعريف به والتحدّث عنه لجهلهم حقيقة امره .

وسواء لدينا صح وجود ابن حِذام او لم يصح ، وسواء بكى في شعره او لم يبكِ ، فان الوقوف على الديار شيء طبيعي عند القبائل المترحلة ينشأ مع الشعب ، ولا يُعرف له بَدء ولا مبتدىء . فان البدوي المتنقل في صحرائه لا بد له من المرور بارض كان ينزلها من قبل ، فتعوده ذكريات حبيبة الى قلبه تستثيرها بقايا الرسوم الدوارس من نُؤْيٍ ودِمنة وموقِد ، فيقف عليها وفي نفسه حنين الى ايامه الخالية . فغير عجيب ان يبُثّ خواطره شعراً باكياً ، اذا كان من الشعراء ، وانما العجيب ان يُعرَف هذا الشاعر الذي وقف قبل غيره وبكى في عصر لم يكن ابناؤه مؤهّلين لتدوين ادبهم وحفظه في الصحف ، فيرجع اليها الباحثون في خصائص الشعر الجاهلي وتطوّراته ، لا ان يكون المحفوظ لديهم ما تناقله الرواة شفهيّاً بعضُهم عن بعضٍ او عن القبائِل البادية ، مع ما في رواياتهم من خبط ونحلٍ وفقر الى التحقيق والتمحيص .

ولئن فاتنا شعر ابن حِذام لنتبين منه كيف ذكر الديار وبكى عليها ، لقد جاءنا شعر عن اشخاص عاصروا امرأ القيس او تقدموه يحمل الينا صوراً جليّة عن مذهب الوقوف والبكاء ، مما يدُلّ على ان هذه الطريقة كانت شائعة مشتركة بين شعراء الجاهلية ، لا ينفرد بها احدهم عن الآخر . فنجدها عند الحارث بن عُباد اليَشكُريّ ، والمُرقِّش الاكبر ، وبِشر بن ابي خازِم الاسَديّ . قال الحارث بن عُباد ، وكان معاصراً لكليب والمهلهل وشهِد حرب البَسوس :

هل عرَفتَ الغَداةَ رَسماً مُحيلا، دارساً ، بعد أهله ، مجهولا ؟

وقال المُرقّش الاكبر :

هل تَعرِف الدارَ عفا رسمُها ، الا الأثافيَّ ومَبنى الخِيَمْ ؟

أعرِفها داراً لأسماءَ ، فالدمع ، على الخدَّينِ ، سَحّ سجَمْ

وتظهر هذه الطريقة واضحة في شعر عَبِيد بن الابرص الأسديّ، وكان نديماً لوالد امرىء القيس ملك بني اسد وربيعة ، ثم انقلب عليه منحازاً الى قبيلته الغاضبة لما لقيت من جور الملك الكِندي ، ولم تلبث ان انتقضت عليه وقتلته . فاخذ امرؤ القيس يهدد بشعره بني اسد ، وعَبيد يرُدّ عليه مدافعاً عن قومه .

وقد اكثر عبيد من ذكر الديار والبكاء عليها ، ولم يَفُتْه استيقافُ الصَحْب كما فعل امرؤ القيس في معلقته ، فمن قوله :

أمِن منزِلٍ عافٍ ومِن رسمِ اطلالِ
بكيتُ ، وهل يبكي من الشوق امثالي ؟

وقوله :

دار وقفتُ بها صَحبي أسائِلُها ،
والدمع قد بَلَّ مني جَيبَ سِربالي

فهذان البيتان يذكّران اسلوب الشاعر الكِندي ، ويعطيان أمثِلةً صالحة عن الطريقة التقليدية التي يُضيفها الرواة اليه . فهل تأثر الشاعر الشيخ باسلوب الشاعر الفتى ، فتوسّمه في الوقوف والاستيقاف والبكاء على الديار ؟ ام هل تلمذ امير بني كندة لنديم ابيه ، فسار على خُطاه ، واشتقّ اسلوبه من اسلوبه ؟

قد يحتمل الامران ، وان كنا نؤثر امرأ القيس على عبيد ، ونعلم انه اقدرُ على الابداع من شاعر بني اسد . ولكن الاسلوب التقليدي ، كما يظهر ، كان شائعاً في عصر الملك الضِليل او قبل عصره . فأكثر الشعراء وقفوا واستوقفوا واستنطقوا الديار وبكوا عليها . ولعل شاعرنا الكندي ظهر على غيره ، في هذه الطريقة ، لمكانته الملوكيّة من جهة ، ثم لاستطالته في الشعر على معاصريه من جهة أخرى . وليس علينا ان ننسى معلقته وسواها من قصائده التي لا يقف امامها شعر عبيد وغيره من الجاهليين المتقدمين . وكذلك ابتداءاته التي ذكر فيها الديار ، ولا سيما مطلعُ معلّقته ، فانه أجمعُ كلمة لطريقة الوقوف والاستيقاف والبكاء والاستبكاء حتى ضُرب به المثل ، فقيل : اشهر من قِفا نبكِ . ولم يبق شاعر في الجاهلية وصدر الاسلام الا اعتمد هذه الطريقة وطبع على غِرارها . حتى جاء العصر العباسي ، فتبنّاها ولكن بعدما حلاّها بالوشي الجديد والاستعارات الحضرية . ولم تحرَم في القرن العشرين شعراء يحنون اليها .

اسلوبه وشاعريته

اذا كان الشاعر الذي يحدثنا عن ذاته راوياً اخباره في صلاحها وفسادها ، كاشفاً عن خبايا نفسه في لذاتها وآلامها ، يدعى شاعراً شخصياً ، فأولى منه بهذا اللقب شاعر يترك من اسلوبه طابعاً متميزاً يُعرف به ويُنسب اليه مهما يكثر مقلدوه .

وكان امرؤ القيس شاعراً شخصياً في ظهور ذاتيته لا يأتلي ان يطالع الناس بأحواله واسرار حياته ، يقص احاديث لهوه بـ«آنسة كأنها خط تمثال» . ولا يغفل عن لهوه بالصيد عادياً على «كميت» وراء «الهاديات» .

وهو في اثناء هـــذا وذاك يطل بجلالته الملوكية مستخفاً « باحراس ومعشر » لا يقدمون على قتله جهاراً « عليّ حراصاً لو يُسرّون مقتلي » تاركاً بعل سلمى « كاسف اللون والبال » ...

يغِطُّ غطيط البَكر شُدَّ خِناقه   ليقتلني ، والمرء ليس بقتّـــالِ

مغتدياً الى الصيد تتبعه الحاشية شأن الملوك ، وتنضج الطهاة له « صفيف شواء او قدير معجل » ساعياً لمجده المؤثل « وقد يدرك المجد المؤثل امثالي» لاحقاً بقيصر ليسترجع ملك ابيـه « نحاول ملكاً او نموت فنعذرا » .

ولو اقتصرت شخصيـة امرىء القيس على ظهور ذاتيته لأمسى عادياً في الشعراء . ولكنه كان الى ذلك شخصي الاسلوب ، متميز الطابع ، فتح كنوز الشعر لمن جاء بعده ، وهداهم الى اغراضه وفنونه ، فترسموه وساروا على طريقـه ، عصوراً واجيالاً ، ينتحلون اسلوبه ، ويطبعون على غراره ، ولا يدركون له شأواً .

وقلما قرأنا لشاعر قديم ، او محدث غارق في القديم ، الا رأينا صورة امرىء القيس ماثلة خلال سطوره ، حتى الذين حاولوا التجديد في العباسيين ، كأبي نواس ، كانوا الصق الناس به في ابتعادهم عنه .

فهذا الاسلوب الذي كُتب له العمر الطويل ، ولا ينفك يستأثر بطابع صاحبه ، هو الذي حمل الرواة الاقدمين على ان يجعلوا له خصائص واوليات لا يسعنا الا ذكرها مع ما قدمنا من الاعتراض عليها في كلامنا على الشاعر والطلل . فمن التقليد المتعارف عند الرواة ان الشاعر الملك سبق الى اشياء ابتدعها ، فاستحسنتها العرب ، واتبعته عليها الشعراء . فكان اول من وقف على الطلول واستوقف ، وبكى واستبكى ، واول من قيّد الاوابد ، وشبّه

النساء بالظباء والبيض ، والخيل بالعقبان والعصي، واجاد في التشبيه ، وارقّ النسيب ، وفصل بينه وبين المعنى .

وكتب الادب قديمها وحديثها تتفق على ترديد هذه الرواسم كلما تكلمت على شاعرية امرىء القيس وتقدمه في الشعراء . وبهذه الاوليات يميزون اسلوبه، وان تكن لا تعطينا الا صورة مصغرة عنه . ونحن انما نفهم الاسلوب في معناه الشامل أي ما تناول الموضوع والروح واللغة والفن. ولا نستطيع ان نستجلي شخصية الشاعر في اسلوبه الا اذا اخذنا شعره من هذه النواحي والممنا بميزاتها .

وقد علمنا انه شخصي الموضوعات، تدور اغراضه على حوادثه واخباره . فاذا تتبعناها الفيناها تختصر في غزله وذكر مغامراته الحبية، وصيده وجواده، وطوافه على القبائل يمدح انصاره ، ويهجو اعداءه وخاذليه ، وسفره الى القسطنطينية يستنجد القيصر ليساعده على استرجاع ملك ابيه. وهذه الأغراض قائمة على ركنين من الفن : الوصف والقصص ، تطفو عليهما ذكريات عميقة ، فيها شعور قوي باللذة ، وفيها شعور قوي بالالم . ويتجاذبها من الصوبين تعهر واستسلام الى الشهوات والملاهي، ونفحة من عزة الملوك وترف الامراء .

ويصف امرؤ القيس ويقص، وقلما قاده الوصف والقصص الى التفصيلات والتحليلات النثرية ، فيهبط من جوه الشعري ، لانه يتناول هذين الفنين ، في الغالب ، لمحاً ووثباً ، فيلقي نظراً شاملاً على المرأة والجواد والطبيعة ، ويخرج لها صوراً متعددة الاشكال تحيط بالموصوف على انواعه، ولكنها لا تقتصر على نقله نقلاً آلياً ساذجاً بصورته ومثاله، بل تستوحيه احياناً لتخلقه

خلقاً عبقرياً جديداً فيه شيء من الحقيقة وفيه اشياء من الخيال المبدع كقوله في صفة الجواد :

مِكرٍّ مِفرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ معاً ،
كجُلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علِ

او قوله في صفة الليل الطويل :

فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه ، وأردَف أعجازاً ، وناء بكَلكَلِ

وامثال هذه الصور البارعة كثيرة في شعره .

واذا روى خبراً لا يسترسل في سرده وتفصيله بل يوجزه في بضعة ابيات، يشتمل قليلها على الحوار اللذيذ وعلى تصوير نفسيات الاشخاص وعواطفهم . ولا يخرج عن كونه شعراً قبل كل شيء. ولنا مثال على جمال قصصه قوله:

سموت اليها ، بعدما نامَ اهلُها ، سُموَّ حَبابِ الماء حالاً على حالِ

وما بعده من ابيات اخبارية تعطينا صورة جلية عن الشاعر المتهتك المغامر ، الساخر بمن دونه ، المعتز بسيفه وسهامه . وترينا زوجاً ضعيفاً ، يرى الفضيحة على اهله فتخنقه الغيرة، فيهدد ويتوعد ولكنه لا يصنع شيئاً. وتبرز لنا صورة مغشاة للمرأة في خوفها وحذرها ، في ضعف ارادتها واستسلامها .

واللمحات القصصية يحفل بها شعر الملك الضليل ممتزجة بالوصف اللماح وكلاهما يعتمد على صناعة التشبيه خصوصاً ، والاستعارات والكنايات عموماً. والتشبيه ركن عظيم في شعر صاحبنا، لا يتخلى عنه في اظهار صوره والوانه . يستمده على الغالب من الطبيعة ، ولا يبالي ان يأخذ ما نستهجنه اليوم ونجده منحطّاً عن المشبَّه به . ولكن علينا ان لا ننسى انه شاعر

بدوي فطري وان كان ملكاً مترفاً . والفطرة لا تتأبى هذه الاشياء التي نتأباها نحن . فمن العدل ان ننظر اليه بعين عصره حين نسمعه يقول :

ايقتُلني وقـد قطرتُ فؤادَهــا ،
كما قطـَر المهنوءةَ الرَجُـلُ الطالي[1]

او يقول :

وتعطو برخصٍ غـير شَثنٍ كأنه
اساريعُ ظبي ، او مَساويكُ إسحِلِ[2]

والاساريع دود صغار شبه بها الاصابع في طراوتها .

وقـد يتناول التشبيه من الحجارة الكريمة والطيوب المتنوعة ، والحرير والدمقس والمرآة ، مما يدل على نعمته وترفه ، لان هذه الاشياء لم يعرفها في الجاهلية غير الموسرين والأمراء .

وجمال التشبيه عنده يقوم على غرابته وبُعد متناوله ، وما فيه من التصوير والتمثيل ، والحركة ، كقوله :

اصاحِ ترى برقاً أريك وميضَه ، كلَمعِ اليدين في حَبيٍّ مُكلَّلِ[3]

---

١ قطر البعير : طلاه بالقطران . المهنوءة : الناقة المطلية بالقطران . يقول : أيقتلني وانا لم افعل شيئاً غير اني شفيت قلبها الجريح اذ طليته ببلسم الحب كما تطلى الناقة الجرباء بالقطران فتزول عنها الآلام . وليس بمستنكر على شاعر في الجاهلية ان يأتي بهذا التشبيه الخشن ، فالتشابيه تختلف باختلاف العصور والامكنة وما نراه اليوم قبيحاً مكروهاً كان بالامس مستحباً حسناً . وفي هذا البيت اشباع كما لا يخفى ، والاشباع مألوف في شعر المتقدمين .

٢ تعطو : تتناول. الشثن : الخشن الغليظ. اسحل : شجر دقيق الاغصان تصنع منه المساويك، فشبه بها بنان الحبيبة في الدقة والاستدارة .

٣ الحبيّ : السحاب المتراكم . المكلل : الذي صار اعلاه كالاكليل .

او قوله :

فعنّ لنا سربٌ كأنّ نِعاجَــه عذارى دَوارٍ في مُلاءٍ مُذيّل[1]

وهذا النوع كثير في تشابيهه ، ويزيده حسناً ما يطوف به من غموض مستحب ، لا نتبين فيه وجه الشبه الا استشفافاً ، فنلمحه لمحاً خفيفاً ، ولا نستوضحه جلياً ، فيترك في انفسنا اثراً للذة ، ونحن نتتبعه ونتقصاه على غير خيبة تامة .

وسر الجمال في تشابيهه التصويرية ان المشبه به لا يشتمل على وجه تام للشبه ، انما فيه ناحية خفية تجمعه بالمشبه . فهذه الناحية البعيدة يلمحها الشاعر بقوة تصوره ويعتمد عليها في الجمع بين شيئين هما في حقيقتهما لا يجتمعان ، كقوله :

سموت اليها ، بعدما نام اهلها ، سُموّ حَباب الماء حالاً على حال

او قوله :

مِكَرّ مِفَرّ مُقبــل مدبر معاً ، كجُلمود صخر حطّه السيل من عَل

فلولا الصورة التمثيلية التي نجدها في البيتين لما كان من جامع بين الشاعر والماء ، وبين الجواد والصخر ، فقد جعل من خفة حركة الماء في تصاعد

---

١ عنّ : عرض وظهر . السرب : القطيع . النعاج : يراد بها هنا اناث بقر الوحش . العذارى : الابكار ، مفردها عذراء . الدوار : حجر كان عرب الجاهلية ينصبونه ويطوفون حوله تشبهاً بالطائفين حول الكعبــة اذا نأوا عنها . الملاء ، جمع ملاءة : وهي القطعة من القماش اذا كانت ذات لفقين . المذيل : طويل الذيل . يقول : فعرض لنا قطيع من بقر الوحش كأن اناثه عذارى يطفن حــول الدوار . وشبّه المها في بياض الوانها بالعذارى لانهن مصونات في الخدور لا يغير ألوانهن حر الشمس . وشبه طول اذنابها بالملاء المذيل وحسن مشيها بحسن تبختر العذارى .

حببه شبها بخفة وصوله الى حاجته دون ان يحدث جلبة . وجعل من الصخر الذي حطه السيل من جبـــل عالٍ فمضى يتقلّب ظهراً لوجه ، يتنزى على الصخور يمنة ويسرة ، هبوطاً وارتفاعاً ، جامعاً بينه وبين جواده في سرعة كره وفره ، حتى لا يفرق بينهما لشدة اندفاعه .

وهذا الغموض الذي نقع عليه في شعر امرىء القيس ، سواء كان بتشبيه او بغير تشبيه ، يمكننا ان نعده من محاسن اسلوبه ، لانه ليس من الشعر المغلق المعمى الذي يتيه القارىء في دياميسه دون ان يجد لها منفـــذاً ، وانما هو ذلك اللمح الذي اشار اليه البحتري بقوله :

والشعرُ لمحٌ تكفي اشارته ، وليس بالهَذرِ طُوّلت خُطَبُهْ

او هو ذلك الغموض الذي عرّفه ابو اسحق الصابي فقال : « ان طريق الاحسان في منثور الكلام يخالف طريق الاحسان في منظومه، لان الترسُّل هو ما وضح معناه ، واعطاك سَماعَه في اول وهلة. وافخر الشعر ما غمض فلم يُعطك غرضه الا بعد مماطلة . »

ولامرىء القيس لغة تتجاذبها صلابة البدوي وخشونته ، ورقـة المتحضر المترَف وسلاسته ، فيها ايجاز بليغ امتازت بـه لغة الجاهليين على السواء ، وفيها تعابير اختص بها الشاعر واصطلح عليها ، فرددها غـير مرة في شتى قصائده ، فما نخطىء نسبتها اليـه عندما نقع عليها كقوله : « وقد اغتـدي والطير في وكناتهـا ، بمنجرد قيد الأوابد ، درير كخذروف الوليد ، له ايطلا ظبي وساقا نعامة ، الخ ... » فعُرفت له هذه الأشياء وأمثالهـا وهي بعض خصائص اسلوبه .

وامتازت لغته بالروعة الفنية فكانت خير صلة بينه وبين قارئه ، تؤدي

ألفاظه مهمتها في التعبير عن حالته التي يحسها ويتصورها ، وفي الايحاء الذي يحمل القارىء الى دنيا الشاعر فيجعل حاله كحاله مستمتعاً بمتعته . وهذا حد الفن في الأدب ، فالشاعر الذي تعجز ألفاظه عن تأدية فكرته واحساسه وخياله ، يسقط أدبُه لأن قيمة الأدب بنقله الى القارىء ، وطبيعي ليس الى اي قارىء كان ، وانما نريد به من حصلت له ملكة التذوق الأدبي .

ففي شعر امرىء القيس من الانسجام والائتلاف اللفظي ما يبعث منه اجراساً موسيقية تتناولها الاذن بلذة ، فتدفعها الى النفس بما فيها من ألوان وتصوّر وشعور . وقد تكون لغته الشعرية مألوفة الاستعمال تعبر بحقيقة معاني ألفاظها تعبيراً قوياً عن حالته النفسية كقوله :

« قِفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » .

وقد تكون غير مألوفة الاستعمال يخلقها الشاعر خلقاً ، ويعطي ألفاظها معاني رمزية مجازية ، فيها من قوة الايحاء ما تعجز الألفاظ الحقيقية ان تقوم به فيما لو اريد التعبير بها عن هذه الفكرة في قوله :

فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه ، وأردف أعجازاً ، وناء بكَلكَلِ

والأجراس الموسيقية تقوم اما على ألفاظ مفردة « يغط غطيط البَكر » او على انسجام التركيب كمطلعه « قفا نبك » او على تداعي الحروف والحركات « مكرٍّ مفرٍّ مقبل مدبر معاً » تدفعها جميعاً تموُّجات تطول وتقصر بحسب الحالة التي تستدعيها . فالتموُّجات القصيرة في « مِكَرٍّ مِفَرٍّ » ملائمة كل الملاءمة لسرعة الجواد في عدوه ، والتموجات الطويلة في قوله :

وليلٍ كموجِ البحر ارخى سدولَه علَيّ بانواعِ الهموم ليبتلي

يتطلبها طول الليل ، وهذا النفَس الممتد الذي يقصر عنه البحر الطويل .

والايحاء الذي تتولى الالفاظ توليده يجعلنا نقبل، ونحن في نشوة الأدب، آراء وافكاراً نرفضها عندما نعود الى حياتنا العادية . فالقطعة القصصية التي يحدثنا بها الشاعر عن زيارته الليلية لسلمى، تأباها الأخلاق القويمة، وترفضها الشرائع الدينية والمدنية . بيد اننا نقبلها في الأدب على غير ارادة منا، فتبتهج بها نفسنا، ونستمتع بجمالها الفني دون ان نشعر بقبحها، لأن النفس في مثل هذه الحال تأخذها أخذاً سامياً مطهّراً للعواطف Catharsis على حد تعبير ارسطو . ففضل الادب الخالص ان فيه جمالاً خاصاً لا يشاركه فيه الجمال الذي اصطلحنا على اعتباره، ولا يشوهه القبح الذي نستنكره ونبتعد عنه، إلاّ اذا حكّمنا العقل والمنطق فيه. وشعر امرىء القيس يتحلى بهذا الجمال الفني على ما فيه من قبح وفجور، فكيف به لو خلا منهما .

وبهذا يتميز اسلوبه كما يتميز بروحه ولغته وموضوعاته . وباسلوبه استطاع ان يكون شاعراً شخصياً، كما كان شاعراً شخصياً في ظهور ذاتيته، وبه وحده تجلت عبقريته، فاعترف الناس له بامارة الشعر، ولم يطمع فيها يوماً، ولا خطرت له ببال .

درس تاريخي

قلنا في ترجمة امرىء القيس: «وقيل ان امه فاطمة بنت ربيعة، اخت كليب والمهلهل»، وهذا هو المشهور عنه . غير اننا لا يسعنا ونحن ندرس شعره، إلاّ ان ننظر الى هذا النسب بشيء من الاحتياط والشك . فليس في اشعار الملك الضلّيل ما يدلنا على هذه القربى حتى نؤمن بها، فلو كان كليب والمهلهل خاليه لما استنكف ان يذكرهما مفتخراً، او ان يشير الى الوقائع التي انتصر فيها التغلبيون على البكريين في حرب البسوس .

ورُبَّ معترض يقول ان شعر امرىء القيس ضاع أكثره لتقادم العهد ولم يصل الينا منه غير القليل . ونحن لا نخالفه في ذلك ، ولكن هذا القليل كان كافياً للدلالة لو صحَّت القربى. فلامرىء القيس قصيدة يفتخر بها ويذكر اخواله وأعمامه اذ يقول :

خالي أبنُ كَبشةَ قد عَلِمْتَ مَكانَه ، وأبو يَزيدَ ورَهْطُهُ أعْمامي

فمن هذا ابن كبشة ؟.. انه غير كليب والمهلهل ، فما كان ابنا ربيعة ينتسبان يوماً الى « كبشة » ولو اراد امرؤ القيس احدهما لذكر اسمه واستقام له وزن البيت . ولكنه يشير الى سواهما لأنهما ليسا بخاليه .

على ان هذا لا يمنع ان يكون والد امرىء القيس تزوج فاطمة بنت ربيعة ، الاّ ان الشاعر ليس منها بل من ضرة لها . ولعل فاطمة هذه هي التي تعشَّقها وتغزل بها في معلقته اذ يقول :

أفاطِمَ ، مَهْلًا بعضَ هذا ٱلتَّدَلُّلِ ،
وإنْ كنتِ قد أزمَعْتِ صَرمي فأجْمِلي[1]

أغَرَّكِ مِني أنَّ حُبَّكِ قاتِلي ،
وأنَّكِ مَهْما تأمُري القَلبَ يَفعَلِ ؟

وحبه لامرأة ابيه مشهور وقيل ان والده طرده من اجل ذلك .

وزعم الرواة انه أحب ابنة القيصر وانها هي التي اشار اليها بقوله :

سَمَوتُ إليها ، بعدَما نامَ أهلُها ،
سُموَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ

---

١ صرمي : هجري . اجملي : اتّئدي واعتدلي .

وقيل ان اباها علم بأمرهما فزوجه اياها . اما نحن فنرى ان القصيدة نُظمت بعد موت والده ولكن قبل سفره الى القسطنطينية ، ودليلنا على ذلك ان الشاعر يقول قبل ان يسمو اليها :

تَنوَّرْتُها مِنْ أذْرِعاتٍ وأهلُها
بِيَثرِبَ أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ[1]

فأين يثرب من القسطنطينية ؟..

ويقول ايضاً في مكان آخر :

فأصْبَحْتُ مَعْشُوقاً وأصْبَحَ بَعْلُها
عليه قَتَامٌ ، كاسِفَ اللَّونِ والبالِ[2]

فانت ترى انه يتغزل بآنسة متزوجة والرواة يحدثوننا ان ابنة القيصر كانت عزبة وقد تزوجها امرؤ القيس . وهبها كانت ذات بعل فليس من المعقول ان يسخر الشاعر بزوجها ويحتقره ، وهو صهر القيصر ، أو ينسب اليه الضعف والخنوع والمذلة ، وهو اعز منه جانباً ، في كنف ملك يفزع اليه امرؤ القيس طريداً مستنجداً ينشد عرشه الهاوي .

ودليلنا على انه نظم القصيدة بعد موت والده هو قوله :

فلو أنَّني أسْعَى لأدنى مَعِيشَةٍ
كَفاني ، ولم أطلُبْ ، قليلٌ من المالِ

---

١ تنوّر : نظر النار من بعيد . أذرعات : بلد في الشام ينسب اليه الخمر . يثرب : مدينة الرسول . يقول : نظرت نارها من اذرعات وهي في يثرب فابتهجت لمرآها لأن ادنى شيء من دارها هو امر عظيم عندي . والرؤية هنا قلبية لبعد المسافة بين المكانين .

٢ بعلها : زوجها . القتام : الغبار الاسود او السواد والظلام . يقول : أصبحتُ لها عشيقاً واصبح زوجها وقد عرف بأمرنا ، مسود الوجه ، مغير اللون ، مكسور الخاطر .

ولكنني أسْعَى لِمَجْدٍ مُؤثَّلٍ ،
وقد يُدْرِكُ المَجْدَ المُؤثَّلَ أمثالي[1]

فهو يشير هنا الى سعيه لاسترجاع ملك ابيه .

وحدثنا الرواة ان امرأ القيس سافر الى القسطنطينية مستغيثاً بقيصر ، ولم يذكروا له غير هذه السفرة الى بلاد الروم . على اننا نعتقد ان الشاعر عرف تلك البلاد قبل التجائه الى مليكها ، واطلع على حضارتها فأثرت في خياله الشعريّ فوسعته ، وظهر هذا التأثير في تشابيهه اللطيفة ، وابتكاره للمعاني والألفاظ. ودليلنا على ان معرفته لبلاد الروم لا تقتصر على الزيارة الأخيرة ، قوله في معلقته :

مُهَفْهَفَةٌ بَيضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ ، تَرائِبُها مَصْقُولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[2]

فاستعماله لفظة السجنجل وهي روميـة الأصل ينبىء اختلاطه بالاروام قبل نظم المعلقة وقبل مقتل ابيه . وله قصيدة يصف بها سفره الى قيصر مستنجداً على بني اسد ، يقول فيها :

لقد أنكَرَتْني بعلَبَكُّ وأهْلُها ،
ولابنُ جُرَيْجٍ في قُرى حِمْصَ أنكَرا

فانكار بعلبك واهلها ، وانكار ابن جريج له دليل على انه يعرف تلك البلاد وله فيها معارف وخلان .

---

١ المؤثل : الأصيل العريق .

٢ المهفهفة : اللطيفة الخصر الضامرة البطن . المفاضة : المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم . الترائب ، جمع تريبة : عظام الصدر او ما بين الثديين والترقوتين . السجنجل : المرآة ، رومية معربة . يقول : هي امرأة دقيقة الخصر غير عظيمة البطن ولا مسترخية اللحم وصدرها براق اللون مصقول كالمرآة .

ولا بدّ لنا ، ونحن ندرس شعر امرىء القيس ، ان ننظر فيه الى صحيحه من منحوله ، فقد نُسب الى الملك الضلّيل ما ليس له كما نُسب الى غيره من الشعراء الأقدمين . ولسنا نزعم اننا نبلغ الحقيقة كلها في درسنا هذا ، اذ من الصعب الوصول الى نتيجة تامة في مثل هذه الأمور . على اننا نرجو ان نأتي بشيء لا يخلو من فائدة .

من المعلوم ان شعر امرىء القيس ضاع اكثره لبُعد ايامه ولم يصل منه الا النزر اليسير . ولكن هذا النزر اليسير لم يسلم من النحل والاصطناع . فالرواة انفسهم يشكّون في هذه الأبيات من المعلقة ، ويضيفونها الى تأبط شرّاً ، وهي :

وقِرْبةِ أقْوامٍ جَعَلْتُ عِصامَهَا
على كاهِلٍ مِني ذَلُولٍ مُرَحَّلِ [1]

وواد ، كَجَوفِ العَيْرِ ، قَفْرٍ قطعتُهُ ،
بهِ الذئبُ يَعْوي كالخَلِيعِ المُعَيَّلِ [2]

---

[1] القربة : الجراب يحمل فيه الماء . العصام : وكاء القربة اي رباطها. الكاهل : اعلى الظهر. المرحّل: المعتاد الحمل. يقول: انه تعوّد خدمة الرفقاء في السفر بحمله قربة الماء على ظهره.

[2] الجوف : باطن الشيء . العَير : الحمار. الخليع هنا : المقامر . المعيل : الذي كثر عياله . وتشبيه الوادي ببطن الحمار بني على اسطورة قديمة رواها الزوزني في شرحه المعلقة وهي : ان رجلاً من بقية عاد اسمه حمار كان متمسكاً بالتوحيد فسافر بنوه وأصابتهم صاعقة فأهلكتهم فأشرك بالله وكفر بعد التوحيد فأحرق الله امواله وواديه فلم ينبت بعده شيئاً ، وقد غيّر الشاعر اللفظ الى ما وافقه في المعنى لاقامة الوزن . المعنى : رب وادٍ كوادي الحمار في الخلاء من النبات والانس طويته سيراً وكان الذئب يعوي فيه من فرط الجوع كالمقامر الذي كثر عياله وهو يصيح بهم ويخاصمهم اذ لا يجد ما يرضيهم به .

فقُلتُ له لمّا عوَى : إنّ شأننا
قليلُ الغِنى ، إنْ كنتَ لمّا تمَوّلِ [1]

كِلانا إذا ما نالَ شيئاً أفاتَهُ ،
ومَنْ يحترِثْ حرْثي وحرْثَكَ يهزِلِ [2]

ونحن نرى ان حمل القربة وقطع الأودية الخالية ومعاشرة الذئاب والافتقار وهزال العيش شيء اولى بصعلوك يعيش في البراري والغابات كالشنفرى وتأبط شراً منه بملك كامرىء القيس ، أنيق العيش وافر النعمة تتبعه الطهاة والخدم في حله وترحاله .

ونُسبت اليه قصيدة في التهديد مطلعها :

تَطاوَلَ ليلُكَ بالأثمُدِ ، ونامَ الخَلِيُّ ولم ترْقُدِ [3]

وهي في معاهد « التنصيص على شواهد التلخيص » لامرىء القيس ابن عابس الكندي أحد الصحابة . ولعل وحدة الاسم بين الشاعرين جعلت بعض الرواة يضيفونها الى الملك الضليل ويزعمون انه يهدد بها بني اسد ، على حين انه ليس فيها ما يشير الى مقتل ابيه او الى بني اسد الذين قتلوه . ومثلها الأبيات التي لُقب من أجلها بالذائد وهي :

---

١ شأننا : امرنا . تموّل : اي تتموّل على حذف التاء . وتمول الرجل : صار ذا مال . يقول : فقلت له ان كنت غير متموّل فأمري وأمرك سيان في قلة الغنى .

٢ أفاته : انفقه وبذره . الحرث : في الأصل اصلاح الأرض والقاء البذر فيها وهو مستعار هنا للسعي والكسب . يقول : كل واحد منا اذا ظفر بشيء انفقه . ثم قال : ومَن سعى سعي وسعيك افتقر وعاش مهزول العيش .

٣ الاثمد : اسم موضع . يخاطب نفسه هنا على سبيل التجريد او الالتفات .

أَذُودُ القَـوافيَ عَني ذِيادا ، ذِيادَ غُلامٍ جَريءٍ جَرادا[1]

فلمّا كَثُرْنَ وعَنَّيْنَهُ ، تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ شَتى جِيادا[2]

فأعْزِلُ مَرْجانَها جانِباً ، وآخُذُ مِنْ دُرِّها المُستجادا[3]

فابن الكلبي يقول انها لامرىء القيس بن بكر وغيره يزعم انها لامرىء القيس بن عابس. وهذا الاختلاف بين الرواة راجع، كما لا يخفى، الى تشابه الاسماء والتباسها . على اننا لا نرى في الأبيات الثلاثة ما يحملنا على نسبتها الى شاعر جاهلي فهي في اعتقادنا مصنوعة في الاسلام لتبيان سبب لقبه ، ثم للاستشهاد بها على ان شعراء الجاهلية كانوا يعنون بتنقية أشعارهم فيطرحون منها الرديء ويختارون الحسن .

وأُضيفت اليه أشعار بعد رجوعه من القسطنطينية ومرضه حتى موته في انقره . ولكننا لا نستطيع ان نطمئن الى صحتها لظهور الاصطناع على أكثرها . مثال ذلك ، ما رواه الأغاني : من ان الشاعر رأى قبر امرأة ماتت وهي غريبة فدفنت في سفح جبل يقال له عَسيب فسأل عنها وأُخبر بقصتها فقال :

أجارَتَنا إنَّ المَزارَ قريبُ ، وإني مُقيمٌ ما أقامَ عَسيبُ

أجارَتَنا إنّا غَريبانِ ههُنا ، وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

---

١ أذود : أدفع . الجراد : الجنادب التي تجرد الأرض . يقول : ادفع الاشعار واردها عني اذا كثرت فِعْل غلام جريء يدفع عنه الجراد اذا كثر عليه .

٢ عنّينه : اثقلنه وارهقنه .

٣ المرجان : الخرز الاحمر او صغار اللؤلؤ لا كباره ، ويراد بها هنا الابيات الضعيفة غير الجيدة .

فتفنن الرواة ظاهر في اختراع القصة والبيتين ، والأعجب ان عسيباً جبل بعالية نجد لا في انقره من بلاد الروم .

ونُسبت اليه مماتنات مع شعراء عصره . منها مماتنته للحارث بن التّوأم اليَشكري التي يقول في مطلعها :

أحارِ ترى بُرَيْقاً هبَّ وَهْناً[1]

فيجيبه التوأم مجيزاً :

كنارِ مَجُوسَ تستَعِرُ استِعارا

ومنها مماتنته لعَبيد بن الأبرص ، وهي أشبه بأحاجي كتّاب المقامات وألغازهم ، ولا ريب انها منحولة . قال عبيد في مطلعها :

ما حيّةٌ ميتَـةٌ قامَتْ بِمَيتَتِها ،
دَرْداء ، ما أنبَتَتْ سِنّاً واضْراسا[2]

فأجابه امرؤ القيس :

تلكَ الشَّعيرةُ تُسْقَى في سَنابِلِها ،
فأخرَجَتْ بعدَ طُولِ المُكْثِ أكداسا

على ان هذه الأشعار المصطنعة في الاسلام ليس من شأنها ان تلقي الشك على شعره اجمع ، ولا سيما المعلقة وامثالها من القصائد المشهورة ، وان لم تسلم من التحريف والتبديل .

---

١ أحارِ : ترخيم أحارث . هب البرق : اومض . وهناً : ليلاً .
٢ الدرداء : من ذهبت اسنانها .

منزلته

هو في مقدمة شعراء الطبقة الأولى ، وأبعدهم شهرة ، وأسبقهم الى الاختراع والابتكار . فقد رأيت مما تقدم ما لشعره من الميزات الكثيرة من حيث الجزالة والروعة والايجاز ، ولطف التشبيه والاستعارة ودقة الوصف ، ولا سيما وصف الفرس والصيد والمطر . وقد اتفق الرواة على تفضيله . ونُسب الى النبي محمد قوله فيه: « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء وقائدهم الى النار. » وذكروا عن الامام علي انه فضّله بقوله : « كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة . »

وصفوة القول ان امرأ القيس امير الدولتين : دولة الشعر ودولة آل كندة .

طرفة بن العبد

(الربع الثالث من القرن السادس)

حياته	:	نشأ يتيم الاب ميالاً الى اللهو والتبذير . انفاقه امواله . هيامه على وجهه . عودته ورعيه ابل اخيه معبد . اتصاله بعمرو بن هند . مقتله .
درس تاريخي	:	الشك في رواية مقتله في البحرين .
آثاره	:	ديوان جمعت فيه اشعاره اشهرها المعلقة .
ميزته	:	معلقته ، متعددة الاغراض . استهلها بوصف الاطلال والحدوج . فوصف الناقة . فوصف معيشته وكرمه . فمعاتبته لابن عمه مالك . فالافتخار بنفسه . فذكر آرائه في الموت والحياة . الفوائد التاريخية . حكمه نتيجة تأثراته النفسية . هجوه وسخريته واستخفافه . منزلته .

حياته

هو عمرو بن العبد البكري وطَرفة لقب غلب عليه . ولد في البحرين ونشأ يتيم الاب في بيت غني ، كريم المحتد ، فانصرف الى اللهو والخمر والنساء، ينفق عليها بغير حساب، فضيّق عليه اعمامه وابوا أن يقسموا ماله، وجاروا على امه وردة اخت المتلمس الشاعر ، فظلموها حقها ، فهددهم طرفة بهذه الابيات وهي من اوائل نظمه :

ما تَنظُرونَ بحــقّ وردةَ فيكمُ ،
صَغُرَ البنونَ ، ورهطُ وردةَ غُيَّبُ[1]

---

[1] الرهط : القوم ما دون العشرة وليس فيهم امرأة .

قد يبعث الامر العظيم صغيره ،
حتى تَظَلَّ له الدّماءُ تَصبَّبُ[1]

والظُّلمُ فرَّقَ بين حيَّيْ وائلٍ ،
بكرٌ تُساقيها المَنايا تَغلِبُ[2]

على ان جور اعمامه لم يمنعه من الاسراف واللهو فظل ينفق من ماله على اصحابه وخلانه حتى لم يبق له شيء ، فسخطت عليه عشيرته وابتعدت عنه، فاصبح معزولاً كالبعير الجرب ، والى ذلك يشير في معلقته :

وما زال تَشرابي الخُمورَ ، ولَذَّتي ،
وبَيعي ، وإنفاقي ، طريفي ومُتلَدي[3]

الى أن تحامَتني العشيرةُ كلُّها ،
وأُفرِدتُ إفرادَ البَعيرِ المعبَّدِ[4]

وساء طرفةَ ان يعرض عنه اهله فتركهم مدة قضاها بالغزو والتطواف،

---

١ تصبّب : اي تتصبب على حذف التاء .

٢ اشار في هذا البيت الى حرب البسوس .

٣ التشراب : الشرب الكثير . الطريف : المال المستحدث. المتلد : المال الموروث . يقول : ما زال شرب الخمر ، واللذة والبيع والانفاق ، اشياء تلازمني كأنها طريفي ومتلدي او كأنها بمنزلة الطريف والمتلد من الحريص على الاموال . فيكون الطريف والمتلد خبراً لما زال. واذا قدرنا الخبر محذوفاً اي ما زالت هذه الاشياء ديدني يكون طريفي ومتلدي مفعولاً لانفاقي .

٤ تحامتني : تجنبتني . المعبّد : المطلي بالقطران لجَربه وهو يُبعد ويُعزَل لئلا يعدي الابل السليمة . يقول : ما زلت افعل ذلك حتى تجنبتني عشيرتي كلها وابعدتني عنها كما يبعد الجمل الاجرب المطلي بالقطران عن الابل السليمة .

ثم عاد اليهم نادماً ، صفر اليدين ، فحمله اخوه مَعبَد على رعاية ابله فأهملها، وأنّى لمثله ان يحسن رعايتها ؟ فأنّبه معبد وقال له : « تُرى ان أُخذت تردّها بشِعرك هذا؟ » فقال طرفة : « لا اخرج حتى تعلم ان شعري يردها . » ولم يطل الامر حتى أُخذت الابل فألحّ عليه اخوه بردها ، فلجأ طرفة الى ابن عمه مالك ليعينه على استرجاعها من آخذيها وكانوا قوماً من مضر ، فانتهره مالك بعنف فتألم الشاعر ونظم معلقته واصفاً حالته وجور اهله عليه، وعرض فيها لذكر سيدين من اقربائه فمدحهما بكثرة المال والولد اذ يقول :

فلَوْ شاءَ رَبّي كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ ،
ولو شاءَ ربّي كنتُ عمرو بنَ مَرثَدِ

فأصبحتُ ذا مــالٍ كثيرٍ ، وزارني
بَنــونَ كِرامٌ : سادةٌ لِمُسوَّدِ [1]

فدعاه أحدهما عمرو ، وكان له سبعة أولاد فأمرهم ، فدفع كل واحد الى طرفة عشرة من الابل، ثم امر ثلاثة من ابناء بنيه فدفعوا اليه مثل ذلك، فردّ ابل اخيه وقد ردّها بشعره كما قال . واقام ينفق من الباقي حتى نفد . فاتصل بعمرو بن هند ملك العراق وكان صهره عبد عمرو بن بِشر وخاله المتلمس الشاعر من رجال الحاشية ، فقرّب الملك طرفة لاعجابه بِشعره .

ولكن الشاعر الفتى كان تياهاً فخوراً بنفسه ، فشبب بأخت الملك غير مبالٍ ، فأبعده عمرو بن هند عن حاشيته وجعله في حاشية اخيه قابوس فلم يجد منه ما تعوده من الاكرام فهجاه وهجا اخاه الملك هجاء مرّاً . من ذلك قوله :

---

١ لمسوّد : اي لوالد مسوّد يعني نفسه .

فليتَ لنا، مكانَ المَلْكِ عمرٍو ، رَغوثاً حولَ قُبَّتِنا تَخورُ[1]

لَعمرُكَ ، إنَّ قابوسَ بنَ هِنـدٍ لَيَخلِطُ مُلكَهُ نَوْكٌ كثيرُ[2]

ولكن لم يجرؤ احد ان ينقل هذا الهجاء الى عمرو .

وشكت ذات يوم اخت طرفة شيئاً من امر زوجها عبد عمرو فهجاه طرفة بأبيات منها :

ولا خيرَ فيه غيرَ أنَّ له غِنىً ، وانَّ له كشحاً ، اذا قام، أهضما[3]

وهذا ما يسميه علماء البيان توكيد الذم بما يشبه المدح . فانه بعد ان نفى الخير عنه جاء بالاستثناء كمن يريد ان يذكر له حسنة يمدحه بها ، فاذا به لا يرى فيه من الحسن غير كثرة المال ولطف الخصر. ومن الهجاء المرّ ان تصف رجلًا بما توصف به النساء .

واتفق ان عمرو بن هنـد خرج للصيد ذات يوم ، فانقطع في نفر من اصحابه وفيهم عبد عمرو، حتى اصاب حماراً فعقره، فقال لعبد عمرو: انزل واذبحه. فعالجه فاعياه، فضحك الملك وقال : لقد ابصرك طرفة حيث يقول وانشد : « ولا خير فيه . » فغضب عبد عمرو وقال : لقد قال في الملك اقبح من هذا وانشده : « فليت لنـا مكان الملك عمرو .. » فحقد عمرو ابن هند على طرفة ولكنه كره ان يعجل عليه اشفاقاً من هجاء المتلمس، فلبث يتحين الفرص ليتخلص من الاثنين معاً ، وهو يؤانسهما حتى اطمأنا اليه ،

---

١ الرغوث : كل مرضعة ويراد بها الناقة هنا .

٢ النوك : الحمق .

٣ الكشح : ما بين الخاصرة الى الضلع الخِلْف وهو اقصر الاضـلاع وآخرها . الاهضم : اللطيف .

فكتب الى عامله في البحرين ، وقال لهما : انطلقا اليه وخذا جوائزكما .

فحملا الكتابين وسارا حتى بلغا النجف، فقال المتلمس لطرفة : تعلمنّ والله ان ارتياح عمرو لي ولك لأمرٌ عندي مريب. واني لا انطلق بصحيفة لا ادري ما فيها. فقال طرفة: « انك لتسيء الظن ، وما تخاف من صحيفة ؟ ان كان فيها الذي وعدنا والا رجعنا فلم نترك منه شيئاً . » فأبى المتلمس ان يجيبه وعدل الى حيث رأى غلاماً من الحيرة فدفع اليه الصحيفة ليقرأها له ، فلما نظر الغلام فيها قال : « ثكلت المتلمسَ امُّه ! » فاخذ المتلمس الصحيفة وقذفها في البحيرة فضُرب المثل بصحيفته. ثم قال لطرفة : « تعلمنّ والله انّ الذي في كتابك مثل الذي في كتابي . » فقال طرفة : « لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجترىء عليّ . » وأبى ان يطيعه ، فتركه المتلمس وهرب الى الشام .

وسار طرفة حتى اتى البحرين وكان صاحبَها ابو كرب ربيعة بن الحرث وهو من اقرباء طرفة ، فلما قرأ الكتاب قال : « أتعلم ما أُمرت به فيك ؟» قال طرفة: « نعم أُمرتَ ان تجيزني وتحسن اليّ. » فقال: « ان بيني وبينك لخؤولة انا لها راعٍ، فاهرب من ليلتك هذه ، فاني قد أُمرت بقتلك. فاخرج قبل ان تصبح ويعلم بك الناس . » فأبى طرفة وقال : « اشتدت عليك جائزتي واحببت ان أهرب واجعل لعمرو بن هند عليّ سبيلاً، كأنني اذنبت ذنباً . والله لا افعل ذلك ابداً . » فأمر بحبسه . ثم كتب الى عمرو بن هند يقول: « ابعث الى عملك من تريد فاني غير قاتل الرجل . » فارسل عمرو بن هند رجلاً من بني تغلب يقال له عبد هند واستعمله على البحرين ، وكان رجلاً شجاعاً ، وامره بقتل طرفة وقتل ربيعة بن الحرث . فقدمها عبد هند ولبث

اياماً فاجتمعت بكر بن وائل فهمّت به . وكان طرفة يحضهم . فانتدب له رجلًا من الحواثر يقال له ابو ريشة فقتله وقتل معه العامل السابق . وكان قبره معروفاً بهجَر في ارض بني قيس بن تعلبة .

درس تاريخي

هذه هي الرواية المشهورة عن مقتل طرفة ، وقد تناقلتها كتب الأدب في شيء من الاختلاف. اما نحن فلا يسعنا الا ان ننظر اليها بشك واحتياط لظهور الاصطناع عليها . فان سير حوادثها بيّن التكلف ، من هجاء طرفة لعمرو بن هند ، الى هجائه عبد عمرو، الى اشفاق ملك العراق من قتله في قاعدة ملكه خوفاً من المتلمس ، الى ارساله ليقتل في البحرين وهي مسقط رأس الشاعر وبلاد قومه ، الى صحيفة المتلمس ورفض طرفة ان يفض صحيفته، الى امتناع صاحب البحرين عن قتل الشاعر لانه من اقربائه، وحبسه اياه ، ثم انتظاره ان يرسل عمرو بن هند عاملًا جديداً ليقتله ويقتل طرفة معه ، إلى مجيء العامل وهو من بني تغلب اعداء البكريين ، الى قعود بني بكر عن انقاذ شاعرهم في عقر دارهم، الى غير ذلك مما يصعب الاطمئنان اليه.

فلقد كان بوسع عمرو بن هند ان يفتك بالشاعرين معاً في العراق، بدلاً من ان يرسلهما الى البحرين . ولقد كان ينبغي له ان يخشى هجاء المتلمس اخيراً كما خشيه اولاً بعد ان نجا هذا من الشرك الذي نُصب له. ولقد كان بوسع صاحب البحرين ان ينجو وطرفة دون ان ينتظر قدوم العامل الجديد ليقتلهما معاً .

وزعم الرواة ان نسيبه صاحب البحرين ، بعث اليه في سجنه ، جارية اسمها خولة فردّها وقال في ذلك ابياتاً مطلعها :

الا اعتزليني اليومَ يا خَـولَ او غُضّي ،
فقـد نَزلتْ حَدباءُ مُحكمةُ العضّ[1]

ومنها البيت المشهور يخاطب به عمرو بن هند :

ابا مُنـــذر أَفنَيتَ فاستَبقِ بَعضَنا ،
حَنانَيكَ ، بعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ

ولا يخفى ما في ارسال الجارية الى السجن من التكلف . وقد جعـل الرواة اسمها خولة وهو اسم المرأة التي يشبب بها طرفة في معلقته فكأنهم ارادوا ان يؤنسوه بذكر من يهوى قبل موته ، وفي ذلك ما فيـــه من التفكيه والاغراب . وليس في البيت الذي يخاطب به عمرو بن هنـد ما يدل عـلى حقيقة الحال ، لان ملك العراق لم يُفنِ قبيلة الشاعر حتى يصح قول طرفة :

أبا مُنذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضنا ...

على اننا وان كنا نشك في رواية قتله فلا ريبَ عندنا بان الشاعر مات صغير السن ، ولمّا يبلغ الثلاثين من عمره ، فعُرف بالغلام القتيل ، وبابن العشرين ، يؤيد ذلك رثاء اخته الخِرنق له اذ تقول :

عَددنا له سِتّاً وعشرينَ حِجّةً ، فلمّا توفّاها استوى سيّداً ضخما[2]
فُجِعنا به لمّـا رَجونا إيابَهُ ، على خيرِ حال ، لا وليداً ولا قحما[3]

---

١ الحدباء من الامور : الشاقة منها .
٢ الحجة : السنة . توفاها : استكملها . ضخم : كبير .
٣ ايابه : رجوعه . قحم : شيخ هرم .

وقد يكون عمرو بن هند قتله من اجل الهجاء ، فقد اشار الى ذلك الفرزدق بقوله : واخو بني قيس وهنّ قتلنه ، اي القصائد .

آثاره

لطرفة ديوان جُمعت فيه اشعار اشهرها المعلقة ، ثم « رائية » مطلعها :

أَصحَوتَ اليومَ امْ شاقتكَ هِرٌّ ، ومِنَ الحُبِّ جُنونٌ مُستَقِرٌّ [1]

ولم يذكر له ابن سلاّم غير هاتين القصيدتين ، وروى مطلعهما ، ولكنه عرف له قصائد اخرى لم يدل عليها .

وأُضيفت اليه قصيدة «ميمية» ذكر الاصمعيُّ انها منحولة ومطلعها :

سائِلوا عنّا الذي يَعرِفُنا بِخَزازى يومَ تَحلاقِ اللِّمَمْ [2]

ونحن يهمنا من شعر طرفة معلقته ففيها تظهر ميزته ، وعليها المعوّل في درس حياته ، واخلاقه ، وآرائه في الحياة والموت . وان كانت رائيته لا تخلو من الجمال ، ولا تعدوها الفائدة في استطلاع شخصية الشاعر .

ميزته — المعلقة

معلقة طرفة هي الثانية في المعلقات ، وهي كسائر الشعر الجاهلي متعددة الاغراض والمرامي ، يستهلها بوصف اطلال خولة وحدوجها ، ثم ينتقل الى وصف الناقة ، فوصف معيشته وكرمه ، فمعاتبة ابن عمه مالك ، فالافتخار

---

١ هر : اسم امرأة .

٢ تحلاق : مبالغة في الحَلْق . اللمم ، جمع لِمّة : الشعر المجاوز شحمة الاذن . وتحلاق اللمم هنا : يوم من ايام بكر وتغلب حلق فيه البكريون رؤوسهم لتعرفهم نساؤهم اذا سقطوا جرحى فتسقيهم الماء ، وتجهز بضرب الخشب على جرحى تغلب .

بنفسه، فذكر آرائه في الموت والحياة ، الى غير ذلك من الاغراض التي لا يتألف منها وحدة في الموضوع . وقد شُرحت هذه المعلقة مراراً وترجمت الى اللغات الاجنبية .

الغزل

لِخَولةَ أطلالٌ ، بِبُرقةِ ثَهمَدِ ، تَلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ [١]
وقوفاً بهـا صَحْبي عليَّ مَطيَّهُم ، يقولون : لا تَهلِكْ أسىً وتجَلَّدِ [٢]

وهنا ينتقل الشاعر الى ذكر حدوج المالكية فيشبهها بالسفن ثم يأخذ في وصف تلك السفن حتى اذا انتهى عاد الى وصف من يهوى . وهذه خاصة في الشاعر الجاهلي تجعله لا يترك الموصوف حتى يصوّره من جميع جهاته .

ولهذه الابيات قيمة تاريخية تفيدنا ما كان في البحرين من ملاحة وصناعة سفن . وليس اولى من طرفة بوصف السفن والملاحين وهو ربيب السواحل البحرية ، ثم يعود الى من يهوى فلا يتعدى في وصفه عنقها وثغرها ووجهها .

وصف الناقة

وينتقل فجاءة الى ناقته التي ينفي بها الهم عند حضوره :

---

١ خولة : اسم امرأة . البرقة : مكان اختلط ترابه بحجارة او حصى . ثهمد : اسم موضع . الوشم : غرز ظاهر اليد وغيره بالابرة وحشو المغارز بالكحل . يقول : ان آثار هذه الديار تلمع كآثار الوشم في ظاهر الكف .

٢ وقوفاً : منصوبة على الحال اي بدت اطلال خولة كالوشم في حال وقف اصحابي مطيّهم عليّ اي لأجلي. اسىً : حزناً ، نصبت على انها مفعول له . تجلد : تصبّر. يقول : انهم وقفوا عليه رواحلهم يأمرونه بالصبر وينهونه عن الجزع . وقد ورد هذا البيت في معلقة امرىء القيس وقافيته تحمّل بدلاً من تجلد . والتجمل : الاعتصام بالصبر الجميل .

وإني لامضي الهمّ ، عند احتضاره ، بعوجاء مِرقالٍ تَروحَ وتغتدي[1]

فيمعن في وصفها متناولاً اعضاءها عضواً عضواً ، مشبهاً عظامها بألواح التابوت ، وعَدْوها بعدو النعامة ، وشعر ذنبها في بياضه بجناحي نسر ابيض ، واخلافها بقربة بالية لانقطاع لبنها ، وفخذيها ببابي قصر منيف املس ، واضلاعها المتصلة بفقارها بالقسيّ ، وابطيها في السعة ببيتين من بيوت بقر الوحش . وشبهها وشبه مرفقيها وبُعدهما عن جنبيها بسقّاء يحمل في يديه دلوين ، وعلوّها بقنطرة رجل رومي . وشبه جنبيها بسقف اسند بعضه الى بعض ، وآثار النِّسْع[2] في ظهرها بنُقَر في الصخرة الملساء . ثم شبّه هذه الآثار في تلاقيها وتباعدها ببنائق بيض في قميص مقدود . وشبّه عنقها في ارتفاعه وانتصابه بسُكّان[3] سفينة جارية في نهر دجلة ، وجمجمتها بالسندان ، وطرف الجمجمة بالمبرد في دقته وصلابته ، وخدها بقرطاس الرجل الشآمي في املاسه ، ومشفرها بالجلد اليماني في لينه ، وعينيها في صفائهما وبريقهما بالمرآة وبالماء في نُقرة صخر ، وحَجاجَيْها[4] وغؤور عينيها فيهما بكهفين اي مغارتين . ثم شبه عينيها في حسنهما بعيني بقرة وحشية مذعورة لها ولدٌ ، واذنيها في تيقظهما باذني ثور وحشي منفرد كثير الحذر ، وقلبها في صلابته بمِرداة اي صخرة تكسر بها الصخور . وشبه ما يحيط به من الاضلاع

١ الاحتضار والحضور واحد . العوجاء : الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها . المرقال : مبالغة مرقل من الارقال وهو بين السير والعَدْو . تروح وتغتدي : اي تواصل سير الليل بسير النهار .

٢ النسع : سير تشد به الاحمال .

٣ السكّان : دفة السفينة .

٤ الحجاج : العظم المشرف على العين .

بحجارة عريضة محكمة .

ولا يخفى ما في هذا القسم من الفوائد التاريخية عن العصر الجاهلي .

حياته وشاعريته

وبعد ان يُتم وصف ناقتـه وتصويرها يفرغ الى نفسه فيصف معيشته في السلم والحرب ، فاذا هو يحب اللهو والعبث كما يحب الحرب ، وإغاثـة الملهوف ، واذا هو مبذر يكره جمع المال لأن الموت لا يفرق بين الكريم والبخيل ، والكريم خير من البخيل . وفي هذا القسم يطلعنا على آرائه في الحياة والموت ، وعلى اضطهاد عشيرته له ، وعلى غير ذلك مما يتعلق بحياته. وهو اهم اقسام المعلقة ، لأن به تظهر خصائص الشاعر تمام الظهور. فلا خولة طرفة ولا ناقته تجذبه الينا ، أو تجذبنا اليه ، فليس في نسيبه ما يغري بـه ويستخف القلوب . وليس في وصف «عوجائـه المرقال» ما يجمع روحنا بروحه ويربط دنيانا بدنياه ، وان كان ادق واصف لها بشهادة المتقدمـين والمتأخرين. وانما طرفة بنفسه دون غيره ، بلهوه ومرحه ، بفخره واعتداده ، بتشكيه وتظلمه ، يحملنا اليه او يحمل ذاته الينا ، فنحس باحساسه ، نأسى لألمه ، ونبتهج لحماسته ، ونضحك لسروره . فحياته في شعره لها أثر قوي في توجيه هذا الشعر ، وضم روحه الى ارواح قرائه . واذا لم يكن فيه ما في شعر امرىء القيس من انطلاق النفَس ، وعمق التصور ، وتلوين الخيـال المتحرك ، فان فيه من صدق الشعور ، وفطرة النفس ، وبساطة التعبير ما يفيض عليه الجمال ويضمن تقريبه الى القلوب .

والشعور الصادق عامـل رئيس للفن ، يبعث النشاط في النفس ، ويحبو الجمال عنصر الحياة . وكل عمل فني فاته الشعور لا يستحق ان يُعَـدّ من

ابناء الحياة ، وليست النشوة التي تحدثها حياة الفن إلاّ ائتلافاً موسيقياً بين الشعور والخيال والادراك ، تتولى الالفاظ اخراجه في الشعر كما تتولى اخراجه، في الموسيقى والرسم ، الأوتار والألوان .

وكان طرفة في حياته قطعة موسيقية ائتلفت بها عناصر الحس والخيال والفكر ، فانتظمت وحدة كلية على غير تكافؤ ، لما للشعور من سيادة وسلطان، وجاء شعره صورة عن حياته في اتحاد هذه القوى النفسية ، وسيطرة الاحساس عليها جميعاً. وما هذه الحماسة التي ترافق شعره ، في الدفاع عن نفسه وعن آرائه ، الا وليدة احساسه القوي لكل ما يتصوره ويفكر فيه . يندفع بايمان ثابت ، وعناد متصلب ، وان كان على خطإٍ في ما يرمي اليه .

وطرفة ربيب البحرين شهد من الحضارة والعمران ما لا يشهده ساكن الخيام في بوادي نجد والحجاز، ونشأ يتيماً لا يد فوقه تقوم على تأديبه ، الا يد امه ولم تكن قاسية عليه ، ووجد في حوزته مالاً وفراً ، فراح يختلف الى الحوانيت وهو في العشرين او دون العشرين ، يصحب الندمان ، ويشرب الخمر ، ويعاشر القيان ، حتى انفق ما لديه وأفلس ، فخلعته عشيرته ، وأوسعته لوماً واهانة ، وكان أقرب الناس اليه ، اخوه وابن عمه ، أشدهم وقيعة به . فتألمت نفسه الفتية ، وأبت ان تصبر على الضيم في انفتها، وشدة احساسها ، فتفجرت منها ينابيع الشعر ثائرة على الظلم ، ساخطة على الأقرباء، مستهينة بالموت والحياة. وليس للشاعر غير فنه يسكن به آلامه ، ويبث شكايته ، ويرد عن نفسه ، فاندفع طرفة يسفه اقوال لائميه ، ويبدي لهم صلاح اعماله ، وفساد آرائهم ، في شيء غير قليل من القحة والعناد والزراية والتحدي. وبنى أحكامه على الخلود والفناء ، فما دام الانسان مائتاً على كل حال، ولا خلود في هذه الدنيا لحي ، فلماذا لا يبادر الفتى منيته بماله

وملذاته؟ تلك الملذات التي يختصرها في ثلاثة اشياء: الحرب والخمر والنساء.

فهذا الدفاع الحار بحجج يسيطر فيها الشعور على الفكر، هو الذي يحبب شعر طرفة الينا. وما شعره إلاّ صورة لحياته الهائجة المضطربة، تلك الحياة التي ينكرها عليه اهلوه ويضطهدونه من اجلها، ويراها، مع ما لقي بسببها من افلاس وطرد وشقاء، مثلاً أعلى لا يسمو اليه الا كل فتى كريم، يجمع الشرف والنجدة واللهو والغزل.

وقوة الشعور عنده تكاد تجعلنا لا نشعر بسذاجة الآراء التي يبنيها على الموت والحياة، لأنه لم يقف فيها موقف الخطيب الواعظ، او الرجل الحكيم المصلح، بل جاء بها مدافعاً عن نفسه، يحسها كأنها بعض روحه، بما فيها من تدافع الحزن والألم وعزة النفس والانفة، وحباها بكل ما في الشباب من نشاط وحياة، وزادتها جمالاً بساطة التعبير عن خوالج النفس دون اي تكلف، وفطرة صريحة يحلو بها الشعر الجاهلي، ويستقل بنفسه عن الأدب العربي. فطرفة لا يجنح في تعابيره الى الصيغ المجازية البعيدة، ولا الى الصور الخيالية العميقة، وانما يتدفق شعوره بالألفاظ التي تبعثها النفس على سجيتها، سهلة حيناً، خشنة أحياناً، فيها من الفن ما يكفي لنقل الحالة التي يحسها الشاعر ويتصورها، وان يكن هذا الفن يحتاج الى تهذيب بعض الاحيان، ولاسيما المواطن التي لا يتدفق منها الشعور.

والفطرة في شعره تتمثل اصدق تمثيل بصراحته وسذاجة عقائده، وتحمسه الشديد لها، تلك الصراحة التي جعلته يتحدث عن نفسه في خيرها وشرها؛ فيطلعنا على حياته اللاهية وشربه وتبذيره، وحياته البائسة، وقد افلس وطردته العشيرة، وتُرك منفرداً كالبعير الجرب. ثم هذا التشكي البريء لجور ابن عمه وإعراضه، فابن عمه يراه جانياً ويقسو عليه، وهو لا يرى على

نفسه ذنباً يستحق هذه القسوة ، وان يكن اهمل رعاية الابل حتى سرقت منه ، فقد سعى جهده في طلبها وارجاعها . فأي ذنب بعدها يحسب عليه ؟ هذه العقلية الغريبة ، بما فيها من اقتناع بالبراءة ، وايمان بالنفس والآراء ، وتخطئة لكل من يخالف عقائدها ، هي مثال صادق لفطرة طرفة ، وغرور شبابه ، وعناده ، وكبريائه . فشخصية طرفة القوية ، هي التي ترفع قيمة شعره وتدنيه الى القراء ، يغلي في عروقه دم الشباب ، فيفيض حماسة وشعوراً ، وايماناً . ولا جرم ان سنه ترفد هذا الشعر ، فتكسب صاحبه عطفاً على العطف الذي يستحقه ، فهو شعر الغلام القتيل ، وابن العشرين .

هجوه وسخريته

اجمع الرواة على ان طرفة كان حديد اللسان جريء الهجاء ، ويزعمون ان استخفافه بالناس قرّب اجله . غير ان هذه الخاصة لا نجدها في المعلقة على تعدد اغراضها ، فينبغي لنا ان نلتمسها في غير المعلقة . وقد عرفت ان ما وصل الينا من شعر طرفة ، قليل جدّاً واكثره لا يعوّل عليه . ولكننا نأخذ شواهد ، على هذه الميزة في الشاعر ، انتقاده لشعر خاله المتلمس . وكان طرفة غلاماً يلعب مع اترابه فسمع خاله يقول :

وقد أتَناسى الهَمَّ عندَ احتِضارِهِ   بِناجٍ ، عليه الصَّيعَريّةُ ، مُكْدَمِ [1]

والصيعرية سمة للنوق فقال طرفة : « استنوق الجمل » فارسلها مثلاً ، وضحك القوم فغضب المتلمس ونظر الى لسان طرفة فقال : « ويل لهذا من هذا » يعني رأسه من لسانه . ونأخذ ايضاً هجوه لعمرو بن هند وأخيه قابوس :

---

[1] الناجي : البعير السريع ينجو براكبه . الصيعرية : سمة توسم بهـا النوق في اليمَن دون الجمال . المُكدَم : الموسوم .

فليتَ لنا، مكانَ المَلْكِ عمرٍو، رَغوثاً حولَ قُبَّتِنا تَخورُ

لَعمرُكَ، إنَّ قابوسَ بنَ هِندٍ ليَخلِطُ مُلكَهُ نَوْكٌ كثيرُ

وهجوه لصهره عبد عمرو :

ولا خيرَ فيه غيرَ أنَّ له غِنىً، وأنَّ له كشحاً، اذا قام، اهضما

فمن هذه الامثلة الصغيرة يمكننا ان نتبين خاصة الهجاء في طرفة وما فيها من استخفاف وهزء. ولعل الاستخفاف والهزء من ابرز خصائص هذا الشاعر، فهما ظاهران في لهوه وعبثه، ظاهران في زهده في الحياة والمال، ظاهران في هجوه وانتقاده.

صحة شعره

قال ابن سلاّم : «ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بايدي الرواة المصححين لطرفة وعَبيد، والذي صح لهما قصائد بقدر عشر، وان لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان ما يُروى من الغثاء[1] لهما فليسا يستحقان مكانهما على افواه الرواة. ونرى ان غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير ان الذي نالهما من ذلك اكثر. وكانا اقدم الفحول فلعل ذلك لذلك. فلما قلَّ كلامهما، حُمل عليهما حمل كثير.» اه.

فهو يرى ان شعرهما ناله من الضياع اكثر من شعر غيرهما لانهما اقدم الفحول وان الرواة نحلوهما شيئاً كثيراً لما قلَّ كلامهما، ولكنه يعترف بصحة معلقة طرفة وصحة رائيته «أصحوتَ اليومَ ...» وبعض قصائد حسان له لم يشر اليها.

---

[1] الغثاء في الاصل : البالي من ورق الشجر المخالط زبد السيل. وهو هنا الساقط من الشعر.

ونحن في درسنا شعر طرفة اعتمدنا على المعلقة اكثر من غيرها ، وهي ثابتة له لم يشكّ احد في صحتها . واذا كان الشاعر قد شذّ عن شعراء ربيعة في متانته وشدة اسره ، فليس ذلك بعجيب ولكل قاعدة شذوذ . واذا نظرنا الى حياة طرفة وما رافقها من ضيم وشظف عيش، بعد ان طرده اهله فهام على وجهه يأوي الى المغاور والجبال ، ويشن الغارات على الأحياء ، لم نعجب لشدة شعره وغرابة الفاظه. بيدَ ان هذا الإغراب يكاد يقتصر على وصف الناقة دون سائر اقسام المعلقة .

منزلته

وضعه ابن سلاّم في الطبقة الرابعة لقلة شعره بايدي الرواة ولكنه قال فيه : انه اشعر الناس واحدة وهي قوله : « لخولة أطلال ... » . وقال ابن قُتيبة : هو اجود الشعراء طويلة . وقال ابن رشيق : طرفة افضل الناس واحدة عند العلماء وهي المعلقة. وقال ابو عبيدة: مر لبيد بمجلس في الكوفة وهو يتوكأ على عصا، فلحقه فتى من اهل المجلس وسأله : مَن اشعر العرب؟ فقال : الملك الضلّيل ، يعني امرأ القيس . فسأله : ثم من ؟ فقال : الغلام القتيل ، يعني طرفة . فسأله : ثم من ؟ فقال : الشيخ ابو عقيل، يعني نفسه . ومهما يكن من امر هذه الرواية فانه يستدل منها ومما تقدمها من الاقوال، ان طرفة فُضّل بمعلقته على سائر الشعراء . وهذا التفضيل يعود الى ما فيها من تصوير صادق لحياته البدوية ، وما يتخلله من الآراء والحكم ، والفوائد التاريخية ، الى ما هنالك من دقة الوصف ، وبراعة التشبيه ، وقوة التعبير . وحسب صاحبها فضلاً ان يكون غلاماً في العشرين .

زهير

توفي في السنوات الاولى للهجرة ؟

حياته	:	الاختلاف في نسبه. حظه من الشعر. عمّر طويلاً. مات في الاسلام ولم يسلم.
شعره	:	معلقته . حولياته . رويته . حكمته . لغته .
شعره السياسي	:	مدح السادات . سياسة القبيلة . سياسة الاجتماع . داحس : فرس قيس بن زهير. الغبراء : فرس حمَل بن بدر. تراهنا عليها فأكمن حمَل مَن ردّ داحساً فسبقته الغبراء ، فكانت الحرب .
منزلته	:	اقوال الاقدمين فيه .

حياته

لم يَسلم زهير بن أبي سلمى من الخلاف في نسبه ، شأنه شأن غيره من شعراء الجاهلية كالنابغة والحطيئة والشنفرى وسواهم . فقد جعله ابن قُتَيبة في غطفان ، مع ان ابن الاعرابي وابن الكلبي وأبا الفرج الأصفهاني وغيرهم يردونه الى مزينة ويقولون انه نزل ارض غطفان وتزوج منهم، وأقام فيهم . وحجة ابن قتيبة في دفع نسبه عن مزينة انه ليس له او لابنائه شعر ينتمون به اليها الا بيت كعب بن زهير وهو قوله :

هم الأصلُ مني حيث كنتُ، وانني من المُزَنِيّينَ المُصفَّين بالكرَمْ

وكان مُزرّد بن ضِرار الغطفاني قد دفع نسب كعب في غطفان ، ورده الى مزينة ، فلم ينكر كعب عليه زعمه بل اثبت بهذا الشعر انه منها . ويشرح ابن سلاّم ذلك بقوله : « وقد كانت العرب تفعل ذلك ، لا يُعزى

الرجل الى قبيلة غير التي هو منها الا قال : انا من الذين عنيتَ . » فيُستدل من كلامه انه يشك في مزنيّـة كعب . ويقول ايضاً : « وكان ابو سلمى واهل بيته في بني عبد الله بن غطفان ، فبهم يُعرفون ، وإليهم يُنسبون . » ثم يقول : « ولقد أخبرني بعض أهل العلم من غطفان انهم من بني عبد الله ابن غطفان ، وان اعـتزاءه الى مزينة كقول هؤلاء ، واما العامـة فهو عندهم مُزنيّ . »

فانتماء كعب الى مزينـة ، بحسب هذه الرواية ، كانتماء العرب الذين يُنسبون الى قبائل غريبة ، فيقولون : « أنا من الذين عنيتَ . » ولكن ابن سلام، مع ما القى من الشك على مزنيّة زهير، لم يسعه الا ان يجاري العامة عند ذكر نسبه فجعله من المزنيين . ونرى ان رواية الغطفاني لا تسلم من الجرح ، فليس من الغريب ان تدّعي غطفان شاعراً مشهوراً كزهير عاش مجاوراً لها يمدح ساداتها ويدافع عنها أصدق دفاع . قال ابن عبـد البرّ في الاستيعاب : « وكانت محلتهم في بلاد غطفان ، فيظن الناس انه من غطفان ، اعني زهيراً ، وهو غلط . »

ولم يصل الينا شعر كثـير عن كعب ، ولا عن غيره من ولد زهـير وحفدائه لنجد في أقوالهم ما يدل على نسبهم سوى هـذا البيت لكعب ، وبيت آخر لأخيه بُجير يقول فيه : « وألفٌ من بني عثمان واف . » والمراد عثمان بن مزينة . رواه ابن سلام وقال : « وقد يجوز ان يكون يعني غير قومه من المزنيين . » ولعل اختلاطهم بغطفان في السكنى والزواج هو الذي صرفهم عن التفاخر بمزينة كما صرف والدهم زهيراً من قبل ، فان اشعاره ، على كثرتها بالاضافة الى اشعارهم ، لا تهدي راويتها الى اصله ونسبه ، بـل نجدها تشتمل على مناقب مرة وامجاد غطفان ، يمدح ساداتهم وفرسانهم ،

ويرد على اعدائهم منافحاً عنهم . وكان والده ابو سلمى ربيعة هجر قبيلته واجداً عليها ، وأقام في غطفان متزوجاً اليها ، فنشأ الابن فيهم تعطفه الخؤولة من ذبيان ، ولا تهزه العمومة من مزينة ، فعاش بينهم واصهر اليهم وخص شعره بهم ، حتى شك ابن سلام في مزنيتـــه ، وجزم ابن قتيبة ، فجعله من غطفان .

ولم يجتمع لشاعر في الجاهليـة حظ من الشعر كما اجتمع لزهير . فقد كان أبوه ربيعة شاعراً ، وخاله بَشامة بن الغدير الغطفاني شاعراً ، واختـاه سُلمى والخنساء[1] شاعرتين ، وابناه كَعْب وبُجَير شاعرين ، وحفيده عُقبة ابن كعب الملقب بالمضرّب شاعراً ، وابن حفيده العَوّام بن عقبة شاعراً ، وكان زوج أمه أَوْس بن حَجَر شاعراً مشهوراً فروى له زهير ونظم الشعر ففاقه ، واخمل ذكره .

وأقام زهير في بني مرّة مكرّماً مسموع الكلمة ، وكثر ماله وتزوج امرأة تكنى ام اوفى ، ثم جمع بينها وبين ضرة يقال لها كبشة بنت عمّـار من غطفان ، فولدت له كعباً وبُجَيراً. فغارت ام اوفى منها لأن اولادها ماتوا ، واخـذت تسيء الى زهير حتى طلقها . ثم ندم واخذ يذكرهـا في شعره كلما خطرت له في بال .

وعاش زهـير عمراً طويلاً ربما بلغ به التسعين او نيّف عليها ، وتدلنـا المعلقة على انه كان في الثمانين يوم نظمها لقوله فيها :

سئمت تكاليفَ الحياةِ ، ومن يعِش ثمانـين حولاً ، لا أبا لكَ ، يَسأمِ

وهذه القصيدة انشئت بعد ان وضعت حرب داحس والغبراء اوزارها ،

---

[1] الخنساء : اخت زهير هي غير تماضر بنت عمرو بن الشريد اخت صخر الشاعرة المشهورة .

اي في اوائل القرن السابع ، فتكون ولادة الشاعر في العقد الثالث من القرن السادس للميلاد .

وروى صاحب الأغاني ان النبي نظر الى زهير وله مائة سنة ، فقال : « اللهم ، اعذني من شيطانه ! » فما لاك بيتاً حتى مات . فاذا صحت هذه الرواية فيكون زهير قد ادرك سنة ٦٣٠ ، اي التاسعة للهجرة ، ولكن يرجح انه توفي قبل اسلام ولديه لأن الرواة لم يذكروه معهما ، ولا يجوز ان يُنسى مثله لو كان حيّاً . وقد اسلم ابنه بجير في اواخر السنة السابعة للهجرة ، واسلم كعب في السنة التاسعة . وذكر البغدادي في خزانة الأدب انه مات قبل البعث بسنة اي نحو سنة ٦١١ م . فاذا صحت روايته ولا ندري مستندها ، فيكون زهير قد جاوز الثمانين ، وتكون رواية الاغاني باطلة . ومهما يكن من شيء ، فان الشاعر كان من المعمَّرين ، ومات على جاهليته سواء أدرك البعث ام لم يدركه .

شعره

انتهى الينا طائفة صالحة من شعره ، وفيها معلقته المشهورة التي قالها بعد حرب داحس والغبراء . وليس لدينا شعر قاله في اثناء هذه الحرب ، محرضاً بني ذبيان او راثياً الفرسان الذين قُتلوا فيها ، شأن شعراء القبائل في مثل هذه الحال ، وقد مرّ بـه أعظم حادث روّعت له القبيلة ، فكانت مجزرة أهلية فجعت بني ذبيان بخيرة رجالها . فلماذا سكت زهير عن رثائهم وتحريض القبيلة على الأخذ بثأرهم ؟ ألعلّ هذا الشعر ضاع فلم يصل الينا ؟ أم لعله لم ينظم شيئاً فيهم ، لأنه كان كارهاً هذه الحرب التي اشتعلت نارها لسبب تافه ، وهو الشاعر الحكيم الذي يسعى لخير القبيلة ، ولا يرى لها ان تتورط في

حرب مشؤومة تفانت فيها بنو غطفان : « ودقوا بينهم عطر مَنشِم » على حدّ تعبيره . فلم يشأ ان يؤرث جمرة الأحقاد بندبه وتحضيضه ، بل كان يرجو ان يقوم من عقلائهم من يسعى الى الصلح ، حتى تجند له هرم بن سنان والحارث بن عوف المُريّان ، فمدحهما وشكر صنعهما ، وأشاد بذكرهما. وله في هرم عدة قصائد خلّدت ذكره وذكر ابيه سنان .

ولا يُذكر زهير في شعراء الجاهلية الا ذكرت معه الروية والرزانة والحكمة ، وبدا لنا منه شاعر متعاقل لا تنطوي حياته وطباعه على شذوذ غير مألوف في نظام الاجتماع . وجاءت اقوال المتقدمين فيه وصفاً لما يبدو من اخلاقه في شعره ، وتفضيلاً لهذا الشعر بهذه الاخلاق . فقد نسبوا اليه الحوليات ليظهروا رويّته واناته في تنقيح شعره ، فقالوا انه كان ينظم القصيدة في اربعة أشهر ، ويهذبها في اربعة ، ويعرضها على اخصائه في اربعة. وقالوا فيه : هو اشعرهم لأنه لا يعاظل في الكلام ، ويريدون بذلك تنزيل ألفاظه على ما يقتضيه قانون الشعر عندهم ، اي ليس فيه تداخل ولا تضمين يجعل القافية متعلقة بما بعدها ، وسموه قاضي الشعراء ، كما يقول ابن رشيق ، من اجل هذا البيت :

وانّ الحقّ مَقطعُه ثلاثٌ : يمينٌ أو نِفارٌ او جِلاء

وقدموه على غيره لأنه صاحب مَن ومَن ومَن ، وهي ابياته المشهورة في الحكم . فمنزلة شعره تستند عندهم الى رجاحة عقله وحبه للخير والسلام ، لا الى جوهر الشعر نفسه .

وقد كان زهير ، كما عرفوه ، قاضياً يصلح بين المتخاصمين ، وحكيماً ينصح الناس ويرشدهم ، ويدعوهم الى العمل الصالح. وفي شعره امثلة كثيرة

تدل على عنايته بخير مجتمعه القبلي وتقويم أخلاقه. وجميل بالشاعر ان يكون له هدف اصلاحي يتجه اليه ، وان كان الفن يستوحي الحياة على اطلاقها ، ويجد كل ناحية صالحة لأن تكون له مادة وصورة. فالشاعر عضو في مرافق الجماعة الانسانية له رسالة سامية يبلّغها بجمال فنه وما فيه من بهجة للنفوس وارهاف للعواطف ، ولكن من الخير ان يجتمع الى جمال الفن جمال الغاية فيستطيع الشاعر ان يضيف الى رسالته الأدبية رسالة الاصلاح . وهذا قلما تأتّى لشاعر يعتمد أحكام العقل والمنطق ، فينصرف الى سنّ القوانين الخلقية وضرب الأمثال ، فتغلب عليه صفة المعلم الاجتماعي ، كما غلبت على زهير . لأن طريق الشعر في تطهير الاخلاق غير طريق الوعظ والخطابة . على ان الشاعر يمكنه ان يؤدي رسالته الاصلاحية بان يكون انسانياً في شعره فيتصور الخير والجمال دُمًى في خياله ، ويحسهما احساساً بليغاً في أعماق نفسه ، حتى اذا اصبحا جزءاً من حياته ، او ذاتاً من ذاته ، اخرج عنهما صوراً وانغاماً متعددة الألوان ، مؤتلفة الاجزاء ، تتحرك فيها عناصر الحياة بما نفحها الشاعر من احساسه ونفسه ، فيتراءى الخير في جماله ، والشر في قباحته ، وترضى الأخلاق ولا يغضب الفن .

وهذا لا يعني اننا نحاول النيل من لغة زهير وبلاغته ، فهو كسائر الجاهليين ، مستطيل على الألفاظ والتراكيب . وتمتاز لغته بشدة اسرها ، ودقة احكامها ، خاصة عُرف بها شعراء مضر لاعراقهم في البداوة ، وبُعدهم عن الأمصار . ولكن لغته ، بروحها واتجاهها وفنها ، لغة خطابية منطقية تصلح للشعر الاجتماعي الذي يتصل بالعقل اكثر منه بالخيال والعاطفة ، وفيها اعتماد ملحاح على المادة لاظهار الحقائق واضحة ملموسة ، على منطق راجح وحب اقناع . وحسبنا ان ننظر الى عنايته بتبيان مغبة الحرب في

صور محسوسة بارزة الخطوط ، والى مجادلاته ومواعظه وأمثاله بغية الاقناع ، ثم الى فحصه عن مادة اللون وصورته :

علَونَ بأنماطٍ عِتاقٍ ، وكِلّةٍ   وِرادٍ حواشيها ، مُشاكِهةِ الدمِ [1]

لنعلم مبلغ تعلقه بالحقائق على ما يرتضيه المنطق ويقبله العقل ، حتى ان المتقدمين ، في تفضيلهم اياه ، كانوا من انصار العقل في الشعر فمدحوه بقولهم : « انه كان واضح الغرض لا يقول إلا ما يعرف . »

فمادية زهير ، واعتماده على ما يعرف من الحقائق جعلا شعره واضح الغرض ، ويكفي القارىء ان يفهم ألفاظه الغريبة ليستولي على افكاره ومقاصده ، لا امثاله وآرائه وحدها ، بل الأشياء التي يتناولها وصفاً وتصويراً ، فانه لتدقيقه في جلائها ، جعلها ناتئة الملمس ، خالصة من الغموض ، على ما فيها من جمال الصورة وبلاغة التعبير :

بكَرنَ بكُوراً ، واستَحرْنَ بسُحرةٍ ،
فهنّ ووادي الرّس ّ كاليَدِ في الفمِ

فزهير ، في حِكمه وأمثاله وجدله ومواعظه ، شاعر حكيم ، وخطيب اجتماعي ، وقاضٍ يرشد ويصلح . ومنظوماته ، في كثرتها ، ليست من الشعر الخالص ، وان كان لا يعدوها جمال العبارة وحسن التصوير . وربما

---

[1] الانماط : جمع النمَط ، وهو ضرب من الثياب يبسط . العتاق : الكرام . الكلة : الستر . وراد : جمع ورد وهو الأحمر . الحواشي : الجوانب . مشاكهة : مشابهة . والباء في قوله : علون بانماط ، للتعدية ، اي اعلين انماطاً . المعنى : ان هؤلاء النسوان طرحن على الهوادج انماطاً كراماً وستراً رقيقاً ، ثم وصف تلك الثياب بانها حمر الحواشي ، وان حمرتها تشبه لون الدم .

وجدت فيها برودة وجفافاً يتمثل بهما صاحبها الوقور الهادىء الرصين ، حتى ان غزله ، في هدوئه وصلابته ، لا يثير عاطفة ولا يحرك قلباً . يصرف عنايته الى ذكر الديار الخالية ، ووصف فراق الأحبة ، ومرافقة الظعائن في انتقالها من مكان الى آخر . وقلما وصف الحبيبة وأظهر محاسنها . فغزله ، في جملته ، يدل على ان صاحبه قد تقدمت به السن ، قاله في حرب داحس والغبراء او بعدها ، فهو ذكريات شيخ يحن الى امرأته ام اوفى التي طلقها ، او يأسف لأن العذارى أصبحت تناديه : يا عمي ! بدلاً من ان تناديه : يا أخي !

وقال العذارى : انما انت عمُّنا ! وكان الشبـابُ كالخليطِ تُزايلُهْ

ويمكن القول ان اكثر اغراض الشاعر ومقاصده تنماز بالرصانة والهدوء والتعاقل ، وتنزع الى الجدل وتوخّي الحقائق المادية المجسّمة .

شعره السياسي — مدح السادات

اذا كان لزهير ، في مختلف أغراضه ، اشياء حسان ، فخير شعره ما قاله في مدح سادات بني ذبيان ، والدفاع عن القبيلة وارشادها ، واسداء الحِكَم الاجتماعية في حسن السياسة ومكارم الأخلاق . فمدائحه خير مثال لاسلوب المدح الجاهلي ، تظهر فيـه مناقب الأشراف والفرسان وفضائلهم ، على ما فيها من عنجهية وتكاثر واعتداد . فان زهيراً لم يتصل بملوك الشام والعراق ليشتمل شعره على صفات اصحاب القصور ، ولا وفد على القبائل الغريبـة يمدحها ، ليخرج بشعره عن الصفة القومية التي ينتمي اليها ، بل مكث في بني ذبيان يخصهم بمدائحه وآرائه ونصائحـه ، ويقارع اعداءهم شأن أمثاله من الشعراء القبليـين الذين يوجهون اشعارهم شطر مجتمعهم لصلاحه ومنفعتـه ، فيبذلون له ما في وسعهم ، اسوة بغيرهم من ابنائـه العاملين . ونعرف من

الأشخاص الذين مدحهم من بني مرّة: سنان بن أبي حارثة ، وولده هَرِماً ، والحارث بن عوف ؛ ومن بني بدر: حصن بن حُذيفة. ونستثني مدحه للحارث ابن ورقاء الصيداوي ، فانه ثناء اسداه اليه اثر هجاء بعدما رد عليه عبده يساراً ، وكان قد سباه .

واكثر مدائحه وأفضلها ما قاله في هرم بن سنان ، لانه كان شديد الحب له ، وكان هرم يبرّه ويجزل له العطاء ، وان تكن مدائحه للآخرين لا يعدوها الجمال ، ولا يقلُّ اصحابها عن هرم شرفاً وسؤدداً . فالحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، وهو الذي سعى في الصلح بين المتحاربين حتى ادركه وحمل عن القوم ديات القتلى ، وشاركه فيها هرم بن سنان ، فخصهما زهير بمعلقته ، ثم بقصيدته اللامية التي يقول فيها :

تدارَكتُما الأحلافَ قد ثُلّ عرشُها ، وذبيانُ قد زلّتْ باقدامِها النّعلُ[1]

ما عدا القصائد التي مدح بها هرماً وحده والتي مدح بها اباه سناناً ورثاه ، حتى قيل ان هرماً حلف ان لا يمدحه زهير الا اعطاه ، ولا يسأله الا اعطاه ، ولا يسلّم عليه الا اعطاه عبداً او وليدة او فرساً . فاستحيا زهير مما كان يقبل منه ، فكان اذا رآه في ملأٍ قال : «انعموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت .»

ومن حسنات زهير انه كان لا يجنح في مدحه الى الغلو الممقوت ، ولا يأتي بسفساف القول ، ولذلك قال الأقدمون فيه : «زهير لا يقول الا ما يعرف ، ولا يمدح أحداً إلا بما هو فيه.» واذا وقع له شيء من الغلو جعل الشرط له مانعاً مثل قوله في هرم :

---

١ الاحلاف : اسد وغطفان وطي . ذبيان : قبيلة الممدوحين ، وهي من غطفان .

لو نال حيٌّ ، من الدنيـا بمنزلةٍ ، وَسْطَ السماء ، لنالت كفُّه الأفُقا

فلو : حرف امتناع لامتناع ، اي امتناع نيل الافق من اجل امتناع الشرط لنيل وسط السماء . قال ابن سلاّم : « من قدّم زهيراً احتج بانـه كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعـاني في قليل من اللفظ ، واشدّهم مبالغة . » فلو الشرطية هنا ابعدت زهـيراً عن السخف والكذب ، وابقتـه في حدود صدقه ورصانته ، وجنّبتـه فضول الكلام الذي يلازم شعراء المدح عادة . وهذا ما اراده الأحنف بن قيس اذ قال انه القى عن المادحين فضول الكلام ، واستشهد بقوله :

فما يكُ من خيرٍ أتوهُ فانما توارَثه آباءُ آبائِهمْ قبـــلُ

وأما مبالغته التي ذكرهـا ابن سلام فانها تجعله يتتبع وصف ممدوحـه بجميع الخلال الحميـدة من كرم وشجاعة وحلم وطيب محتد وبلاغـة في المنطق ، الى ما هنالك من الفضائل والصفات التي يفاخرون بها ، ويعدونها من شروط السيادة عندهم . ولا يغفل عن ذكر العاذلة التي تشغل مكاناً في الشعرالقديم ، تلامس عاطفة الجاهلي بنصحها وتأنيبها له ، تلومه على اسرافه بالكرم والحب والشجاعة ، ولكنها لا تلقى منه سوى الرد والاعراض .

ويستوقفنا ما نسب الى هرم من التقوى حتى ان الله يعصمه من سيّىء العثرات :

ومن ضريبتِه التّقوى ، ويَعصِمُه من سيّىء العثراتِ اللهُ والرَّحِمُ[1]

وقلما وجدنا المدح الديني في الشعر الجاهلي ، لأن التقوى لم تكن من

---

١ ضريبته : خليقته .

الفضائل التي يفاخرون بها ويمدحون بها ، فقد كان الدين ضعيفاً في نفوسهم فما يذكرون الله الا في الحلف لتوكيد كلامهم ، ولا يلمحون شطر اصنامهم الا عرضاً لبداوتهم وترحلهم وبعدهم عن بيوتها . واذا سمعنا النابغة يمدح الغساسنة بدينهم ، ويصف موكبهم يوم الشعانين ، فلأنهم كانوا مسيحيين يباهون بديانتهم ويتمسكون بعقائدهم . فهل كان هرم بن سنان مسيحياً ليصفه زهير بالتقوى ، ويجعل له الكرامة عند الله ، ام هل كان زهير من اولئك العرب الذين تأثروا بالنصرانية التي تسربت في الصحراء وانتحلها جماعات من مختلف القبائل، فجعل الدين والتقوى من الصفات التي يحمدها في ممدوحه ؟ وليست هذه الظاهرة وحيدة في شعره ، فان له امثالها في معلقته وغير معلقته تدل على ما للدين من خطر في نفسه ، حتى مال بعضهم الى الشك فيها ، وأبى نسبتها اليه ، مع ان هذا لا يدعو الى العجب بالاضافة الى تعاقل زهير وحكمته وحسن بصره بالامور ، فغير بعيد ان يصل اشباهه الى معرفة الله والايمان بالآخرة والثواب والعقاب عن طريق المسيحية او اليهودية ، وهما غير مجهولتين في جزيرة العرب[1] .

فاذا بالغ زهير في تقصّي الصفات المحمودة فانه يبرأ من الكذب والغلو المذموم. وكثيراً ما يمدح الرجل بذكر اعماله فيسردها على طريقته القصصية ويجعلها شواهد ناطقة بحسن خلال ممدوحه . فانه في مدحه هرم بن سنان والحارث بن عوف ، قص خبر سعيهما للصلح ، وكيف نجّما الديات دون أن يشتركا في الحرب ، حتى بلغا مأربهما واصلحا بين المتحاربين . فكان في

---

[1] يرى الأصمعي ان زهيراً اخذ فكرة البعث عن اليهود كما ذكر الاب لامنس في كتابه مهد الاسلام .

تحدثه عنهما ، مادحاً لهما بمساعيهما دون جنوح الى الخيـــال المفرط ، فالحقائق الناصعة هي التي تتكلم وترفع شأن ممدوحيه. وهذا الاسلوب الخبري يجعلـــك لا تستنكر ما يقول الشاعر في ممدوحه ، ولا تعزوه الى الغلو والافراط . فمدائح زهير هي خير ما وصل الينا عن الجاهلية من الاشادة بسادات القبيلة ، والعناية بشؤونها السياسية واحوالها الداخلية والخارجية .

السياسة الخارجية

لم يقتصر شعر زهير على مـدح السادات والفرسان ، وذكر سياستهم الداخلية في ادارة شؤون القبيلة ، وفض مشاكلها في انديتهم ، واطعـام فقرائها في السنة الشهباء ، وايقاد نارهم للاضيوف الذين ينزلون عليها ، ونصرة بعضهم لبعض في المغارم والمغانم ، بل توفر ايضاً على شؤونها الخارجية التي تتناول القبائل القريبة والبعيدة . وقد وقع في زمانه اعظم حادث مر ببني ذبيان ، وهو حرب داحس والغبراء . وشهد ما حـلّ بهم من الكوارث الفظيعة . فما كاد يعقد الصلح ويبتعد شبح الموت ، حتى عاد خطر الحرب يهدد القبيلتـين الغطفانيتين ، بعد مقتل رجل عبسي . فنشط الى تلافي الامر قبل استفحاله ، فوجه معلقته الى تحسين السلام وتقبيح الحرب . وقد علم ان من الخير لبني ذبيان الا تعود الى القتال بعدما خسرت نخبة فرسانها وساداتها، وهاله ان تعاودها الويلات بعد انقشاع غمائمها المظلمة . فهب يدعو المتحاربين الى الوفاء بعهد الصلح، مذكراً اياهم ما لقوا من المصائب في تقاتلهم، مخالفاً رأي من يبغي الحرب امثال حصين بن ضمضم، مع انه من انسبائه، وفارس مشهور في بني مرة . ولم يحجم عن القاء التبعة عليه وحده في مقتل العبسي ، متخذاً اسلوباً جميـلًا ، منطقي الاتساق ، مزيجاً من الوعظ والقصص ،

فبلغ غايته الانسانية في الدعوة الى السلم والتحذير من الحرب ، وبرأ بني ذبيان من تهمة الغدر والخيانة ، وباح باسم القاتل دون ان يخذله . فقد شرع في اول الامر يذكّر ذبيان والاحلاف اليمين التي اقسموها على ابرام الصلح ، وخوّفهم غضب الله وعقابه اذا كانوا يضمرون الحنث فيها[1] ، ولكنه لم يتبسط في تفصيل هذه الفكرة الغيبية ، بل انتقل الى عالم الطبيعة ، وهو يعلم ان الصور المحسوسة ابلغ تأثيراً في نفس البدوي المستغرق في ماديته . فطفق يصف فظاعة الحرب ووخيم مغباتها ، فوفق لبلوغ مأربه كل التوفيق ، واتى بصور بارزة تتوالى دراكاً متفقة على تمثيل الحرب واحوالها ونتائجها وغلاتها ، فكان فيها عنيفاً شديداً على رصانته وهدوئه . وما مثله الا مثل المرشد الحكيم يترفق في نصحه عند صغار الامور ، ويعنف ويقسو عند كبارها .

وكان يعلم ان بني عبس ساخطون على بني مرة لمقتل صاحبهم بعد عقد الصلح ، يتهمونهم بالخيانة ويرصدون الشر للسيدين المصلحين ، فاظهر براءة القبيلة من هذه الخيانة ، واخبر ان القاتل ابن ضمضم اقدم عليها ، ولم يخبر جمهرة قومه ، فهو مسؤول عنها دون غيره . بيد انه لم يشأ خذله وإطماع الاعداء فيه ، وانما اراد تبرئة قبيلته من ظنة الحنث والغدر لئلا يتسع الخرق فلا يصلح الامر بعده ابداً . فما كاد يتهمه حتى اندفع يذكر شجاعته وجرأته واقدامه ، وان وراءه الف فارس يحاربون معه ويشدون ازره .

وتتبع تبرئة بني مرة ولا سيما السيدين اللذين اصلحا بين المحتربين ، فاورد اسماء فرسان من بني عبس قُتلوا في معامع السباق . وقال للعبسيين : ان

---

[1] يشك بعضهم في هذا الكلام المنسوب الى زهير لقربه من تعبير القرآن .

الذين تحملوا الديات من اجل الصلح لم يشاركوا في دماء هؤلاء القتلى ، فكيف تتهمونهم الآن ، وتأخذونهم بجريرة غيرهم ؟ ولم يغفل ان يفهم بني عبس ان سادات غيظ بن مرة عزيزو الجانب لا يدرك الموتور ثأره منهم ، واذا جنى احدهم جناية، لا يسلمونه ولا يخذلونه، وكأنه يشير هنا الى جناية حصين بن ضمضم :

كِرامٌ، فلا ذو الضغنِ يُدرِكُ وِترَهُ ،
ولا الجـــارمُ الجاني عليهم بمُسلَمِ

فبلغ، بحسن منطقه، ما اراد من التحذير والتنبيه وتبرئة قومه والدفاع عنهم، فأدى مهمته القبلية خير تأدية، وانقذ السلم والشرف في وقت معاً .

وكان كلما عرضت له خدمة القبيلة لا ينكص عنها . فاذا صمدت بنو تميم الى بني غطفان تطلب غزوها، تصدى لها يتهددها ويثبط عزيمتها، بسكون طبعه ورباطة جأشه، دون ان يفور له فائر . فيظهر منعة قومه وكرم خيولهم، ثم ينصح لها ان تبقى في دارها لئلا تغنى بالذل، او ان تنتجع سنان ابن ابي حارثة المرّي والد هرم فتلقى عنده الخير والسماحة :

فقَرّي في بلادكِ ، انَّ قوماً متى يَدَعوا بلادَهُمُ ، يهونوا
او انتجعي سِناناً حيث امسى، فانَّ الغيثَ مُنتَجَعٌ مَعينُ

وكذلك كان شأنه مع بني هوازن وبني سُليم عندما ازمعوا الغارة على الغطفانيين، فذكّرهم القرابة ودعاهم الى رعايتها والى حفظ المودة، ولم ينس ان ينوّه بشدة بأس قومه، وانهم اذا آثروا الصلح فعدوُّهم افقر اليه منهم.

ولم يكن هجاؤه لآل حصن الا من جملة سياسة القبيلة في الدفاع عن

غطفان ومقاومة من يسيء اليهم او الى احد منهم . فان الذي دفعه الى هجائهم هو ان رجلاً من بني عبد الله بن غطفان ، وهم الذين جاورهم زهير ، اتى قوماً من آل حصن، فاكرموه واحسنوا جواره. وكان مولعاً بالقمار، فنهوه عنه ، فابى الا المقامرة . فقمروه مرة فردوا عليه ما ربحوا منه ، ثم قُمر اخرى فردوا عليه . ثم قُمر الثالثة فلم يردوا عليه ، فترحل عنهم الى قومه ، وزعم انهم اغاروا عليه ، فهجاهم زهير . ثم لما علم الحقيقة ندم ، وكان يقول : ما خرجت في ليلة ظلماء الا خفت ان يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم . فقد هجاهم زهير لاعتقاده ان الغطفاني مظلوم أُغير عليه ، فانبرى يذود عنه ويهدد بني حصن ساخراً بهم ، ولكنه لم يفحش في اعراضهم كما افحش في بني الصيداء بعدما سبوا عبده يساراً ، بل اقتصر على التهكم الاليم والوعد والوعيد دون ان يغلق باب الصلح . وكان ناصحاً ومرشداً لهم يجادلهم ليثبت عليهم خطأهم ، ويدعوهم الى اصلاح ما افسدوا لكي لا يتسع الخرق على الراقع ، فيأتيهم منه هجاء لا قِبَل لهم به . وفي هذه القصيدة تتجلى حكمة زهير ورويّته واستطالته في الجدل واستنزال الخصم والقاء التبعة عليه لا يستطيع ان يتبرأ منها. فقد جاءهم بسبيل الجوار المقدس والذمة والوفاء ، فكان اشبه بمحامٍ يدافع عن موكله ليثبت الجرم على خصمه ، ويحمله على تأدية الدين الى المدعي ، فيرد على الحجج التي بوسعه ان يتذرع بها ، ويدحضها بجدله وبراهينه ، ويبصّره مقاطع الحق التي اعجب بها الاقدمون ، فلقبوه من اجلها بقاضي الشعراء .

سياسة الاجتماع

رأينا زهيراً ، في مدائحه واهاجيه ، يمثّل ، افضل تمثيل ، سياسة القبيلة

الجاهلية ، يشيد بمناقب ساداتها ، ويوجع في تهديد اعدائها ، يخطب ويعظ ، ويحامي ويدافع ، فعلينا ان ننظر الآن اليه حكيماً مرشداً يريد الخير لقومه ، فيبذل من الآراء والامثال ما تستقيم به أحوالهم الخلقية والاجتماعية. وليس لدينا من شعره قصيدة تجمع الحِكم ابياتاً يتوالى بعضها إثر بعض غير معلقته ، فقد خص القسم الاخير منها بطائفة من الآراء الاجتماعية التي شهرته عند الاقدمين ، وفضلوه من اجلها ، فقالوا : اشعر الناس صاحب مَن ومَن ومَن . وله اقوال متفرقة في شتى اشعاره ، منها ادلة عقلية مثل قوله :

وهل يُنبتُ الخطّيَّ الا وشيجُه ، وتُغرسُ ، الا في منابِتها ، النخلُ؟[1]

ومنها امثال في الحض على العمل الصالح :

تزوَّدْ الى يومِ الممات فانه ، وان كرِهتهُ النفسُ ، آخِرُ مَوعِدِ

او في تحديد مقاطع الحق :

وانَّ الحقَّ مَقطعُه ثلاثٌ : يمينٌ ، او نفارٌ ، او جِلاء

واما آراؤه في المعلقة فانه يتكلم اولاً على الحياة ، فاذا هو قد سئمها لطولها بعدما عاش ثمانين حولاً يلقى تكاليفها واثقالها . وسئمها لانه يجهل ما يستر عنه الغد ، وهي امنية الانسان لو استطاعها . وسئمها لان الموت يخبط على العمياء ، فيصيب هذا ويخطىء ذاك . ثم يتناول سياسة الاجتماع ، فنرى كل بيت يشتمل على فكرة مستقلة برأسها تتوخى ارشاد الفرد الى الطريق الذي يحسن به سلوكه لينتفع في دنياه ، وهي من الآراء التي يدركها الانسان

---

[1] الخطي : الرمح منسوب الى الخط وهي جزيرة في البحرين. الوشيج: القنا الملتف في منابته. يقول: لا تنبت القناة الا القناة ، ولا تغرس النخل الا بحيث تنبت وتصلح ، وكذلك لا يولد الكرام الا في موضع كريم .

بتجارب الحياة، واختبار الناس، والاطلاع على وجوه الخير والشر، وهي، الى ذلك، من الحقائق البدهية والفكر المشترك يستطاع الاعراب عنها بمختلف التعابير شعراً ونثراً دون ان تخسر شيئاً من قيمتها المعنوية، ولكنها اذا انطلقت على ألسنة الشعراء، كان تأثيرها ابلغ في النفوس، وتجعل لصاحبها منزلة بين الحكماء، حتى لنسمع جرجي زيدان، على فضله، يقول فيها: «هذا لا يقلّ شيئاً عن احكام اكابر الفلاسفة!»

واذا قلنا تتوخى ارشاد الفرد فلأنها لا تبحث في خير المجموع جملة، وما يؤول الى اصلاح نظمه ومداواة آفاته العامة، وانما هي فردية مثل البدوي، ملائمة لحياته الصحراوية، ترشد الافراد لينتفعوا بها في قبيلتهم، على علاتها، فتشمل المنفعة المجموع الذي يتألف منهم. وهذا ما اراده زهير عندما اخذ يرشدبقوله: مَن ومَن ومَن، داعياً الانسان الى المصانعة ليستفيد في الحياة بحسن سياسته:

ومَن لا يُصانِعْ في امورٍ كثيرةٍ، يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بَمنسِمِ

ويدعوه الى البذل والسخاء ليقي عرضه ويلقى الحمد، وهذا من الآراء الشائعة في الأدب القديم، لتعوّدهم ان يقروا الضيوف، ويجيروا الخائفين، ويكرموا العفاة، فنطقوا بذلك معبرين عن احوالهم، وان اختلفوا في صنع المعروف، فزهير يرفضه في غير أهله، ويجعل عاقبته ذماً وندامة، وغيره يقبله ويرى انه لا يضيع كما قال الحطيئة:

من يفعلِ الخيرَ، لا يعدَمْ جَوازيَه، لا يذهبُ العُرفُ بين الله والناسِ

ولم يكن زهير رسول الضعف والهزيمة وتثبيط العزائم في دعوته الى

السلم وتحذيره من الحرب ، وانما أدبه أدب القوة كغيره من الشعراء الجاهليين ، لا يبشر بالاستكانة والخنوع ، بل يدفع الحرب ما دام بوسعه ان يدفعها لخير القبيلة افراداً وجماعات دون ان يقودهم الى الذل والصغار . فاما اذا كان لا بد من الحرب ، فليس على المرء ان ينكص عنها :

ومَن لم يَذُدْ عن حوضِهِ بسلاحِهِ ، يُهدَّمْ ، ومَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ

ولا نعجب ان تصدر عنه حكمة في تزيين الظلم ، فانما هي حياتهم القبلية تفرض عليهم ظلم البعداء والحلم على الأقرباء ، فكلهم يفاخر بالجور على الغريب والرفق بابن العم. فزهير لم يزين الظلم الا لانه مصروف الى الغرباء لا الى القبيلة ، فأوصى به في جملة آرائه ، وجعله من سياسته الاجتماعية متأثراً بروح عصره . فليست آراؤه كلها انسانية تجاري العصور وتتخطى حواجز المكان والزمان ، بل فيها ما لا يعيش الا في الصحراء ، في المجتمع القبلي ، والعصر الجاهلي .

ويستوقفنا قوله :

لسانُ الفتى نِصفٌ ونصفٌ فؤادُه ، فلم يبقَ الا صورةُ اللحمِ والدمِ

فالعرب يعتقدون ان القلب مقر العقل ، او هو العقل بعينه كما في كتب اللغة . وكان ارسطو يجعل القلب موضع القوى النفسية ، بخلاف جالينوس الطبيب الذي يجعلها في الرأس ، وكان ابن سينا يأخذ برأي استاذه ارسطو. وقد قال العرب من عهد بعيد : المرء باصغريه قلبه ولسانه . ولم يذكروا العقل في كلامهم ، وانما ذكروا مكانه القلب والفؤاد . فزهير لم يبتعد عن حكمة الشعب في هذا البيت ، كما انه لم يبتعد عنها حين يقول :

وانّ سَفاه الشيخ لا حِلمَ بعدَه ،   وانّ الفتى ، بعد السفاهةِ ، يَحلُمُ

فآراؤه المتفرقة لا تجاوز نطاق التفكير العام ، ولكنها تجعل من صاحبها شاعراً حكيماً ، وخطيباً مرشداً . فهو من اولئك الشعراء الجاهليين الذين لهم رسالة اجتماعية يؤدونها لخير قبائلهم واصلاح أمرها . فقد قام بها افضل قيام في مدح سادات القبيلة وفرسانها ، واطراء مناقبهم ، وفي الدفاع عنها وارشادها الى ما فيه نجاحها ، فكان الشاعر القبلي ، والشاعر الحكيم ، وقاضي الشعراء .

منزلته

هو احد الثلاثة المقدمين في الجاهلية وهم : امرؤ القيس ، والنابغة ، وزهير . وقد اختُلف في تقديم احدهما على صاحبيه . وروى عمر بن عبد الله الليثي : ان عمر بن الخطاب قال : «زهير أشعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل[1] في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الشعر ، وكان لا يمدح أحداً الا بما هو فيه .» وروي ايضاً عن عمر انه كان يقول : «أشعر الشعراء صاحب مَن ومَن ومَن... » وقال ابو عبيدة : «اشعر الناس أهل الوَبَر خاصة وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة .» وسأل عِكرمة بن جرير اباه : «من اشعر الناس ؟» ففضل زهيراً في الجاهلية . وقال ابن سلام : «من قدّم زهيراً احتجّ بانه كان احسنهم شعراً ، وابعدهم من سخف ، واجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الالفاظ ، وأشدهم مبالغة في المدح ، واكثرهم امثالاً في شعره .»

---

١ يعاظل : يأتي بالتضمين أي ان تتعلق قافية البيت بما بعده على وجه لا يستقل بالافادة ، وهو عيب في الشعر .

فيتبين لنا من كل ذلك ، ان زهـيراً في مقدمة شعراء الطبقة الاولى . ومنهم من يفضله عليهم جميعاً . وهو كما رأيناه في شعره ، متين السبك غير خشن ، واضح المعاني ، موجز التعبير ، متناسق الأفكار ، رصين الاسلوب . يؤثر القصص في سرد افكاره ، والتصاوير الحسنة في ابراز موصوفاتـه . ترافقه الحكمة والرزانة في جميع فنون الشعر وأبوابه . فهو رزين في غزله ووصفه ومدحـه ؛ حكيم في هجائه ونصحه وتحذيره . ولا بدع ان يقـلّ سخفه فذاك راجع الى تروّيه في النظم واناته .

وقصارى القول ان زهـيراً شاعر حكيم ، ومصور بارع حريص على اتقان صوره وتبليغ ألوانها .

•

لبيد

٦٦١ م و ٤١ هـ (؟)

حياته : كرمه ونذره . هجاؤه للربيع عند النعمان . تعميره . اسلامه . نظمه الشعر في الاسلام . محاربته في جيش الحرث الأعرج الغساني .

آثاره : ديوانه ومعلقته .

ميزته : اجادته بوصف الديار الخالية . غزله وشدته . وصفه سرعة الناقة وتشبيهاته القصصية الرائعة . ميزة الحكم والمواعظ في غير معلقته . موت أخيه . تأثير الحزن في شعره . رثاؤه لأخيه . تأسيه ووعظه لنفسه .

منزلته : أقوال الأقدمين فيه .

حياته

هو أبو عَقيل لَبيد بن ربيعة العامري . وكان أبوه يُعرف «بربيعة المُقتِرين[1]» لجوده وسخائه . فنشأ لبيد كريماً مثله . وقيل انه نذر في الجاهلية ان لا تهبّ الصَّبا إلا أطعم . وظل على نذره في الاسلام .

وبدت دلائل النجابة على الشاعر منذ حداثة سنه . ومما يُروى عنه وهو غلام انه وفد في رهط من بني عامر على النُّعمان بن المنذر ، فوجدوا عنده الربيع بن زياد العبسي ، وكان الربيع ينادم النعمان ، فطعن في العامريين وذكر معايبهم لعداء بينهم وبين بني عبس . فجافى النعمان وفد بني عامر واهمل امرهم . فخرجوا من عنده غضاباً . فعرض عليهم لبيد ان يهجو الربيع في حضرة النعمان ، فاستخفوا به لصغر سنه ، فألح عليهم حتى

---

[1] المقترين : الفقراء .

رضوا . فلما أصبحوا دخلوا به على النعمان ، والربيع يؤاكله ، فقام لبيد يرتجز ويقول :

أَكُلَّ يومٍ هامَتي مُقزَّعَهْ ، يا رُبَّ هَيْجا هيَ خيرٌ مِنْ دَعَهْ[1]
يا واهِبَ الخيرِ الكثيرِ مِن سَعَهْ ، إليكَ جاوزنا بِلاداً مُسْبِعَهْ[2]
نحنُ بَنُو أمِّ البَنِينَ الأربَعَهْ ، سُيوفُ حَقٍّ ، وجِفانٌ مُترَعَهْ[3]
نحنُ خِيارُ عامِرِ بنِ صَعْصَعَهْ ، الضَّارِبُونَ الهامَ تحتَ الخَيْضَعَهْ[4]
والمُطعِمُونَ الجَفْنَةَ المُدعْدَعَه ، مَهْلاً أبَيْتَ اللَّعْنَ ! لا تأكل مَعَه ![5]

ثم قال بعدها بيتين لا يجمل ذكرهما ، فكره النعمان منادمة الربيع وطرده ، ثم قضى حوائج بني عامر .

وعُمِّر لبيد حتى أدرك الاسلام فانتحله ديناً ، ثم انتقل من البادية الى الكوفة وأقام فيها حتى مات . وكان موته في اول خلافة معاوية بعد ان جاوز المئة ، وسئم الحياة كما سئم منها زهير . وفي ذلك يقول :

ولقد سَئِمْتُ مِنَ الحياةِ وطُولِها ، وسؤالِ هذا الناسِ : كيف لبيدُ؟

---

١ الهامة : الرأس . مقزعة : محلوقة ، من القَزَع وهو ان يُحلق رأس الصبي وتترك مواضع منه متفرقة غير محلوقة تشبيهاً بقزَع السحاب اي بقِطَعه . الهيجا : الحرب واصلها بالهمز . الدعة : الراحة . المعنى : ان الغلام الشاعر يفضل الحرب على الراحة وتزيين الرأس .

٢ مسبعة : ذات سباع كثيرة . وقوله : يا واهب الخير ، خطاب للنعمان .

٣ الجفان : القصاع ومفردها جفنة . مترعة : مملوءة . وقوله : سيوف حقّ وجفان مترعة ، اي أبطال حروب وقُراة ضيفان .

٤ خيار الشيء : افضله . الهام، جمع الهامة : الرأس . الخيضعة : البيضة التي تلبس على الرأس في الحرب .

٥ المدعدعة : المُترَعة . أبيت اللعن : دعاء في الجاهلية وتحية للملوك ، اي أبيت ان تفعل ما تُلعَن به .

وزعم الرواة ان لبيداً لم يقل شعراً في الاسلام إلا بيتاً واحداً وهو :

الحَمْدُ للهِ إذْ لم يَأتِني أجَلِي ، حتى كَسَاني مِنَ الاسلامِ سِرْبالا

وقيل بل هو :

ما عاتَبَ الحُرَّ الكَريمَ كَنَفْسِهِ ، والمرءُ يُصْلِحُهُ الجَليسُ الصَّالحُ

وروَوا ان عمر بن الخطّاب كتب الى عامله المُغيرة بن شُعْبة في الكوفة : « أن استنشد مَن عندك من شعراء عصرك ما قالوه في الاسلام . » فارسل الى لبيد واستنشده ، فكتب لبيد « سورة البَقَرة » في صحيفة ثم أتى بها الى المغيرة وقال : « ابدلني الله هذه في الاسلام مكان الشعر . »

ومن الغريب ان يطمئن الرواة ومن أخذ عنهم ، الى سكوت لبيد عن نظم الشعر في الاسلام ، على حين انهم لا يجدون مشقة في ان يضيفوا اليه اشعاراً قالها بعد اسلامه ، فزعموا انه لما بلغ مائة حجة وعشراً قال :

أليسَ في مائةٍ قد عاشَهَا رَجُلٌ ، وفي تَكامُلِ عَشرٍ بَعْدَها ، عُمُرُ !

وانه قال لمّا بلغ مائة وعشرين :

ولقد سَئِمْتُ منَ الحياةِ وطُولِها ، وسُؤالِ هذا الناسِ : كيف لبيدُ ؟

غلَبَ الرّجالَ ، فكانَ غيرَ مُغلَّبٍ ، دَهْرٌ جَديدٌ دائِمٌ مَعْدُودُ

يَومٌ أرى يأتي عَليَّ ولَيْلَةٌ ، وكِلاهُما بَعْدَ المَضاءِ يَعُودُ

وهم يقولون ان لبيداً عاش تسعين سنة في الجاهلية ، وسائر عمره في الاسلام ، فهذه الأبيات اذاً قيلت بعد اسلامه . ويروون للبيد قوله مخاطباً ابنتيه لمّا حضرته الوفاة :

تَمَنّى ابْنَتايَ أنْ يَعيشَ أبوهُما ، وهل أنا إلا مِنْ ربيعةَ أو مُضَرْ ؟

إذا حانَ يوماً أنْ يموتَ أبوكُما ، فلا تَخمُشَا وجهاً ولا تحْلِقَا شعَرْ
وقُولا : هو المرءُ الذي ليسَ جارُهُ مُضاعاً ، ولا خانَ الصديقَ ، ولا غدرْ
الى الحولِ ، ثمَّ اسمُ السلامِ عليكُما ، ومَنْ يَبكِ حولاً كاملاً فقدِ اعتذَرْ [1]

فكيف يمكن التوفيق بين ما يروون له من الشعر في الاسلام ، وزعمهم انه لم يقل فيه غير بيت واحد ؟.. اما نحن فنرى ان لبيداً نظم الشعر في الاسلام كما نظمه في الجاهلية ، ومن تدبر اشعاره بروية ، استروح في بعضها نفحة قرآنية لا تخفى ، مثال ذلك قوله :

إنَّ تَقْوى رَبِّنا خيرُ نَفَلْ ، وبإذنِ اللهِ رَيْثي والعَجَلْ [2]
أحْمَدُ اللهَ ، ولا نِـدَّ لهُ ، بيَدَيْهِ الخَيرُ ، ما شاءَ فَعَلْ [3]
مَنْ هداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتَدى ناعِمَ البالِ ، ومَن شاءَ أضَلْ

فمثل هـذا الشعر ، اذا صحّ ، لا يقوله الا شاعر عرف الاسـلام ، وتأثر بالقرآن .

وزعم ابن قُتيبة وغيره : ان الحرث الأعرج الغساني وجّه الى المنـذر ابن ماء السماء مائة فارس وأمّر عليهم لبيـداً ، فساروا الى عسكر المنذر واظهروا انهم اتوه داخلين في طاعته . فلمّا تمكنوا منـه قتلوه ، وركبوا خيلهم ، فلحقهم القوم فقتلوا اكثرهم ونجا لبيد ، فأتى ملك غسان فأخبره ، فحمل الغسانيون على عسكر المنذر فهزموهم ، فكان ذلك يوم حليمة .

---

[1] الى الحول : اي زورا قبري كل يوم وافعـلا ما امرتكما حتى يمضي الحول فحسبكما ثم السلام عليكما . ولفظ اسم : هنا زائد .
[2] النفل : الغنيمة والهبة . الريث : البطء .
[3] الند : المثل والنظير .

ولكن الرواة يجمعون على ان لبيداً كان حدثاً لما قدم النعمان في وفد من بني عامر . وبين النعمان ابي قابوس وابن ماء السماء نحو نصف قرن ، فكيف كان لبيد فارساً مغواراً على عهد المنذر بن ماء السماء ، ثم كيف اصبح غلاماً مقزّع اللمة على عهد النعمان بن المنذر ؟.. أليس هذا من خلط الرواة واضاليلهم ؟ فلبيد بن ربيعة لم يعرف المنذر ولا الحرث الغساني ، وانما عرف النعمان وكان صبيّاً ، والذي ذكره ابن قتيبة هو غير شاعرنا .

آثاره

اشعار وصل الينا منها قدر يسير فجمعت في ديوان وطبعت «بفينّا» ثم ترجمت الى الالمانية . وفي جملة هذه الأشعار مطولته وهي المعلقة الرابعة .

ميزته

لا ينبغي ان نلتمس ميزة لبيد في المعلقة وحدها ، فهي لا تغنينا عن سائر شعره لنتبين خصائصه ، وندرك منزلته . فالمعلقة تبدي لنا حياة رجل بدوي كريم ، كلف بالمجد والمعالي ، ولكنها لا ترينا ذلك الشيخ الحكيم الذي يحسن وعظ نفسه وتعزيتها عند نزول المصائب . فلا بدّ لنا اذاً من ان ندرس مع المعلقة شيئاً آخر من شعره لنعرف من هو لبيد ، وما هي ميزته الشعرية .

اما المعلقة فلها شأن أدبي لا يستهان به ، وان تكن دون المعلقات الثلاث التي مرّت بنا . وهي في متانة لفظها وصلابة أبياتها ، تمثل الحياة البدوية الساذجة ، وتمثل الشعر المُضَري أحسن تمثيل . وقد بدأها لبيد بوصف الديار الخالية وتعرضها للأمطار فأجاد الوصف وفاق غيره .

ثم يتخلص الى الغزل بسؤال الديار عن اهلهـــا ، فيوجز في وصف الفراق وذكر صاحبته نَوار . ثم ينتقل ، على عجل ، الى وصف ناقته التي تساعده بالأسفار على قطيعـة من صرمت حباله . وهو في غزله كما في سواه صلب حزيم لا يلين اسره ولا ترق ألفاظه ، ولا يبالي ان يقطع مودة من هجره .

ويأخذ بعد ذلك في وصف ناقته ، وهو أروع أقسام المعلقة ، ولكنه لا يصف اعضاءها كما فعل طرفة ، بل يجعل همه في تصوير سرعتهـا فيتسع خياله لثلاثة تشبيهات رائعة رويّة ، يورد اثنين منها في اسلوب قصصي فكه. فشبهها اولاً بالسحابة الحمراء خفت بها ريح الجنوب فدفعتها امامها فأسرعت في جريها وهي خاليـة من الماء . ثم شبهها بأتان وحشية نشيطة غار عليهـا قرينها من الفحول ، فدفعهـا امامه يسوقها سوقاً عنيفاً حتى اعـتزل بها في أعالي الآكام فسلخا ستة اشهر في الشتاء والربيع يرعيان الرُّطب صائمين عن الماء ، فلما هبّت رياح الصيف واشتدّ الحرُّ ونبت الشوك فأصاب حوافرهما انطلقا مسرعين يطلبان الماء ، وخيم عليهما غبار كأنه دخان نار موقـدة ، وكان العير يعدو وراء الأتان فما يدعها تتأخر عنه لئلا تفلت منه ، وظـلا في عدوهما حتى بلغا الماء فورداه. وهنا ينتقل الى التشبيه الثالث سائلًا نفسه : أفتلك الأتان تشبه ناقتي في سرعتها ؟ أم تشبهها بقرة وحشية افترس السبع ولدها فأسرعت في السير تبحث عنه ، وظلت في طلبه حتى أدركها الليل فأمطرتها السماء ديمةً مدراراً « في ليلة كفرَ النجومَ ظلامُها[1] » فلجـأت الى شجرة في الرمل تتقي باغصانها الـبرد والمطر فما تقيهـا ، وكثبان الرمل

---

[1] كَفَر : ستر .

تنهال عليها . ولكنها يئست من ولدها بعد ان طال بحثها عنه ، وجف ضرعها بعد امتلائه ، ثم راعها الرماة بكلابهم فجدّت في العدو ، فطاردها الكلاب فلم ترَ بدّاً من ان تدافع عن نفسها ، فقابلتهن بقرنها .

وبعد ان ينتهي من تشابيهه الثلاثة يعود الى نفسه فيصفها بإباء الضيم والشمم ، ثم ينصرف الى وصف حياته في هدوئها واضطرابها ، فهو في السلم صاحب لهو وطرب يشرب الخمر ويُغلي ثمنها ، ويدفع بها شدة البرد والريح:

بصَبُوحِ صافيةٍ ، وجَذْبِ كَرِينةٍ بِمُوَتَّرٍ تَأتالُهُ إبْهامُها[1]

وهو كريم جواد ينحر الجزور ، ويطعم الفقراء والمساكين . وهو في الحرب شجاع باسل يحمي الحيّ ، ويرقب الأعداء على جبل قريب من جبالهم وراياتهم ، تحمله فرس سريعة الجري ، يتوشح بلجامها ليظل متأهباً لركوبها .

وبعد ان وصف فرسه بايجاز ، أخذ يفتخر بقومه ، فأرانا فيهم كرماً ونجدة وأمانة :

وإذا الأمانةُ قُسِّمَتْ في مَعْشَرٍ أوفى بأوفرِ حَظّنا قَسّامُها[2]

فمعلقة لبيد تمثل شطراً من حياة البدوي الأبي النفس ، العالي الهمة ، الصادق في تصوير اخلاقه ، ولكنها لم تمثل لنا ميزة الحِكَم في الشاعر ،

---

١ الصبوح : الشرب في الصباح . الكرينة : الجارية العوادة . بموتر : أي ذي اوتار . تأتاله : تصلحه « تدوّزنه » . يقول : ادفع البرد والريح عني باصطباح خمرة صافية ، وسماع عوّادة تجذب اوتار عودها وتصلحه بإبهامها .

٢ أوفى : وفى ولم ينقص . يقول : واذا قُسمت الامانات بين الناس كان القسم الأوفر لنا . والباء بأوفر زائدة .

فهذه نجدها في رثائه لأخيه أرْبَد[1] ، ووعظه نفسه لتتأسى وتعتصم بالصبر الجميل . وقد اثر الحزن في الشاعر فأرقّ رثاءه ، فلست ترى فيه تلك الصلابة التي تجدها في أبيات المعلقة .

ولكن عقل الشاعر الحكيم سيطر على عاطفته ، فحبسها عن الارنان والتفجع ، وسما بصاحبه الى المثل الأعلى ، الى الحكمة التي تجعل الانسان يقوى على ضعفه ، فإذا بنا نرى من لبيد واعظاً مرشداً يعزي نفسه بانواع الأمثال الحكمية ، ويقابل مصيبته بمصائب الناس فتهون عليه ويخف جزعه ، ولماذا يجزع وكل امرىء في هذه الحياة الدنيا سيموت ؟..

فلا جَزَعٌ أنْ فَرَّقَ الدهرُ بيننا ، فكُلُّ أمرىءٍ يوماً له الدهرُ فاجع[2]

ففي هذا الرثاء وفي غيره من شعره حِكَم تسمو الى ما بعد الطبيعة حتى تتصل بالعزة الالهية ، لذلك لا نعتقد ان لبيداً قالها في جاهليته ووثنيته ، وهذا ما يجعلنا ننفي زعم الرواة انه لم يقل غير بيت واحد في الاسلام .

منزلته

قال أبو زيد القرشي : « لبيد افضلهم في الجاهلية والاسلام ، واقلهم

---

١ أربَد : أخو لبيد لأمه ، ذهب في وفد من بني عامر الى المدينة بعد ظهور دعوة محمد ليدخلوا في الدين الجديد ، ولكنه عاد ولم يُسلم ، وبينا هو في الطريق انقضت عليه صاعقة فقتلته وفي ذلك يقول لبيد :

فجّعَني الرّعدُ والصواعِقُ بالـ ... فارس ، يومَ الكريهةِ ، النّجُدِ
يا عينُ هلاّ بكَيْتِ أربَدَ اذ ... قُمْنا وقامَ الخُصومُ في كَبَدِ ١
إن يَشْغَبوا لا يُبالِ شَغْبَهُمُ ، ... أو يقصِدوا في الخِصامِ يقتصِدِ ٢

١ الكبد : الامر الشاق .
٢ يشغبوا : يهيجوا الشر . يقصِدوا : يعتدلوا .

٢ الجزع : ضد الصبر . فاجع : موجع .

لغواً في شعره .» وجعله ابن سلام في الطبقة الثالثة وقال فيه : «وكان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام.» وروي ان النابغة نظر اليه وهو صبي مع اعمامه على باب النعمان بن المنذر فقال له : «يا غلام ، ان عينيك لَعَيْنا شاعر، أفتقرض الشعر ؟» قال: «نعم .» قال: «فأنشدني .» فأنشده :

أَلَمْ تُلْمِمْ على الدِّمَنِ الخَوالي ، لِسَلْمَى بالمَذائِبِ فالقَفالِ ؟[1]

فقال له النابغة : «انت اشعر بني عامر . زدني .» فأنشده :

طَلَلٌ لِخَولَةَ بالرُّسَيْسِ قديمُ ، بِمَعاقِلٍ فالأنعَمَينِ ، وُشُومُ[2]

فقال له : «أنت اشعر بني هَوازِن[3] . زدني .» فانشده معلقته . فقال له : «اذهب فأنت أشعر العرب .»

وسواء صحّت هذه الرواية او لم تصح ، فمنزلة لبيد في الشعر جليلة ، فهو وان يكن قصّر في معلقته عن امرىء القيس في التشابيه والاستعارات ، ووصف الجواد والمطر ، وعن طرفة في وصف اعضاء الناقة ، وذكر حياته ، وعن زهير في وصف الفراق والحرب ، وفي سياسة القبيلة ، فانه فاقهم جميعاً بوصف الديار الخالية ، وبتشبيهاته القصصية في وصف سرعة الناقة . وهو يمتاز في رثائه المحلى بالمواعظ ، وفي تلك الحِكَم البليغة التي تدل على ايمان بالله مكين ...

---

١ تلمم : من ألمّ أتى ونزل . الدمن : آثار الديار . الخوالي : الخالية من أهلها . المذائب والقفال : موضعان .

٢ الرُّسيس ومعاقل والانعمان : مواضع . وُشوم: جمع وشم وهو ما نقش على اليد بالكحل. شبّه آثار الديار بالوشوم .

٣ هوازن : القبيلة الجامعة التي ينتمي اليها بنو عامر .

عمرو بن كلثوم

القرن السادس

حياته	:	نسبه. الخلاف بين بكر وتغلب. التقاضي الى عمرو بن هند. مقتل عمرو بن هند. محاربته الغساسنة ثم النعمان ابا قابوس. اسره. وصيته لأبنائه. موته.
آثاره	:	اشهرها المعلقة. نظمت يوم التقاضي.
ميزته	:	الرقة واللين. الغلو والتكرار. فخر عاطفي. معلقته. منزلتها القومية والادبية والتاريخية.

حياته

هو عمرو بن كُلثوم بن مالك بن عتّاب التّغلِبيّ من اهل الجزيرة، وأمه ليلى بنت المهلهل اخي كليب وائل، وابوه كلثوم من سادات تغلب. نشأ عمرو شديد العُجب بنفسه، فخوراً بامجاد ابيه واخواله، فساد قومه صبيّاً في الخامسة عشرة من عمره.

الخلاف بين بكر وتغلب

عرفنا في كلامنا على المهلهل وحرب البسوس، ان الملك المنذر، والد عمرو بن هند، اصلح بين العشيرتين بعد نضال دام اربعين سنة، ولكنه خشي ان تعودا الى القتال فأخذ من كل حيٍّ منهما مائة غلام رهينة، حتى اذا اعتدت احداهما على الاخرى اقاد[1] من الرهائن.

ولما تولى المُلكَ عمرو بن هند حذا حذو ابيه في الارتهان من العشيرتين.

---

[1] أقاد الاميرُ القاتلَ بالقتيل: قتله به قَوَداً اي قصاصاً.

وكان ان سيّر ذات يوم ركباً من تغلب وبكر الى جبال طيّء في امر من اموره ، فنزلوا في ارض لبني شيبان احلاف البكريين فقيل انهم اجلوا التغلبيين عن الماء ، ودفعوهم الى مفازة فتاهوا وماتوا عطشاً . وقيل بل هبت عليهم سَموم في بعض مسيرهم فهلك التغلبيون وسلم البكريون . فلما بلغ ذلك بني تغلب غضبوا وطلبوا ديات ابنائهم من بني بكر ، فأبت اداءها ، فاحتكموا الى عمرو بن هند فقال لهم : « ما كنت لأحكم بينكم حتى تأتوني بسبعين رجلاً من اشراف بكر بن وائل فأجعلهم في وثاق عندي ، فإن كان الحق لبني تغلب دفعتهم اليهم ، وان لم يكن لهم حقّ خليت سبيلهم . » ففعلوا وتواعدوا ليومٍ يعيّنه ، يجتمعون فيه .

ولما كان يوم التقاضي انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها عمرو ابن كلثوم ، وانتدبت بكر للدفاع عنها احد اشرافها النعمان بن هرِم .

وكان عمرو بن هند يؤثر التغلبيين على البكريين ، ويميل الى انصافهم ، فجرى بينه وبين النعمان جدال غضب له الملك فطرد النعمان من حضرته ، وانشد عمرو بن كلثوم مطولته فافتخر على خصومه ، مندفعاً مع العاطفة في التبجح على ملك العراق مندداً به مهدّداً اياه حتى احفظه . ثم وقف الحرث بن حلّزة البكري فرد عليه بمطولته واستمال الملك بدهائه ، فحكم للبكريين .

قتله عمرو بن هند

كان بنو تغلب من اشد العرب في الجاهلية حتى قيل : « لو ابطأ الاسلام لأكلت بنو تغلب الناس . » وروي ان عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه : « أتعلمون احداً من العرب تأنف امه من خدمة امي ? » قالوا :

« لا نعلمها الا ليلى ام عمرو بن كلثوم.» قال : « ولمَ ذلك ؟ » قالوا : « لان اباها مهلهل ربيعة ، وعمها كليب وائل ، اعز العرب ، وبعلها كلثوم ابن عتّاب فارس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه . » فأرسل عمرو بن هند الى عمرو بن كلثوم يستزيره ، وسأله ان يُزيرَ أُمَّهُ أمَّه ، فاقبل عمرو من الجزيرة في جماعة من بني تغلب ، واقبلت ليلى في ظعن من نساء تغلب . وامر عمرو بن هند برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات ، وارسل الى وجوه اهل مملكته فحضروا . ودخل عمرو بن كلثوم رواقه ، ودخلت امه ليلى قبة هند أم الملك عمرو ، وعمة امرىء القيس الشاعر .

وكان عمرو بن هند قد اوعز الى امه ان تنحّي الخدم وتستخدم ليلى اذا دعا بالطُّرَف[1]. فلما دعا بها قالت هند : « يا ليلى ناوليني ذلك الطبق . » فقالت : « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها . » فاعادت عليها ، فلما ألحت صاحت ليلى : وآذُلاّه ! يا لتغلب ! فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم في وجهه ، فقام الى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق وليس سيف هناك غيره ، فضرب به رأس الملك حتى قتله ، ونادى في بني تغلب فانتهبوا جميع ما في الرواق وساروا نحو الجزيرة .

وفي ذلك يقول أُفنون بن صَريم التغلبي مفتخراً بفعل عمرو بن كلثوم:

لَعَمْرُكَ ، ما عمرو بنُ هندٍ ، وقد دعا
لِتَخْدُمَ ليلى أُمَّهُ ، بِمُوَفَّقِ

---

[1] الطُّرَف ، جمع طرفة : وهي المُلْحة ، ويراد بها هنا ما يقدم بعد الطعام من حلوى وفاكهة .

فقامَ ابنُ كُلثومٍ الى السَّيفِ مُصلَتاً ،
فأمسَكَ مِنْ نَدْمانِـــهِ بالمُخَنَّقِ [1]

وجَلّلهُ عَمْرٌو عـــلى الرَّأس ضربةً
بِذي شُطَبٍ ، صافي الحديدةِ ، رَونقِ [2]

وضُرب المثل بعمرو بن كلثوم في الفتك فقيل : « أفتك من عمرو بن كلثوم . »

محاربته النعمان

وظل المنـاذرة يناوئون بني تغلب ويحاربونهم برجالهم واحلافهم حتى اضطرهم المنذر الرابع اخو عمرو بن هند الى الجلاء عن الجزيرة، فأتوا ارض الشام وعليها الغساسنة ، فمر بهم عمرو بن أبي حُجر الغساني ، وقال ابن الاثير: بل خرج ملك غسان وهو الحرث بن أبي شَمِر ، فلم يستقبلوه ، فاغتاظ وطلب سيدهم عمرو بن كلثوم وتوعده ، فاقتتلوا فانهزم بنو غسان وقُتل اخو الحرث في عدد كبير . فقال عمرو بن كلثوم :

هَلاّ عَطَفتَ على اخيكَ اذا دَعا
بالثُّكلِ ، ويلَ أبيكَ ، يا ابنَ أبي شَمِرْ!

ثم رجع بنو تغلب الى الجزيرة، وعلى الحيرة ابو قابوس النعمان بن المنذر الرابع، فارسل لمحاربتهم جيشاً على رأسه ابنه المنذر ، فكسرهم بنو تغلب ، وقُتل المنذرُ بن النعمان ، وقاتِلُه مُرّةُ اخو عمرو بن كلثوم . والى هذه

---

[1] مصلتاً : مجرداً . الندمان : المنادم على الشراب . المخنّق : العنق لانه موضع حبل الخنق.
[2] جلله ضربةً : جعل الضربة غطاء له . بذي شطب : بسيف ذي طرائق في متنه . رونق : أي ذي رونق ، ورونق السيف طلاوته .

الحادثة ، والى مقتل عمرو بن هنـد يشير الاخطل التغلبي بقوله مفتخراً على جرير :

أَبَني كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذا قتَلا المُلوكَ ، وفَكَّكا الأغلالا[١]

وقال الفرزدق يرد على جرير في هجائه الاخطل :

قَومٌ هُمُ قَتَلوا أبنَ هِندٍ عَنْوةً عَمراً ، وهمْ قَسَطوا على النُّعمانِ[٢]

ثم ارسل النعمان يتوعد عمراً ، فأخذ عمرو يهجوه ويعيره امّه سلمى ، وكانت ابنة صائغ وأخت صائغ . فمن قوله :

لَحا اللهُ أدنانا الى اللؤمِ زُلفةً ، وألأمَنا خالاً وأَعجزَنا أبا[٣]

وأجدرَنا أنْ يَنفخَ الكيرَ خالُه ، يصوغُ القُروطَ والشُّنوفَ بيَثربا[٤]

اسره

اغار عمرو بن كلثوم على بني تَميم في البحرين، ثم مال على حي من بني قيس بن ثعلبة فأصاب مالاً واسارى وسبايا ، حتى اذا انتهى الى بني حَنيفة في اليمامة، خرج اليه منهم بنو سُحَيم وعليهم يزيد بن عمرو بن شَمِر وكان شديداً جسيماً فحمل على عمرو فطعنه ، فصرعه عن فرسه ، واسره وشدّه في القِدّ[٥] ثم قال له : « انت الذي تقول :

متى نَعْقِدْ قَرينَتَنا بحَبلٍ ، تَجُذَّ الحَبلَ أو تُقصِ القَرينا

---

١ اللذا : اللذان . الاعلال : القيود .

٢ عنوة : قوّة واقتداراً . قسطوا : جاروا وظلموا .

٣ لَحا : احزى . زلفة : منزلة .

٤ القروط : الحَلَق ، مفردها قُرْط. الشنوف: القروط او ما يعلق في أعلى الأذن خلافاً للقرط ، مفردها شَنْف . يثرب : مدينة الرسول .

٥ القِدّ : قَيد من جلد يُقَيَّد به الأسير .

اما اني ساقرنك الى ناقتي هذه فاطردكما جميعا . » فعزّ على عمرو بن كلثوم ان يُحَقَّر ويهان ، فصاح : « يا لَربيعة ! أَمُثْلَة[1] ! » فاجتمع قوم يزيد فنهوه ولم يكن يريد ذلك انما اراد تبكيته. فسار به حتى أتى قصراً بحَجْر[2] من قصورهم، وضرب عليه قبة، ونحر له و كساه، وسقاه الخمر فلما اخذت برأسه أنشأ يمدحه بأبيات قال فيها :

جَزى اللهُ الأغَرَّ يَزيدَ خيراً ، ولَقّاهُ المَسَرَّةَ والجَمالا !

موته

عاش عمرو بن كلثوم حتى بلغ من الكِبَرِ عُتِيّاً[3] ، وشبعت نفسه من الغزوات والانتصارات ، وذاق من الدهر حلوه ومرّه ، فلما حضرته الوفاة جمع بنيه واوصاهم :

« يا بَنيّ ، قد بَلغتُ مِنَ العمرِ ما لم يبلغه أحدٌ من آبائي ، ولا بُدّ ان يَنزِلَ بي ما نَزلَ بهم منَ الموتِ . وإني واللهِ ما عَيّرتُ أحداً بشيء الا عُيّرتُ بمِثله ، إنْ كان حَقّاً فحَقّاً وإن كان باطِلًا فباطِلًا . ومَن سَبَّ سُبَّ ، فَكُفّوا عن الشَّتم ، فإنه أسلمُ لكُمْ ، وأحسِنوا جِوارَكُمْ يَحْسُنْ ثناؤكم . وامنعوا من ضَيمِ الغريب ، فَرُبَّ رَجُلٍ خيرٌ من الفٍ ، ورَدٍّ خيرٌ من خُلْفٍ[4] . وإذا حُدِّثتُم فَعُوا[5] ؛ وإذا حَدَّثتُم فأوْجِزوا ، فإنه

---

١ المُثلة : التنكيل والتشنيع بالقتلى . وقوله : يا لَربيعة ، وهي القبيلة الجامعة التي ينتسب اليها بنو تغلب ، لان قبائل البحرين وما يليها اكثرهم من ربيعة بن نزار ، فهو يستغيث بانسبائه واعدائه في وقت واحد .

٢ حَجر : قصبة باليمامة .

٣ عتياً : اي وصل الى حيث ولّى امره .

٤ يقول : رب طلب تردّه خير من وعد لا تفي به .

٥ عوا : احفظوا ما تسمعونه .

مع الاكثار يكون الإهذار[1]. وأشجعُ القوم العطوفُ[2] بعد الكرّ، كما أنّ اكرمَ المنايا القتلُ. ولا خيرَ فيمَنْ لا رويّةَ له عندَ الغضبِ، ولا فيمَنْ إذا عوتِبَ لم يُعتِبْ[3]. ومنَ النّاسِ مَنْ لا يُرجى خيرُهُ، ولا يُخافُ شرُّهُ، فبُكوؤُه خيرٌ من دَرِّهِ[4]، وعقوقُهُ خيرٌ من برِّهِ. ولا تتزوّجوا في حيِّكمْ، فإنه يُؤدّي الى قبيحِ البُغضِ.» اه.

غير اننا لا نقطع بصحة هذه الوصية، وان تكن قليلة التكلف اللفظي، خالية من الاغراب الذي نجده في اكثر النثر المنسوب الى عرب الجاهلية، وهو ليس من صنعهم بل من صنع شيوخ العلم في الاسلام. وفي الوصية سهولة ولين يوافقان اسلوب عمرو بن كلثوم في شعره.

وهناك رواية ذكرها ابن قتيبة في الشعر والشعراء وهي ان عمراً، عندما أسر في بني حنيفة، ظل يشرب الخمر صرفاً لشدة غيظه حتى مات. فهو احد الاشراف الذين قتلتهم الخمر.

وعمرو مذكور في طبقات المعمّرين، واكثر الرواة يزعمون انه مات وله من العمر خمسون سنة ومئة.

آثاره

لم يصل الينا من شعر عمرو بن كلثوم شيء يستحق الذكر غير المعلقة، واما ما بقي فأبيات ومقطعات قليلة، منها في الافتخار بنفسه وقومه، ومنها في مدح يزيد بن عمرو، ومنها في هجاء عمرو بن هند والنعمان ابي قابوس. وقد اوردنا بعضها في هذا البحث.

---

١ الاهذار: الهذيان.

٢ العطوف: الذي يعطف على المنهزمين فيحميهم.

٣ يُعتب: يعطي الرضى ويترك ما كان يغضب لأجله، والمعنى: لا خير فيمن اذا استُرضي لم يرضَ.

٤ البكوء: قلة اللبن. الدرّ: كثرة اللبن.

اما معلقته فهي الخامسة بين المطولات ، قيل انه وقف بها خطيباً في سوق عكاظ وفي موسم مكة. ويُستدل من بعض ابياتها انها على قسمين نظما في زمانين متباعدين احدهما يوم التقاضي ، والآخر بعد مقتل عمرو ابن هند ، في حين ان الاصمعيّ يزعم انها قيلت يوم التحكيم دفعة واحدة. فاذا عرضنا بالنقد للقسم الذي قد يُظن انه نظم بعد مقتل الملك ، لا نجد فيه الا بيتاً واحداً يمكن ان يستأنس به كدليل او شبه دليل ، وهو :

تُهدِّدُنا وَتوعِدُنا ، رُويداً ! مَتى كُنّا لأُمّكَ مَقتَوينا !

فقوله : « متى كنا لأمك مقتوينا » اي خادمين ، لا يصعب علينا ان نجد له تفسيراً في قصة ليلى وهند ، فنطمئن الى القول بان المعلقة نظمت في مرحلتين . غير ان البيت الذي يتقدمه يدل على ان الشاعر يؤنب عمرو بن هند لانه ولّى على بني تغلب اميراً من قِبَله يحكم فيهم . والبدوي لا يرضى بسيادة الغريب الا مكرهاً ، فاذا سنحت له الفرصة وثب عليه فقتله وتخلص منه . فالشاعر يقول :

بأيّ مَشيئَةٍ ، عَمرَو بنَ هندٍ ، نكونُ لِقَيلِكُمْ فيها قَطينا؟[1]

فبنو تغلب ، كما يتبين ، ساخطون على عمرو بن هند لامر لا علاقة له بحادثة الطُرَف . فقوله اذاً في البيت التالي : « متى كنا لأمك مقتوينا » يقتضي ان لا يعني بحد ذاته حادثة خاصة ، وانما مفاده ان بني تغلب ليسوا بخدم للملوك او لأمهاتهم ليستبد هؤلاء بهم ، ويولوا عليهم من يشاؤون . ولا نجد في بقية الابيات التي تتناول عمرو بن هند الا تبجح ابن كلثوم واعتداده بصلابة عوده وتمرده على كل من يريد ان يتحكم به او بقومه :

---

١ القيل : الملك دون الملك العظيم . القطين : الخادم .

فانّ قناتَنا ، يا عمرو ، أعيَتْ ، على الاعداء ، قبلَكَ ، ان تلينا

وليس في ذلك ما ينافي قوله السابق : « نكون لقيلكم فيها قطينا . » بل هو ، بالاحرى ، تأكيد له وتبليغ . ويصح ان تكون هذه الابيات قد قيلت يوم التقاضي ، واغضبت عمرو بن هند فحكم للبكريين ، كما قيلت الابيات التي قبلها وفيها ما يشبهها مثل قوله :

وأيامٍ لنا غُرٍّ طوالٍ ، عصَينا المَلْكَ فيها أن نَدينا

واذا تتبعنا المعلقة الى آخرها بعد الابيات التي يأتي فيها ذكر عمرو بن هند نرى انها متصلة كل الاتصال بيوم التقاضي، فيها مفاخرة بالقبيلة ومنافسة للبكريين ، كما تقتضي شروط المنافرة والتحكيم في العصر الجاهلي ، مما يؤيد ان المعلقة قيلت دفعة واحدة كما ذكر الاصمعيّ .

ميزته

عمرو بن كلثوم صورة طبق الأصل عن جده المهلهل ، فهو فخور مثله ، متكثر مثله ، كذوب مثله . وفي شعره سهولة وتكرار وهلهلة كما في شعر جده . ولا عجب ان يتشبّه الولد بأبيه وجده او عمه وخاله ، وانما العجب ان يشذ عنهم فلا يتأثر بهم في شيء كما هو شأن امرىء القيس ، وقد زعموا انه ابن اخت المهلهل .

يبتدىء عمرو معلقته بوصف الخمرة وتأثيرها في شاربها ، ثم ينتقل الى الغزل، فيستوقف صاحبته ليحدثها عن الحرب شأن الشعراء الفرسان ، ولكنه يجتزىء ببيت واحد وينتقل الى وصف ذراعيها ، وصدرها ، وقامتها ، ويرى بعضهم ان مطلع القصيدة يبتدىء بهذا القسم ، والمشهور خلاف ذلك. فاذا بلغ الى مخاطبة عمرو بن هند، أخذ في الافتخار والتهديد،

وهنا تظهر الصلة واضحة بين شعره وشعر جده المهلهل، فاخرجه على طريقته فخراً وحماسة ، مندفع العاطفة حتى الغلو المتطرف ، قليلاً فيه عمل الخيال التصويري ، وأقل منه عمل التفكير . ليس إلاّ شعوراً يتدفق ، وحمية تشتعل ، ونفساً تثور فتتخطى الحواجز والحدود ، مرتدية من الألفاظ ثوباً نسجته على هواها ، لم تمتد اليه يد صناع فتشد سداه ولحمته ، وتحكم وشيه وتخطيطه . فخرج على سجيته من حسن ورديء ، عصي المزاج في تركيبه ، تدافعت حروفه تدافع الأمواج الجائشة ، فيها صخب ولين ، وعود وتكرار ، وتفكك واتصال . أكثره في الفخر ، وأقله في المدح والهجاء . افتخر ممتلىء النفس حماسة ، وهجا ثائراً منتقماً ، ومدح شاكراً لا متكسباً . وليس من غرضنا ان نبحث في مدحه وهجائه ، وهما لا خطر لهما في شعره. وانما غرضنا ان نظهر تلك الشخصية البدوية في كبرها واعتدادها ، في تهورها وغليان شواعرها . فالفخر عند ابن كلثوم يخرج صورة جلية تبرز نفسية سيد عريق يستأثر بالفضائل الجاهلية ، ويتكلم بأنا ونحن ، انانياً بصيغة المفرد ، أميراً بصيغة الجمع ، مناقبه غنية في ذاته ، ومناقب قومه مردودة اليه . يبذل المال ولا يبالي . فإذا لامته العاذلة وحذرته من العوز ، اراها مهره يكر على الأحياء يغزو ويغنم :

يُخلِفُ المالَ ، فلا تَستَيئِسي ، كَرّيَ المُهرَ على الحيّ الحِلالِ[1]

والعاذلة في الشعر العربي شخص رمزي يقرع ابواب الفخر والمدح والغزل ، يلوم المفتخر والممدوح والعاشق على الاتلاف والتبذير والقاء النفس في المخاطر ، وعلى التمادي في الصبا والغواية ، فيرده الأول والثاني ،

---

١ الحي الحلال : القوم النازلون في مكان .

ويرده الثالث لا يقبلون منـه نصحاً ، وفي ذلك منتهى الكرم والشجاعـة والهيام . وقد ردّ عمرو بن كلثوم عاذلته :

لا تلوميني ، فاني مُتلِفٌ كلّ ما تحوي يميني وشِمالي

وحقيق بمثله ان يردّها، فعنوان الكرم عندهم عذل ورد. ونفسه الجبارة يطيب لها ان تتحدث بأنا عن كرمها وبأسها ، كما تتحدث بنحن عن مفاخر قومها ، وفي هذا وذاك لا تتحرج ان تغالي وتفرط في المغالاة حتى الكذب :

ملأنا البَرَّ حتى ضاقَ عنّا ، وظَهْرُ البحرِ نَمْلَؤهُ سَفِينَا

لنا الدُّنيا ومَنْ أضْحَى عليها ، ونَبْطِشُ، حينَ نَبْطِشُ، قادرينا

إذا بَلغَ الفِطامَ لنا صَبِيٌّ تَخِرُّ له الجَبابِرُ ساجِدينا

فقد ملأ شاعرنا البر والبحر بجيوشه وسفنـه ، وجعل الدنيا ومن عليها ملكاً له ولبني تغلب ، وترك الجبابرة تسجد لفطيمهم . فاما وقـد رأيت ذلك فلا تحمل نفسك على معرفة ما كان له من قوى برية وبحرية ، بل حسبك ان تعلم انه سبط المهلهل، وان جده ، لولا عصف الرياح ، لأسْمَعَ صليلَ سيوف قومـه على مسافة عشرة ايام . وغـير عجيب ان يخسر التغلبيون قضيتهم عنـد عمرو بن هند ، بعدما اوسعه ابن كلثوم تهديداً ووعيداً ومكابرة وفخراً .

منزلته

تبين مما تقدم ان عمرو بن كلثوم ورث عن جده المهلهل اكثر ميزاته ، فله رقته ولينه ، وله تكراره وتكثره ، وله غلوه وكذبه ، وله تبجحه ووعيده. وفي شعره فوائد تاريخية نراها في المعلقةوغير المعلقة، فهو يخبرنا ، في

هجوه النعمان ، ان ام النعمان كانت ابنة صائغ ، وان اخاها صائغ ينفخ الكير في يثرب. ويذكر لنا في مطولته كيف كانت النساء تتبع الرجال في الحروب ، وتقوت جيادهم ، وتحثّهم على الصبر في القتال . ويطلعنا على شيء من صناعات العرب وملاهي اولادهم .

ولمعلقته ميزات بوّأتـه منزلة سامية في الشعر . فهي في سهولتها وانسجامها ، وفي رنتها الموسيقية المطربة اصدق مثال للشعر الغنائي ، مع ما فيها من عناصر ملحمية في ذكر الحروب وتمجيد قومه وتصوير الحياة البدوية. وهي على غلوها ومكاثرتها ، معجبة محبوبة لبعدها من التكلف . فاذا غالت وكاثرت ، فانما هي تتكلم بعاطفتها لا بعقلها. فالفخر عند ابن كلثوم عاطفي محض لا سلطة للعقل عليه .

وقد بلغت معلقته ، على منزلتها الأدبية ، منزلة قومية ، لم تبلغها قصيدة سواها . فان بني تغلب كانوا يعظمونها جدّاً ، ويرويها صغارهم و كبارهم ، حتى هجاهم بذلك بعض بني بكر اعدائهم فقال :

أَلْـهى بني تَغْلِبٍ عن كلِّ مَكرُمةٍ قصيدةٌ قالها عمرُو بنُ كُلثُومِ
يَروُونَها أبَداً مُذْ كانَ أوّلُهُمْ يا للرّجالِ لِشِعْرٍ غيرِ مَسْؤُومِ![1]

وقال المفضَّل الضبي : « لله در عمرو بن كلثوم لو انه رغب في ما رغب فيه اصحابه من كثرة الشعر ، ولكن واحدته اجود من مائتهم . » وروى أبو زيـد القرشي في جمهرته عن عيسى بن عمر قوله : « لو وضعت أشعار العرب في كفة ، وقصيدة عمرو بن كلثوم في كفة ، لمالت بأكثرها . »

---

١ مسؤوم : مملول .

عنترة

مات في العقد الاول من القرن السابع

حياته : نسبه . كيف اعترف به ابوه ؟ اخلاقه وشجاعته . وقائعه . حبه لعبلة . موته .

آثاره : ديوان شعر فيه كثير من النحل . اشهره المعلقة . ليست المعلقة اولى قصائد عنترة كما زعم الرواة .

ميزته : بين العبودية والفروسية . بين الحب والحرب . منزلته .

حياته

هو عَنْتَرة[1] بن شدّاد بن عمرو ، وقيل ابن عمرو بن شدّاد بن معاوية ابن قُراد العبسي ، من اهل نجد ، ينتهي نسبه الى مُضر . ويُكنى بأبي المُغَلّس[2] لغاراته في الغَلَس ، ويلقب بعنترة الفوارس لشجاعته ، وعنترة الفَلحاء[3] لانشقاق شفته السفلى . وهو احد اغربة[4] العرب المشهورين في الجاهلية ، سموا بذلك لسوادهم ، وهم ثلاثة : عنترة ، وخُفَاف بن نُدْبة السُّلَميّ ، ونُدبة أمه ، والسُّلَيك بن السُّلَكَة[5] ،والسُّلكة امه . وأم عنترة حبشية سوداء يقال لها زَبيبة سباها ابوه في احدى غزواته فأولدها

١ العَنترة : واحدة العنتر وهو الذباب .

٢ المُغَلِّس : السائر في الغَلَس وهو ظلمة آخر الليل .

٣ الفلحاء : مؤنث الافلح وهو المشقوق الشفة السفلى ، وانما قيل له الفلحاء بالتأنيث حملاً على تأنيث اسمه او على ارادة الشفة الفلحاء .

٤ اغربة : جمع غُراب ويضرب به المثل في السواد .

٥ السلَيك : تصغير السُلَك وهو فرخ القطا او الحجل ومؤنثه السلكة .

عنترة ، وكان لها اولاد عبيد من غير شداد ، فلم يعترف به ابوه في اول الأمر ، بل انكره جرياً على عادة العرب ، لأنهم كانوا يستعبدون اولاد الاماء ، ولا يعترفون بهم إلا اذا ظهرت عليهم النجابة .

اخلاقه وشجاعته

وكان أشدّ اهل زمانه ، وأجرأهم فؤاداً ، واسخاهم يداً . وهو على شجاعته وشدة بطشه ، حليم ، لين الطباع ، سَمْح المخالقة[1] اذا لم يُظلَم . وفي ذلك يقول :

أثْني عليَّ بما عَلِمْتِ ، فإنني سَمْحٌ مُخالَقَتي ، إذا لم أُظلَمِ

ولمّا أنشد النبيُّ قوله :

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظَلُّهُ، حتى أنالَ بهِ كريمَ المأكَلِ[2]

قال : « ما وُصف لي أعرابيٌّ قطُّ ، فأحببت ان أراه ، إلا عنترة . »

ورُوي عن عمرو بن مَعْدِيكَرِب ، وكان معاصراً له ، انه قال : « لو سرتُ بظعينة[3] وحدي على مياه مَعَدٍّ كلها ، ما خِفت ان أغلب عليها ، ما لم يلقَني حُرّاها أو عَبْداها. فأمّا الحُرّان فعامِرُ بن الطُّفَيْل ، وعُتَيْبة بن الحارث بن شِهاب. وأما العبدان فأسْوَد بني عبس (يعني عنترة) والسُّلَيك بن السُّلَكة ؛ وكلهم لاقيت . فأما عامر بن الطُّفيل فسريع الطعن على الصوت ، وأما عُتَيبة فأول الخيل اذا اغارت ، وآخرها اذا

---

١ سمح المخالقة : اي سهل المخالطة .
٢ الطوى : الجوع .
٣ الظعينة : المرأة في الهودج .

آبت[1] ، وأما عنترة فقليلُ الكبوة ، شديد الجلب[2] ، وأما السُّليك فبعيد الغارة كالليث الضاري . »

وحدَّث عمر بن شبَّة قال : قال عمر بن الخطاب للحُطَيئة : « كيف كنتم في حربكم ؟ » قال : « كنا ألف فارس حازم . » قال : « وكيف ذلك ؟ » قال : « كان قيس بن زهير فينا وكان حازماً ، فكنا لا نعصيه . وكان فارسنا عنترة ، فكنا نحمِلُ إذا حمَل ونُحْجِم اذا أحجم . وكان فينا الربيع بن زياد ، وكان ذا رأي ، فكنا نستشيره ولا نخالفه . وكان فينا عُروَة بن الورد ، فكنا نأتمُّ بشعره . فكنا كما وصفت لك . » فقال عمر : « صدقت . »

وقال الهَيْثم بن عَدي : قيل لعنترة : « انت أشجع العرب وأشدُّها؟ » قال : « لا . » قيل : « فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ » قال : « كنت أُقدم إذا رأيتُ الاقدام عزماً ، وأُحجم اذا رأيت الاحجام حزماً ، ولا ادخل موضعاً إلا أرى لي منه مخرجاً . وكنت اعتمد الضعيف الجبان ، فأضربه الضربة الهائلة ، يطير لها قلبُ الشجاع ، فأُثنّي عليه فأقتله . »

وقائعه

لعنترة كثير من الوقائع المشهورة ولكن أُضيف اليه ما ليس له حتى اشتبه الصحيح بالموضوع . وقد حضر حرب داحس والغبراء فأحسن فيها البلاء وحُمدت مشاهده ، وفيها قتل ضمضماً المريّ أبا حُصَيْن وهَرِم . ولذلك قال :

---

١ آبت : رجعت .

٢ الكبوة : السقطة . الجلَب : الصياح .

ولقد خَشِيتُ بأنْ أمُوتَ ولم تَدُرْ   للحَرْبِ دائِرَةٌ على ابْنَي ضَمْضَمِ
ألشَّاتِمَي عِرْضِي ولم أشْتُمْهُمَا ،   والنَّاذِرَيْنِ ، إذا لم ألقَهُمَا ، دَمِي[1]
إنْ يَفْعَلا ، فلقد تركتُ أباهُمَا   جَزَرَ السِّباعِ وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ[2]

حبه لعبلة

وأحب عبلة ابنة عمه مالك بن قُراد ، فهاجت شاعريته واتسع خياله ، فنظم القصائد الطوال ، وازداد طموحاً الى المعالي ، فجدَّ في طلبها ، ليمحو ببيض فعاله سوادَ لونه . وانَّى له ان يطمع فيها وهو عبد لم يعترف به ابوه ، وأنكره ابناء عمه ، فغامر لأجلها ولاقى أشدَّ الأهوال حتى ألحقه ابوه بنسبه ، ولكنه لم يظفر بها كما يُستدل من شعره .

موته

اختُلف بموته ، فقال ابن حبيب وابن الكلبي : «أغار عنترة على بني نَبْهان من طيء ، فأطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير ، فجعل يرتجز ، وهو يُطردها ، ويقول :

حَظُّ بَني نَبْهانَ منها الأخْبَثْ   كأنَّما آثارُها بالجِثْجِثْ
آثارُ ظُلمانٍ بقاعٍ مُحْدَثْ[3]

---

[1] الناذرين : من نذر الشيء على نفسه اوجبه . يقول : يوجبان على انفسهما سفك دمي اذا لم أرَهما ، يريد انهما يتوعدانه في حال غيبته فاما في حال الحضور فلا يتجاسران عليه .

[2] جزر السباع : فريسة السباع . القشعم : النسر المُسِنّ . يقول : ان يشتماني ويتوعداني فلا بدع لأني قتلت اباهما .

[3] يقول : حظ بني نبهان من هذه الطريدة اخبث الحظوظ وكأن آثار اقدامها وانا اطردها امامي في الجِثْجِث (موضع) آثار ظلمان في قاع محدث ، اي جديد غير معروف قبلاً . والظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام . والقاع : ارض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال والآكام .

وكان وَزَر بن جابر النبهاني في فتوّة ، فرماه وقال : « خذها وانا ابن سلمى ! » فقطع مطاه[1] فتحامل بالرَّمية حتى أتى أهلَه فقال وهو مجروح :

وإنّ أبنَ سلمى عِندَهُ ، فاعلمُوا ، دَمي
وهَيْهاتِ ! لا يُرجَى ابنُ سلمى ولا دمي

إذا ما تمَشّى بينَ أجبالِ طيّءٍ ،
مَكانَ الثُّرَيّا ، ليسَ بالمُتَهَضَّمِ[2]

رَماني ، ولم يَدهَشْ ، بأزرَقَ لَهْذَمٍ ،
عَشيّةَ حلّوا بينَ نَعْفٍ ومَخْرَمِ[3]

وقال ابن الكلبي : « وكان الذي قتله يلقب بالأسد الرهيص[4] . »

وذكر ابو عمرو الشيباني : « انه غزا طيئاً مع قومه ، فانهزمت عبس ، فخرّ عنترة عن فرسه ، ولم يقدر من الكبر ان يعود فيركب ، فدخل دغلاً[5] وابصره ربيئة[6] طيء فنزل اليه ، وهاب ان يأخذه أسيراً ، فرماه وقتله . »

وقال أبو عبيدة : « انه كان قد أسنّ واحتاج ، وعجز بكِبَر سنه عن الغارات . وكان له على رجل من غَطَفان بعير ، فخرج يتقاضاه اياه ،

---

١ المطا : الظهر .
٢ الثريا : سبعة كواكب في عنق الثور ، والثور : اسم نجم . المتهضّم : الذليل المغصوب . يقول : هو يتمشى في جبال طيء غير ذليل ولا يُغصَب مكانه فكأنه في الثريا .
٣ لم يدهش : لم يتحير . الازرق : السهم . اللهذم : الطويل الحاد . نعف ومخرم : موضعان .
٤ الاسد الرهيص : الثابت في مكانه ، والرهيص : الحائط المبني .
٥ الدغل : الشجر الكثير الملتف .
٦ الربيئة : طليعة الجيش ، وهو الذي يقف في مكان عالٍ لمراقبة الاعداء .

فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شَرْجٍ وناظِرة[1] فأصابته وقتلته . »
على ان الرواية الاولى أشهر الثلاث . ومات عنترة بعد ان بلغ التسعين .

آثاره

ديوان شعر مشهور ، أصابه كثير من النحل لطول ما تداوله الرواة والقصاصون . وأكثره في الفخر والحماسة ، وذكر الوقائع ، والغزَل العفيف بابنة عمه عبلة ، وقليل منه في المدح والرثاء . وأشهر شعره المعلقة ، وهي السادسة بين السبع الطوال . وكان السبب في نظمها ما رُوي من انه جلس يوماً في مجلس ، بعدما كان قد أبلى ، وحسنت وقائعه ، واعترف به أبوه واعتقه ، فسابّه رجل من بني عبس ، وذكر سواده وسواد أمه واخوته ، وانه لا يقول الشعر ، فسبّه عنترة وفخر عليه وقال :

« واللهِ إنَّ النَّاسَ لَيَترافَدُونَ[2] للطُّعْمَةِ[3] فما حَضَرْتَ أنتَ ولا أبوكَ ولا جدُّكَ مَرافِدَ[4] الناسِ قطُّ . وإنَّ النـــاسَ لَيُدْعَونَ في الغاراتِ ، فيُعْرَفُونَ بتَسْويمِهِم[5] ، فما رأَيْتُكَ في خَيلٍ مُغيرَةٍ ، في أوائِلِ النـاسِ قطُّ . وإنَّ اللَّبْسَ[6] لَيَكُونُ بَيْنَنا ، فما حضَرْتَ أنتَ ولا أبوكَ ولا جدُّكَ خُطَّةَ الفَصْلِ[7] . وإنَّما أنتَ فَقْعٌ بقَرقَرٍ[8] .

---

١ شرح وناظرة : ماءان لبني عبس .
٢ يترافدون : يتعاونون .
٣ الطعمة : الدعوة الى الطعام .
٤ المرافد : مجامع الرفد اي العطاء .
٥ التسويم : الاغارة .
٦ اللبس : الحيرة والتباس الامور واختلاطها .
٧ خطة الفصل : طريقة فصل الأمور .
٨ الفقع : الكمأة الرخوة البيضاء . القرقر : الارض المنخفضة . ومن امثالهم : « هو أذل من فقع بقرقر . »

وإني لأحتَضِرُ البَأسَ[1]، وأُوفِي المَغْنَمَ، وأَعِفُّ عندَ المسألةِ، وأَجُودُ بما مَلكَتْ يَدِي، وأَفصِلُ الخُطَّةَ الصَّمَّاءَ[2]، وأما الشِّعْرُ فَستَعْلَمُ.»

ثم انشأ معلقته، وكان لا يقول قبل ذلك الا البيتين أو الثلاثة، فتغزّل في اولها، ثم وصف ناقته، ثم تخلص الى الفخر بشدة بأسه وذكر وقائعه. وكانت العرب تسميها الذهبية.

على اننا لا نطمئن الى زعم الرواة ان المعلقة أول قصيدة انشأها عنترة، وانه لم يكن ينظم قبلها الا البيتين أو الثلاثة. فلعنترة قصائد كثيرة تقدمت المعلقة، والرواة انفسهم يعترفون بها ويروونها له. وليس من المعقول ان تبقى قريحته خامدة عن نظم الشعر اعواماً طوالاً لا يؤثر فيها حب عبلة، ولا الوقائع التي شهدها، خصوصاً حرب داحس والغبراء وقد حضرها وأبلى فيها البلاء الحسن، وذكرها في معلقته. ومن المعلوم ان هذه الحرب انتهت في اوائل القرن السابع، اي قبل وفاة الشاعر ببضع سنوات. فسواء نظمت المعلقة بعد الحرب، او في اثنائها؛ فان عنترة كان متقدماً في السن لما انشأها. فكيف ينبغي لنا ان نسلم بما زعم الرواة، وهم يذكرون للشاعر قصائد قيلت قبل هذه الحرب، وقبل ان يعترف به ابوه، ويوم كان يضربه بالعصا ضرباً مبرحاً حتى شفعت به سُمَيَّة[3] بعد ان شكته اليه، فقال فيها شعراً جميلاً لا يصح ان يكون من اوائل نظمه. فكيف يصح ان تكون المعلقة اولى قصائده وهي نادرة كما وصفها ابن سلام في طبقات الشعراء ولم ينظمها الشاعر الا بعد ان كبر وعشق ولقي

---

١ احتضر: اي احضر. البأس: الشدة على الحرب. ويجوز ان يؤخذ البأس بمعنى الحرب على سبيل المجاز فيكون المعنى: اني احضر الحرب.

٢ الصماء: الصعبة كالصخرة الصماء.

٣ سُمَيَّة: زوجة ابيه شداد.

الأهوال ، فأخلِقْ بقريحته ان تتفتق للشعر في عنفوان الشباب ، بعوامل الحب والحماسة ، والجد في طلب المعالي ، لا ان يكون بدء ولادتها في خريف العمر أو في شتائه .

هذا ولعنترة قصة شهيرة سنأتي على ذكرها في العصر الذي جُمعت فيه وهو العصر العباسي الثالث .

ميزته

عرفنا عنترة عبداً اسود ، احب ابنة عمه فلم يستطع الوصول اليها ، وهو غير حرّ ينكره أبوه. وعرفناه فارساً مغواراً ، جريء الفؤاد ، طماحاً الى المعالي. وعرفناه كريماً جواداً ، وحليماً سهل المخالقة ، وعفيفاً شريف النفس ابيّها لا يغمض على قذّى[1] ، فلا غرو ان تظهر جميع هذه الصفات في شعره ، ويكون لها اثر كبير فيه ، ولا سيما اثر ذلك النضال العنيف الذي اشترك فيه ، من ناحية ، حبه وجده في طلب المعالي ، ومن ناحية اخرى ، عبوديته وسواد لونه ، فترك في شعره مرارة وألماً هما صورة لما في نفسه من ألم العبودية والحب ومرارة التعيير . وترك فيه ايضاً تلك الحماسة التي تتمثل بها شجاعته ونفسه الطَّمُوح .

بين العبودية والفروسية

نشأ عنترة اسود اللون ، ابوه شداد من سادات بني عبس ، وامه زبيبة امة حبشية ، فلم يعترف شداد به جرياً على عادة العرب ، فجعل عنترة في طبقة الرعيان يحلب ويصرّ . ولكن نفس هذا الفارس الشجاع لا تحتمل العبودية وفيها من الشمم والاباء والجرأة شيء كثير. فكانت تتألم اشد الالم

[1] القذى : ما يقع في العين فيؤذيها . يقال : لا يغمض على قذى ، أي يأبى الذل والضيم .

لما تلقى من الاحتقار والازدراء. فتحاول جهدها ان تخرج من طبقة الرعيان في اظهار شجاعتها ولديها سلاحان ماضيان : الشجاعة والشعر . وكلاهما كفيل بان يجعل لصاحبه مكانة عالية في القبيلة. فالفارس يدافع عنها بسيفه، والشاعر يدافع عنها بلسانه . فلماذا لا يتحرر عنترة وتدّعيه بنو عبس وهي تحتاج اليه حاجة مزدوجة ؟ وقد قال صاحبنا الشعر في صباه، وشهد المعارك وهو لا يزال يحلب ويصر ، ولكن اباه كان حريصاً على التقاليد البدوية فابى استلحاقه وتحريره . ولم يكن يحجم عن ضربه مع ما رأى من فصاحته وإقدامه، كما ضربه عندما حرشته عليه زوجته سمية ولم يكن قد تحرر بعد.

وما كان عنترة يجهل قدر نفسه فينام على الضيم والخمول ، فقد كان يعلم حق العلم ان قومه سيحتاجون اليه اذا اغاروا او أغير عليهم. فأخذ يلح على ابيه طالباً اليه ان يعترف به ، وابوه يعرض عنه مخافة التعيير ، وهو صابر ينتظر يوماً عصيباً تُنكب فيه بنو عبس فيلتجئون اليه، فيغتنم الفرصة لتحقيق امانيه . وليس هذا اليوم ببعيد الوقوع، وغزوات العرب متواصلة طمعاً في الغنائم ، او طلباً للماء والكلأ. فما طال به الامر حتى سنحت له الفرصة التي يتوقعها. وقد اختلف الرواة في ذكر خبرها ، فقال ابن الكلبي : « وكان سبب ادعاء ابيه اياه ، أن بعض احياء العرب اغاروا على بني عبس ، فأصابوا منهم واستاقوا ابلًا ، فتبعهم العبسيون ، فلحقوهم ، فقاتلوا عما معهم ، وعنترة يومئذ فيهم . فقال له ابوه : كر يا عنترة ! فقال عنترة : العبد لا يُحسن الكر ، انما يحسن الحِلاب والصرّ . فقال : كرّ وانت حر . فكرّ وقاتل يومئذ قتالاً حسناً ، فادعاه ابوه بعد ذلك والحقه بنسبه . »

وحكى غير ابن الكلبي ان السبب في هذا ان عبساً اغاروا على طيء فأصابوا نَعَماً ، فلما ارادوا القسمة قالوا لعنترة : لا نقسم لك نصيباً مثل

انصبائنا لأنك عبد . فلما طال بينهم الخطب، كرت عليهم طيء، فاعتزلهم عنترة وقال : دونكم القوم فانكم عددهم . واستنقذت طيء الابل . فقال له ابوه : كر يا عنترة ! فقال : اويحسن العبد الكر ? فقال له ابوه : العبد غيرك . فاعترف به ، فكرّ واستنقذ النعم .

ويذكر السيوطي رواية هي اقرب الى روح القصة منها الى التاريخ ، وان وافقت في جوهرها الروايتين المتقدمتين ، وهو ان عنترة خلع نير العبودية بحد سيفه واحتياج بني عبس اليه . ولم يقف عنترة عند هذا الحد بل اراد ان يحرر اخوته لأمه وهم عبيد مثله . وقيل انه حررهم او حرر منهم اخاه حنبلا . ولكن لونه الاسود بقي شاهداً على عبوديته واعتلال نسبه وبقيت امه زبيبة امة لا حرة ، ام ولد لا ام بنين ، سوداء لا بيضاء ، حبشية لا عربية ، حجةٌ للناس على انه هجين اخواله الزنوج . فمن اين له ان يمحو سواد لونه ، او ان يجعل امه من ربات الحجال ، ولونه لا ينصل وامه لا تتحرر . والعرب لا يتسامحون في النسب وكرم الأمومة والخؤولة . فقد جعلوا له ألقاباً تذكره أبداً بسواده وامه ، فهو الغراب وأسود بني عبس ، وابن السوداء وابن زبيبة ، فما عليه الا ان يقبل هذه الألقاب ، ويدافع عن لونه وامه ليخرس ألسنة المعيرين . فكان له كفاح بسيفه ، وكفاح بلسانه ، فجاء شعره صورة ناطقة بهما ، مثال ذلك قوله :

وانا المُجرَّبُ في المواقفِ كلّها ، من آلِ عبسٍ مَنصِبي وفَعالي
منهم أبي حقّاً ، فهم لي والدٌ ، والأمُّ من حامٍ ، فهم اخوالي

فهو مُفاخر بأصله من جهة أبيه ، معترف بأصله من جهة أمه ، وان يكن لا يجد فيه فخراً ، ولكنه يحميه بحد سيفه من المعيرين :

اني امرؤٌ من خيرِ عبسٍ مَنصِباً شَطري ، وأحمي سائري بالمُنصُلِ

وقد اضطر عنترة مراراً ان يدافع عن شطره الحبشي بسلاحه دفاعه عنه بشعره ، ليردّ تحامل المعيرين ، ولاسيما ابناء قومه الذين يأبون الاعتراف بتقدمه عليهم لأنه ابن السوداء . روي انه وقف مرة ينشد قوله :

اذ يَتّقُونَ بيَ الأسنّةَ لم أخِمْ   عنها ، ولكني تضايَقَ مُقدَمي

فمد له عُمارة بن زياد العبسي سنان رمحه وقال : نحن نتقي بك الاسنة يابن السوداء ! وكان عنترة اعزل لا سلاح عليه ، فقال له : اغفرها ! ثم ذهب ولبس درعه وتقلد سيفه وركب فرسه ، واقبل حتى وقف أمام عمارة وانشد البيت : « اذ يتقون بيَ الاسنة ... » فتغافل عنه عمارة حين رآه في سلاحه ، فهجاه عنترة وعيّره وافتخر عليه .

وقد ينقذ بني عبس ببسالته من بأس العدو المغير ، فيأبى ساداتها الا ان يذكروا عمله المجيد مقروناً بسواده وأصله تحقيراً له وتعصباً منهم للنسب العربي الصحيح . قال ابو عمرو الشيباني : غزت بنو عبس بني تميم يقودهم قيس بن زهير، فانهزمت بنو عبس وانهزم قيس معهم . وطلبتهم بنو تميم ، فوقف عنترة وحده يحمي المنهزمين من ابناء قومه ، فلم يُصَبْ واحد منهم . وكان قيس سيدهم ، فساءه ما صنع عنترة يومئذ ، ورأى فيه ما يمس زعامته في القبيلة ، فقال حين رجع : والله ما حمى الناس الا ابن السوداء ! فنظم عنترة قصيدة يفتخر فيها بأصله العبسي مدافعاً عن أصله الحبشي بسيفه ، قائلًا : انه يفضل الجوع على ان يأكل طعامه بذل ، ويعرّض هنا بقيس لأنه كان أكولاً وانهزم من المعركة ذليلًا :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلّه ،   حتى أنالَ بـه كريمَ المأكَلِ

ثم يتابع التعريض فيقول : اذا تأخرت الكتيبة ونظر بعضها الى بعض

خوفاً من الهلاك كنت افضل من سيد كريم الأعمام والأخوال لأنني لا اسبق فوارسي الى الهرب في المأزق الضيق :

وإذا الكتيبةُ أحجَمتْ وتلاحظَتْ، ألفِيتُ خيراً من مُعَمٍّ، مُخوَلِ
اذ لا أُبادِرُ في المضيقِ فوارسي، أو لا أُوكّلُ بالرَّعيلِ الأولِ

ولكن قيس بن زهير قد اعترف بفضل عنترة على الرغم منه ، وان سمّاه ابن السوداء تحقيراً له. فعنترة وحده حمى بني عبس ورد عنها كوكبة اللاحقين ، فحقّ له ان يفتخر ويعرّض بالذي عيره امه وسواده ، وان كان معيره قيس بن زهير سيد بني عبس. فلطالما رأى قومه يحتمون به في الحرب ويقدمونه عليهم في مواقف الاخطار ، فتشتفي نفسه المتألمة من تعييرهم :

ولقد شفَى نفسي وأبرأ سُقمَها قيلُ الفوارسِ: وَيكَ، عنترُ، أقدِمِ!

ولكنه لا يلبث ان يسمع التعيير بعد زوال الخطر ، فتعود الى نفسه آلامها ، فيثور ساخطاً عليهم منددآً بهم ، لأنهم يعرفونه في الحرب ، وينكرونه في السلم ، فهو مضطرب أبداً بين العبودية والفروسية ، هو ابن شداد في المعارك ، وابن زبيبة ، ابن السوداء في الامن والدعة .

بين الحب والحرب

لم يكن عنترة ناعماً في حبه فتظهر آثار هذه النعمة على شعره ، بل كان شقيّاً تاعساً يطمع في عبلة ، فيصده والدها ويحاول استرضاءه فلا يجد الى ذلك سبيلاً، فكان اذا تغزل تألم وشكا، وليس في غزله غير شكوى وآلام.

وقد افاضت قصته في اخبار حبه لعبلة ، وتذمم والدها ان يزفها اليه ، ولكن الرواة لم يعيروها جانباً كبيراً من عنايتهم ، وانما جعلوا همهم في

التحدث عن وقائعه وعبوديته وتحرره، واذا ذكروا عبلة اتوا بها عرضاً خلال هذه الروايات دون ان يشرحوا مأساته الغرامية التي تفصّلها القصة ابلغ تفصيل مع ان شعره الصحيح لا يخلو من الاشارة اليها . فهذه المعلقة، وهي اثبت شعر له ، تدلنا علـى ان والد عبلة كان يتنكر له ، ويهرب بابنته الى ديار الاعداء ليبعدها عنه. فيشكو الشاعر الفارس عداوة قومها له، ومشقة الوصول اليها ، او يبعث جاريته تتجسس له اخبارها ، فتعود اليه تقول انها رأت غفلة من الاعداء تسهل طريق اصطياد الفتاة :

فبعثتُ جاريتي، وقلتُ لها : اذهبي ، وتجسّسي أخبـارها ليَ واعلمي

قالت : رأيتُ من الأعادي غِرّةً ، والشاةُ مُمْكِنـةٌ لمن هو مُرتمِ

يا شاةَ مـا قَنَصٍ لمن حلّتْ له ، حَرُمتْ عليَّ ، وليتَها لم تَحرُمِ !

او يقول :

حلّتْ بأرضِ الزّائرينَ فأصبحت عَسِراً عليَّ طِلابُكِ ، ابنةَ مَخرَمِ

عُلّقتُها عَرَضاً ، وأقتلُ قومَهـا ، زعَماً ، لَعمرُ ابيكِ، ليس بمَزعَمِ [1]

فعبلة في ارض الزائرين، اي الاعداء، وقومها هم الذين ذهبوا بها اليهم، فاضطر عنترة الى مقاتلة الاعداء ومقاتلة اهلهـا معهم ، فاصبح طلبها عسيراً عليه . كيف يطلبها وهو يقتل قومها ؟ ان في ذلك لطمعاً منه في غير مطمع : « زعماً ، لعمر ابيك ، ليس بمزعم . » ولماذا ارسل جاريته الى ارض الاعداء، تتجسس اخبار حبيبته ، اليس لـكي يأخذهم عـلى غرة ، كما تخبرنا القصة انه اخذ بني كندة وهم في غفلة العرس ، فقتل فارسهم مسحلاً واستنقذ عبلة منه

---

١ زعماً : طمعاً . مزعم : مطمع .

قبل ان يتزوجها . ثم تلك الشكوى يرسلها قلبه الجريح : « حرمت عليّ وليتها لم تحرم » افما تنطق كفاية بما لقي عنترة العاشق من اليأس والحرمان؟

على ان اليأس والحرمان لم يرافقا عنترة، طوال حياته، في القصة، فقد رق له قلب عمه مالك فزوجه عبلة، واشتفى قلبه الكليم، اما التاريخ فلا يقطع بخبر الزواج ولا ينفيه. فالسيوطي مثلاً، يخبرنا بان والد عبلة اعترف بابن أخيه ووعده ان يزوجه ابنته اذا انقذه من الاسر. وقد انقذ عنترة عمه وانقذ عبلة معه. فهل برّ مالك بوعده فأعطاه ابنته، او انه كان مخادعاً له حتى اذا انطلق سراحه عاد الى دفعه ومماطلته، فقضى الفارس الاسود حياته بين وعد وورد ويأس وأمل؟ ثم هل بقيت عبلة عزبة لم تتزوج، اذا كان الحظ لم يسمح لعنترة بقضاء لبانته منها؟ تلك اسئلة ربما لا نعدم ان نجد جواباً عنها في شعره الثابت، وان كان الرواة يسكتون عنهـا او لا يردون رداً صريحاً.

وشعر عنترة الذي وصل الينا واثبته الرواة، لم يقتصر، في غزله، على عبلة وحدها، بل يتناول احياناً سُميّة او سُهيّة امرأة ابيه، وكان يهواها في صباه وقد ضربه والده من اجلها. ويتناول أيضاً امرأة اسمها رقاش، ولا نعلم عن هذه المحبوبة شيئاً، فهي نكرة لا تُعرف الا باسمها. ولكن الرواة يخبروننا بانه كان لعنترة زوجة من بجيلة، فقد تكون هي رقاش، او رقاش غيرها. ومهما يكن الامر فغزل عنترة في عبلة خير شعره من هذا النوع، وان كان لا يقاس بحماسياته. واذا كان قد اصاب بغزله شهرة بين العامة، فيعود الفضل في ذلك الى شعره المصنوع في القصة، فقد حُمل عليه غزل كثير ليس له يد فيه البتة. ونحن يهمنا غزله الصحيح، وغزله في عبلة

خصوصاً ، لعلنا نلقى جواباً عن الاسئلة التي مر ذكرها . واشهر ما وصل الينا من غزله في عبلة ما جاء في المعلقة، فقد خص عنترة طويلته الحسناء بابنة عمه، ثم بذكر معاركه ومبارزاته . ونستدل منها ، كما قلنا ، على حرمانه وتظلمه من قوم عبلة لانهم بعدوا بها ونزلوا في ارض الاعداء ، فمنعوها منه : « حرُمت عليّ وليتها لم تحرم ! » فعنترة في المعلقة لم يتزوج عبلة، وانما يشكو فراقها وجور اهلها عليه . فاذا كانت المعلقة نُظمت دفعة واحدة في زمن واحد ، فيكون الشاعر قد بقي طوال حياته محروماً ابنة عمه ، لانه ذكر فيها حرب داحس والغبراء ، وهذه الحرب انتهت قبل وفاة الشاعر ببضع سنوات . وله قصيدة اخرى يتبين منها ان عبلة تزوجت رجلاً غيره ، يصفه شاعرنا بانه بادن كثير اللحم :

فلرُبّ ابلجَ مثلِ بعلِكِ بادنٍ ، ضخمٍ على ظهر الجوادِ ، مهبّلِ [1]

غادرتُه مُتعفّراً اوصالُه ، والقومُ بين مجرَّحٍ ومُقتَّلِ

وهذه القصيدة معروفة له يثبتها الرواة ولا يدفعونها . وليس في سائر شعره الصحيح ما يدلنا على انه حظي بابنة عمه كما تقول القصة ، وانما هو يشبب بها ، ويؤثرها على جميع النساء ، وان لم يقصر غزله عليها :

ولئن سألتَ بذاك عبلةَ أخْبَرتْ أن لا أُريدُ من النساء سواها

وغزل الشاعر في عبلة ، لا مشاحة ، افضل غزل قاله لانه يمثل حرمانه ولوعته وتظلمه، ويبدو اثر العراك العنيف بين حبه وسواد لونه وضعة نسبه.

---

١ ابلج : ابيض . مهبّل : كثير اللحم .

فعبلة لم توافق عنترة في شعره الغزلي وحده بل رافقته في فخره وحماسته وذكر حروبه ، فانما هو يفتخر ويغامر من اجلها . واذا لم يكن لديه من جمال الصورة وكرم المحتد ما يشفع به اليها ، افلا يسعى لارضائها بوصف شجاعته وجوده وعفته ، وذكر وقائعه ومشاهده ، حتى اذا ذُكر لها في مجلس تستطيع ان ترفع رأسها به ؟

فبمثل هذا الشعر يبدع عنترة ، لانه يصور نفسيته ابلغ تصوير ، ويعطينا طرازاً فاخراً من غزل الفرسان ، وكيف تجتمع الفاظ الحب بالفاظ الحرب . فنراه يعرض معاركه على عبلة لتشهد مواقفه في مبارزة الابطال او مزاحفة الجيوش . ويصف لها الفارس الذي يبارزه ، فاذا هو بطل تتحاماه الابطال خشية لقائه ، وكريم طيب المحتد من اولئك البيض الاحرار الذين يفاخرونه باصلهم ونسبهم ، فيظهر بذلك فضله في التغلب عليه ، وهو العبد المغموز النسب .

ويصف معاركه ، فاذا هي ملاحم تتشابك فيها الابطال شاكية هولها بغماغم لا تُفهم . وبنو عبس يتقون به رماح الاعداء فما يرتد عنها ، وان ضاقت عليه فسحة الاقدام . والاعداء تلهج باسمه مشرعة رماحها الى صدر جواده . فاذا هو ركن المعركة وقوامها وحجر رحاها وثقالها . وفي المعلقة وصف ملحمي جميل لهذه المعارك التي يعرضها عنترة امام عبلة صوراً سريعة تبدو فيها بطولته بارزة الخطوط والألوان ، ويبدو فيها كفاحه ، على قوته ، بين الحب والحرب صورة لمأساته الغرامية التي مثلتها القصة على مسرحها ، واغفلها الرواة والمؤرخون .

منزلته

اتضحت لنا ميزة الشاعر الفارس، بما فيها من ألم ومرارة، وعرفنا طرقه في استرضاء عبلة، وفي فخره وحماسته ووصف وقائعه، والدفاع عن نسبه، والرد على معيريه، ولا ينبغي لنا ان نغفل عن تلك العذوبة التي نتذوقها في شعره فانه رقيق على غير ضعف، سهل العبارة على غير اسفاف. ولا نعجب لوجود هذه الرقة في شعر عبد اسود خشن العيش، هائل المنظر، بل يجب ان تنظر الى أخلاقه الحسنة، وتأثير الحب فيها، فانما شعره صورة لنفسه. ولعنترة منزلة عاليـة في الشعر، كما له منزلة عالية في الفروسية. وهو من الشعراء الذين يتنازع الرواة فيهم التقديم والتأخـير. فقد روى الأصمعي عن ابن أبي طرفـة قوله: «كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب[1]، والنابغة إذا رهب[2]، والأعشى اذا طرب[3]، وعنترة اذا كلِب[4].» ولمعلقته قيمة أدبية، لم يبخسها حقها الأدباء الأقدمون، فان ابن سلام وصفها بقوله: «قصيدة نادرة»، وقال ابن رشيق: وقول عنترة: «هل غادر الشعراء من متردم» يـدل انه يعد نفسه محدثاً، قد أدرك الشعر بعد ان فرغ الناس منه، ولم يغادروا له شيئاً. وقد أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقه اليه متقدم، ولا نازعه اياه متأخر.

ونحن يمكننا ان نختم هذا البحث بقولنا: عنترة في المعامع سيد الفرسان، وعنترة في الحماسة سيد الشعراء ...

---

١ رغب: اي رغب في رغبة، وهي الأمر المرغوب فيه والعطاء الكثير.
٢ رهب: خاف، لأنه نظم أحسن قصائده وهو طريد خائف من النعمان.
٣ لأنه كان يشرب ويطرب ويتغنى بشعره.
٤ كلب: غضب.

الحرث بن حلزة

(القرن السادس)

حياته	:	نسبه . عرف بالدهاء والرزانة . دافع عن البكريين يوم التقاضي . قصة الستور السبعة . القصيدة لم ترتجل ارتجالاً . مبالغات الرواة وتنافسهم .
آثاره	:	قليلة كأخباره . أهمها المعلقة وهي السابعة والأخيرة .
ميزته – المعلقة	:	قوة العارضة . الدهاء السياسي . ارتجاله بعضها . غزله ووصف ناقته . رده وفخره . نعومته في بسط شكوى الأراقم . رده على عمرو بن كلثوم . دحض شكاوي التغلبيين والقاؤه تبعة الحرب عليهم . اسلوبه الناعم الموجع في تعييرهم . يذكر انكاراتهم زاعماً انهم يطالبون بها قومه . استرضاؤه عمرو بن هند . الفوائد التاريخيـة . كثرة الايجاز . منزلته : مثال للشعر الخطابي والشعر السياسي في الجاهلية .

حياته

هو أبو ظَلِيم الحرث بن حِلِّزة[1] بن مكروه بن يشكُر البكري من وجوه قومه في العراق ينتهي نسبه الى ربيعة . وكان حكيماً رزيناً ، حسن المصانعة ، يجابه الخطوب بهدوء وروية ، وهو الذي دافع عن بني بكر يوم التقاضي في حضرة الملك عمرو بن هند ، بعد هلاك التغلبيين في أرض بني

---

[1] الحلِّزة : اسم دويبة تكون في صدف ، واسم للبومة ، والذكر حلِّز . ويقال : امرأة حلِّزة للقصيرة والبخيلة . والحلز : السيء الخلق . وقال قطرب : حكي لنا ان الحلزة ضرب من النبات ولم نسمع فيه غير ذلك . اما سبب تسمية والد الحرث بالحلزة فلم يذكره احد من رواة اخباره .

شيبان ، كما ذكرنا في كلامنا على عمرو بن كلثوم . وقد علمنا ان النعمان ابن هَرِم كان يومئذٍ خطيب البكريين ، وهو رجل اصم اصلع من شيوخ بكر ، من بني تعلبة بن غُنْم بن يشكُر . فلما دخل على عمرو بن هند ، تحرش به عمرو بن كلثوم قائلاً : « يا اصم ، جاءت بك اولاد تعلبة تناضل عنهم وهم يفخرون عليك . » قال : « وعلى من أظلّت السماء يفخرون ، ثم لا يُنكر ذلك . » قال عمرو : « والله لو لطمتُك لطمةً لما أخذوا لك بها . » فقال النعمان : « والله لو فعلتَ ما أفلتَّ بها أنت ومَن فضَّلت . » فغضب عمرو بن هند من هذا التعريض وكان يفضل بني تغلب على بني بكر . فرمى النعمانَ بكلمة قارصة فرد عليه بأشد منها ، فتلظى الملك غيظاً وطرده من حضرته .

فوقف عند ذاك عمرو بن كلثوم وانشد معلقته ، ولكنه لم يحسن اصطياد الفرص ، فقد بالغ في فخره حتى جاوز الحد ، ولم يرعَ حرمة الملك فطاوله حاسباً انه نال المرام من خصومه البكريين بعدما طُرد خطيبهم . وإذا بالحرث بن حلزة يصدمه بمعلقته ، فيصلح بها ما افسد النعمان .

وكان ابن حلزة شاعر بكر ، قد أعدّ قصيدة لهذا اليوم وروّاها جماعة من قومه ، فلمّا قاموا بين يديه لم يُرضه انشادهم ، فقال : « اني لا ارى أحداً يقوم بها مقامي ، لكن اكره ان اكلّم الملك من وراء سبعة ستور ويُنْضَح[1] اثري بالماء اذا انصرفت عنه . » وكان الحرث به وضح[2] ، فأشفق من ان يفعل به الملك ما يفعل بسائر البرص ، وقد جرت له عادة بذلك

---

[1] ينضح : يغسل .

[2] وضح : برص .

لكبريائه وعظم سلطانه . وقيل : بل هي عادة العرب في ذاك العصر .

فلما طُرد النعمان بن هرم ، وانشد ابن كلثوم قصيدته ، خاف الحرث على قومه وقال : « انا محتمل ذلك . » وقيل للملك ان به وضحاً ، فأمر بان تمد بينه وبين الحرث سبعة ستور ، فجُعلت . وانشد الشاعر معلقته وهو يرتجف غضباً ، وكان متوكئاً على عَنْزة[1] فأثـّرَت في جسده دون ان يشعر لشدة غيظه . وبالغ الرواة في هذه العنزة ، حبّاً للاغراب ، فزعم ابن السيّد في « أدب الكاتب » انها ارتزّت[2] في جسده . وزعم بعضهم ان العنزة كانت قوساً ، فاقتطمت[3] كفه وهو لا يشعر من الغضب .

ونحن نرى ان الرواة لا يقتصرون على الاغراب في قصتهم ، بل يُغربون ايضاً في ألفاظها ، اعظاماً لها ، فهم يستعملون ارتزّ بدلاً من غرز ، واقتطَم بدلاً من اقتطع ؛ وفي ذلك ما فيه من التفنن والفكاهة .

وكان لقصيدة الحرث وقع حسن في نفس الملك فأعجب بها ، وكانت أمه هند تسمع ، فقالت لابنها : « تالله ما رأيت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول ، يكلـّم من وراء سبعة ستور . » فقال الملك : « ارفعوا ستراً وأدنوا الحرث . » وما زالت هند تزيد اعجابها به والملك يقول : « ارفعوا ستراً وادنوا الحرث » حتى أزيلت الستور السبعة ، واقعده الملك قريباً منه على مجلسه ، ثم اطعمه في جفنته ، وأمر ان لا يُنضح اثره بالماء . ثم جزّ نواصي السبعين الذين كانوا رهناً في يده من بكر ، ودفعها اليه ، فلم تزل

---

١ عنزة : رمح صغير فيه حديدة .
٢ ارتزت : غرزت .
٣ اقتطمت : اقتطعت .

تلك النواصي في بني يشكُر يفتخرون بها . وضُرب بالحرث المثل في الفخر فقيل : « افخر من الحرث بن حلّزة. » وكان من اعجاب الملك بقصيدته، أن أمرَه أن لا ينشدها إلاّ متوضئاً[1] .

وقد زعم الرواة ان الحرث ارتجلها ارتجالاً ، كما زعموا ان عمرو بن كلثوم ارتجل طويلته ، ومثل هذه المزاعم لا يعوّل عليها . وحسبك ان تقرأ معلقة ابن حلزة، وترى ما فيها من التنسيق الفكري ، وإعمال الروية ، والدهاء في التعريض ، وسرد الحوادث التاريخية ، لتحكم بانها ليست بنت ساعتها . ومن المعقول ان لا يشهد شاعرا بكر وتغلب يوم التقاضي إلاّ وهما على اهبة للدفاع والنضال . ولكن ما الحيلة في هؤلاء الرواة ، وهم في اكثر أخبارهم يصطنعون المغالاة والاغراب ، ولا سيما اذا تناولوا في حديثهم قبيلتين مشهورتين بالعداء كتغلب وبكر ، ولا بدّ لكل قبيلة من رواة ينتسبون اليها ، أو يجازبونها ، فكيف تريد ان يجعل الراوية التغلبي عمرو بن كلثوم يرتجل معلقته ولا يجعل الراوية البكري الحرث بن حلزة يجاريه في الارتجال ؟ ومما يجدر بنا ذكره ان التنافس الجاهلي بين بكر وتغلب بقي له أثر قوي في الاسلام .

ويزعم الرواة ان الحرث بن حلزة عُمّر خمسين سنة ومائة كما بلّغها عمرو بن كلثوم. ولعل في ذلك شيئاً من التنافس ايضاً . ولكنهم يجمعون على ان شاعر بكر كان شيخاً هرماً يوم انشد معلقته ولم يكن شاعر تغلب يومئذٍ كذلك .

---

١ متوضئاً : مغتسلا .

آثاره

آثار الحرث كأخباره لم يصل الينا منها غير القليل ولولا المعلقة لما كان فيها غناء . وقد عرفنا الأسباب التي حملته على نظم معلقته فنحن ندرسها مستندين الى هذه الأسباب . وهي السابعة والأخيرة بين القصائد الطوال .

ميزته – المعلقة

عرفنا ان عمرو بن هند طرد النعمان بن هرم خطيب البكريين ، وعرفنا انه كان يؤثر تغلب على بكر ، فكيف استطاع الحرث بن حلزة ان يستميل ملك العراق فيحمله على الحكم لقومه بعد ان كان الفوز مضموناً للتغلبيين ؟ وكيف اتيح له ان يرتق ما فتق سفاه[1] النعمان بن هرم ؟

لا ريب ان اندفاع عمرو بن كلثوم في الفخر والحماسة والاساءة الى الملك مهّد بعض السبيل لأن يصلح البكريون ما افسد خطيبهم . ولكن لا بدّ لمن يضطلع بهذا الخطب ان يكون كالحرث بن حلزة ليس في الشاعرية وحدها بل في الدهاء السياسي وقوة العارضة ورباطة الجأش . فقد وقف الشاعر يدافع عن قومه مثقلاً بغضب الملك واشمئزازه من رؤيته فلم تطر نفسه ولا فُتّ في عضده . وكان له من الدهاء وقوة العارضة ما ردّ به اقوال شاعر تغلب ، واسترضى عمرو بن هند . ونحن اذا انكرنا عليه ارتجاله المعلقة برمتها فلا ينبغي ان ننكر ارتجال بعضها ، فمَثَلُ الحرث في الدفاع عن قومه مثل المحامي البليغ الذي يُعِدُّ خطابه ليدافع عن موكله ولكنه لا يستغني ساعة التقاضي عن شيء يبتدهه ليقرع به حجج خصومه . وسنرى في درسنا المعلقة ابياتاً تدلّ على انها قيلت ارتجالاً .

---

١ السفاه : الجهل .

الغزل ووصف الناقة

يبتدىء الشاعر قصيدته بالتغزل وذكر الفراق . ولكنه صاحب جدٍّ وحزم فما يطيل غزله بل ينتقل الى وصف ناقته التي يستعين بها على الهم . وهو مقتصد في وصف ناقتـه التي شبهها بالنعامة كاقتصاده في غزله لا يلبث ان يتناول الغاية التي يرمي اليها دون ان يضيع وقته في ما لا يفيد .

رده وفخره

يستهل الشاعر هـذا القسم بذكر دعوى تغلب على بكر واستعدادهـا للحرب ، وهي توطئة فنية لمحامٍ يريد ان يلمس الموضوع ليشرع في الدفاع :

وأتَانا مِنَ الحَوادِثِ والأنْـ ... ـباءِ ، خَطْبٌ نُعْنى به ونُساءُ:
أنَّ إخوانَنَـــا الأراقِمَ يَغلُو ... نَ علينا ، في قِيلِهِم إحْفاءُ ،[1]
يَخْلِطُونَ البريءَ منّا بذي الذَّنْـ ... ـبِ ، ولا يَنْفَعُ الخَلِيَّ الخَلاءُ ![2]
زعموا أنَّ كلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْـ ... ـرَ مُوالٍ لنـــا ، وأنّا الوَلاءُ[3]

---

١ الأراقم : بطون من تغلب سُمُّوا بها لان امرأة شبهت عيون آبائهم بعيون الأراقم ، اي الحيات . وهو يدعوهم اخوانه لأن بكراً وتغلب ابنا وائل . يغلون : يجاوزون الحد من الغلو ، او تغلي صدورهم حنقاً من الغليان . القيل : القول . الإحفاء : المبالغة والالحاح . يقول مفسراً ذلك الخطب : هو غليـــان اخواننا الأراقم علينا . أو علوّهم في عداوتهم ومبالغتهم في أقوالهم .

٢ الخليّ : البريء . الخلاء : البراءة .

٣ اختلف الائمة في شرح هذا البيت لاختلافهم في فهم لفظة « العير » حتى قال عمرو بن العلاء : « قد ذهبَ من كان يعرف معنى هذا البيت. »وخلاصة الآراء ان العير : السيد ، وأراد به كليب وائل . فيكون المعنى : زعم بنو تغلب ان كل من رضي بموت كليب هو من حلفائنا . او ان العـير : الحمار . فيكون المعنى : زعموا ان كل من صاد حماراً كان حليفنـا ، اي ألزموا العامة جناية الخاصة . او ان العـير : الوتد . فيكون المعنى : زعموا ان كل من ضرب وتد خيمة كان موالياً لنا . وقوله : وأنـّا الولاء ، أي أصحاب الولاء .

فانظر الى هذه النعومة في قوله : « ان اخواننا الأراقم » وقوله : « زعموا ان كل من ضرب العير » وقابل بها نزَق عمرو بن كلثوم في خطابه البكريين : « اليكم يا بني بكر اليكم ! » وقوله : « ألا لا يجهلنْ احد علينا ! » فترى الفرق بين الشاعرين من حيث الرزانة والدهاء ، ومن حيث الخبث ان صح التعبير .

ثم يأخذ في الرد على عمرو بن كلثوم ، وتسفيه شكوى التغلبيين ، ونرجح ان ردوده على شاعر تغلب ارتجلت ارتجالاً .

وبعد ان يذكر شيئاً من مفاخر البكريين ينتقل الى مدح والد عمرو ابن هند . وكأن الشاعر بعد ان بسط دعوى التغلبيين وأظهر بطلانها ، أراد ان يلقي على عاتقهم تبعة الحرب ، اذا كان لا بدّ من نشوبها ، فعاد الى خطابهم ، وشرع يذكّرهم ما بينهم وبين بكر من حِلْف وعهود ، ويحذرهم من نقضها . ثم اخذ يعيرهم اياماً غُلبوا فيها مبيناً انكساراتهم ليغض من شأنهم لدى الملك ، متخذاً اسلوباً ناعماً موجعاً ، فلم يقل لهم ابتداء : انتم انهزمتم يوم كذا او يوم كذا ، بل زعم انهم يطالبون بكراً بذنوب غيرها من القبائل ، فجعل يسمي تلك القبائل التي انتصرت على بني تغلب ويقول لهم : « أعلينا يقع الذنب اذا قهركم بنو كندة ، وبنو قضاعة ، وبنو العباد الخ ... »

ثم ذكّرهم ، وذكّر عمرو بن هند ، بقتل والده المنذر ، وفتكه بهم ، لإحجامهم عن نصرته في طلب الثأر . وكأنه أراد بهذه الذكرى ، ايغار صدر الملك عليهم . وكان ذلك آخر سهم مسنون ، رشقه من كنانة تهكمه وتعييره .

وبعد ان بلغ امنيته من اعدائه ، ورماهم بقاصمة الظهر ، مال الى عمرو

ابن هنـد ، يمدحه ويسترضيه ، ويذكّره متلطفاً ما لقومـه البكريين من الأيادي البيض على المناذرة ، وما يجمعهم واياه من صلة وقربى. فتوصل الى غرضه بحكمته ودهائـه ، وحسن تنسيق دفاعـه ، فخذل خصمـه واستمال الملك اليه ، ففضّل قصيدته على قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقضى لبني بكر على بني تغلب . ولسنا نعجب لفوز الحرث ، فان قصيدتـه ، وان تكن دون قصيدة ابن كلثوم روعةً وايقاعاً وانسجاماً ، فهي تفوقها من حيث الفن الخطابي، سواء في ترتيب أفكارهـا ، او في الاسلوب الحكيم الذي اتخذه الشاعر لتعيير التغلبيين ، واسترضاء عمرو بن هند . فعمرو بن كلثوم افتخر وغالى، ولكن بنى اكثر مفاخره على الأوهام والادعاء الفارغ، واما الحرث فانه افتخر وأكـــثرَ الافتخار ، ولكن بنى مفاخره على الحقائق التاريخية ، فلم يـترك يوماً لبني بكر إلاّ ذكره ، ولا يوماً على بني تغلب إلاّ عيرهم اياه . وعدا ذلك ، فعمرو بن كلثوم اساء التصرف في اغضاب الملك ، والحرث احسن التصرف في استرضائه .

ولا نرى حاجة الى تعداد ما في هذه القصيدة من الفوائد التاريخيـة ؛ فإنما هي قصة جامعة لطائفة من أيام العرب وأخبارها ، وهذا ما جعلنا ننفي عنها زعم الارتجـال . ويجمل بنا ان ننظر الى ما فيها من ايجـاز دقيق ، فأكثر أبياتها يحتاج الى شرح مستفيض ، لضيق لفظه عن معناه . والايجاز خاصة ظاهرة في شعر الحرث ، فهو مولع به حتى السَرَف . وأئمة البيان يستشهدون ببيت له على الايجاز المُخل وهو قوله :

والعَيْشُ خَـــيرٌ في ظِـلا لِ النَّوكِ ، مِمَّن عاشَ كدّاً[1]

[1] النوك : الحمق . الكد : التعب . وهو هنا بمعنى مكدود اي متعب .

فلفظه لا يفي بالمعنى ، لأنه يريد ان يقول : « ان العيش الناعم في ظلال الحمق خيرٌ من العيش الشاق في ظلال العقل . »

منزلته

قال أبو عبيدة : « اجود الشعراء قصيدة واحدة طويلة ، ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم ، والحرث بن حلزة ، وطرفة بن العبد . وقال أبو عمرو الشيباني : لو قالها في حول لم يُلَم .

ولا بدع ان يُعجب بها الأدباء الأقدمون ، فإنما هي رائعة من روائع الشعر الخطابي ، وخير مثال للشعر السياسي في الجاهلية .

سائر الشعراء المشهورين

(الشعراء المتخصصون)

عرفنا من شعراء الجاهلية شاعرين قديمين : احدهما يمثل الحياة البدوية الخشنة ، وهو الشنفرى ؛ والثاني يمثل تأثير الترف والحزن في النفس ، وهو المهلهل . ثم عرفنا اصحاب المعلقات السبع ، ودرسنا الوان تفكيرهم وتعبيرهم ، وبدا لنا شيء غير قليل من أخلاق العرب وعاداتها ، وأحوالها الاجتماعية والسياسية ، وتأثير العوامل الخارجية في نفوس شعرائها ؛ فرأينا فيهم شاعراً أميراً يحسن وصف النساء والجياد والصيد ، وشاعراً فتىً يلهو ويسخر ويأتي بروائع الحِكَم ، وشاعراً جليلاً لا ينطق الا والحكمة على رأس لسانه ، وشاعراً حازماً يتأسى ويعظ نفسه في المصائب ، وشاعراً فخوراً متهوراً يرى الدنيا وما عليها ملكاً له ، وشاعراً فارساً تدفقت الحماسة من صدره ، وشاعراً داهية يعرف من أين تؤكل الكتف .

على ان معرفتنا لهؤلاء الشعراء لا تغنينا عن درس طائفة اخرى من شعراء الجاهلية ، لنتمكن من الالمام بخصائص الشعر الجاهلي من جميع اطرافه ، والوقوف على تطوره السريع في أواخر عصره .

واذا كانت السبع الطوال خير ما وصل الينا من الجاهلية ، فان اصحابها لم ينفردوا بجودة الشعر ، بل هناك فحول من غير اصحاب المعلقات يُعَدُّ بعضهم في مقدمة الطبقة الأولى: كالنابغة والأعشى ، والبعض الآخر يجاريهم جميعاً ولا يقصر عنهم ، كالحُطَيئة . وقد ادرك كلهم الاسلام الا النابغة ، واشتهر كلهم بنوع من الشعر اختص به ، لذلك اطلقنا عليهم لقب الشعراء المتخصصين .

النابغة الذبياني

(مات في اوائل القرن السابع)

حياته : نسبه . كنيته . لقب النابغة . موته .
آثاره : ديوان شعر شرحه البطليوسي ونُسب اليه نثر منحول .
ميزاته : سياسة القبيلة . شاعر القصور : بين الشام والعراق . عند الغساسنة . اعتذارياته . هل صدق النابغة في مدحه ؟ القصة عند النابغة . منزلته : اقوال الأقدمين فيه .

حياته ونسبه

كان النابغة من الطبقة الشريفة في قومه كما يخبرنا صاحب الأغاني، واسمه زياد بن معاوية بن ضِباب[1] . يرتفع بنسبه الى غيظ بن مُرّة ، ثم الى ذبيان، ثم الى غطفان . وليس من يدفع هذا النسب من الرواة والمؤرخين القدماء سوى ما ورد في الخبر عن أبي ضمرة يزيد بن سنان الحارثي اخي هرم بن سنان ممدوح زهير من ردّه النابغة الى بني قُضاعة اليمانية عندما لاحاه ، وانكاره نسبه في بني ذبيان القيسية . وكان يزيد متزوجاً بنت النابغة فطلقها . وسئل : لمَ طلقتها ؟ فقال : انا رجل من عُذرة ، فانتسب الى اليمن ، وانتفى من غطفان . ثم اخذ يجمع اقرباءه من بني خُصيلة بن مرة وبني نُشبة بن غيظ بن مرة ، فتحالفوا على بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة ، فسمّوا المِحاش لتحالفهم على النار ، وكانوا يحسدون النابغة لعفته وشرفه مع رجوعهم اليه في حوائجهم عند الملوك ، وغير مستغرب حسد الأقرباء بعضهم لبعض .

---

[1] في شرح التبريزي للقصائد العشر : زياد بن عمرو بن معاوية بن ضباب .

فاتفقوا على طرده عن غطفان ونسبوه الى بني ضِنّة ، وهي عشيرة من عُذرة ثم من قضاعة . وقال يزيد في ذلك يعرّض به ويعيره :

انى امرؤٌ من صُلبِ قيسٍ ماجدٌ ، لا مُدّعٍ حسباً ولا مُستنكِرُ

فرد عليه النابغة بقوله :

جمّعْ محاشَكَ ، يا يزيدُ ، فانني أعــددتُ يربوعاً لكم وتميما[1]
ولحِقتُ بالنسبِ الذي عيّرتَني ، وتركتَ اصلكَ ، يا يزيدُ ، ذميما
عيّرتَني نسبَ الكرام ، وإنما فخرُ المفاخِرِ ان يُعَدّ كريما
حَدِبَتْ عليّ بطونُ ضِنّةَ كلّها ، إن ظالماً فيهم وإن مظلوما

فاعترف بانه من ضنة وانكر على يزيد ان يترك اصله ، مشيراً الى قوله ، عندما طلق ابنته ، انه من عُذرة . ولكن ابن سلام يرى ان انتسابه الى بني ضنة كانتساب كعب بن زهير الى المزنيين عندما دفعه مزرّد بن ضِرار عن غطفان وردّه على مزينة ؛ لأن العرب كانت تفعل ذلك ، لا يُعزى الرجل الى قبيلة غير التي هو منها إلا قال : أنا من الذين عنيتَ . واخبار النابغة واشعاره تدل على عنايته بشؤون بني ذبيان ودفاعه عنهم وانتمائه اليهم . وله قصيدة يعاتبهم بها على استئثارهم وتحالفهم عليه وعلى قومه حتى نفوهم من القبيلة ، ويضرب لهم مثل الحية وحليفها فيقول فيها :

ألا أبلِغا ذُبيانَ عني رسالةً ، فقد اصبحتْ عن مَنهَجِ الحقّ جائرهْ
أجَدّكمُ ، لن تَزجُروا عن ظُلامةٍ سفيهاً ، ولن ترعوا لذي الوُدّ آصِرهْ

---

[1] يربوع : رهط النابغة . تميم : اي تميم بن ضبّة بن عذرة بن سعد بن ذبيان .

فهذا العتاب ينمّ على تألم الشاعر من اقربائه لجورهم عليه وعلى عشيرته ، وليس هذا شأن شاعر ينتسب الى بني عذرة ، ولو كان منها لما ضامه ان يعزى اليها ، وهي قبيلة معروفة في قضاعة ، وقضاعة من كرام القبائل العربية الجامعة . فنحن نرى رأي ابن سلام في رده على يزيد بن سنان وادعائه ضنة ، مع ما نؤنس فيه من عطف عليها وعلى عذرة جمعاء . فقد كانت صلته بها حسنة كما يُستدل من شعره وأخباره ، ولعلها نشأت بعامل اعتزائه اليها ومدحه لها ، فنجده عند النعمان بن الحارث الغساني ينهاه عن غزو بني حُنّ بن حِزام ، وهم من بني عذرة ، ويخبره انهم في حَرّة وبلاد شديدة يصعب البلوغ اليها . وكانوا يقطنون في وادي القرى شمالي يثرب ، وهو واد كثير النخل والزروع . فأبى النعمان ان يقبل نصيحته ، فبعث النابغة الى قومه يخبرهم بغزو النعمان ويحضهم على نصرة بني حُنّ ، ففعلوا ما أشار به عليهم ، وهزمت بنو عُذرة جيش الغسانيين ، فقال النابغة في ذلك :

لقد قلتُ للنُّعمانِ ، يومَ لقيتُه يُريد بني حُنٍّ ببُرقةِ صادرِ :
تجنَّبْ بني حُنٍّ ، فإنّ لقاءهم كريهٌ ، وان لم تَلْقَ إلاّ بصابرِ

فإذا كان قد اخلص النصح للنعمان في تحذيره من الغارة عليهم ، فانه كان أشد اخلاصاً لهم في حمله قومه على امدادهم ومساعدتهم حتى كسروا الغساسنة . فحدبه على بني عذرة ظاهر ، فلا غرو ان تحدب عليه بطون ضنة كلها كما يقول .

ويخبرنا صاحب الأغاني ، في كلامه على ابن ميّادة ، ان شيخاً عالماً من غطفان قال : «كان الرمّاح (اي ابن ميادة) اشعر غطفان في الجاهلية

والاسلام ، وكان خيراً لقومه من النابغة . لم يمدح غير قريش وقيس ، وكان النابغة انما يهذي باليمن مُضلَّلا حتى مات . » ولا يعني هذا ، كما فهمه المستشرق ديرنبورغ ، ان الشاعر خرف في اواخر حياته وهام في ارض اليمن ، وانما يعني انه كان يلهج بذكر القحطانية في انتسابه الى عذرة. ففضّل الشيخ الغطفاني ابن ميّادة عليه ، لأن هذا لم يمدح غير قريش وقيس عيلان وكلتاهما من مضر ، فكان خيراً لقومه من النابغة كما يزعم . فقد عطف النابغة على بني حن ودعا قومه الى نصرتهم ، وانتمى الى ضنة وفاخر بها ، غير انه لم يكن يوماً لها بمقدار ما كان لبني ذبيان ، وان هذى بها نكاية في يزيد ومحاشه . وما خطر على بال احد من الرواة ان يدفعه عن غطفان ، ولا هو تقاعس مرة عن تأييدها بشعره وجاهه . فلسنا نرى مسوّغاً للغطفاني في ايثار ابن ميادة عليه سوى عصبيته العدنانية ، مع ان الشاعر الاسلامي دون الشاعر الجاهلي منزلة وفضلا وذياداً عن قومه . فالنابغة نشأ في غطفـــان ولزمهم يدافع عنهم بشعره ، ثم اتصل بملوك الشام والعراق ونادمهم في قصورهم ، دون ان يغفل عن مهمته القبلية عندهم . ثم عاد الى قومه ومات بينهم ولم يخرف ولا هام في ارض اليمن كما وَهَم ديرنبورغ.

وكان يكنى أبا أمامة ، كما ذكر ابن سلام وصاحب الأغاني . ويجعل ابن قتيبة كنيته أبا أمامة وأبا ثمامة ، ولعلها ثُمامة كما ضبطها التبريزي في شرح القصائد العشر فقال : « ويكنى أبا ثُمامة وأبا أمامة بابنتيه . » وله ابنة ثالثة تسمى عقرب وربما كني بها ايضاً. قال البغدادي في خزانة الأدب: « وكنيته أبو امامة وأبو عقرب بابنتين كانتا له . » واذا عدنا الى اخباره واشعاره نرى ان عقرب ورد ذكرها في غارة النعمان بن الجُلاح قائد الغساسنة على بني ذبيان ، فقد سباها في جملة من سبَى من نسائهم ، ولما

عرف انها بنت النابغة جهزها واطلق سراحها ، ثم اطلق السبي والاسرى جميعاً إكراماً لأبيها . وليس لدينا خبر عن امامة ولا عن ثمامة وانما نستدل من قصيدته التي مدح بها عمرو بن الحارث الغساني انه انما اراد ابنته امامة بقوله في مطلعها :

كِليني لهمٍّ ، يا اميمةَ ، ناصِبِ ، وليلٍ أقاسيه ، بَطِيءِ الكواكبِ [1]

وتروى له قصيدة أولها :

ودِّع أمامةَ ، والتوديعُ تَعذِيرُ ، وما وَداعُكَ مَن قفَّت به العِيرُ [2]

وهي غير ثابتة له لأنها تروى ايضاً لأوس بن حجَر . ثم لا ندري هل اراد بامامة ابنته او اراد امرأة سواها ، لأن البيت الذي بعده يُحمل على محمل الغزل بخلاف مطلع الغسانية فانه يشكو فيه الى ابنته همومه وليله وما يقاسي من السهر . ومهما يكن من امر فليس لدينا شيء يُذكر عن بناته سوى ما اوردناه ، وهو وشل قليل لا يروي غليلاً ، ولكنه يساند كنيته أبا امامة وأبا عقرب ، ونترك الثالثة ابا ثُمامة على ذمة ابن قتيبة والتبريزي ، بيد ان الأولى اشهر الكنى الثلاث لاجماع الرواة والمؤرخين عليها .

واختُلف في السبب الذي من اجله لقّب النابغة ، فقال صاحب الأغاني : « ذكر اهل الرواية انه انما لقب النابغة بقوله :

فقد نبَغَتْ لنا منهم شؤونُ . » اه

---

[1] كليني : دعيني . يا اميمة : هكذا رويت مفتوحة الهاء المثنّاة . قال الخليل : « من عادة العرب ان تنادي المؤنث بالترخيم فتقول : يا أميم ويا عَزّ ويا سَلمَ . فلما لم يرخّم لعدم حاجته الى الترخيم أجراها على لفظة مرخمة واتى لها بالفتح ؛ والأحسن ان ينشد يا اميمة بالرفع . » ناصب : من نصبه الهم ، اي اتعبه .

[2] التعذير : المبالغة في العذر ، والتقصير بعد الجهد . قفت : فرمت . العير : القافلة .

وصدر البيت :

وحَلَّتْ في بني القَينِ بن جَسْرِ

وهو من قصيدة له يمدح بها النعمان أبا قابوس ، ويسميه ابن مُحرّق كما يسمى غير واحد من الملوك اللخميين . ومنها البيتان المشهوران اللذان روي ان عمر بن الخطاب فضّله بهما على الشعراء حيث يقول :

أتيتُكَ عارياً خَلَقاً ثيابي ، على خوفٍ ، تُظَنّ بي الظُّنُونُ
فألفيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها ، كذلك كان نُوحٌ لا يَخُونُ

ويبدو لنا انه قالها بعد رجوعه واعتذاره اليه . واما ان يكون لقب النابغة ببيت من الشعر ، فان الانباز التي تطلق على اصحابها مأخوذة من أقوالهم ليست غريبة عن مألوف العادات العربية الى يومنا هذا ، وهي كثيرة عند الأقدمين حتى ليصعب الشك فيها ، ونقتصر على ذكر ثلاثة شعراء عرفت ألقابهم في أشعارهم ، احدهم جرير بن عبد المسيح ، قيل انه لقب المتلمس لقوله :

فهذا أوانُ العَرضِ حَنّ ذُبابُه ، زنابيرُه والأزرقُ المُتلمّسُ

والآخر مِحْصَن بن تعلبة العبدي لقب المثقّب بقوله :

ظهَرنَ بكِلّةٍ ، وسَدلْن أخرى ، وثقّبنَ الوَصاوِصَ للعُيونِ[1]

والثالث شأس بن نهار العبدي سمي المُمزّق بقوله :

فإن كنتُ مأكولاً ، فكن أنتَ آكِلي ،
وإلا فأدرِكْني ولمّا أُمزَّقِ

---

[1] الوصاوس : براقع صغار تلبسها الجواري .

على ان الرواة لم يتفقوا على هذا السبب وحده في نبز النابغة ، بل أوردوا غيره ، وهو أكثر ملاءمة للشاعر النابغ ، ومنه قول ابن قتيبة : « ونبغ بالشعر بعدما احتنك ، وهلك قبل ان يُهتَر . » وحكى ابن ولاّد انه يقال : « نبغ الماء ونبغ بالشعر ، فكأنه اراد ان له مادة من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ . » وهذا التفسير لغوي خالص بخلاف ما تقدمه ، فقد جاء في الأساس للزمخشري انه يقال : « نبغ فلان في الشعر اذا لم يكن في ارث الشعر ، ثم قال فأجاد ؛ ونبغ من فلان شعر شاعر ، وهو نابغة من النوابغ ؛ ونبغ في العلم وفي كل صناعة . » فغير كثير على شاعر الملوك ان يلقّب النابغة ولدينا من جياد قصائده ما يؤيد نبوغه في الشعر ، وهو الى ذلك حَكم سوق عكاظ ، وكانت تُضرب له في الموسم قبة حمراء من أدَم ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه اشعارها ، فيحكم بينها ، ويفضل الواحد على الآخر . وهذا الشرف لم يصبه شاعر قبله ولا بعده ، والقبة الحمراء لا تضرب الا للسادات والأمراء . ولكنه لم ينفرد بهذا اللقب ، فقد ذكر الآمديّ في المؤتلف والمختلف ثمانية اشخاص يقال لهم النابغة ، منهم النابغة الجعدي ، وهو أقدم من صاحبنا الذبياني ، كما يقول ابن سلام وابن قتيبة ، ولا ندري سبباً لتلقيبه غير نبوغه في الشعر ، وهو غير كافٍ ، لأنه يجوز ان يلقّب به كل شاعر مجيد كامرىء القيس وزهير والأعشى وسواهم ، فلا بدّ ان يكون هناك اسباب خفيت على الرواة الأقدمين ، حتى أُطلق هذا اللقب على ثمانية من الأشخاص ، ولم يشرحوا غير اللقب الذي عُرف به نابغة بني ذبيان ، فذكروا انه لقّب ببيت من الشعر قاله ، وهذا محتمل الوقوع كما بيّنّا ، وكذلك قول بعضهم انه سمّي النابغة لأنه لم يقل الشعر حتى صار رجلاً ، ويؤيده قول ابن قتيبة انه نبغ بالشعر بعدما احتنك ،

وهلك قبل ان يُهتَر . ومهما يكن من امر هـذا اللقب فان المعنى اللغوي هو الذي يتبـادر الى الذهن قبل غيره ، وان كنا لا نستطيـع ان نفسّر سبب اختصاصه به دون غيره من الشعراء النوابغ الذين تقدموه او عاصروه وفيهم امثال الأعشى والملك الضِلـِّيل ، ولا سببَ اطلاقه على من هم دونه ودون انداده شاعرية كالنابغة الجعدي ونابغة بني شيبان .

ويستوقفنا قول ابن قتيبة انه نبغ بالشعر بعدما احتنك ، وهلك قبـل ان يهتر ، ومعنى ذلك انه لم يُعرف بالشعر الا بعدما صار رجـلًا مجرّباً ، ومات قبل ان يخرف ويذهب عقله من الكبر . وإذا عـدنا الى آثاره التي بلغت الينا لم نجد له شعراً في مدح ملوك غسان أبعد عهداً من زمن الحارث الأصغر ابي عمرو بن الحارث الذي مدحه بقوله :

عليّ لعمرٍو نعمةٌ بعد نعمـــةٍ لوالده ، ليست بذاتِ عَقاربِ

والحارث ملك بعد أخيه المنذر الذي اعتقله القيصر طيباريوس في اواخر سنة ٥٨١ وجيء به الى القسطنطينية ، ثم أُبعد الى صِقِلّية . وكذلك لا نجد له مدحاً في المناذرة الا ّما مدح به النعمان أبا قابوس الذي تبوّأ عرش الحيرة سنة ٥٨٠ . وأمـا القصيدة التي رواها الأعلم له في مدح عمرو بن هند ، من غـير مرويّات الأصمعي ، فإنها كما يظهر قيلت في بعض ملوك الغساسنة ، لا في ملك العراق لقوله فيها :

فدوّخْتَ العِراقَ ، فكلُّ قصرٍ يجلّلُ خَنـــدقٌ منه وحـامِ

فملك العراق لا يدوّخ العراق ، وانما يدوّخه غازٍ غريب . وقد اصاب ابو عبيدة في قوله : « انه قال هـذه القصيدة لعمرو بن الحارث الغساني في غزوه العراق . » ولا يدفع ذلك قوله فيها :

ولكن ما أتاكَ عن ابن هندٍ من الحَزمِ المُبيَّنِ والتّمامِ

فان في ملوك الشام من ينتسب الى هند ، كما ذكر النابغة في نسب الغلام الغساني ، ولعل المراد به عمرو بن الحارث :

لِلحارثِ الأكبرِ والحارثِ الأ صغرِ والأعرجِ خيرِ الأنامْ
ثم لهندٍ ولهندٍ وقد ينجحُ في الرّوضاتِ ماءُ الغَمامْ[1]

فقد نسبه الى ابوين : الحارث الأكبر والأصغر ، ثم الى أُمّين : هند وهند . وروي له شعر يحذّر فيه قومه من غزوة ابن هند ، اي الملك الغساني ، بدليل انه يذكّرهم قوة الغساسنة وانتصارهم على المنادرة يوم حليمة ويوم عين أُباغ :

يوما حَليمةَ كانا من قَديمِهِمُ ، وعينِ باغٍ ، فكان الأمرُ ما ائتمَرا
يا قومُ ، انَّ ابن هندٍ غيرُ تاركِكُمْ ، فلا تكونوا ، لأدنى وقعةٍ ، جَزَرا[2]

ونحن نعلم ان عمرو بن الحارث الغساني واخاه النعمان أوقعا ببني ذبيان غير مرة لميلهم الى المناذرة واعتدائهم على مراعي الغساسنة . والأميران ينتسبان الى امهما هند ، فيصحّ ان يكون هذا الشعر في احدهما . ولعل الذي حمل الرواة على ان يجعلوا القصيدة الميمية في ملك العراق هو انها قيلت في عمرو بن الحارث الغساني ، ونسبه الشاعر الى امه هند ، وهذه النسبة مشهور بها سميّه ملك العراق ، فاختلط عليهم الأمر ، ولكن أبا عبيدة تنبّه لها ، وادرك عليهم وهمهم ، وجاراه المستشرق نولدكه . ويؤيد

---

١ ويروى العجز : اسرع في الخيرات منه امام .
٢ جزراً : فريسة .

ذلك قول ابن سلام : « النابغة ليس له قِدَم ، كان في عهد النعمان . » ونفى ابن قتيبة خرفه بقوله انه مات قبل ان يُهتَر . ولعل سكوته عن مدح ملوك العراق والشام قبل النعمان ابي قابوس والحارث الأصغر يفسر قول ابن قتيبة انه نبغ بالشعر بعدما احتنك .

وعاش النابغة الى ما بعد مقتل النعمان بن المنذر عند كسرى (٦٠٢ م) وله شعر فيه عندما بلغه موته . وشهد اواخر حرب داحس والغبراء بل شهد الصلح ايضاً . وله شعر في رحيل بني عبس عن ديارهم بعد يوم جفر الهباءة ومقتل حذيفة بن بدر واخيه حمل ، فقد ندم العبسيون على ما فعلوا بانسبائهم وكرهوا المقام في ارضهم ، فرحلوا متنقلين في البلاد ، حتى أتاهم وفود بني عامر فدعوهم الى ان يرجعوا ويحالفوهم ، فأقاموا فيهم ، فذكر النابغة ذلك في شعره . وكانت الحرب ، بعد هذه الواقعة ، قد صارت الى أشد اوامها ، وهي ، كما نعلم ، وضعت اوزارها في اوائل القرن السابع ، فيكون النابغة قد هلك بعد مقتل النعمان بزمن قريب .

آثاره

ديوان شعر شرحه ابو بكر البَطَلْيُوسي ، وأشهر ما فيه أقواله في سياسة القبيلة ومدح الغساسنة واعتذاره الى النعمان ودالية يصف بها المتجردة ، وعدّه المفضَّل الضَّبّي ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد القرشي ، من أصحاب المعلقات ، ومطلع معلقته :

عُوجُوا فحيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدارِ ، ماذا تُحَيُّونَ من نُؤْيٍ وأحْجارِ[1]

---

١ عوجوا : عوّا . نُعم : اسم امرأة . الدمنة : ما اجتمع من آثار الديار . النؤي : نُهَير حول الخباء يمنع ماء المطر من ان يجري اليه .

ونُسب اليه نثر مسجع ، يمدح به عمرو بن الحرث ، ولكننا نشك في صحته كل الشك ، لأن آيات النحل والتعمل بادية عليه . واليك شيئاً منه :

«ألا انْعِمْ صَباحاً أيُّها الملِكُ المُبارَكُ. السَّماءُ غِطاؤكَ، والأرضُ وِطاؤكَ ، ووالِدي فِداؤكَ ، والعَرَبُ وِقاؤكَ ، والعَجَمُ حِماؤكَ، والحُكَماءُ جُلساؤكَ ، والمُداراةُ سِماؤكَ ، والمَقاوِلُ[1] إخوانُكَ ، والعَقْلُ شِعارُكَ ، والسِّلْمُ مَنارُكَ ، والحِلْمُ دِثارُكَ[2] . الخ . . . »

سياسة القبيلة

عرفنا ان النابغة كان محسَّداً في قومه ، وان جماعة من اقربائه بني مُرَّة تحالفوا عليه وعلى عشيرته ونفوهم من غطفان ، فوقعت بينه وبين يزيد ابن سنان المُرّي ملاحيات يتمثل فيها ما يحدث من العداوة بين الأقرباء ، فتنشق القبيلة وتسوء علاقة بعضها ببعض ، فلا يلم شعثها إلاّ نكبة شاملة تنزل بها كحرب داحس والغبراء . ونتبين من هذه الملاحيات ألم الشاعر وسخطه على قومه الذين لم يرعوا ودّه ولا ردّوا سفهاءهم عنه ، مع احتياجهم اليه عند الملوك ، حتى اضطروه ان ينتسب الى الغرباء .

وما كان لبني ذبيان ان تنسى فضل النابغة فتسكت عن سفه يزيد ومحاشه ، وشاعرُها لم يهمل يوماً امورها ، ولا قصّر في نصحها والذود عن حياضها ، وان ضمّته قصور الحيرة والشام . وانه وان لم يبلغ الينا من شعره مدح لساداتها ورثاء للذين قُتلوا في حرب السباق ، لقد وصلت الينا عدة قصائد تطلعنا على عنايته بشؤونها السياسية العامة . واغلب الظن انه لم

---

١ المقاول : الملوك دون الملك الاعلى ، مفردها مِقوَل . لغة يمانية .
٢ دثارك : غطاؤك .

يمدح ولم يرثِ احداً منها لسببين : احدهما انه كان من أشرافها فما أباح لنفسه ان يطري انداده وهو منافس لهم ، لا يمدح غير الملوك كما يخبرنا في شعره . والآخر انـه تلكأ عن رثاء المقتولين ، وفيهم امثال ضمضم المرّي وحُذيفة بن بدر الفَزاري واخيه حَمَل ، لخلافه مع بني مرة من اجل يزيد وحلفائه ، ثم مع بني فزارة بعد ما جرى بينه وبين بدر بن حُذار الفزاري ، وبينه وبين حصن بن حُذيفة وعُيَينة بن حِصن من هجاء ومجافاة . ولكن نفوره من مدح الأفراد او رثائهم لم يصرفـه عن القيام بمهمته القبلية العامـة كلما دعته الحاجة اليها . فنراه يهجو عامر بن الطفيل العامري فارس قومـه وشاعرهم لما بين بني ذبيـان وبني عامر من عداء وغزوات . وكان النابغة غائباً في بني غسان عندما حـدث يوم الرَّقَم ، وانتصرت فيـه غطفان على العامريين . فلمّا رجـع الى قومه بلغه انهم يهجون عامراً وعامر يهجوهم ، فلامهم على افحاشهم في شريف مثله. ثم هجاه هجاء مرّاً لم يفحش فيه ، إلاّ ان عامراً تضوّر منه لما فيه من تهكم لاذع ، واقذاع في تفضيل ابيه وعمـه عليه ، فأصابه في منزلته الاجتماعيـة ، ونفى عنه صفة السيادة ، وكان يطمع فيها بعد عمه ابي بَرَاء . وهذه الحادثة وقعت بعد حرب داحس والغـبراء ، وكان قد عقـد الصلح ، لأن يوم الرقَم عقبـه يوم النتاءة ، وكانت عبس وذبيان يقاتلون فيه جنباً الى جنب ، فكسر العامريون مرة ثانية .

ودافع النابغة بشعره عن غطفان جمعاء ، فلم يغفل عن بني عبس ، وهم انسباء بني ذبيان ، وان فرقت الحرب بينهم . فقد هجا يزيـد بن عمرو بن الصَعِق الكِلابي ، باسلوبه الساخر الموجـع ، مناصراً الربيـع بن زياد العبسي . وكان يزيد قد اصاب من النوق العصافـير عنـد الربيع ، وهي عطايا ملك العراق ، فهـدّده الشاعر بالنعمان ، واتهمه بخيانتـــه بعدما

كان امينه . ولمّا تركت بنو عبس ديارهـا بعد يوم جفر الهباءة ، وذهبت متنقلة في البلاد ، فدعتها بنو عامر الى ارضها مكايدة للذبيانيين ، تألم الشاعر من رحيلها الى موطن الأعداء ، فمدح شجاعتها وأسف لانقطاع اخائها عن بني ذبيان ، فكأنه بشعره يمهّد للصلح بين القبيلتين المتحاربتين ، مخافـة ان يستفيد العامريون من الحلف الجديد فلا تصلح بعده غطفان . فقد كانت بنو عامر تبعث القلق في نفسه لشدة عداوتهـا ، ولما بينها وبين الغطفانيـين من حروب متوالية ، فعطف على بني عبس وضنّ بها على الغرباء . ومن يتتبـع شعره يلمس عنايته بمقاومة بني عامر وافساد سياستها التي ترمي الى إضعاف بني ذبيان وابعـاد حلفائها عنها ، وتمزيق الغطفانيين جملة ، فتقوى عليهم وتدرك ثاراتهـــا منهم . فسعت الى ضم بني عبس وهي قبيلة غطفانيـة معروفة بالشجاعة والاقدام ، وفيها مشاهـير الأبطال أمثال عنترة والربيع ابن زياد وعروة بن الورد وسواهم ، كما سعت قبلًا لدى حصن بن حُذيفة وعيينة ابنه بترك حلف بني أسد ، فرضي عيينـة وهمّ بقطعه ، فتعرّض له النابغـة مدافعاً عن بني اسد ، داعياً قومـه الى التمسك بمؤاخاتهم ، فطلبت بنو ذبيـان من بني عامر ان يخرجوا من فيهم من الحلفـاء ، فتصدّى زُرعة بن عمرو العامري للنابغة يهجوه ، فردّ عليـه وهدده بجيش بني اسـد واصفاً قوتهم ومنعتهم ليظهر له ان بني ذبيـــان لا يتخلون عن حلفهم :

نُبّئتُ زُرعةَ ، والسّفاهةُ كاَسمِها ، يُهـــدي إليَّ غرائبَ الأشعـارِ
أنسيتَ ، يومَ عُكاظَ ، حين لقيتَني ، تحتَ العَجاج ، فما شققتَ غُباري ؟

وقصائده في هجاء زُرعة تدلنا على مبلغ اهتمامه بسياسة قبيلته وتوجيـه

أغراضها ، فاستطاع ان يحمل قومه على الاحتفاظ باحلافهم ، فكانوا لهم أعواناً وأنصاراً في حرب السباق ، إذا ذكرتهم بنو ذبيان حامدة مشاهدهم ، فجدير بها ان تذكر شاعرها الذي نافح عنهم حتى لا ينقض العهد بينها وبينهم . وجدير بها ايضاً ان تذكر احسانه ونصائحه في قصور الغساسنة ، فقد كان الحارث الأصغر وولداه عمرو والنعمان يغيرون عليها ، يبطشون بها ، ويأسرون منها ، ويسبون نساءها ، لجرأتها على مراعيهم وهي قريبة من ديارها ؛ ثم لموالاتها ملوك العراق اعداءهم ، فكان النابغة ، بما له من الحظوة عندهم ، يكلم الملك في اسراها واسرى حلفائها بني اسد ليطلق سبيلهم ، ويحذرها من دخول المراعي وتربّعها ، مبيّناً لها عظمة الغساسنة وشدة بطشهم ، وما ينالها من الضيم والأذى اذا اغاروا عليها ، ولكنها ، لكبريائها وغطرسنها واعتدادها بصداقة المنادرة ، استهانت باقواله وعيرته خوفه النعمان الغساني ، عندما نهاها عن تربّع ذي أُقُر ، وهو وادٍ في بني مُرّة حماه الأمير لمواشيه وابله :

وعيَّرتني بنو ذُبيانَ خشيتَه ، وهل عليَّ بأن أخشاكَ من عارِ ؟

وقلنا ، في كلامنا على حياته ونسبه ، ان ابن الجُلاح ، قائد الغساسنة ، أطلق سبايا بني ذبيان اكراماً له ، بعدما اناخ بديارهم ، وشتت شملهم ، فمدحه الشاعر ذاكراً فضله ، مع انه لم يمدح غير الملوك كما يقول له ، وكأنه يمنّ عليه : « وكنت امرءاً لا أمدحُ ، الدهرَ ، سُوقةً » فانتفعت بنو ذبيان مراراً من دالة شاعرها على الغسانيين ورفيع مقامه عندهم ، وانتفع حلفاؤها معها ، بيد انها لم تتورع من حسده وانكاره وتعييره ، حتى تركت مجالاً للقول فيه : « هو احد الاشراف الذين غضّ الشعر منهم . » مع انه اخلص

لسياستها كل الاخلاص ، وناضل عنها خير نضال ، وقام بمهمته القبلية أفضل قيام .

شاعر القصور : بين الشام والعراق

إذا كان النابغة في شعره القبلي يشارك غيره من شعراء الجاهلية الذين نشطوا للدفاع عن قبائلهم وتأييد سياساتها ، فانه في مدح الملوك والتكسب منهم ، يستحق دون غيره ان يلقّب شاعر القصور لملازمته لها وحظوته فيها واختصاصه بها ، حتى انه لم يمدح غير أصحابها . ويدلنا شعره انه اتصل بالغساسنة قبل المناذرة ، وانه عرف الحارث بن ابي شَمِر الأصغر قبل ان يعرف النعمان أبا قابوس . ولا نعلم السبب الذي حمله على ترك الشام والذهاب الى العراق ، مع ما بين البلدين من الحروب والضغائن القديمة . وكان المنذر والد الحارث قد غزا الحيرة واحرقها سنة ٥٨٠ م ، وهي السنة التي تبوّأ فيها ابو قابوس عرشها . وانتقل ملك غسان الى الحارث في السنة التالية ، فاتصل النابغة به ، وذكر في شعره ما أولاه من النعم . ثم لا نلبث ان نجده عند النعمان أبي قابوس يمدحه ، وينادمه ، ويكثر ماله عنده ، حتى أصبح يأكل بصحاف من الفضة والذهب ، فهل كان يتردد وقتئذٍ بين الحيرة والجولان ، فيمدح هذا الأمير حيناً ، وذاك الأمير آخر ، فيستقبله الأميران ويسمعان شعره فيهما ، دون ان تثور عليه ثائرة أو يلحقه سخط منهما ؟

هذا ما يصعب الاطمئنان اليه لما نعلم ما بين العرشين من التنافس ، الا اذا كان الشاعر قد هجر الشام الى العراق لسخطة نجهلها لحقته من الحارث ، فأنزله النعمان في قصره ، كما انزله ، بعد ذلك ، عمرو بن الحارث عندما

سخط عليه ابو قابوس . وقد عرفنا ان سياسة المنـاذرة والغساسنة كانت تقضي بتقريب الشعراء ليمدحوهم ويشيدوا بعظماتهم في قبائل العرب البادية. وقد تكون صداقة بني ذبيان لملوك الحيرة واعتداءاتهم على مراعي الغسانيين القريبة من ديارهم سبباً لسخط الحارث ورضى أبي قابوس .

ومهما يكن من امر فان النابغة لزم قصر النعمان بالحيرة ، واسبغ عليه مدائحه ، حتى تغير له وتجهم ، فابتعد عنـه خائفاً منه وهرب الى الشام . ويجعل الرواة سبب مغادرته العراق قصيدة قالها في المتجردة زوج النعمان ، ويروون على ذلك انه كان ، ذات يوم ، عنـد الملك ، فدخلت المتجردة ، وعلى وجهها نصيف ، وهو الخمار او نصف الخمار ، وكانت نساء الأشراف تتقنع توقراً ، فسقط النصيف عن وجهها ، فسترته بيدها ، فغطّت يدُهـا وجهها لعبالتها ؛ فأعجب النعمـان بهذه الحركة اللطيفة ، وأمر الشاعر بان يصفها ، فأنشأ قصيدة يقول فيها :

سقَط النصيفُ، ولم تُرِدْ إسقاطَه ، فتناولتـه ، واتّقَتنا باليَــدِ

ووصف منها مواضع لا يليق ذكرهـا . وكان المُنخّل اليَشكُريُّ الشاعر من ندماء النعمان ، وكان يهوى المتجردة ، ويحسد النابغة على علو قدره عند الملك ، فغار من وصفه ، ووشى به الى النعمان ، حتى هاج غيرته فأظهر له الجفاء . وقيل ان الشاعر هجا النعمان بعد هربه بقوله :

حدّثوني بَني الشقيقةِ ! مـا يَمْـ نَعُ فَقْعاً بقَرْقَرٍ أنْ يَزُولا[1]

---

[1] بني الشقيقة : يريد بهم قوم النعمان . والشقيقة تجمع على شقائق وهي نبت احمر الزهر مبقّع بنقط سود . قيل ان النعمان مر بمكان قد انفرش فيه هذا الزهر فقال : ما احسن هذه الشقائق . وأمر بحمايتها فنسبت اليه وعرفت بشقائق النعمان . الفقع : الكمأة البيضاء الرخوة . القرقر : الأرض المنخفضة . ومن امثالهم : هو اذل من فقع بقرقر. ان يزول: ان يموت.

قَبَّحَ اللهُ ، ثمَّ ثَنّى بلَعْنٍ ، وارِثَ الصائغِ ، الجبانَ ، الجَهُولا[1]
مَنْ يَضُرُّ الأدنى ، ويَعْجِزُ عن ضَـ ـرِّ الأقاصي ، ومَن يَخُونُ الخَليلا
يَجْمَعُ الجيشَ ذا الألوف ، ويَغْزُو ، ثمَّ لا يَرزأُ العَـدُوَّ فَتيلا[2]

ولعلَّ هذه الأبيات هي التي نقلها بعض بني قُريع بن عوف الى النعمان ليوغروا صدره على الشاعر ، فرأيناه في قصائده الاعتذارية يجتهد في دفع التهمة عنه متنصّلاً من مقال نُسب اليه زوراً : «لقد نطقتْ بُطلاً عليَّ الأقارعُ» ويقول فيها :

أتاكَ امرؤٌ مُستبطِنٌ ليَ بِغضةً ، له من عدوٍّ ، مثلَ ذلك ، شافِعُ

فهل اراد بهذا العدو الذي اعان بني قريع عليه المنخّل اليشكُريّ حين اتهمه بالمتجردة عند النعمان ؟

ليس الأمر بعيد الاحتمال ، وان يكن خبر المنخّل مختلفاً فيه ، فصاحب الأغاني يزعم انه كان يهوى بنت عمرو بن هند ، وان ملك العراق قتله بسببها . ويروي بعضهم ان الشاعر لم ينشد قصيدته في المتجردة امام النعمان وانما انشدها مُرّة بن سعيد القريعيّ ، وكان مرّة يُبطن له البغض حسداً ، فانشدها النعمانَ ، فامتلأ غيظاً واوعد النابغة وتهدّده . على ان الرواية الأولى اشهر ، وشعر النابغة يلمع اليها وان كان الماعه من بعيد . وليس في اعتذارياته ما يشير الى قصيدته في المتجردة ، وانما هو يتبرأ من قول نُسب

---

١ وارث الصائغ : النعمان . وكانت امه سلمى ابنة صائغ في يثرب وقد مرّ ذكرها في اخبار عمرو بن كلثوم .

٢ يرزأه : يصيبه بما يصره . فتيلا : شيئاً بقدر الفتيل . يقول : هو يجمع الجيش الوفاً للغزو ولكنه لا يصيب من العدو شيئاً .

اليه ولم يقله ، وهذا ينطبق على ما اضيف اليـه من هجاء للملك ، خصوصا إذا صح انه انشد قصيدتـه في حضرة النعمان ، فلا سبيل له ، بعد ذلك ، الى انكارها والانتفاء منها .

عند الغساسنة

لم يسلم خبر اتصال الشاعر بالغسانيين من اختلاط في الروايات ، فقـد زعموا ان الشاعر نزل على عمرو بن الحارث الأصغر ، وظـل مقيماً عنده يمدحه حتى مـات وملك اخوه النعمان ، فانقطع اليه . وخالفهم في ذلـك الوزير ابو بكر البَطَلْيُوسيّ المتوفى سنة ٨٠٩ م و١٩٤ هـ . فقال في شرح ديوان الشاعر : « وكان النعمان بن الحارث حمى ذا أُقُر ، فاحتماه الناس ، وبنو ذبيـان تربّعوه فنهاهم النابغة وخوّفهم اغارة الملك ، فعيّروه خوفـه النعمان ، وكان منقطعاً اليه ، فلما مات النعمان رثاه وانقطع الى عمرو بن الحارث اخيه . »

ومعلوم ان النابغة لما هرب الى الشام نزل على عمرو بن الحارث ومدحه ببائيته المشهورة :

كِليني لهمٍّ ، يا أُميمةَ ، ناصبِ ، وليلٍ أُقاسيهِ ، بطيءِ الكواكبِ

فلو كان الملك للنعمان يومئذ لكان الاولى به ان يمدحه ، وهو لاجىء اليه ، قبل ان يمدح اخاه ، كما جرت عادة الشعراء ، وان يكن غير ممتنع ان يفد على عمرو اولاً فيمدحه متوسلاً به الى اخيه الملك النعمـان . فكلا الأمرين محتمل ، حتى ان المستشرق نولدكه ، في كتابـه امراء غسان ، لم يقطع بهذه المسألة ، فأجاز ان يكون النعمان ملك قبل أخيـه ، ثم ملك عمرو بعده ، ولكنـه يثبت رواية تقول ان المنذر لا عمراً تولى الامـارة

بعد النعمان ، وهي تؤيد زعم الذين يجعلون الملك لعمرو أولاً ، ثم للنعمان ثانياً ، ثم للمنذر ثالثاً ، وقد اتصل الشاعر بالاخوين ومدحهما ، ولم يحظَ عند الثالث فعاد الى النعمان ابي قابوس .

وقصائده التي مدح بها عمرو بن الحارث ، منها واحدة يذكر فيها تدويخه للعراق ، واخرى يحذر بها قبيلته من بطشه ، وأشهرها بائيته التي قالها عند قدومه اليه ، وهي من الطراز الأعلى في الشعر الجاهلي ، فقد اجتمع له فيها جمال التعبير ، وحسن التصوير ، وانطلاق النفس الشعري ، مع ما تشتمل عليه من مدح ديني قلما نجده عند الجاهليين ، على ميل ظاهر الى النصرانية حيث يقول :

مَجلّتُهُمْ ذاتُ الإلهِ ، ودِينُهُمْ قويمٌ ، فمَا يَرجُونَ غيرَ العواقبِ

ولا يبعد ان يكون النابغة قد تأثر بالعقيدة المسيحية في تطوافه بين العراق والشام ، ومخالطته النصارى وهم سكان هذين القطرين ، كما انه في انتسابه الى بني عُذرة ودفاعه عنها عند الغساسنة قد انتسب الى قبيلة معروفة بنصرانيتها في العصر الجاهلي .

وفي بائيته الحسناء من الفوائد التاريخية عن ملوك غسان شيء يُذكر ، فهي تعلمنا انهم كانوا يلبسون النعال الرقيقة ، والنعال الرقيقة لا تصلح للسير ، مما يدل على انهم كانوا لا يخرجون من دورهم إلا ممتطين صهوات جيادهم . وتعلمنا ايضاً انهم كانوا يباشرون الحفلات الدينية بأنفسهم ، فإذا جاء عيد الشعانين ساروا الى الكنيسة والولائد البيض تحييهم بالرياحين . وتطلعنا على شكل ألبستهم وألوانها ، وانهم كانوا يعلقونها على اعواد تسمى المشاجب كما تعلق اليوم ثيابنا .

ويسترعي انتباهنا انه لم يرثِ عمرو بن الحارث كما رثى النعمان ، فلو ان عمراً ملك ومات قبل النعمان ، كما تقول بعض الروايات ، لما تنكب عن رثائه ، اعترافاً بجميله ، وزُلفى الى أخيه من بعده ، الا إذا كان قد ضاع هذا الرثاء ولم تقع عليه الرواة .

وأما مدائحه للنعمان فأفضلها ما قاله في الدفاع عن قبيلتـه وحلفائها بني اسد وتخويفهم من غضب الأمير وتبته عليهم ، ووصف خيله وفرسانـه ، ووصف النساء في حالتَي الخوف والسبي ، فقد كان الشاعر في مدح الغساسنة كثير التدخل في سياستهم لخير قومه ، لما كانت عليه بنو ذبيان من التعرض لملوك الشام في الحروب والمراعي ، فوجّه مدائحه ، في كثرتها ، الى الذود عنها وعن أحلافها ، والى لومها وتحذيرها ، فلم يسلم من تعبيرها ، مع انـه لم يجبن عن لوم النعمـان عندما كسر جيشه في غزوة بني حُنّ ، وهم من عُذرة ، فأظهر له خطأه ، وانه كان ينبغي له ان يقبل النصيحة عندما ذكر له قوة عدوه ومنعتـه . فشعر النابغة في بني غسان تحركـه روح السياسة القبلية ، ويدلنا على مكانته الرفيعة عندهم .

وله في النعمان مدح يشبه الرثاء حين بلغه انه مريض وهو غائب عن بلاده . ولا يصح ان نجعله في عمه النعمان الأكبر ، لأن النابغة يرجو فيه رجوع الملك الى عرشه ، والنعمـان بن المنذر لم يبلغ أريكة الملـك لأن موريقيوس البيزنطي أسره سنة ٥٨٤ م ، وألحقه بأبيـه الذي أسر سنـة ٥٨١ ، ونفي بعدها الى صِقِلّية . فهـذا المدح الرثائي قيل في النعمان بن الحارث ، وللشاعر ما يشبهه في النعمان ابي قابوس عندما بلغه انه مريض ، مع انـه من المستنكر ان يرثى انسان قبـل موته ، ولو مُدنَفاً ، ونكاد نتهم ذوق صاحبـه وان تكن هذه الطريقة غير مستهجنة في عصره ،

مع قلة شيوعها في الشعر القديم .

ولما توفي النعمان الغساني رثاه النابغة بقصيدة من جيد شعره ذاكراً فيها فضله عليه ، معرباً عن حزن لا ينسى ، وكره للحياة بعده. وليس له مدح في المنذر اذا صح ان الملك انتقل اليه من بعده لا الى اخيه عمرو ، ولكن لدينا منه شعر يمدح به الغساسنة ، عند رحيله عنهم الى النعمان ابي قابوس ، يدلنا على انه فارقهم راضياً لا ساخطاً ، ويؤيد ذلك قوله فيهم معتذراً الى ملك الحيرة من ذهابه اليهم :

ملوكٌ واخوانٌ اذا ما أتيتُهم، أحكَّمُ في اموالهم وأُقرَّبُ

اعتذارياته

اشهر شعر النابغة في النعمان ابي قابوس قصائده الاعتذارية التي استرضاه بها ليستعيد مكانته لديه ، فهي من اروع كلامه فناً وابداعاً ، وارهفه حساً وشعوراً ، واكثره تصرفاً في الالفاظ والمعاني ، ولولاها لما كان لدينا من اقواله فيه ما يستحق الذكر ، وبها استطاع ان يرحض صدره من الغِلّ والحقد عليه . واختلفت الروايات في سبب الصلح بينهما ، فقيل ان النعمان اطلع على ما بين زوجه المتجردة والمنخّل اليشكري من علاقة فقتلهما . ثم كتب الى النابغة يقول : « انك لم تعتذر من سخطة، ان كانت بلغتك، وكنا تغيرنا لك عن شيء مما كنا لك عليه . ولقد كان في قومك ممتنع وحصن فتركته ، ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدّي ، وبيني وبينهم ما قد علمت . » فقدم اليه فوجده محمولاً على سرير يُنقل ما بين الغمر والحيرة[1] ، فخاطب

---

[1] الغمر : موضع . قال ابو عبيدة : كان الملك اذا مرض حملته الرجال على اكتافها ، ويقولون انه اوطأ له من الارض ، اي اسهل واكثر راحة .

حاجبه عصام بن شهبر او شهبرة بابيات مطلعها :

أَلَمْ أُقسِم عليك لتُخبرنّي ، أَمحمولٌ على النعشِ الهُمامُ ؟

وفي اعتذارياته قصيدة يذكر فيها همه لان النعمان مريض ، ويرثيه كأنه يتوقع موته . والظاهر انه قالها قبل ان يأتي الحيرة لانه يحلف فيها الاّ يرجع اليه مجرماً ، ولكنه لا يقطع الامل من جوده ، ويصف بسطة سلطانه كعادته فيقول انه سيمسك لسانه عنه ، وان كان بعيداً ممنعاً ، خوفاً من ان يقاد اليه مع نسوته ، ثم يرسل اليه التحية مشفوعة بالدعاء .

وحدث حسان بن ثابت أن النابغة قدم في جوار رجلين من فزارة لهما منزلة عند النعمان ، فرأى احدى قيان الملك ، فلقنها قصيدته التي اعتذر اليه فيها وهي :

يا دارَ مَيّةَ بالعَلياء فالسَنَدِ ، اقوَتْ وطال عليها سالف الامَدِ

فشرب النعمان ، فلما سكر غنته فيها ، فطربَ وقال : « هذا شعر عُلْويٌّ[١] ، هذا شعر ابي أمامة . » ورضي عنه .

ولا يستغرب ان يطلب الشفاعة برجلين من فزارة ، وهو يعلم ما لبني ذبيان من الحظوة عند ملك العراق . ونسمعه في احدى اعتذارياته يتبرأ مما نُسب اليه ، ويلتمس من النعمان ان يسأل عن امره بني ذبيان اذا كان قد ساء ظنه فيه .

وكان يهمه ان يتنصل من تهمتين ، احداهما يشتدّ في انكارها ، ويقسم الاقسام الكثيرة على البراءة منها ، وهي الكلام الذي نقله الوشاة الى الملك واضافوه اليه ، فألبسوه خيانة لم يقترفها :

---

١ علويّ : نسبة الى عالية نجد ، على خلاف القياس .

اتاكَ بقـولٍ لم أكنْ لأقولَهُ ، ولو كُبِّلتْ في ساعديّ الجَوامعُ[1]

والاخرى لا يستطيع ان يطمسها ، وهي ذهابه الى الغساسنة اعـداء المناذرة يمدحهم ويذكر انتصارهم يوم حليمة حين قتلوا المنذر جد النعمان سنة ٥٥٤ م :

تُوورِثْنَ من أزمانِ يومِ حليمـــةٍ ،
الى اليومِ ، قد جُرِّبْنَ كلَّ التجاربِ[2]

وسمعنا الملك يعاتبه بقوله : « ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدي ، وبيني وبينهم ما قد علمت . » فما عليه الا ان يُقِر بذنبه ، ويعمل لتخفيفه وازالة ما وقر في نفس النعمان من الحقد عليه . فصارحه بأن الغساسنة اخوان له يقربونه ويحكمونه في اموالهم ، فلا يعـد مذنباً اذا مدحهم ، كما ان الذين قربهم ابو قابوس واغدق لهم العطاء لم يذنبوا اذا مدحوه . وهذه الصراحة لا مهرب للشاعر منها ، ولكنه تمكن ، بفنه ودهائه ، ان يلطف وقعها في نفس النعمان ، فجعل الملوك دونه منزلة وفضيلة ، فهم الكواكب تغيب انوارها حين تطلع الشمس :

ألمْ ترَ انّ اللهَ أعطـاكَ سورةً ، ترى كلَّ مَلْكٍ دونهـا يتذبذبُ[3]
بأنكَ شمسٌ ، والملوكُ كواكب ، اذا طَلعتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكب

واذا حاول الاعتذار شرع في تهويل الخطب وعظم ما يقاسيه ، في الليل خصوصاً ، من الخوف والرعب لغضب الملك عليه ، فيصور نفسه قلق المضجع

١ الجوامع : الاغلال ، مفردها جامعة .
٢ توورثن : الضمير يعود الى سيوف الغساسنة .
٣ سورة : منزلة فضيلة . يتذبذب : يضطرب ويتردد .

لا يقرّ قراره، يبيت على الشوك مرة، ويواثبه الافاعي اخرى، حتى ضُرب المثل بلياليه، فقيل للخائف المذعور: «بات بليلة نابغية.» ويأخذ في تكذيب الوشاة مؤكداً براءته بالاقسام والدعاء على نفسه وعلى اولاده، ان صح ما اتهموه به من الغدر والخيانة. ويتخلل ذلك مبالغة في مدح النعمان وتعظيم سلطانه وامتداد سطوته، مظهراً خشوعه وعبوديته ونزوله على حكمه، راجياً منه العفو والرضى ورجوع النعمة اليه:

فإن أكُ مظلوماً، فعبدٌ ظلَمتَه، وإن تكُ ذا عُتبى، فمثلُكَ يُعتِبُ[1]

ولا يخفى ما في هذا الاسلوب من براعة الاسترضاء، وفهم لعقلية الملوك العتاة وكيف تكون المخاطبات في القصور، مع ان النابغة لم ينشأ عليها في قبيلته، ولا سمعها من ابناء قومه، ولكنه تثقف بها في مخالطته بطائن الامراء، فتعلم منهم كيف يخاطبون ويستعطفون ولاة الامور، ففقد شيئاً غير قليل من فطرة البدوي وكبريائه، ولذلك قيل: «غض الشعر منه.» وهذه الغضاضة شعرت بها قبيلته في ذهابه الى الغرباء يمدحهم ويشيد بمناقبهم، ويجاهر بخوفه منهم، فعيّرته مذلّتها وعيره الرواة ايضاً. سئل عمرو بن العلاء عن الشاعر ورجوعه الى النعمان: «امن مخافته امتدحه واتاه بعد هربه منه، ام لغير ذلك؟» فقال: «لا لعمر الله، لا لمخافته فعل، ان كان لآمناً من ان يوجه اليه جيشاً، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة. ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره[2].»

على ان النابغة لم يشعر بهذه الغضاضة التي ارتضاها مختاراً لا مكرهاً،

---

١ العتبى: الرضى. يُعتب: يعطي العتبى ويترك ما غضب لأجله.
٢ العصافير: نوق كرائم كانت للنعمان، والجمل العصفوري هو ذو السنامين.

واستاغتها ذهنيته الحضرية التي اختلفت عن ذهنيته البدوية ، فما ضرّه ان يمدح الملوك ويتعبّد لهم ما دام معزّزاً مكرماً لديهم ينهلّ عليه سيبهم ، ويأكل بصحاف من الفضة والذهب معهم ، يحجب كبار الشعراء كحسان ابن ثابت اذا وُجد عندهم ، ويتدخل في سياستهم حيث يرى المنفعة له او لقبيلته واحلافها ، وإليه يرجع قومه في خطوبهم وحوائجهم. وهو ، الى ذلك ، حَكم سوق عكاظ تُضرب له القبة الحمراء ، قبة السادات والأمراء . وإذا أقوى[1] في شعره لا يجرؤ احد أن يقول له : أقويت ! لمكانته الأدبية . ويروون على ذلك حادثة لا بأس بذكرها ، وهي ان النابغة قدم يثرب ، فأنشد الناس قصيدته التي وصف بها المتجردة ، وكان أقوى فيها ، فما تجاسر احد ان يقول له ، فأتوه بقينة ، فغنّت منها :

سقَطَ النَّصيفُ ،ولم تُرِدْ إسقاطَهُ ، فتناولَتْهُ ، واتَّقَتْنا باليدِ

بمُخضَّبٍ رخصٍ ، كأنَّ بنَانَه عَنَمٌ يكادُ من اللطافةِ يُعقدُ[2]

فمدت القينة صوتها باليد فصارت الكسرة ياء ، ومدت يعقد فصارت الضمة واواً ، فانتبه ولم يعد الى الاقواء . ويروى عنه قوله : « دخلت يثرب ، وفي شعري بعض العاهة ، فخرجت منها وأنا أشعر الناس . »

ومهما يكن من أمر هذه الرواية ، ولعلها موضوعة لتعظيم منزلة النابغة او لاظهار فضل يثرب عليه ، فانها لا تنافي الحقيقة في شاعر كان يحتكم اليه كبار الشعراء .

---

١ اقوى : خالف في حركة الرويّ .

٢ بمخضب : بيان لقوله : واتقتنا باليد . البنان : الأصابع ، واحدتها بنانة ، ويقال : بنان مخضب ، لأن كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء ، يوحّد ويذكر . العنم : شجر احمر لين الأغصان يشبه بثمره البنان المخضوب .

هل صدق النابغة في مدحه ؟

اكثر ما جاءنا من شعر النابغـة كان في مدح الملوك ورثائهم ، فأحياناً نجده في الحيرة يشيد بذكر المنـاذرة ، واحياناً في الجولان يتغنى بمناقب الغساسنة ، على ما بين ملوك الشام وملوك العراق من عداء وضغينة وحروب. فما تنكر له النعمـان بن المنذر حتى جفاه ويمم قصر الأمـير الغساني يمدحه ويطري آباءه وعشيرته ؛ ثم ما كاد يأنس برضى الملك العراقي حتى انقطع عن الغساسنة وجاء الحيرة يتودد النعمان مادحاً معتذراً متخشعاً ، وعاد يتمتع بعطاياه وعصافيره .

وما كان ، لولا حبه المال ، ليخشى ان يناله النعمان بسوء ، وقبيلته لا تسلمه دون ان ترد عنه ، ولقد كان له في قصور الغساسنة حمى مصون لا تمتد اليه يمين ملك العراق . ولكن هـذا الشاعر المتكسب لم يجد غضاضة عليه ولا على الشعر في ان يذل نفسه متكففاً ، متنقلاً من أمير الى أمير .

وشاعر مثله يصطنع المدح من اجل المال ، ويزفه الى كل أمـير يتصل به ، لا يرجى منه ان يكون صادق المودة مخلص الوفاء ، لأنه لا يهمه أمر من يمدحهم بقدر ما يهمه العطاء الذي يتوقعـه منهم ، ولا يشجوه ان يتخلى عن الواحد منهم اذا رأى الخير اسخى عند الآخر. وهذا طبيعي في الانسان حين تكون المنفعة المادية أساس الصداقة ، ولا رابط غيرها بين الأصحاب ، فالاخلاص ، في مثل هذه الحال ، عرض طارىء يبقى ببقاء المنفعة ويذهب بذهابها .

واذا قلنا ان النابغـة كان على شيء من الاخلاص لممدوحيه في حـال اتصاله بهم ، فيصعب علينا القول بصدقه في تصوير مخاوفه ولياليه المشؤومة

في اعتذارياته الى الملك النعمان ، فانه لم يكن يخشى شره في قلب عشيرته أو في قصور أمراء الشام .

على اننا ، وان كنا نشك في صدق النابغة ، لا يسعنا الا الاعتراف بانه أجاد مدح النعمان والاعتذار اليه ، كما أجاد مدح الغساسنة ووصف شمائلهم وعاداتهم . فكيف تتم الاجادة للشاعر في غرض يقصده دون ان تحركه اليه عاطفة الصدق والاخلاص ، وهل لهذه العاطفة التي نحكّمها في الشعر من تأثير صحيح في جودة الفن ومنحه عنصر الجمال ؟

قد تكون العاطفة محبوبة لدلالتها على ذاتية الشاعر ونزعات نفسه الى شخص او شيء يتعشقه ويميل اليه ، ولكننا لا نراها عنصراً ضرورياً للشعر فان بوسعه ان يستغني عنها ولا يخسر شيئاً من جماله وتأثيره . فان الصدق في الفن لا يقوم على عاطفة الحب والاخلاص للشخص ليحسن الشاعر مدحه ووصفه ، ولا يُشترط على الشاعر ان يكون عاشقاً ملتاع النفس ، متدفق العاطفة ليجيد الغزل وذكر آلام المحب وشجونه . ولا يُطلب منه ان يكون فارساً مغواراً يخوض الحروب ويشهد المعارك ليبدع في وصف المعامع والتحام الأبطال . ولو كان شرطاً على الشاعر ان يضع شخصيته الصادقة في كل غرض من أغراضه ، فنبحث عن عاطفة الاخلاص الذاتي في كل مدح او غزل او حماسة ، او غير ذلك ، لتعذر علينا ان ندرك سبب الجمال في الشعر الذي لا ينطوي على حقيقة قائله ، ولوقفنا حائرين أمام الروائع الأدبية الخالدة : ملاحم ومسرحيات ، بما فيها من تضارب العواطف والأهواء ، واختلاف المشاهد والمواقف ، بحيث لو نظرنا الى الياذة هوميروس لرأيناه يجيد وصف الأبطال سواء كانوا من اليونان كأخيل ، أو من الطرواد

كهكتور ، ويبدع في الغزل والنسيب ، وفي وداع هكتور لأندروماك ، كما يبدع في تصوير المعارك وزحف الجيوش ، ووصف الخيول والعُدد دون ان يكون له صلة شخصية بشيء من هذه الأشياء وانما شاعريته الخصبة تولّت خَلق هؤلاء الأشخاص وتعهدتهم بمختلف الاهواء والشواعر . وهكذا يصح القول في سائر الملاحم ، وفي بدائع المآسي والفواجع التمثيلية .

فالشاعر ، اذاً ، هو الذي يخلق عالمه ويعيش معه دون ان يكون لهذا العالم حقيقة واقعة . فالأدب الصادق لا يوجب التعبير عن حقيقة تاريخية ، ولا ذكر واقعة لها علاقة بذاتية الشاعر ، وانما الصدق في الأدب هو الشعور الفني الذي يحسه الشاعر او الأديب فيتحرّك قلبه ، ويتصوره فيثور خياله ، ويفكر فيه فيفيض عقله ، فتأتلف عنده هذه الادراكات الثلاثة ائتلافاً موسيقياً يبدع له دنيا غير الدنيا التي يعيش فيها ، وأشخاصاً غير الأشخاص الذين يألفهم في حياته العادية . فاذا تحدث عن دنياه واشخاصه ، فإنما هو يتحدث صادقاً مخلصاً عن اشياء احسها كل الاحساس حتى اصبحت قطعة من نفسه الفنية ، سواء كانت هذه الأشياء قريبة اليه في حياته المألوفة او غريبة عنه .

وهكذا شأن النابغة في مدحه الغساسنة والمناذرة ، وفي اعتذارياته وتصوير لياليه الخائفة ، فانه وان لم يكن صادقاً كل الصدق في حبه لملوك الشام والعراق ، وكان كاذباً كل الكذب في ذكر مخاوفه ولياليه ، فهذا يعود الى النقد التاريخي ولا شأن للنقد الأدبي فيه ، ما دام الشاعر استطاع ان يعطينا أدباً صادق الشعور والفن ، وهذا كل ما يُطلب منه .

لم تكن القصة في الشعر الجاهلي غاية يتطلبها الشاعر ، أو فنّاً مستقلاً يبني عليه قصيدته ، وانما كانت واسطة يعتمدها في مختلف اغراضه عندما تدفعه الحاجة اليها فيسرد خبراً ، او يورد اسطورة ولا يتعدى في ذلك كله بضعة أبيات قلما اتسعت لتفصيل الخبر ، وتصوير الأشخاص .

والنابغة لا يفترق عن غيره من شعراء الجاهلية في النظر الى القصة ، وطريق الاستفادة منها ، والاقتصار على موجزها . الا انه عُرفت له فيها خصائص واهداف لم تُعرف لغيره من قبل ، فانفرد بها اسلوبه القصصي ، وكان له منها طابع خاص .

ومن الأساليب المألوفة في الشعر الجاهلي ان شاعرهم اذا وصف شيئاً وشبهه بآخر ، ترك الموصوف وانصرف الى المشبه به يوسعه نعتاً وتصويراً من الناحية التي تجمع بينه وبين الموصوف ، حتى اذا اخرج له صورة جلية تتمثل بها تلك الناحية التي ينظر اليها ، رضيت نفسه ، واقتنعت بأنها ادركت الغاية من ذكر الموصوف في عنايتها باظهار مشابه وتبليغ وجه الشبه المشترك بينهما .

والشعر القديم يشتمل على امثلة كثيرة من هذه الاستطرادات الوصفية والقصصية لا يند عنها شاعر من شعرائهم ، ولا سيما وصف ناقته التي تفرج كربه وتوصله الى من يحب ، فانه يجعل همه في اظهار سرعتها ونشاطها ، فيشبهها بالثور او الحمار الوحشي ، مبالغاً في ذكر قوته ومضائه ، فيقص خبر العَير يدفع الاتان أمامه ويسوقها سوقاً عنيفاً ليعتزل بها عن كل طالب ومزاحم ، كما فعل عير امرىء القيس ولبيد . او يذكر خبر ثور اضاع

حلائله فجد في طلبهنّ حتى ادركه الليل فلجأ الى ارطاة وبات عندها كما لجأ ثور امرىء القيس ، فلما طلع الصباح أطل عليه الصيادون بكلابهم ، فأجفل وانقض مذعوراً يطلب النجاة ، فتناله الكلاب بعد لأي ، وربما فاتها ونجا منها كما نجا ثور المثقّب العبدي .

فهذه السرعة وهذا النشاط اللذان يبدوان من الحمار والثور هما كل ما يريد ان يخبر عنه الشاعر الجاهلي ليبين ان ناقته نشيطة سريعة مثلهما .

والنابغة في هذه التشابيه القصصية لم يبتعد عن امرىء القيس والمثقب العبدي وسواهما من الشعراء الذين تقدموه ، بل سار على خطتهم ، فشبّه ناقته بالثور ، غير انه زاد على من تقدمه وصف العراك الذي حدث بين الثور والكلاب المتلاحقة به ، وكيف ارتد اليها يطعنها بقرنه فيرديها واحداً بعد آخر ، فكان ذلك ابلغ في اظهار قوته ونشاطه .

ويصور قرن الثور في قصيدة اخرى نافذاً من جنب الكلب تصويراً ماديّاً كثيفاً ، اذ شبّهه ، في حال خروجه محمراً ، بسفّود انتظم عليه اللحم وتُرك عند الموقد :

كأنه ، خارجاً من جَنبِ صفحتِه ، سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوه عند مُفتَأَدِ [1]

ولمّا رأى الكلبُ الآخر ما حلّ برفيقه نصحته نفسه بالهرب ، فولى ناجياً :

قالت له النفس : اني لا أرى طمعاً ، وانّ مولاكَ لم يَسْلَمْ ولم يَصِدِ [2]

---

١ السفود : حديدة يشوى بها اللحم . الشرب : القوم يشربون . المفتأد : مكان الفأد ، اي شيّ اللحم .

٢ مولاك : ابن عمك اي الكلب المقتول .

وذكر المعركة كما يصفها النابغة نجده بعده في معلقة لبيد ، ولاميّة عبدة بن الطبيب ، وعينية ابي ذويب الهُذَلي ، وملحمة الأخطل التغلبي ، فهم بلا ريب متأثرون ُخطاه ، ولاسيما الأخطل الذي اخذ تعابيره واتجاهاته، وواطأه في البحر والقافية .

ويشتمل الشعر الجاهلي على كثير من الأساطير والأخبار مما كانوا يتناقلونه عن غيرهم من الشعوب او مما نشأ في ارضهم ووجد غذاءه في مجتمعهم. وكان للنابغة قسط منها يرويها في شعره ولكنه لم ينظمها لمجرد روايتها والاخبار عنها ، بل كان له هدف يرمي اليه فيتخذ القصة وسيلة لبلوغ مراده. فانه عندما اراد ان يدعو النعمان في اعتذاره اليه ان لا يصدق اقوال الوشاة ، وان يكون صادق النظر في الحكم عليه ، اعتمد اسطورة زرقاء اليمامة التي اشتهرت بحدة نظرها ، حتى زعموا انها كانت تبصر الاشياء على مسافة ثلاثة ايام . والاسطورة ، كما تروى ، هي انه كان للزرقاء قطاة ، فمر بها يوماً سرب من القطا بين جبلين ، فقالت : ليت هذا الحمام لي ، ونصفه الى حمامتي ، فتم لي مائة . وارادت بالحمام القطا . واتفق ان وقع الحمام في شبكة صائد فعرف عدده فاذا هو كما قالت ، ست وستون قطاة .

فهذا الصدق في النظر هو الهدف الذي اراده النابغة ، ودعا النعمان الى مثله ، وان يكن نظر النعمان مرجعه العقل ، ونظر الزرقاء مرجعه البصر، فانما الصدق هو الجامع بين النظرين .

وكذلك اسطورة الحية والاخوين فان هدفه فيها ان يبين لقومه ان الثقة المتبادلة انقطعت بينه وبينهم كما انقطعت بين الحية وأحد الاخوين . وكان

بعض قومه قد اجتمعوا عليه وراموا خذله ، كما عرفنا ، واسطورة الحية تروي ان اخوين خربت بلادهما ، وكانا قريبين من واد فيه حية ، فهبط احدهما ورعى فيه ابله زمناً ، ثم ان الحية نهشته فقتلته. فكره اخوه الحياة من بعده ، وطلب الحية ليقتلها ، فلما لقيها اظهرت له الندامة ، وعرضت عليه الصلح معاهدة اياه ان تدعه آمناً في هذا الوادي ، وان تدفع له دية القتيل كل يوم ديناراً ، فعاهدها وحلف لها وحلفت له ، واخذت تعطيه كل يوم الدينار المتفق عليه حتى كثر ماله . وقيل كانت تأتيه يوماً وتغيب يومين ، ولهذا يقول النابغة :

فواثَقَها باللهِ حينَ تراضَيا ، فكانت تَدِيه المالَ غِبّاً وظاهِره[1]

ثم قال : كيف ينفعني هذا العيش وانا أرى قاتل أخي؟ فعمد الى فأس فأحدّها وكمن للحية ، فلما مرت به ضربها بالفأس فجرحها ولم يقتلها ، فدخلت جحرها وقطعت عنه الدينار. ثم ارادها على الصلح فقالت : كيف اعاودك واثر فأسك وقبر اخيك يأبيان عليّ ان اثق بك ، وانت فاجر لا تبالي العهد :

أبى ليَ قبرٌ لا يزالُ مُقابِلي ، وضربةُ فأسٍ ، فوق رأسيَ فاقِرَهْ

فكانت القصة من الطوابع التي يتميز بها اسلوب النابغة بما فيها من الخصائص والاهداف سواء جاءت بطريق التشبيه كقصة الثور الوحشي ، او بطريق المثل كأسطورة زرقاء اليمامة واسطورة الحية . ويمكننا ان نعدّ الاخيرة سابقة حسنة في الأدب العربي للأساطير الخلقية على ألسن الحيوان التي لم يعرفها العرب بكثرة إلا بعد ظهور كليلة ودمنة لابن المقفع .

---

١ تديه : تؤدي له دية القتيل .

منزلته

هو في طليعة شعراء الطبقة الاولى . عدّه ابن سلام بعد امرىء القيس ، وقبل زهير والأعشى ، وقد كثر الخلاف في أيهم أشعر . قال ابن سلام : « قال من احتج للنابغة : كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، كأنّ شعره كلام ليس فيه تكلف . » وشهد له عمر بن الخطاب ، وعبد الملك بن مروان ، وابو الاسوَد الدُّؤلي ، وحمّاد الراوية ، والاخطل ، وجرير ، فقالوا : انه اشعر العرب[1]. وشهد حسان بن ثابت يوم رجوعه الى النعمان فكان يقول : « فحسدته على ثلاث لا ادري على ايتهن كنت له اشدّ حسداً : على ادناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له واصغائه اليه ، ام على جودة شعره ، ام على مائة بعير من عصافيره امر له بها ؟» وكان الأصمعي يقول : أوس (ابن حجَر) اشعر من زهير ولكن النابغة طأطأ منه .

وجماع القول ان منزلة النابغة في الشعر ساميه المقام عزيزة المنال ، فهو شاعر الملوك ، وحَكَم سوق عكاظ ، ونابغة الشعراء ...

---

١ كان الأقدمون يفضلون الشاعر على غيره ببيت او اكثر ثم يفضلون غيره عليه ببيت او اكثر . فلا نعجب لقول عمر بن الخطاب : ان النابغة أشعر العرب ، وقد حكم لزهير بذلك .

الاعشى الاكبر*

٦٢٩ م – ٧ هـ ؟

حياته : نسبه . عند المحلق الكلابي . عند شريح بن السموأل . حمره في الاسلام ، ومدحه الرسول . تاريخ وفاته .

آثاره : ديوان فيه شعر كثير . اشهره لاميتان تعدان من المعلقات . نظم في المدح ، والهجاء ، ووصف الخمر ، والغزل .

ميزته : الشعر الخمري . وصف الخمرة للخمرة لا للتفاخر بشربها . يصف النديم والساقي ، والقَينة وعودها . يصور حالة السكارى . صاحب لهو وعبث . السهولة والانسجام ، ووضوح المعنى . منزلته . اقوال القدماء فيه . الاعشى في الجاهلية كالحسن في الاسلام .

حياته

هو مَيْمون بن قيس بن جَنْدَل ، ينتهي نسبه الى بكر بن وائل من ربيعة ، لقّب بالاعشى لسوء بصره ، وكُنّي بأبي بصير تفاؤلاً بالشفاء ، او لنفاذ بصيرته . وسُمّي صنّاجة[1] العرب لانه كان يتغنى بشعره . وكان يقال لأبيه : « قتيل الجوع » وذلك انه كان في جبل ، فدخل غاراً ليستظل فيه من الحر ، فوقعت صخرة من الجبل فسدت الغار ، فمات فيه جوعاً . وفيه يقول جِهنّام واسمه عمرو ، وكان يتهاجى هو والأعشى :

أبوكَ قتيلُ الجوعِ قيسُ بن جَندلٍ وخالُكَ عبدٌ من خُماعةَ راضِعُ[2]

---

* الاعشى : الاعمى او من ساء بصره فلا يبصر ليلا . ووُصف بالاكبر تمييزاً له عن غيره من الشعراء الذين عُرفوا بهذا اللقب .

١ الصنّاجة : صاحب الصنج وهو آلة الطرب . والتاء هنا للمبالغة لا للتأنيث .

٢ خماعة : اسم قبيلة . راضع : لئيم .

والاعشى من أهل اليمامة ، من قرية تسمى « منفوحة » ولكنها لم تكن قراراً له ، بل كان ينتجع بشعره اقاصي البلاد سائلا متكسباً . قيل انه وفد على ملوك فارس ، وسمعه كسرى مرة ينشد :

أرِقتُ وما هذا السُّهاد المؤرِّقُ ؟ وما بيَ من همٍّ وما بيَ مَعشَقُ

فقال : « ما يقول هذا العربي ؟ » قالوا : « يتغنى بالعربية . » قال : « فسروا قوله . » قالوا : « زعم انه سهر من غير مرض ولا عشق . » قال : « فهذا اذاً لصٌّ . »

وهذا البيت مطلع قصيدة مدح بها رجلا من بني كلاب يقال له المحلّق[1]، وللمحلق قصة فكهه استغلها الرواة ، ففننوا فيها ما شاؤوا . واليكها :

عند المحلق الكلابي

كان الاعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنه ، وكان المُحلّق الكلابي مئناثاً[2] مُملِقاً[3]، فقالت له امرأته : « ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر، فما رأيت احداً اقتطعه الى نفسه الا اكسبه خيراً . » قال : « ويحك ما عندي الا ناقتي . » قالت : « الله يخلفها عليك . » فتلقاه قبل ان يسبقه اليه احد، وابنه يقوده ، فأخذ الخطام[4] فقال الاعشى : « مَن هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟ » قال : « المحلق . » قال : « شريف كريم . » ثم سلمه اليه، فأناخه ، فنحر له

---

١ المحلّق : سمي المحلق لأن فرسه عضته في خده فتركت به اثراً على شكل الحلقة .
٢ المئناث : كثير البنات .
٣ مملقاً : فقيراً .
٤ خطام الناقة : زمامها .

ناقته وكشط[١] له عن سنامها[٢] وكبدها ثم سقاه خمراً ، واحاطت به بنـاته يخدمنه ويمسحنه[٣]. فقال : « ما هذه الجواري حولي ؟ » فقال : «بنات اخيك وهنّ ثمانٍ . » فلما رحل من عنده، ووافى سوق عكاظ، جعل ينشد قصيدته في مدحه . فسلّم عليـه المحلّق ؛ فقال له الاعشى : « مرحباً يا سيدي ! بسيد قومه . » ونادى : « يا معاشر العرب ! هل فيكم مذكار[٤] يزوّج ابنه الى الشريف الكريم ؟ » فما قام من مقعده وفيهنّ محطوبة[٥] الا وقد زوّجها.

ورواها النّوفَلي على شكل اغرب . فزعم ان ابا المحلق رجل شريف اتلف ماله ، ولم يترك لابنه المحلق وبناته الثلاث غير ناقة وحُلّتَي برود[٦] . فأقبل الاعشى من بعض اسفاره يريد اليامه ، فنزل المـاء الذي به المحلق ، فقراه[٧] اهل الماء . فألحت عمة المحلق على ابن اخيها ان يرسل اليـه الناقة والبردين ، وزقّ خمر يستقرضه من بعض التجـار ، ثم نطقت بتلك الجملة المأثورة التي سنسمعها بعد قليل من الاعشى : « والله لئن اعتلج[٨] الكَبِـدُ والسَّنامُ والخمرُ في جوفه ونظر الى عِطْفَيْهِ[٩]، ليقولنّ فيك شعراً يرفعك به .» فرضي المحلق بعد امتناع وجدال، ووجّه بالناقة والخمر والبردين مع

---

١ كشط : اي ازال الجلد ورفعه .
٢ السنام : الحدبة .
٣ يمسحنه : يدهنّه بالطيب .
٤ المذكار : من يلد الذكور .
٥ محطوبة : اي تصلح للخطبة .
٦ الحلة : الثوب الجديد . البرود ، جمع بُرْد : ثوب مخطط .
٧ قراه : اضافه .
٨ اعتلج : تضارب .
٩ عطفيه : جانبيه .

مولى[1] لابيه ، وكان الاعشى قد ارتحل، فخرج المولى يتبعه من بلد الى بلد حتى صار الى منزله في منفوحة، فوجد عنده عدة من الفتيان قد غدّاهم بغير لحم، وصب لهم فضيخاً[2]. فلما أُخبر بقدومه، وبما معه قال : « ويحكم ، اعرابيّ! والذي ارسل اليّ لا قَدر له . والله لئن اعتلج الكبدُ والسنام والخمر في جوفي لأقولنّ فيه شعراً لم اقل قط مثله . » ثم نحروا الناقة، وشقوا خاصرتها عن كبدها ، وجلدها عن سنامها ، وأقبلوا يشوون ، وصبوا الخمر فشربوا، وأكل الاعشى وشرب معهم، ولبس البردين ونظر الى عطفيه فيهما ، وأنشأ يمدح المحلق . فسار الشعر وداع في العرب ، فما اتت سنة حتى زوّج المحلق اخواته الثلاث ، كل واحدة على مائة ناقة ، فأيسر وشَرُف .

ولم يكتف الرواة بخبر المحلق وما فيه من إغراب ، بل اضافوا الى الاعشى مبرّة ثانية في تزويج العوانس[3] ، فزعموا : « ان امرأة جاءت اليه فقالت : « انّ لي بناتٍ قد كسدن ، فشبِّب[4] بواحدة منهن لعلها تنفق. » فشبب بواحدة منهن ، فما شعر الا بجَزور[5] قد بُعث به اليه . فقال : « ما هذا؟ » قالوا : « زُوّجت فلانة . » فشبب بالاخرى ، فاتاه مثل ذلك ، فسأل عنها فقيل : « زُوّجت . » فما زال يشبب بواحدة فواحدة حتى زُوّجن جميعاً . »

على ان هذا الاغراب في سرد الروايات ، وهذه الكثرة في التزويج ،

---

١ المولى : هنا العبد .

٢ الفضيخ : اللبن يخلط بالماء حتى يغلبه فيرق .

٣ العوانس ، جمع عانس : وهي البنت اذا طال مكثها في دار اهلها بعد ادراكها ولم تتزوج.

٤ شبِّب : تغزل بالمرأة ووصفها .

٥ الجَزور : ما يذبح من الشاء والابل، واحدتها جَزْرة ، وتؤنث ، فيقال : نُحرت الجَزور.

لا يمنعان ان يكون لقصة المحلق وبناته او اخواته بعض الصحة ، فالقصيدة التي مدحه بها الاعشى من جيد الشعر ، ولم يشك احد في نسبتها اليه .

عند شريح بن السموأل

وكان الاعشى خبيث اللسان يحسن الهجاء كما يحسن المدح ، فهجا مرة رجلًا من بني كلبْ فقال :

بنو الشهرِ الحرامِ ، فلستَ منهم ، ولستَ من الكرامِ بني عُبيدِ ،
ولا من رهطِ جبّارِ بنِ قُرطٍ ، ولا من رهطِ حارثةَ بنِ زيد

وهؤلاء كلهم من بني كلب . فقال الكلبي : « لا ابا لك ! انا اشرف من هؤلاء . » وقد سبّه الناس بهجاء الاعشى اياه .

واتفق ان الكلبي اغار على قوم قد بات فيهم الاعشى ، فأسر منهم نفراً ، واسر الاعشى وهو لا يعرفه . ثم جاء حتى نزل بشُريح بن السموأل بن عادياء اليهودي صاحب تيماء بحصنه الأبلق ، فمرّ شُريح بالاسرى فعرف الاعشى ، فقال للكلبي : « ما ترجو بهذا الشيخ ولا فداء له ، فهبه لي . » فوهبه له . فأخذه شريح فأطعمه وسقاه ، فلما أخذ منه الشراب سمعه يترنم بهجاء الكلبي ، فأراد استرجاعه ، فقال الاعشى قصيدة يذكره فيها بوفاء ابيه السموأل واختياره قتل ابنه على الغدر بجاره امرىء القيس وتسليم دروعه . فأعطاه شريح ناقة فركبها ومضى من ساعته ، ثم عرف الكلبي حقيقة امره فارسل في اثره فلم يلحقه .

الاعشى في الاسلام

يجمع الرواة على ان الاعشى ادرك الاسلام ولكنه لم يُسلم . ويضيف اليه بعضهم قصيدة مدح بها النبي محمداً لما وفد عليه . غير ان قريشاً حالوا

دون وصوله الى الرسول ، فرصدوه على طريقه ، وكان فيهم ابو سُفيان بن حَرب. وقالوا : « هذا صنّاجة العرب، وما مدح احداً قط الا رفع قدره . » فلما ورد عليهم قالوا : « اين اردت يا ابا بصير ؟ » قال : « اردت صاحبكم هذا لأسلم . » قالوا : « ينهاك عن خلال ويحرّمها عليك وكلها موافق لك. » قال : « وما هي ؟ » قالوا : « القمار والربا والخمر . » قال : « أما القمار فلعلّي إن لقيته أن أُصيب منه عوضاً من القمار؛ واما الربا فما دِنْتُ ولا ادّنت ؛ واما الخمر ، أوّه ! فأرجع الى صُبابة قد بقيت في المهراس[1] فأشربها . » فقال ابو سفيان : « هل لك في خير مما هممت به ؟ » فقال : « وما هو ؟ » قال : « نحن الآن وهو في هِدنة ، فتأخذ مائة من الابل وترجع الى بلدك سنتك هذه وتنظر ما يصير اليه أمرنا ، فان ظهرنا عليه كنت قد اخذت خلفاً ، وان ظهر علينا اتيتَه . » فقال : « ما اكره ذلك . » فجمعت له قريش مائة من الابل ، فأخذها وانطلق الى بلده ، فلما كان قريباً من قريته منفوحة باليمامة رمى به بعيره فقتله .

ولكن لا ندري مبلغ هذه الرواية من الصحة ، فالتفنن القصصي ظاهر عليها ، زد على ذلك ان القصيدة التي يزعمون ان الاعشى مدح بها الرسول ، لا يمكن الاطمئنان اليها ، وحسبك ان تقرأ منها هذه الابيات ، حتى تتيقن ما فيها من تكلف واصطناع :

أَجِدّكَ لم تَسمعْ وصاة محمّدٍ ، نَبيّ الاِلهِ ، حين أَوصى وأَشهَدا؟[2]

---

١ الصبابة : بقية الشراب . المهراس : حجر منقور مستطيل كالهاون .

٢ أجدّك : أبجدٍّ منك . وهو منصوب على نزع الخافض ، او على انه مفعول مطلق والتقدير أجدّاً منك . والجِد : ضد الهزل . وَصاة : وصية . أشهَد : جعله شاهداً له ، أي أشهدَ اللهَ . وفي البيت معاظلة او تضمين وهو ان تتعلق قافية البيت بما بعده .

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التُّقى، ولاقيتَ بعدَ الموت مَن قد تزوّدا

ندمتَ على أنْ لا تكون كمثلِه، فترصِدَ للأمرِ الذي كان أرصَدا[1]

فإيّاكَ والمَيتاتِ، لا تقرَبَنّها، ولا تأخُذَنْ سهماً حديداً لتُقصِدا[2]

وذا النُّصُبِ المنصوبِ لا تَنسُكنَّه، ولا تعبُدِ الأوثانَ، واللهَ فاعبُدا[3]

ولا تقرَبَنْ حرّةً، كان سِرُّها عليكَ حراماً، فانكِحَنْ او تأبّدا[4]

وذا الرَّحِمِ القُربى فلا تقطَعَنّه، لِعاقبةٍ، ولا الأسيرَ المُقيَّدا[5]

وسبِّح على حينِ العَشيّاتِ والضُّحى، ولا تحمَدِ المُثرينَ، واللهَ فاحمَدا

ولا تسخَرَنْ من بائِسٍ ذي ضرارةٍ، ولا تحسَبَنَّ المالَ للمرءِ مُخلِدا[6]

---

١ ارصد للامر : اعدّ له العدّة . الذي : معمول ترصد . ومعمول أرصَد محذوف دلّ عليه ما قبله .

٢ المَيْتات ، جمع ميتة : وهي من الحيوان ما مات حتف انفه . يشير بذلك الى الآية التي تحرّم أكل الميتة على المسلمين . السهم : النبلة. الحديد : الحاد . لتقصد : لترمي به وتقتل . يشير الى تحريم القتل .

٣ النصب : الصنم . المنصوب : المرفوع . لا تنسكنّه : لا تعبدنّه . يشير الى تحريم عبادة الأنصاب . وفي الآية : « انما الخمرُ والميْسِر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِن عملِ الشّيطانِ فاجتنبوه . » والانصاب : جمع نُصُب . وقوله : فاعبُدا : اي فاعبُدَنْ ، فقلب نون التوكيد الفاً في حال الوقف .

٤ حرة : اي امرأة حرة . سرُّها : زواجها . فانكحَن : تزوّجَن حلالاً . تأبدا : عش عزباً . وقوله : تأبدا ، اي تأبدَن .

٥ ذا الرحِم القربى : اي صاحب القرابة القريبة. والقربى : مؤنث الأقرب . وقرابة الرحم عند اهل الفرائض هي ما كان صاحبها ليس بذي نصيب مقدّر من الإرث ، ولا عَصَبة كابن الاخت وبنت الأخت . والعصبة : بنو الرجل وقرابته لابيه . لا تقطعنّه : لا تعقّه وتهجره . العاقبة : النسل والولد، اي لا تهجر ذوي الرحم القريبة لاجل ولدك . وقوله : ولا الاسير المقيد ، اي ولا تقتل الاسير .

٦ ولا تسخرن : ولا تهزأن . الضرارة : ذهاب البصر ، ومنه الضرير اي الاعمى .

فما قولك ببدوي يأتي من اطراف اليامة الى الحجاز ، ليرى الرسول وينتحل الدين الجديد، فيلقاه المشركون من قريش، فيردونه بمائة من الابل، ويقولون له : « ينهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وكلها لك موافق . » فيقول: « وما هي ؟ » يسألهم عنها لانه يجهلها ، ثم نسمعه يمدح الرسول بهذا الشعر ، فاذا هو عارف بحقائق الدين الاسلامي ، يحفظ القرآن وما سمع تلاوته ، ويستشهد بآياته وما فيها من تحريم وتحليل ، وشرع وفروض . أفلا ترى في ذلك كله اثراً واضحاً للتكلف والاصطناع ؟

وقد أرّخ الرواة موت الاعشى في السنة السابعة للهجرة اي في سنة ٦٢٩ م. استناداً الى قول ابي سفيان : « نحن الآن وهو في هدنة » فاستنتجوا من ذلك انها هدنة الحُدَيبية[١] بين صاحب الشريعة الاسلامية ومشركي قريش.

على اننا ، وان كنا نشك في صحة القصيدة التي اضيفت الى الاعشى في مدح الرسول، لا نبيح لانفسنا انكار رواية ادراكه الاسلام ، اذ ليس لدينا ادلة كافية تدحضها ، فنحن نقبلها باحتياط كما قبلنا غيرها ، ونؤرخ ، على ارتياب ، وفاة الشاعر في السنة السابعة للهجرة استناداً الى اقوال الرواة .

آثاره

للاعشى شعر كثير مجموع في ديوان، اشهره لاميتان طويلتان، كلتاهما تُعدُّ من المعلقات . وقد طرق الأعشى جميع فنون الشعر فأجاد المدح والهجاء ، كما اجاد وصف الخمرة والتشبيب بالنساء .

---

١ الحديبية : بئر قريبة من مكة ، وعندها عقدت الهدنة بين النبي وقريش مدة عشر سنين . ولكن قريشاً نقضوا العهد في السنة الثامنة للهجرة فاستؤنف القتال وافتتح النبي مكة .

ميزته – الشعر الخمري

لم تكن ميزة الاعشى محصورة في وصف الخمرة دون غيرهـا ، فقد كان متصرفاً في ابواب الشعر كلها . ولعله في المدح اشعر منه في وصف الخمر ، ولكن المدح صفه عامة للشعراء الجاهليين . ونحن نريد ان ندرس في الشاعر المتخصص صفة انفرد بها عن غيره من معاصريه، وهي وصف الخمرة للخمرة، لا للتفاخر بشربها ، كما فعل اكثر شعراء الجاهلية . فقد وصفها طرفة ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة وغيرهم ، وقلما تجاوزوا حد الافتخار بشربها ، لان شربها دليل الكرم عندهم . واذا تجاوز احدهم هـذا الحد ، فالى شيء يسير من وصف لونها وزجاجتها ، والى شيء يسير من وصف تأثيرها في شاربها .

اما الاعشى فقد فاقهم جميعاً ؛ وعرف كيف يشربها ويلهو ، ويصفها ويطرب . فهو اذا وصف الخمرة وصف معها النديم والساقي ، ووصف القَينة وعودها . وصوَّر السكارى تصويراً جميلاً ، في اسلوب لطيف لا يخلو من ظرف وفكاهـة . وله اقوال كثيرة في الخمر ، توكأ عليهـا الاخطل ، وابو نواس من بعده ، كقوله :

تريكَ القذى من فَوقها ، وهي فَوقَه ، اذا ذاقَها مَن ذاقَهـا ، يتمطّـق[١]

اخذه الأخطل فقال :

ولَقد تُباكِرني ، عـلى لَذّاتها ، صَهباءُ عاليةُ القَذى ، خُرطومُ[٢]

---

١ القذى : ما يقع في العـين وفي الشراب من تبنة او غيرها . يتمطّق : يقال ذاق الشراب والطعام فتمطق اي صوّت بلسانه. والمعنى: انها من صفائها تريك القذى ، اذا سقط فيها ، عالياً عليها مع انه يكون في اسفلها . واذا ذاقها شاربها يتمطق من لذة طعمها .

٢ الصهباء : الخمر . الخرطوم : الخمر السريعة الاسكار ، او اول ما يجري من مـاء العنب قبل ان يداس .

وقوله :

مِنْ خمرِ عانَةَ ، قد أتى لِختامِها حولٌ ، تَسُلُّ غمامَةَ المزكومِ [1]

فقال الأخطل :

وإذا تَعاوَرتِ الأكُفُّ خِتامَها ، نَفَحت فنالَ رياحَها المزكومُ [2]

وقوله :

وكأسٍ كعينِ الديكِ، باكرتُ خِدرَها ، بفتيانِ صِدقٍ ، والنواقيسُ تُضرَبُ [3]

فأخذ ابو نواس تشبيه الخمرة بعين الديك واكثر استعماله. من ذلك قوله :

وأشربْ سلافاً كعينِ الدّيكِ صافيةً ، من كفِّ ساقيةٍ كالرّيم حوراءِ [4]

وقوله :

وكأسٍ ، شَربتُ على لذَّةٍ ، وأخرى ، تداويتُ منها بها

---

١ عانة : قرية على الفرات تنسب اليها الخمر. الحول : السنة. تسلّ : تنزع. الغمامة: السحابة، واراد بها هنا ما يجده المزكوم من ضيق في انفه . يقول : هي خمر مضت عليها سنة وهي مختومة ، واذا شمها المزكوم زالت غمامته من انفه .

٢ تعاورت : تداولت وتعاطت . نفحت : فاحت رائحتها . فنال رياحها : فشم رياحها .

٣ وكأس : اي وخمرة في كأس، مجاز مرسل. كعين الديك : اي حمراء صافية. خدرها : دنّها . بفتيان صدق : اي شأنهم الصدق . النواقيس تضرب : اي اجراس الكنائس . وكان الاعشى يختلط بنصارى الحيرة ونصارى نجران . وله مدح في اساقفتهم . وقيل انه اخذ النصرانية من العباديين نصارى الحيرة .

٤ السلاف : الخمر الخالصة . الريم: الظبي الخالص البياض. الحوراء : التي في عينيها حوَر وهو اشتداد البياض والسواد واستدارة الحدقة ورقة الجفون . وقد ورد تشبيه الخمرة بعين الديك لشعراء في الجاهلية غير الاعشى ، مثل عَديّ بن زيد اذ يقول :

ثم ثاروا الى الصَّبوحِ ، فقامت قَينةٌ في يمينها ابريقُ
قدّمَته على عُقارٍ كعَينِ الدّيكِ صفّى سُلافَها الراووقُ

فأخذه ابو نواس وولّد منه معنىً آخر قال :

دَعْ عَنكَ لومي، فإنّ اللّومَ إغراءُ، وداوني بالتي كانت هي الدّاءُ

فيتبين من ذلك، ان الاعشى صاحب لهو وعبث، كما كان الأخطل وابو نواس من بعده، وانه وصف الراح شغفاً بها، فأحسن وصفها، وكانت له مجالس قصف وطرب، فيها النديم والساقي والقيان، فوصفها جميعاً وأحسن وصفها. واننا لنلمس روحاً نواسيّاً في قوله :

لا يَستفيقونَ منها وهي راهِنةٌ، الا بِهاتِ، وإن عَلّوا، وإن نَهِلوا

فهذه السكرات الطويلة التي لا يستفيق منها صاحبها، الا ليرجع اليها، هي التي يمثلها لنا الأعشى بقوله :

وكأسٍ، شَربتُ على لَذّةٍ، وأخرى، تداويتُ منها بها

فيردد ابو نواس بعده : « وداوني بالتي كانت هي الداء ... »

واذا كان الاعشى سأل بشعره وتكسب، فلكي يلهو ويعبث، لا ليجمع المال ويحرص عليه. فالرواة يذكرون لنا ان داره في منفوحة كانت مجتمع الفتيان، يأكلون عنده ويشربون. ويذكرون ايضاً، ان فتيان منفوحة لم ينسوا شاعرهم بعد موته فكانوا يأتون الى قبره ويسكرون عنده ويريقون الاقداح على ثراه، ليأخذ الميت نصيبه من الراح.

اللاميتان

اشرنا الى لاميتَي الاعشى، فيجدر بنا ان نجعل لهما قسطاً من التحليل ولو قليلاً، فنظهر بعض خصائص في الشاعر لا ينبغي اغفالها، وان كنا قصرنا الدرس والنقد على شعره الخمري. قال مستهلاً احداهما :

ودّعْ هُرَيرةَ، إنّ الرّكبَ مُرتحِلُ، وهل تُطيقُ وداعاً، أيها الرّجُلُ؟

ثم يمعن في الغزل حتى ينتهي الى وصف الخمرة ومجلس اللهو، فينتقل الى وصف السفر والناقة فلا يلمسهما الا قليلا. ولكنه يفيض في وصف البرق والمطر :

بل، هل ترى عارضاً قد بِتُّ أرمُقُه، كأنما البرقُ في حافاتِه شُعَلُ[1]

ولكنه لا يبلغ فيه شأوَ امرىء القيس. ثم ينبري لرجل يقال له يزيد الشيباني، وكانت بينهما ملاحاة، فيهدده ويفتخر عليه، ويذكر له انتصارات قومه على القبائل. وفي هذا القسم يختم طويلته.

ويبتدىء اللامية الأخرى بقوله :

ما بُكاءُ الكبيرِ بالأطلالِ، وسؤالي، وما تردُّ سؤالي؟[2]

وبعد ان يتغزل ويذكر الفراق، يصف ناقته ويشبهها بحمار الوحش في سرعتها ويشبه عظام صدورها بإران[3] الميت كما شبهها طرفة. ثم يتخلص الى مدح الاسود بن المنذر اخي النعمان فيطيل في مدحه ويبالغ ثم ينصرف الى نفسه، ذاكراً مشيبه متذكراً شبابه، ثم يشرع بوصف لهوه وعبثه وجواده وصيده فيذكرنا بامرىء القيس.

هذا هو الاعشى في خمرياته وغير خمرياته على ما في شعره من سهولة وانسجام وجلاء شأن غيره من شعراء ربيعة. ولكن هناك ملحوظة ذات

---

١ العارض : السحاب المعترض. ارمقه : انظر اليه. حافاته : حوانبه، مفردها حافة.

٢ يقول : ما بكاء شيخ كبير مثلي وسؤالي من لا يرد عليّ.

٣ الإران : النعش.

قيمة لا بد من الاشارة اليها ، وهي ان الشعر في اواخر هذا العصر ، ظهر عليه التطور ظهوراً عاماً ، فوضحت معانيه ، وسهلت الفاظه ، وقلّ غريبه. فأصبح الشارح لا يحتاج الى سوى تفسير بعض الالفـاظ ، حتى يتضح معنى البيت . ونستطيع ان نتبين هـذا التطور في اكثر الشعراء الذين ادركوا الاسلام او كادوا ، والاعشى خير مثال لهم في جلاء افكاره ، وظهور معانيه، ونعومة الفاظه ، وسلاسة قوافيه .

منزلته

وضعه ابن سلاّم في الطبقة الاولى بعد امرىء القيس والنابغة وزهير . وكان اهل الكوفة يقدمونه عليهم جميعاً. وسُئل يونس بن حبيب النحوي : « مَن اشعر الناس ؟ » فقال : « لا أومىء الى رجل بعينه ، ولكن اقول : امرؤُ القيس اذا ركب ، والنابغة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب . » وكان عمرو بن العلاء يعظّم محله ويقول : « مَثَلُه مثلُ البازي يضرب كبير الطير وصغيره. » واذا سئل عنه وعن لبيد قال : « لبيد رجل صالح ، والاعشى رجل شاعر . » وروي ان عبد الملك بن مروان قال لمؤدب اولاده : « ادّبهم برواية شعر الاعشى فانه ، قاتله الله ، ما كان اعذب بحره ، واصلب صخره ! » وقال المفضّل الضبي : « من زعم ان احـداً اشعر من الاعشى فليس يعرف الشعر . » وقال ابو عبيـدة : « مَن قدّم الاعشى ، يحتج بكثرة طواله الجياد ، وتصرفه في المديح والهجاء ، وسائر فنون الشعر ، وليس ذلك لغيره . » وقال يحيى بن الجَوْن العبدي راوية بشّار : « نحن حاكَة الشعر في الجاهلية والاسلام ، ونحن اعلم الناس به. اعشى قيس استاذ الشعراء في الجاهلية ، وجرير الخطَفى استاذهم في الاسلام . » وقال ابو عبيدة

ايضاً : « الاعشى هو رابع الشعراء المعدودين ، وهو يقدّم على طرفة لانه اكثر عدد طوال جياد ، واوصف للخمر ، وأمدح وأهجى . » وسئل حمّاد الراوية : « من اشعر الناس ؟ » فقال : « ذاك الاعشى صنّاجها . » وشهد له الاخطل فقال : « هو والمسيح اشعر مني . »

وفي الاعشى اقوال كثيرة غير هذه لا نرى حاجة الى ذكرها ، فان ما اوردناه كافٍ لاظهار منزلة الشاعر عند الأئمة والادباء الاقدمين . على ان هناك قولاً لبعضهم ينطبق على الخاصة التي درسناها في شعره الخمري ، وهو قولهم : « الاعشى في الجاهلية كالحسن في الاسلام . » ويعنون بالحسن ابا نواس الحسن بن هاني . وهذا التشبيه صحيح ، اذا وضعنا حدّاً بين العصر الذي عاش به الأعشى ، وما فيه من بداوة وخشونة ، والعصر الذي عاش به ابو نواس ، وما فيه من ترَف ورخاء . فالاعشى كان يتعهّر ويتطلب اللذة المادية في حبه وسكره ولهوه ، وهكذا كان ابو نواس في العصر العباسي الاول . فكلا الشاعرين لها ، وعبث ، وتعهر على قدر ما سمحت له البيئة التي عاش فيها ، وقد ظهر لهوه ، وعبثه ، وتعهره في شعره ، فليس اذاً يستنكر ان نقول : « الاعشى في الجاهلية كالحسن في الاسلام . »

الخنساء

٦٤٦ م — ٢٤ ﻫ

حياتها	: نسبها ولقبها . خطبها دريد بن الصِّمّة فردته . ثم تزوجت من قومها . لها اربعة بنين وابنة واحدة . مقتل اخيها معاوية . جرح صخر ومرضه الطويل . موته . رثاء الخنساء . اخبارها في الاسلام . مقتل اولادها في حرب القادسية . توفيت في اول خلافة عثمان .
آثارها	: ديوان كله في رثاء اخويها ، واكثره في صخر .
ميزتها	: الرثاء العاطفي . خطابها لعينيها . تلهفها . التفجع الصادق . المغالاة . الصور المادية . تعابيرها الخاصة في صيغ المبالغة . خلو شعرها من القصائد الطوال . منزلتها : هي أشعر النساء وصبّات على كثير من الرجال .
درس ادبي تاريخي	: وقوفها في سوق عكاظ ، وانشادها امام النابغة . نقدها بيت حسّان بن ثابت . فساد النقد . نكران نسبته اليها ، ادبياً وتاريخياً .

حياتها

هي تُماضِر بنت عمرو بن الحرث بن الشَّريد من بني سُلَيم ، ينتهي نسبها الى مُضَر ، وتُكنى أم عمرو ، وتلقب بالخنساء[1] ، ولقبها غلب على كنيتها .

وكانت في اول عمرها من اجمل نساء عصرها . ورآها دُرَيد بن الصِّمّة تهنأ[2] بعيراً لها ، فأعجبته ، فجاء يخطبها الى أبيها ، فقال له أبوها : « مرحباً

١ الخنساء : البقرة الوحشية تشبه بها المرأة لحسن عينيها .
٢ هنأ البعيرَ : طلاه بالهِناء وهو القطران .

بك يا أبا قُرَّة[1]، انك لَلْكريمُ لا يُطعَن في حسبه، والسيد لا يُرَدُّ عن حاجته، والفحلُ لا يُقرَع أنفه[2] . ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها، وأنا ذاكرُكَ لها وهي فاعلة.» ثم دخل اليها وقال لها: «يا خنساء، أتاكِ فارس هوازِن، وسيد بني جُشَم دريد بن الصِّمَّة يخطبك.» وكان دريد يسمع حديثهما، فقالت: «يا أبتِ، أتُراني تاركةً بني عمي مثل عوالي الرماح، وناكحةً شيخ بني جُشَم، هامة[3] اليوم أو غد؟» ثم انشأت تقول:

أَتُكْرِهُني، هَبِلْتَ! على دُرَيْدٍ، وقد طَرَّدْتُ سيِّدَ آلِ بَدْرِ؟[4]

معاذَ اللهِ يَرْضَعُني حَبَرْكَى، قصيرُ الشِّبرِ، من جُشَمَ بنِ بَكْرِ[5]

يرى مَجْداً، ومَكْرُمَةً أتاها، إذا عَشَّى الصَّديقَ جَرِيمَ تَمْرِ[6]

ولو أصْبَحْتُ في جُشَمٍ هَدِيّاً، إذاً أصبَحْتُ في دَنَسٍ وفَقْرِ[7]

فخرج اليه أبوها فقال: «يا أبا قرَّة قد امتنعت، ولعلها ان تجيب فيما

---

١ ابو قُرَّة: كنية دُرَيد. والقُرَّة: البَرْد وما تقرُّ به العين.

٢ لا يقرع انفه: اي لا يعاب.

٣ الهامة: هنا الجثة.

٤ طرَّدْتُ وطرَدْتُ: واحد. وقولها هبلت: دعاء عليه، اي ثكِلتَ. قال ابن الاعرابي: ولا يقال في الدعاء هُبِلْتَ.

٥ يرضعي: يتزوجني. الحبركى: الطويل الظهر القصير الرجلين. الشبر: العمر والرواج والخير وكلها تناسب معنى البت. وقولها: معاذ الله، أي أعوذ بالله، وهو مفعول مطلق عامله محذوف كسبحان.

٦ الجريم: التمر المصروم أي المقطوع.

٧ الهَدِيّ: العروس.

بعد.» فقال دريد : «قد سمعت قولكما .» وانصرف غضبان . وله من قصيدة في هجو الخنساء :

وقاكِ اللهُ يا ابنَــةَ آلِ عَمْرٍو ، مِنَ الأزواجِ أشْباهِي ، ونَفْسي[1]
فلا تَلِدِي ولا يَنْكِحْكِ مِثْلي ، إذا ما لَيلَةٌ طَرَقَتْ بنَحْسِ[2]
وتَزعُــمُ أنَّني شَيْخٌ كَبيرٌ ، وهَلْ خَبَّرْتُها أني ابنُ خَمْسِ؟[3]
تُريدُ شَرَنْبَثَ القَدَمَينِ شَثْناً ، يُقَلِّعُ بالجديرَةِ كلَّ كِرْسِ[4]
وما قَصُرَتْ يَدِي عن عُظمِ أمرٍ ، أهُمُّ به ، ولا سَهْمِي بنِكْسِ[5]

فقيل للخنساء : «ألا تجيبينه ؟» فقالت : «لا أجمعُ عليه ان أرُدَّه ، وان اهجوَه .»

ثم تزوجت رَواحةَ بن عبد العزيز السُّلَمي ، فولدت له عبد الله . ثم خلَفَ عليها مرداس بن ابي عامر السُّلَمي ، فولدت له يزيد ومعاوية وعمراً وبنتاً اسمها عَمرَة .

روى عَلقَمَةُ بن جرير قال : «لما كانت ليلة زفاف عمرة ، كانت امها جالسة ملتفة بكساء احمر ، وقد هرمت . وكانت تلحظ ابنتها لحظاً شديداً. فقال القوم : «يا عمرة ، الا تحرشتِ بها ، فانها الآن تعرف بعض

---

١ اي من اشباهي ومن نفسي .
٢ النحس : البرد والظلمة .
٣ خمس : اي خمس سنوات . ويروى : ابن امس .
٤ الشرنبث : الغليظ الأصابع . الشثن : الخشن . الجديرة : الحظيرة . الكِرس : البعر والبول يتلبد بعضه فوق بعض .
٥ النكس : السهم اذا انكسر فُوقه فيجعل اعلاه اسفله وهذا عيب فيه . والفوق : موضع الوتر من السهم . يريد انه ليس بضعيف جبان .

ما انتِ فيه.» فقامت عمرة تريد حاجة، فوطئت على قدمها وطأة اوجعتها، فقالت لها، وقد اغتاظت: «أفٍّ لكِ يا حمقاء! اني كنت احسن منكِ عُرساً، واطيب وَرْساً[1]، وارقّ منك نَعلاً[2]، واكرم بَعلاً[3]. وذلك اذ كنتُ فتاةً أعجب الفتيان، لا أذيبُ الشَّحْمَ[4]، ولا ارعى البَهْمَ[5]، كالمُهرة الصَّنيعِ[6]، لا مُضاعةً، ولا عند مُضيعٍ.» فضحك القوم من غيظها.

مقتل اخويها

وكان للخنساء أخَوان: احدهما معاوية، وهو اخوها لأمها، والثاني صخر، وهو اخوها لأبيها، وكان احبهما اليها. واستحق صخر ذلك لأمور منها. انه كان موصوفاً بالحلم، مشهوراً بالجود، معروفاً بالتقدم والشجاعة، محظوظاً في العشيرة، واجمل رجل في العرب.

قيل: ان عمرو بن الشريد ابا معاوية وصخر، كان يأخذ بيدي ابنيه ويقول: «انا ابو خَيرَي مُضَر» فتعترف له العرب بذلك.

وكان مقتل معاوية في يوم حَورة الأول نحو سنة ٦١٢ للمسيح وهو يوم لسُلَيم على غطَفان، وقاتله هاشم بن حَرملة... ابن مرة الغَطَفاني. وغزا صخر بني مرة في العام التالي فأصاب منهم، وقتل درَيداً أخا هاشم،

---

١ الوَرْس: نبت اصفر اللون طيب الرائحة، اي اطيب رائحة.
٢ ارقّ نعلاً: أي لست بصاحبة مشي، تعني انها اكثر تنعماً.
٣ بعلاً: زوجاً.
٤ أي لا تخدم في البيت.
٥ البَهْم: اولاد الضأن والمعز، مفردها بهمة.
٦ الصنيع: المهرة التي أحسن القيام على تربيتها، اي كنت كالمهرة الصنيع.

وكان ذلك يوم حورة الثاني ، ثم قتل هاشم بن حرملة ، وقاتله عمر بن قيس الجُشَمي ، وفيه تقول الخنساء :

فِداً للفارسِ الجُشَميَّ نفسي ، وأَفْدِيهِ بِما لِيَ مِنْ حَميمِ[1]

وأما صخر فكان هُلكه[2] بجرحٍ رغيبٍ[3] اصابه في حرب الكُلاب او ذات الأثل[4] ، وهو يوم بين سُليم وأسد ، فمرض من ذلك وطال مرضه حتى ملته زوجته سلمى . فاذا عاده عائد وسألها على باب الخباء : «كيف اصبح صخرُ الغداة ، وكيف بات البارحة ؟» قالت : «لا هو حيٌّ فيُرجى ، ولا ميت فيُنعى .» فيسمعها صخر فيشق ذلك عليه . وإذا سأل أمه أجابت : «ارجى له مِنّاً من يومنا ، ولا نزال بخير ما رأينا سواده[5] فينا .» وأفاق صخر بعض الافاقة ، فأراد قتل زوجته فقال : «ناولوني سيفي لأنظر كيف قوّتي .» فناولوه ، فلم يُطق حمله وفي ذلك يقول :

أرى أُمَّ صَخْرٍ لا تَمَلُّ عِيادتي ، ومَلَّتْ سُلَيْمى مَضْجَعي ومكاني
وما كنتُ أخشى أنْ أكونَ جِنازةً عليكِ ، ومَنْ يَغْتَرُّ بالحَدَثانِ ؟[6]
أَهُمُّ بأمْرِ الحَزْمِ لو أسْتَطيعُهُ ، وقد حِيلَ بينَ العَيرِ والنَّزَوانِ[7]

---

١ الحميم : القريب والصديق .
٢ هلكه : موته .
٣ رغيب : واسع الجوف .
٤ الأثل : شجر عظيم .
٥ سواده : شخصه .
٦ الجنازة : الميت ، وكل ما ثقل على قوم فاغتموا به . يقول لزوجته : ما كنت اخاف ان اكون ثقيلاً عليك فتغتمي بي ، ولكن لا يُغترُّ بحوادث الأيام ولا يوثق بها .
٧ حيلَ : مُنع . العَير : الحمار . النزوان : الوثب . وهذا مثل يضرب في شدة الأمر وصخر اول من قاله .

وللموتُ خيرٌ من حياةٍ كأنَّها   مُعَرَّسُ يَعْسُوبٍ برأسِ سِنانِ[1]
وأيُّ امرئٍ ساوى بأمٍّ حليلةً ،   فلا عاشَ إلاَّ في شقاً وهَوانِ[2]

ثم نُكس بعد ذلك في مرضه ، فمات في سنة ٦١٥ (?) فوجدت[3] به الخنساء وجداً عظيماً ، وجلست على قبره زماناً طويلا تبكيه وترثيه ، وفيه جلُّ مراثيها .

الخنساء في الاسلام

ولما ظهر الاسلام قدمت الخنساء في قومها بني سُلَيم فأسلموا جميعاً . وقيل : رآها عمر بن الخطاب فسألها : « ما اقرحَ مآقي عينيكِ ؟ » قالت : « بكائي على السادات من مُضر . » قال : « يا خنساء ، انهم في النار . » قالت : « ذاك اطول بعويلي عليهم ، اني كنت ابكي لهم من الثار ، وانا اليوم ابكي لهم من النار . »

وحكي : انها اقبلت في خلافته حاجَّة ، فنزلت بالمدينة في زي الجاهلية ، فقام اليها عمر في اناس من اصحابه ، فاذا هي على ما وُصف له ، فعذلها ووعظها ، وقال لها : « ان الذي تصنعين ليس صنع الاسلام ، وان الذين تبكين هلكوا في الجاهلية ؛ وهم اعضاء اللهب وحشو جهنم . » فقالت : « اسمع مني ما أقول في عذلك إياي ، ولومك لي . » فقال : « هاتي » فأنشدته :

---

١ مُعرَّس : محلّة . اليعسوب : طائر اصغر من الجرادة او اعظم لا يضم جناحيه اذا وقع . يقول : الموت خير من حياة ضيقة أليمة وكأني وانا فيها يعسوب اراد النزول فوقع على رأس سنان .

٢ الحليلة : الزوجة . الهوان : الذل .

٣ وجدت : حزنت .

سقى جدثاً ، أكنافُ غمرةَ دونه ، من الغيث ، ديماتُ الربيع ، ووابلُه[1]
أعيرُهم سمعي ، إذا ذُكِرَ الأسى ، وفي القلبِ منه زفرةٌ ما تزايلُه[2]
وكنتُ أُعيرُ الدمعَ ، قبلكَ ، مَن بكى ، فأنت ، على مَن مات بعدكَ ، شاغلُه[3]

فتعجب عمر من بلاغتها وقال : «دعوها فانها لا تزال حزينة ابداً .»

ورأت عائشة زوج النبي على الخنساء صِداراً[4] من شعر ، فقالت : «يا خنساء ، أتلبسين الصدار وقد نهى الرسول عنه ؟» قالت : «لم اعلم بنهيه .» قالت : «ما الذي بلغ بك ما أرى ؟» قالت : «موت اخي صخر ، ولصداري سبب .» قالت : «وما هو ؟» قالت : «زوّجني أبي رجلا متلافاً لماله ، فأسرع فيه حتى نفد ، فقال لي : «أين تذهبين يا خنساء ؟» فقلت : «الى أخي صخر .» فلقيناه ، فقسم ماله بيننا وبينه شطرين ، ثم خيّرنا ، فقالت له زوجته : «أما كفاك ان تقسم مالك حتى تخيرهم ؟» فقال :

واللهِ لا أمنَحُها شِرارَها ، وَهْيَ حَصانٌ قد كفَتْني عارَها[5]
ولو هَلَكْتُ مَزَّقَتْ خِمارَها ، واتَّخَذَتْ مِنْ شَعَرٍ صِدارَها[6]

---

١ الجدث : القبر . الاكناف : النواحي مفردها كَنَف . غمرة : اسم موضع . الديمات : الأمطار الدائمة مفردها ديمة . الوابل : المطر الغزير .
٢ منه : اي من الاسى وهو الحزن . تزايله : تفارقه .
٣ تقول : كنت قبل موتك أعين بدمعي من يبكي عزيزاً له ، فأصبحت بعد موتك وليس لدمعي شاغل سواك . والخطاب لأخيها صخر .
٤ الصدار : قميص صغير يلي الجسد .
٥ شرارها : أي شرار الأموال او شرار الحصص . والشرار والأشرار واحد . حَصان : شريفة ذات بعل .
٦ خمارها : برقعها .

فلمّا هلك اتخذت هذا الصدار . والله لا أُخلِفُ ظنه ، ولا أكذّب قوله ما حييت . »

وشهدت الخنساء حرب القادسيّة[1] ومعها بنوها الأربعة ، وكانوا رجالاً . فقالت لهم من اول الليل : « يا بَنيّ ، انكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين . واللهِ الذي لا إله إلاّ هو ، انكم لَبَنُو رجل واحد[2] ، كما انكم بنو امرأة واحدة ، ما خُنتُ أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجّنتُ[3] حسَبَكم ، ولا غيّرتُ نسَبَكم . واعلموا انّ الدار الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا[4] ورابطوا[5] واتقوا الله لعلكم تُفلِحون . فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها[6] فتيمّموا وطيسها[7] ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالغُنمِ والكرامة في دار الخُلد والقيامة . » فلما اصبحوا باكروا مراكزهم ، فتقدموا واحداً بعد واحد ، وهم يرتجزون ذاكرين وصية العجوز حتى قتلوا عن آخرهم ، فبلغها الخبر فقالت : « الحمدُ لله الذي شرّفني بقتلهم ، وأرجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقرّ الرحمة . »

---

١ كانت هذه الحرب بين المسلمين والفرس ، وكان يقود جيش المسلمين سعد بن أبي وقّاص ، فهزموا الفرس عن القادسية وافتتحوا الموصل وما يليها من المدائن . وكان ذلك في خلافة عمر سنة ١٦ هجرية و٦٣٨ مسيحية . ولم تقم للفرس بعد وقعة القادسية قائمة .

٢ الرواة يقولون : ان الخنساء تزوجت اثنين ، وان ابنها عبد الله من الرجل الاول ، وقد ذكر ذلك في موضعه .

٣ هجّنت : جعلته هجيناً وهو العربي المولود من أمَة او مَن ابوه خير من أمه .

٤ صابروا : غالبوا أعداءكم في الصبر .

٥ رابطوا : لازموا ارض العدو .

٦ يقال على سبيل المجاز : شمّرت الحرب عن ساقها ، اي اشتدت ، وأصله من تشمير المخدرات في الهرب ، او تشمير المحاربين في القتال . والحرب مؤنث .

٧ تيمّموا : اقصدوا . وطيسها : حرّها .

وكان عمر يعطيها ارزاق بنيها الأربعة مائتي درهم عن كل واحد حتى قُبض .

وتوفيت الخنساء في اول خلافة عثمان وكان موتها في البادية .

آثارها

ديوان شعر طُبع في بيروت ، كله في رثاء اخويها ولا سيما صخر ، واكثره قيل في الجاهلية . ولذلك خالفنا رأي من يعدها من الشعراء المخضرمين[1] .

ميزتها — الرثاء

الخنساء ، ما الخنساء ؟.. ان هِيَ إلاّ قُمريّة[2] على الغصون تبكي لفقد أليفها ، فاذا شجاك نَوح القماريّ ، فشعر الخنساء لا بدّ ان يشجوك . فهو ذَوْب العاطفة المتألمة ، والنفس الدامية ، والوفاء الأخويّ الثاكل .

واذا همت الخنساء برثاء صخر ، وصخرٌ شقيق روحها ، سابقتها الدموع الى رثائه ، فتفجرت من مآقيها ، فإذا هي لا ترى غير عينيها عوناً لها على الأسى ، فتخاطبهما بشعرها ، وما أكثر ما تستهلُّ الخنساء قصائدها بخطاب عينيها ، وإذا هي آنست في عينها جموداً أنّبتها على بخلها ، فكأنها لا تريدها إلا مغرورقة ندية . وإذا انتهت من حديث عينيها ، فرغت للتلهف على أخيها ، وتعداد شمائله وخلاله ، فما تدع مكرمة إلا جعلتها فيه ، ولا حسنةً إلا وصفته بها . فهو أشجع الناس ، وأكرمهم ، وأعفهم ، واجملهم ، وأنجدهم . ومما يزيد رثاءها حسناً ان مدحها لصخر لا يشوبه التكلف والجفاف ، وانما هو مُشبَع بصدق اللهجة وصدق العاطفة معاً ؛ يرافقه التفجع

---

١ المخضرم : من عاش في الجاهلية والاسلام .

٢ القُمريّة : الحمامة .

في جميع اقسامه . ولعل الغلو اظهر خاصة في الخنساء ، فهي مغالية في حزنها ولوعتها ، مغالية في ما تنعت به صخراً من النعوت الحسنة . ولكنه غلو صادق من حيث تفجعها وبريء من حيث وصفها لأخيها . فنحن نشعر بشدة آلامها عندما تذرف الدموع السخينة ، وتخاطب عينيها . ونتبين اعجابها الكثير بأخيها ، عندما تصف شجاعته فتصوّره أسداً تاماً بأنياب وأظفار ، شثن البراثن ، لاحق الاقراب . او تصف جوده ، فتجعله مأوى اليتيم ، وغاية المنتاب ، بارزاً بالصحن مهماراً . او تصف جماله ، فهو البدر في صورته ومحياه .

ولا يقتصر غلوها على المعاني وما فيها من صور مادية بارزة ، بل يتناول ألفاظها أيضاً ، فأكثر ما يكون لفظها في صيغ المبالغة التي تترك أثراً محسوساً في النفس . ومن تعابيرها الخاصة قولها : شهّاد اندية ، حمّال ألوية ، هبّاط اودية ، نحّار ، مغوار ، مسعار ، أغرّ أبلج ، او أغرّ ازهر ، الى غير ذلك من أمثلة المبالغة . ولها تعابير فخمة تتضمن الغلو في نفسها ، مثال قولها : ضخم الدسيعة ، اذا ركبت خيلٌ لخيل ... وقد تختم رثاءها بالوقوف على القبر الذي ضم رفات أخيها ، فما تدري كيف تُظهر له تلك النعمة التي حلّت عليه بحلول صخر فيه ... ماذا يواري القبر من كرم ؟.. او من خير ؟.. او من خلائق عفّات مطاهير ؟..

فيتبين من كل ذلك ان رثاء الخنساء عاطفي بحت ، لا يشوبه تكلف ، ولا يرتفع بها الفكر الى المعاني الحكمية التي نجدها في رثاء لبيد لأخيه . فهي حزينة لا تتعزّى ، وضعيفة لا تملك ان تعظ نفسها ، ونادبة تهيج البواكي ، وتستحث قومها على ادراك الثأر ، وتثير نخوتهم بذكر مناقب أخيها . واذا خطر

لها ان تتأسى شيئاً ، فلكي تمنع نفسها عن الانتحار، لا عن التفجع والبكاء .

ومما يجدر ذكره ان شعر الخنساء خالٍ من القصائد الطوال التي عرفناها في الشعراء الجاهليين . وأطول قصيدة لها الرائية : «قَذًى بعَيْنِكِ أمْ بالعَينِ عُوّارُ ...» وهي لا تتجاوز الخمسة والثلاثين بيتاً . وأكثر شعرها أبيات ومقطّعات ، أو قصائد قصيرة . ولعل ذلك ناتج بعضه عن ضعف المخيلة في المرأة ، وبعضه الآخر عن وحدة موضوع الشاعرة وعدم تعدد اغراضها . فهي لم تطرق غير الرثاء ، بما فيه من تفجع ومدح ، وما يتبع المدح من ذكر غزوة ، دون ان تعمد الى وصف الحرب وتصويرها ، وانما تجعل همها في النواح على صخر ، وإطراء شمائله وتمثيلها ماديّاً ، مما جعل أفكارها محصورة في صور محدودة المعاني والتعابير .

على ان قصر قصائدها لا يضير شاعريتها ، ولا يحط من منزلتها الأدبية ، فإنما هو زفرات متقطعة ، وافلاذ من حشاشتها الدامية .

منزلتها

هي أشعر النساء ، وتُفَضّل على كثير من فحول الشعراء . وقد عدّها ابن سلاّم الثانية بين أصحاب المراثي ، فقدّم عليها مُتَمّم بن نُوَيرة ، وقدّمها على أعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغَنوي . ورُوي ان جريراً سُئل : «من أشعر الناس ؟» فقال : «أنا ، لولا هذه الخبيثة» (يعني الخنساء) ففضلها على جميع الشعراء . وقدمها بشار على الرجال .

وكان النبي محمد يُعجب بشعرها ، ويستنشدها فتنشده وهو يقول : «هيهِ يا خُنَاس !» ويومئ بيده .

وقصارى القول : ان شعر الخنساء مثال للرقة على غير ضعف ، وعنوان الرثاء العاطفي غير مُدافع .

زعم الرواة ان الخنساء وقفت في سوق عكاظ، وأنشدت النابغة[1] قصيدتها «الرائية» التي رثت بها صخراً، فأعجبه شعرها، وقال لها: «اذهبي فأنتِ أشعر من كل ذات تديين، ولولا ان أبا بصير[2] انشدني قبلكِ لفضلتك على شعراء هذا الموسم.» وكان ممن عرض شعره حسّان بن ثابت فغضب وقال: «أنا أشعر منك ومنها.» فقال النابغة: «ليس الأمر كما ظننت.»

وهنا يزعمُ بعض الرواة ان النابغة قبض على يد حسان وقال: «يابن اخي، انت لا تحسن ان تقول:

وإنك كالليـلِ الذي هو مُدرِكي، وإنْ خِلتُ أنّ المُنتأى عنك واسعُ»

وخَنَسَ[3] حسّان لقوله. ويزعم غيرهم ان النابغة التفت الى الخنساء وقال: «خاطبيه يا خُنَاس.» فقالت له: «ما أجودُ بيتٍ في قصيدتك هذه التي عرضتَها آنفاً؟» قال: قولي فيها:

لنا الجفَناتُ الغُرُّ يلمَعن في الضُّحى، وأسيافُنا يَقطُرنَ، من نجدةٍ، دَما[4]

فقالت: «ضعّفتَ افتخارك وانزرتَه[5] في ثمانية مواضع في بيتك هذا.» قال: «وكيف ذلك؟» قالت: «قلت: الجفنات، والجفنات ما دون العشر، ولو قلت: الجفان لكان اكثر. وقلت: الغرّ، والغرة بياض

---

١ كان النابغة الذبياني تُضرب له قبة حمراء في عكاظ وتأتيه الشعراء وتنشده فيفضل من يرى تفضيله.

٢ ابو بصير: كنية الأعشى الأكبر.

٣ خنَس: تنحى وتأخر.

٤ الجفنات: القصاع الكبيرة مفردها جفنة. الغر: البيض. النجدة: القتال والشجاعة والبأس.

٥ أنزرته: قلّلته.

في الجبهة ، ولو قلت : البيض لكان اكثر اتساعاً . وقلت : يلمعنَ ، واللمع يأتي شيء بعد شيء ، ولو قلت : يشرقن لكان اكثر، لأن الاشراق ادوَم من اللمَعان . وقلت : بالضحى ، ولو قلت : بالدجى لكان أكثر طرّاقاً[1] . وقلت : اسياف ، والأسياف ما دون العشرة ، ولو قلت : سيوف لكان أكثر . وقلت : يقطرن ، ولو قلت : يَسِلْنَ لكان اكثر. وقلت : دما ، والدّما اكثر من الدم . » فسكت حسّان ولم يُحِر جواباً.

على ان هذا النقد فيه كثير من التكلف والتعنت لا تصح نسبته الى شاعرة في الجاهلية خالية الذهن من قواعد اللغه ، بعيدة من التصنع الذي ينافي فطرتها الطبّيعية . اضف الى ذلك ان ناقد البيت لم يصب في نقده ، لأن باب المجاز واسع في اللغة ، ولولا المجاز لضاقت العربية على ابنائها ، وسدّت في وجوههم مذاهبها . هذا وان جموع القِلّة تُستعمل للكثرة كما تستعمل جموع الكثرة للقلة ، وقد يُستغنى ببعض ابنية القلة عن بعض ابنية الكثرة كرِجْلٍ وأرجُل ، وببعض ابنية الكثرة عن بعض ابنية القلّة نرجُل ورجال . والخنساء نفسها لم يسلم شعرها من استعمال جمع القلة للكثرة ، ولا سلم منه شاعر في الجاهلية والاسلام . قال السموأل :

وأسيافُنا في كلّ شرقٍ ومَغربٍ ، بها مِنْ قِراع الدّارِعينَ فُلول[2]

وقالت الخنساء :

سقَى الإلهُ ضَرِيحاً جَنّ أعظُمَهُ ، ورُوحَهُ ، بغزيرِ المُزنِ هَطّالِ[3]

---

١ طرّاقاً : اي ضيوفا .

٢ فلول : ثلوم .

٣ جنّ : ضمّ وحوى .

فالأعظُم جمع قلة ، مع ان جسم الانسان يحتوي اكثر من عشر عظام.

وهكذا يمكن القول في الأفعال والأسماء التي تفيد الكثرة او القلة ؛ فالأغر يُغني عن الابيض ، وان دلّ في اصله على بياض الجبهة ، فيقال وجه أغر ، ولا يراد به الجبين وحده . ولَمع يقوم مقام اشرق توسعاً ، وعلى سبيل المجاز . ونرى ان قوله : « يلمَعْنَ في الضحى » اوقع من ان يقول : يشرقن ، لأن الجفنات تلمع في نور الشمس لمعاناً ولا تشرق إشراقاً .

ولا ندري أين ذهب الناقد بالموضع الثامن الذي ضعّف فيه حسّانُ بيته ؛ فهو لم يذكر لنا إلاّ سبعة مواضع . ومن الغريب ان ينقل الرواة هذا النقد على اختلاطه مطمئنين ، دون ان يبحثوا عن الموضع الثامن الضائع ، او ان يتشكّوا فيه وفي نسبته الى الخنساء .

على اننا اذا تركنا النقد الأدبي جانباً ، ونظرنا الى هذه الرواية من حيث التاريخ تبين لنا جلياً اصطناعها ، وخطأ اسنادها الى الخنساء . ذلك بان صخراً أخاها قُتل في يوم الكُلاب او يوم ذات الاتل نحو سنة ٦١٥ م . ونحن نعلم ان النابغة مات سنة ٦٠٢ م اي في السنة التي قُتل فيها النعمان ابن المنذر ، او في سنة ٦٠٤ م على رأي بعضهم ، فكيف تسنّى للخنساء ان ترثي صخراً ، وتقف « برائيتها » في سوق عكاظ ، وتنشدها امام النابغة مع ان النابغة هلك قبل اخيها بنحو احدى عشرة سنة على اقل تقدير ؟.. فالرواية ، كما ترى ، باطلة من اساسها ، وربما كانت أثراً باقياً من عداء القرشيين والانصار ، اريد باختلاقها الطعن في شاعرية حسّان بن ثابت الانصاري .

الحطيئة

(ادرك معاوية[1])

حياته	:	نسبه ولقبه . خبره في الاسلام . رقة دينه وارتداده . هجاؤه الزبرقان. حبسه واطلاقه وخبره عند عمر بن الخطاب. الاختلاف في موته . ادرك معاوية . وصيته . اخلاقه .
آثاره	:	ديوان في المديح والفخر والنسيب ، خصوصاً الهجـاء . من اصحاب المشوبات .
ميزته	:	يروي شعر زهير ، ويحذو حذوه في تهذيب قصائده والاعتماد على الصور المادية . هجوه يلدغ ولا يفحش . هجوه الزبرقان . هجاؤه التجاري ، وهجاؤه العاطفي . مدحه . استعطافه عمر . تأثره بالقرآن . ميزته : حلاوة ألفاظه ووضوح معانيه . بعده من الاسفاف .

حياته

هو جَرْوَل بن أوس بن مالـك العبسي ، ينتهي نسبـه الى مُضَر ، ويُلَقَّب بالحُطَيْئة لقِصَره وقربه من الأرض ، ويُكْنى أبا مُلَيكة ، ومُلَيكة ابنته ، ولكنّ لقبَه غلب على كُنيته .

وكان مغموزاً في نسبه ، لأن أُمه أَمة يقال لهـا الضرّاء ، وأباه اوساً مات ولم يعترف به . وكان لأوس زوجة حرّة من بني ذُهل له منها ولدان ، وكان للذُهليـة أخ يسمى الأفقَم لفَقَمه[2] . فلما وُلد الحطيئة جاء دميماً شبيهاً به ؛ فنسبته الضرّاء الى الافقم ولم تنسبه الى أوس خوفاً من مولاتها ،

---

[1] معاوية بن ابي سفيان اول خليفة اموي . مدة خلافته من سنة ٦٦١ الى ٦٨٠ م. و٤١ الى ٦٠ هـ.

[2] الفَقَم : ان تدخل الاسنان العليا في الفم وتخرج السفلى .

فنشأ الحطيئة مُتدافع النسب بين القبائل . فكان اذا دفعته عبس غضب عليها وقال انا من ذُهل، وإذا دفعته ذهل غضب عليها وانتسب الى عبس.

روي انه اتى أهلَ القُريَّة[1] وهم بنو ذُهل ، وطلب ميراته من الافقم ومدحهم بقوله :

إنَّ اليَمامَةَ خيرُ ساكِنِها أهْلُ القُرِيَّةِ ، مِنْ بَني ذُهْلِ

الضَّامِنُونَ لِمالِ جارِهِمُ ، حتى يَتِمَّ نَواهِضُ البَقْلِ[2]

قومٌ إذا انتَسَبُوا ، ففَرْعُهُمُ فرعِي ، وأثبَتُ أصْلِهِمْ أصلي

فدفعوه ولم يُعطوه شيئاً ، فحوّل المديح هجاء :

إنَّ اليَمامَةَ شَرُّ ساكِنِها أهْلُ القُرَيَّةِ ، مِنْ بني ذُهْلِ

ثم عاد الى بني عبس وانتسب الى أوس بن مالك .

الحطيئة والاسلام

وادرك الحطيئة الاسلام فانتحله ديناً ، ولكنه كان مغموز العقيدة كما كان مغموز النسب . فلمّا توفي النبي ارتدَّ الحطيئة في جملة المرتدين وقال في ذلك:

أطَعْنا رَسُولَ اللهِ إذ كان بَيْنَنا ، فيا لَعِبادِ اللهِ ، ما لأبي بَكْرِ ؟

أيُورِثُها بَكْراً ، إذا مات ، بَعْدَهُ ، وتِلكَ ، لَعَمْرُ اللهِ ، قاصِمَةُ الظَهرِ[3]

---

١ القُريَّة : قرية في اليمامة .

٢ المال : النَّعَم ويكون من الابل والشاء . البقل : النبت . يقول : انهم يحفظون لجارهم انعامه ويضمنون له علفها حتى ينهض البقل ويخصب المرعى . يشير بذلك الى ميراثه فيقول انه محفوظ عندهم .

٣ أيورثها : فاعلها ابو بكر . والضمير عائد الى الخلافة المقدّرة . يقول : اذا مات ابو بكر أيورث الخلافة بعده بكرا ؟ قاصمة : قاطعة . وقاصمة الظهر : الداهية التي تقطع الظهر .

ولكنه لم يجاهر بكفره ، بل ظلّ يتكلف الدين رهبةً لا رغبةً ، وفي نفسه ما فيها من النزوع الى عيشة البدويّ الحر الذي لم يكن قبل الاسلام يتقي سلطاناً ، ولا يرعى نظاماً .

هجاؤه الزبرقان[1]

كان النبيُّ قد ولّى الزّبرقان بن بدرٍ التميميَّ عَمَلا . فلمّا وَلِيَ الخلافةَ عُمَرُ بنُ الخطاب قدم عليه الزّبرقان في سنة مُجدبة ليؤدي صدقات قومه. فلقيه الحُطيئة بقرقرى[2] ومعه ابناه أوس وسَوادة ، وبناته وامرأته . فقال له الزبرقان وقد عرفه ، ولم يعرفه الحطيئة : « اين تريد ؟ » قال : « العراق فقد حطَمَتنا هذه السنة . » قال : « وتصنع ماذا ؟ » قال : « وددتُ ان اصادف بها رجلا يكفيني مؤونة عيالي وأصفيه مدحي أبداً . » فقال له الزبرقان : « قد اصبته ، فهل لك فيه يوسعُك لبناً وتمراً ، ويجاورك أحسن جوار واكرمه ؟ » فقال له الحطيئة : « هـذا وابيك ، العيش ، وما كنت ارجو هذا كله . » قال : « فقد اصبته . » قال : « عند من ؟ » قال : « عندي . » قال : « ومن انت ؟ » قال : « الزبرقان بن بدر . » قال : « واين محلك ؟ » قال : « اركب هذه الابل ، واستقبل مطلع الشمس ، وسل عن القمر حتى تأتي منزلي . » وكتب الى زوجته ان تحسن اليه .

فسار الحطيئة وعياله الى منزل الزبرقان ، فلقي من زوجته اكراماً واحساناً . فبلغ ذلك بَغيض بن عامر بن شمّاس... ابن قُرَيع التميمي ،

---

١ الزبرقان : القمر والرجل الخفيف اللحية .
٢ قرقرى : أرض باليمامة فيها قرى وزروع ونخيل .

وكان جده جعفر يُلقب بأنف الناقة[1] ، فأرسل الى الحطيئة ان يأتيه فأبى ؛ فدسَّ بغيض واخوته الى هُنَيدة امرأة الزبرقان ان زوجها انما يريد ان يتزوج مُلَيكة بنت الحطيئة ، وكانت جميلة كاملة . فظهرت من المرأة للشاعر جفوة ، وهي في ذلك تداريه. ثم ارادوا النُّجْعة[2] فتقدموه ، وتركوه يومين او ثلاثة ولم يرجعوه اليهم . فألح عليه بنو انف الناقة وقالوا له : « قد تُركت بمَضْيَعة . » فأجابهم الحطيئة وسار معهم فضربوا له قبةً ، وربطوا له بكل طُنُب[3] من اطنابها جُلَّةَ هَجَرية[4] واراحوا[5] عليه إبلهم، وأكثروا له من التمر واللبن ، واعطوه لِقاحاً[6] وكسوة . فلمّا قدم الزبرقان سأل عنه فأخبر بقصته ، فركب فرسه واخذ رمحه ، وسار حتى وقف على نادي بني شماس القُرَيعيين ، فقال : « ردُّوا عليَّ جاري . » فأبوا ، وأوشك ان يكون بين الحيين حرب . ثم خُيِّر الحطيئة فاختار القريعيين .

---

١ سمي جعفر انف الناقة لان اباه قريعاً نحر ناقة وقسمها بين نسائه فبعثت جعفراً هذا امه ، فأتى اباه ولم يبقَ من الناقة الا رأسها وعنقها ، فقال: « شأنك بهذا . » فأدخل يده في انفها وجر الرأس . فلقّب بأنف الناقة . وكان ابناؤه يستحون بهذا الاسم حتى مدحهم الحطيئة بقوله :

قومٌ هُمُ الأنف والأذنابُ غيرُهُمُ ، ومَن يساوي بأنف الناقة الذنبا ؟

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ، ويمدون به اصواتهم في جهارة .

٢ النُّجعة : طلب الكلأ في موضعه .

٣ الطُّنُب : حبل طويل يشد به وتد الخيمة .

٤ الجُلّة : وعاء يوضع فيه التمر . هَجَرية : نسبة الى هَجَر : بلاد البحرين وهي مشهورة بتمرها .

٥ اراح الابل : ردها في العشي من المراعي ، وأراحوها عليه : اي مروا بها عليه في المساء ليسقوه من لبنها .

٦ اللقاح : جمع لَقوح وهي الناقة الحلوب .

فجاء الزبرقان ووقف عليه وقال : «ابا مُليكة ، أفارقت جواري عن سُخطٍ وذمّ ؟» قال : «لا .» فانصرف وتركه .

فجعل الحطيئة يمدح بني انف الناقة من غير ان يهجو الزبرقان ، وهم يحضّونه على ذلك فيأبى ويقول : «لا ذنبَ للرجل عندي .» حتى ارسل الزبرقان الى رجل من النَّمِر بن قاسط ، يقال له دِثار بن شيبان ، فهجا بَغيضاً بأبياتٍ منها :

وما أضحَى لشمّاسِ بنِ لأيٍ   قديمٌ في الفَعَال ، ولا رَباءُ[1]

سوى أنّ الحُطَيئةَ قالَ قولاً ،   فهـذا مِن مَقالتِهِ جَزاءُ[2]

فحينئذٍ هجا الحطيئة الزبرقان وناضل عن بغيض في قصيدته التي يقول فيها :

دعِ المكارِمَ لا ترْحَل لِبُغْيَتِها ،   واقعدْ، فإنك أنت الطاعمُ الكاسِي

فاستعدى عليه الزبرقانُ عُمَرَ بن الخطاب ، فرفعه عمرُ اليه ، واستنشده القصيدة ، فأنشده اياها ، فقال عمر : «ما اسمع هجاء ولكنها معاتبة .» فقال الزبرقان : «اما تبلُغ مروءتي الا ان آكُلَ وألبَسَ ؟» فقال عمر : «عليّ بحسّان .» فجيء به ، فسأله ، وقال : «لم يهجُه ولكن سلَح عليه .» فألقاه عمر في بئر وحبسه ، حتى كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره ، فأخرجه من السجن . ودخل الحطيئة عليه فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ ،   زُغْبِ الحواصِلِ ، لا ماءٌ ولا شجَرُ ؟

فبكى عمَرُ . فقال عمرو بن العاص : «ما اظلّت الخضراء ، ولا أقلّت الغبراء أعدلَ من رجل يبكي على تركه الحُطيئة .»

---

١ الفَعال : كريم الفعال والأخلاق . الرباء : المنة والفضل .

٢ قوله : فهذا من مقالته جزاء ، اي هذا جزاء لمقالته فيهم .

وروي ان عُمر اشترى من الحطيئة اعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم وقال له : « إياك وهجاء الناس ! » قال : « اذن يموت عيالي جوعاً ، هذا مكسبي ومنه معاشي . »

موته ووصيته

اختُلف في تاريخ موته ، فزعم بعضهم انه مات في أواخر خلافة عمر ، وقال غيرهم انه ادرك معاوية بن أبي سفيان . ونحن نميل الى ترجيح القول الثاني استناداً الى اخباره وشعره . فقد جاء في الاغاني بالاسناد الى زيد بن أسلَمَ عن أبيه : « ان عمر بن الخطاب لما أطلق الحطيئة قال له : « يا حطيئة ، كأني بك عند فتى من قريش ، وقد بسط لك نمرُقةً[1] وكسر لك اخرى وقال : « غنّنا يا حطيئة » فطفقتَ تغنيه باعراض الناس . » فما انقضت الدنيا حتى رأيت الحطيئة عند عُبيد الله بن عُمر ، وقد بسط له نمرقة وكسر له اخرى ، وقال : « غننا يا حطيئة » فجعل يغنيه . فقلت له : « يا حطيئة أتذكر قول عمر ؟ » ففزع وقال : « يرحم الله ذلك المرء ، اما انه لو كان حيّاً ما فعلتُ . » وقلت لعُبيد الله : « سمعت اباك يقول كذا وكذا ، فكنتَ أنت ذلك الرجل . »

فمن هذه الرواية نستدل ان عمر بن الخطاب مات قبل الحطيئة ، وان الشاعر لم يهلك في أواخر خلافته كما زعموا . واما انه ادرك معاوية فهذا ما نرجع به الى رواية ثانية والى شعر الحطيئة نفسه .

قال ابن قُتيبة والأصفهاني : اتى الحطيئة مجلس سعيد بن العاص وهو

---

١ النمرقة : الوسادة يُتكأ عليها .

على المدينة يعشّي الناس ، فلما فرغ الناس من طعامهم وخفّ من عنده ، نظر فاذا رجل على البساط قبيح الوجه كبير السن رثّ الهيئة . وجاء الشُّرَط ليقيموه وهم لا يعرفونه . فقال سعيد : « دعوه . » وخاضوا في احاديث العرب واشعارهم ، فقال الرجل : « ما اصبتم من الشعر أحسنه . » قالوا : « أوَعندك علمٌ من ذلك ؟ » قال : « نعم . » قالوا : « فمن اشعر الناس ؟ » قال : الذي يقول :

لا أَعُدُّ الإقتارَ عُدْماً ، ولكنْ فَقْدُ مَنْ قد رُزِئتُهُ الإعدامُ[1]

واراد به أبا دُؤاد الإيادي . قالوا : « ثم من ؟ » قال : « حسبُكُمْ بي ، والله ، اذا وضعتُ احدى رجليّ على الاخرى ، ثم عويت في أثر القوافي عواء الفصيل الصادي[2] . » قالوا : « ومن انت ؟ » قال : « انا الحطيئة . » فرحب به سعيد وقال : « لقد اسأت في كتمانك ايانا نفسك ، وقد علمت توقنا اليك ومحبتنا لك . » واكرمه واحسن اليه . فقال يمدحه :

لعمري، لقد أضحى على الأمر سائسٌ بَصيرٌ بما ضرَّ العَدُوَّ ، أَريبُ[3]
سعيدٌ، فلا يَغْرُرْكَ خِفّةُ لَحْمِهِ ، تَخَدَّدَ عنه اللَّحْمُ ، وَهْوَ صليبُ[4]
إذا غِبْتَ عنَّا ، غابَ عنّا رَبيعُنا ، ونُسْقَى الغَمامَ الغُرَّ حين تَؤوبُ[5]

---

١ الاقتار : الفقر . العُدم : الحرمان ومثله الاعدام . رزئته : اصبت بـه . يقول : ليس الحرمان ان تفتقر بل ان تفقد عزيزاً .
٢ الفصيل : ولد الناقة اذا فصل عن أمه . الصادي : العطشان .
٣ اريب : عاقل .
٤ تخدّد عنه اللحم : خفّ عنه . صليب : أي صلب العود .
٥ الغمام: السُّحُب ، مفردها غمامة . الغُرُّ : البيض ، مفردها أغرّ وغرّاء . وأراد بالغمام الغر : غمام الربيع والمراد به الخصب ، ويصح تذكير الغمام لأنه من الجموع التي ليس بينها وبين مفردها غير الهاء . تؤوب : ترجع .

فنِعْمَ الفتى ! تَعْشُو الى ضَوءِ نارهِ ،   إذا الريحُ هَبَّتْ ، والمكانُ جديب[1]

وذكر ابن سلاّم شيئاً من هذا الشعر في طبقات الشعراء .

ومعلوم ان سعيد بن العاص لم يتولَّ امر المدينة الا في ايام معاوية ، مما يدل على ان الحطيئة ادرك هذا العهد .

ويُروى للحطيئة وصية قبل موته قد يكون فيها شيء من المبالغة والاصطناع ولكنها لا تخلو من الفكاهة ، ولا تعدو نفسية الشاعر ورقة دينه. قال ابن قُتيبة وصاحب الأغاني : « لما حضرت الحطيئةَ الوفاةُ اجتمع اليه قومه فقالوا : « يا أبا مليكه أوص . » فقال : « ويل للشعر من راوية السوء . » قالوا : « أوصِ رحمكَ الله يا حُطَيء . » قال : « مَن الذي يقول ؟:

إذا أنبَضَ الرّامُونَ عنها ترنّمَتْ   تَرَنُّمَ ثَكْلى أوجَعَتْها الجَنائزُ[2]

قالوا : « الشمّاخ . » قال : « أبلغوا غطَفان انه اشعر العرب . » قالوا : « ويحك أهذه وصية ! أوصِ بما ينفعك ! » قال : « أبلغوا اهل ضابيء[3] انه شاعر حيث يقول :

لكُلّ جديدٍ لذّةٌ ، غيرَ أنني   رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذِ

قالوا : « أوصِ ويحك بما ينفعك ! » قال : « ابلغوا اهل امرىء القيس ان اشعر العرب حيث يقول :

---

١ تعشو : تقصد في الظلام . اذا الريح هبت والمكان جديب : اي اذا اشتد الشتا وأمحل المرعى .

٢ أنبض الرامي القوس : جذب وترها لتصوّت ، شبه تصويتها ببكاء الثكلى .

٣ هو ضابىء بن الحرث اليَربوعي .

فيا لكَ مِنْ لَيْلٍ كأنّ نُجُومَهُ، بكلّ مُغارِ الفَتلِ، شُدّت بيَذبُلِ[1]»

قالوا : «اتقِ الله ودع عنك هذا .» قال : «ابلغوا الانصار ان صاحبهم[2] اشعر العرب حيث يقول :

يُغشَونَ حتى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ، لا يَسألُونَ عنِ السَّوادِ المُقبِلِ[3]»

قالوا : «هذا لا يُغني عنك شيئاً ، فقل غير ما أنت فيه .» فقال :

الشِّعْرُ صَعْبٌ، وطويلٌ سُلَّمُهْ، إذا ارتقى فيه الذي لا يَعْلَمُهْ ،
زلّتْ به الى الحضيضِ قَدَمُهْ، يُرِيدُ أنْ يُعرِبَهُ فيُعجِمُهْ[4]

قالوا : «هذا مثل الذي كنت فيه .» فقال :

قد كنتُ أحْياناً شديدَ المُعتَمَدْ، وكنتُ ذا غَرْبٍ على الخَصْمِ ألَدّ،
فوَرَدَتْ نفسي، وما كادَتْ تَرِدْ[5]

قالوا : «يا أبا مُليكة ألك حاجة ؟» قال : «لا والله ، ولكن اجزع على المديح الجيد يُمدَح به من ليس له اهلاً .» قالوا : «فمن أشعر الناس ؟»

---

١ مغار الفتل : اي حبل مُحكَم الفتل ، من أغار الحبل : احكم فتله . يذبل : اسم جبل . يقول : نجومه لا تغيب كأنها شُدّت الى الجبل بحبال مفتولة .

٢ حسّان بن ثابت .

٣ يُغشَونَ : يُطرقون وتنزل عليهم الضيوف . حتى : هنا ابتدائية لا تنصب المضارع . السواد : الشخص . يقول : لا تنبح كلابهم الضيوفَ لأنها تعوّدتهم ، وهم يضيفون الشخص المقبل دون ان يسألوا عنه .

٤ زلت : زلقت . الحضيض : القرار في الارض عند اسفل الجبل . يعجمه : معطوف على يريد ، ولا يصح نصبه عطفاً على قوله يُعربه لأنه لا يريد اعجامه .

٥ الغَرْب : الحدّ . ومنه غَرب السيف . ألدّ : شديد الخصومة . فوردتْ نفسي : اي اشرفت على الموت او اوشكت .

فأومأ بيده الى فيه وقال : «هذا الجُحَيرُ[1] ، اذا طمع في خير» يعني فمه ، واستعبر باكياً . فقالوا له : «قُل : لا إله إلا الله .» فقال :

قالت ، وفيها حَيْدَةٌ وذعْرُ : عَوذٌ بربي مِنكُمُ ، وحُجْرُ[2]

فقالوا له : «وما تقول في عبيدك وإمائك؟» فقال : «هم عبيدٌ قِنٌّ[3] ما عاقب الليل النهار .» قالوا : «فأوصِ للفقراء بشيء .» قال : «أُوصيهم بالالحاح في المسألة فانها تجارة لا تبور .» قالوا : «فما تقول في مالك ؟» قال : «للانثى من ولدي مثلُ حظ الذكر .» قالوا : «ليس هكذا قضى الله لهنّ .» قال : «لكني هكذا قضيتُ .» قالوا : «فما توصي لليتامى ؟» قال : «كلوا أموالَهم .» قالوا : «فهل شيء تعهد فيه غير هذا ؟» قال : «نعم ، تحملوني على أتان[4] وتتركوني راكبَها حتى اموت . فان الكريم لا يموت على فراشه ، والأتان مركبٌ لم يمتْ عليه كريمٌ قط .» فحملوه على اتان ، وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول :

لا أحَدٌ ألأمُ مِنْ حُطيئَهْ ، هَجَا بَنِيهِ ، وهَجَا المُرَيَّهْ ،

مِنْ لُؤمِهِ ماتَ على فُرَيَّهْ[5]

---

١ الجُحَير : تصغير الجَحْر وهو الغار البعيد القعر ، استعاره للفم . او الجُحْر وهو كل مكان تحتفره السباع والهوام لأنفسها .

٢ قالت : اي نفسه . الحَيدة : النفور من الخوف . عوذ بربي : أي العياذ بربي . حُجْر : دفع ، أي دفع لكم .

٣ القِنّ : عبد مملوك هو وابواه ، للمفرد والجمع والمؤنث .

٤ الأتان : الحمارة .

٥ المُرَيّة : تصغير المرأة مع التسهيل . الفُرَيّة : تصغير الفَرَأة وهي الأتان الوحشية وتطلق على الاتان الداجنة . والذكر الفرأ ومنه المثل : «كل الصيد في جوف الفرا» اي كل صيد دون حمار الوحش ، يضرب للرجل يكون له حاجات كثيرة وواحدة عظيمة منها تغني عن سائرها .

ليست اخلاق الحطيئة مما يورث الحمد والثناء ، فما تشاء ان تقول فيه من عيب الا وجدته ، فهو كما وصفه الأصمعي : «جَشِعٌ ، سؤول ، مُلْحِفٌ[1] ، دنيء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيل . » ولعلّ الجشع[2] هو الصفة الجامعة لسائر صفاته القبيحة . لأن طمعه الشديد في المال جعله سؤولاً ملحفاً ، وكثرة التسآل تميت عزة النفس وتحيي الدناءة . ولا بدّ لدنيء النفس من ان ينافق في مصاحبة الناس ، ويتلوّن بألوان متباينة ، ولا سيما اذا كان كالحطيئة معتلّ النسب ، انكره اقرباؤه وما اعترف به ابوه ، ولم يشرُف بأمه ، فساءت حاله ، وضاق رزقه ، فلم يربأ بنفسه عن المداهنة للتكسب والانتفاع ، فنافق في مدحه ، ونافق في دينه ؛ وجارى أهواء الناس في أعدائهم ، وجارى هوى نفسه للانتقام والتشفي ، فهجا وآلم في هجائه ، فكثر شرُّه وقلّ خيره . ولم يكن بخله الشديد الا صفة متممة لجشعه ودناءته . فما قولك برجل يمدح الكرام ، ويهجو البخلاء ، وهو ابخل خلق الله وأجفُّه يداً[3] ؛ يطرد أضيافه ويشيّعهم بالهجاء .

وللحطيئة في ضيوفه أخبار عجيبة ، رواها صاحب الأغاني ، منها : ان ابن الحمامة مرّ به وهو جالس بفناء بيته ، فقال : «السلام عليكم . » قال : «قلتَ ما لا ينكر . » قال : «اني خرجتُ من عند اهلي بغير زاد . » فقال : «ما ضمنت لأهلك قِراك . » قال : «أفتأذن لي ان آتي ظلّ

---

١ المُلحف : الذي يلح في المسألة .
٢ الجَشَع : الطمع والحرص على الشيء .
٣ اجفه يداً : اي أجفّ حلوق . وهو تعبير مستحَبّ يكثر استعماله في كلام العرب الأقدمين .

بيتك فأتفيأ به ؟» قال : «دونك الجبلَ يَفيء عليك .» قال : «انا ابن الحمامة .» قال : «انصرف ، وكن ابن ايّ طائر شئت .»

وضافه رجل من بني رُؤاس فهجاه بهذين البيتين :

وسَلّمَ مرّتين ، فقُلتُ : «مَهْلًا ! كَفَتْكَ المرّةُ الأولى السَّلاما»
ونَقْنَقَ بَطنُهُ ، ودَعا : رُؤاساً ، لِما قد نالَ مِنْ شِبَعٍ ، وناما[1]

على ان في هذا الرجل صفةً حسنةً ، لعلها تشفع له في شيء من جشعه وبخله ، وهي حبه لأولاده وحنوّه عليهم . فقد رأيناه كيف استعطف عمر بن الخطاب وأبكاه بقوله : «ماذا تقولُ لأفراخ بذي مرخ ؟» وروى أبو عبيدة : ان الحطيئة اراد سفراً فأتته امرأته ، وقد قدّمت راحلته ليركب ، فقالت :

أذكُرْ تَحَنُّنَنا إليكَ وشَوقَنا ، وأذكُرْ بَناتِكَ ، إنهنّ صِغارُ

فقال : «حطّوا ، لا رحلتُ لسفرٍ أبداً .»

ويحدثنا محمد بن سلاّم : ان الحطيئة خرج في سفر له ، ومعه امرأته أمامة وابنته مُلَيكة ، فنزل منزلاً وسرّح ذَوداً له ثلاثاً ، فلمّا قام للرّواح فقد احداها فقال :

أذِئبُ القَفْرِ ، أمْ ذِئبٌ أنِيسٌ أصابَ البَكْرَ ، أم حدَثُ الليالي ؟[2]
ونحنُ ثلاثةٌ ، وثلاثُ ذَوْدٍ ، لقد جارَ الزّمانُ على عِيالي[3]

---

١ نقنق : قرقر . رؤاس : من بني كلاب . يقول : حين شبع بطر ونادى : يا لَرؤاس
٢ البكر : من الابل بمنزلة الفتى من الناس ، يطلق على الذكر والأنثى .
٣ الذّود : الثلاث من الابل الى العشر ، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها .

ففي هذين البيتين ، وفي عدوله عن السفر ، وفي استعطافه عمر عاطفة صادقة وحنو ظاهر ملموس .

آثاره

ديوان في المديح والفخر والنسيب ، وخصوصاً الهجاء. وهو من اصحاب المشوبات[١] ومشوبته مدونة في «جمهرة أشعار العرب» ومطلعها :

نَأَتْكَ أُمامةُ إلاَّ سُؤالا ، وأبْصَرْتَ منها بعينٍ خَيالا[٢]

ميزته

عرفنا اخلاق الحطيئة وصفاته ، وعرفنا شيئاً من أخباره وطرق معيشته ، فيمكننا الآن ان نستند اليها جميعاً لنتبين ميزة الشاعر وخصائصه ومنزلته. فشعر الحطيئة صورة ناطقة عن حياته واخلاقه ، وهجاؤه أصدق ترجمان لسرائر نفسه .

على اننا لا نستطيع ان نجلوَ اساليبه الخاصة في النظم الا اذا عرفنا انه كان يروي شعر زهير بن أبي سلمى ، ويحذو حذوه في تهذيب قصائده وتنقيحها ، ويضرب على غراره في الاعتماد على الصور المادية المحسوسة .

ولكعب بن زهير أبيات في الحطيئة تدلنا على مبلغ تأثر هذا الشاعر باستاذه وعنايته بتنخُّل[٣] اشعاره . روى ابن سلاَّم : ان الحطيئة كان

---

١ المشوبات : القصائد التي شابها الكفر والاسلام ، اي خالطها .

٢ نأتك : بعدت عنك . أُمامة : زوجته . الا سؤالاً : أي ولم يبقَ لك منها الا السؤال عنها . وأبصرت منها بعين خيالا : أي أبصرت خيالها في رقادك . وهو يخاطب نفسه على سبيل التجريد .

٣ التنخل : تخيُّر افضل الأشياء .

راوية لزهير وآل زهير ، فقال لكعب : « قد علمت روايتي شعركم اهلَ البيت ، وانقطاعي اليكم ، وقد ذهبت الفحولُ غيري وغيرك ، فلو قلتَ شعراً تذكر فيه نفسك ، وتضعُني موضعاً بعدك ، فان الناس لأشعاركم أروى ، وإليها أسرع . » فقال كعب :

فَمَنْ لِلقَوافي شانَها مَنْ يَحُوكُها ، إذا ما ثَوى كعبٌ وفوَّزَ جرولُ[1]
كفَيتُكَ ، لا تَلقى من الناس واحداً ، تَنَخَّلَ منها مثلَ ما نَتَنَخَّلُ[2]
نُثَقِّفُها حتى تَلِينَ مُتونُها ، فيَقْصُرُ عنها كلُّ ما يُتَمَثَّلُ[3]

فمن هذه الأبيات نعلم مذهب الحطيئة في تنقيح قصائده وتخير ألفاظها ، وهو مذهب زهير وأبناء زهير . واثر هذا التنخل ظاهر في حلاوة ألفاظ الشاعر ووضوح معانيه .

هجوه

قد يخيّل الى بعض من يسمعون بشهرة الحطيئة في الهجاء ، والنيل من أعراض الناس ، اننا سندرس فيه شاعراً بذيئاً فحّاشاً ، يخجل الأديب من رواية اشعاره . على حين ان الحقيقة غير ذلك ، فلئن كان الحطيئة اكثر شعراء الجاهلية هجواً ، لهو اقلهم فُحشاً ، وربما غلبت العفة على لسانه فما ينطق بما تستحي العذراء ان تتلوه لأبيها . ولو نظرنا الى قصيدته التي قالها

---

١ شانها : عابها . يحوكها : ينسجها أي ينظمها . ثوى : مات ، وكذا فوّز ، ولا يقال فوّز فلان حتى يتقدم الكلام كلام فيقال : مات فلان وفوّز فلان بعده ، يشبه بالمصلّي من الخيل بعد المجلّي .

٢ يقول : يكفيك انك لا تجد واحداً من الناس مثلنا يتخيّر منها مثل ما نتخير .

٣ نثقفها : نقوّمها . والتثقيف يكون لقناة الرمح ، استعاره للقوافي . يُتَمَثَّل : يُضرب مثلاً . اي يقصر عنها كل بيت يُضرب مثلاً .

في الزبرقان ، وهي اشدّ قصائده الهجائية لذعاً وابعدها صيتاً ، لوجدنا انها من اشرف الشعر ، وأعفّه وانقاه . فهو مؤلم في هجائه ، ولكنه لا يفحش ، بل يقصر همه على رمي مهجوّه بالبخل ، وضعف الهمة ، والقعود عن طلب المعالي ، او يفاضل بينه وبين خصمه فيفضل خصمه عليه . فكأنه يتوخى من هجائه ان يصيب الشخص في منزلته الاجتماعية ليس غير .

فلا ينبغي لك ان تعجب من قول عمر بن الخطاب للزبرقان : « ما اسمع هجاء ولكنها معاتبة . » فعفة القول هي التي جعلت الخليفة الثاني ينكر الهجو ويحمله على محمل العتاب . زد على ذلك براعة الفن ، فان هجاء الزبرقان على شدة لذعه ، منظوم في قالب شكوى يتخللها وعظ ومعاتبة . فنظر الإمام عمر صائب من حيث الظاهر ، ونظر حسّان بن ثابت صائب من حيث الفن . أفليس من العتاب والشكوى قوله : « وقد مَدحتُكُمُ عَمْداً لأرشِدَكم ... أزمعتُ يأساً ... ، جارٌ لقوم ... ، ملّوا قِراه ... الخ . » أوَليست الحكمة السامية في تلك الموعظة : « من يفعل الخير ... » ثم ألا ترى الهجو القاتل في قوله : « دع المكارم ... وجرّحوه بأنياب ... ، لقد مَرَيْتُكُمُ لو أنّ دِرّتَكُمْ ... ، ما كان ذنبي ... ، قد ناضلوك ... الخ . »

وفي شعره صوَر حسّية ناتئة تذكّرك زهيراً وصوَر زهير ، فهو يترسم أستاذه في ابراز معانيه بشكل مادي ملموس ، تجده في تشبيهه الزبرقان بالناقة التي لا تدر ، وفي مسحه ضرعها وابساسه لها ، وتجده في استعارته المَتح والامراس لطلب العرف والتملّق ، وتجده في قوله : « ولم يكن لجراحي فيكمْ آسِ » وهو يريد فقره وسوء حاله . وتجده في تجريحه بالانياب والأضراس ، وفي تمثيله مغالبة بغيض والزبرقان بصَفاة راسية تقرعها المعاول

فتتثلّم دونها. وتجده اخيراً في تصويره مفاخرة آل شماس للزبرقان بنضال يُخرجون فيه من كنائنهم مجداً تليداً ونبلاً غير انكاس. واوصيك الا تغفل عن الصورة الجميلة حيث يقول: «في بائسٍ جاء يحدو آخر الناس.»

هذا، ولو لم يكن لنا رأي آخر في هجاء الحطيئة، لاكتفينا بهذا القدر مثالاً لهجوه ومتاجرته بشعره. غير اننا نرى ان هجاء هذا الشاعر على نوعين: نوع تجاري يندفع اليه حبّاً للمال، كهجوه للزبرقان، ونوع عاطفي يندفع اليه من تلقاء نفسه حبّاً للتشفي والانتقام، كهجوه أمه، ونفسه، وأقرباءه، واضيافه. وهو في هجوه العاطفي اشدّ مرارة ولذعاً منه في هجوه التجاري، لأن هذا يأتيه عفواً لا تكلفاً. فالحطيئة نشأ مغموز النسب لا يعرف اباه، ونشأ فقيراً محباً للمال حريصاً على جمعه، فكان لا ينفك يسأل امه عن ابيه لينتسب اليه ويرث ماله، وهي تخلط عليه ولا تجيبه جواباً صريحاً، فيشتد قهره، ويسخط على أمه الضرّاء وعلى نفسه، ثم يمضي وهو يقول:

تقولُ ليَ الضّرّاء: لستَ لِواحِدٍ،
ولا اثنين، فانظُرْ كيفَ شِركُ أولئكا!

وأنتَ امرُؤٌ تَبغي أباً قد ضَلَلْتَه،
هَبِلْتَ! ألَمّا تَستَفِقْ من ضلالكا؟[1]

ويشجوه الا يجد مالاً يرثه فيتلظى سُخطاً، ويزفر زفرات ملتهبة يقذفها براكين على الضرّاء.

---

[1] هَبِلْتَ: اي ثَكِلتَ. قال ابن الاعرابي: يقال في الدعاء هَبِلت بالبناء للفاعل ولا يقال هُبلت بالبناء للمفعول.

وتتزوج امه رجلاً مغموز النسب كابنها يقال له الكلب بن كُنَيس ، فما يجد الحطيئة فيه خيراً ، ولا يرفع به رأساً ، فيهجوه ويهجو أمه معه . وليست نقمته على امه بأشدّ منها على نفسه ، فاذا ثارت به عاطفة الانتقام لبؤسه وفقره ، ولم يجد احداً يهجوه ، رأى من وجهه وقبح صورته موضوعاً للهجاء فيقول :

أَبَتْ شَفَتَايَ اليومَ إلاّ تَكَلُّماً   بشَرٍّ ، فما أدري لِمَنْ أنا قائِلُهْ
أرى لِيَ وجهاً شَوَّهَ اللهُ خَلقَهُ ،   فقُبِّحَ مِنْ وجهٍ ، وقُبِّحَ حامِلُهْ !

وحبه للمال بل بخله به يحمله على هجو ضيوفه هجواً صادقاً ، وقد أوردنا شاهداً على ذلك .

مدحه

قد نظلم الحطيئة اذا اقتصرنا على ذكر هجائه ولم نشر الى مدحه ، وهو متفنن في هذا تفننه في ذاك . ولا غرو ، فالمدح عنده كالهجاء آلة للتكسب ؛ فإذا لم يدرّ له المريُ والابساس ، استعان بالانياب والاضراس ، واذا أخلف غيثُ الهجاء ، استمطر عارض الثناء . الا وان من اروع الشعر استعطافه عمر بن الخطاب ومدحه اياه ففيه كثير من الحلاوة والرقة ، وكثير من الحنوّ الابوي . ومع ان الحطيئة لم يكن على شيء من الاسلام ، فتأثير القرآن ظاهر على شعره ، سواء في قوله : « فاغفِر ، عليك سلامُ الله يا عمرُ . » او في قوله : « من يفعل الخير لا يعدم جوازيه . » وكذلك صلة الصوَر المادية بينه وبين استاذه زهير لم تنقطع في قصيدته هذه ، ولا في غيرها ، وحسبك منه تشبيهه اولاده بالافراخ ، لمّا اراد الكلام عليهم ،

ثم لم يعتمد على الاستعارة المجردة بل رشّحها بقوله : «زغب الحواصل» ليزيد صورته الحسية وضوحاً وبروزاً .

وللحطيئة مديح كثير غير هذا اجاده كل الاجادة ، ولكننا نقتصر على ما ذكرنا ، لأننا أخذنا على انفسنا ان ندرس فيه خاصة الهجاء وحدها ، وهي الخاصة التي شهرته وخلّدت ذكره ؛ وعسانا ان نكون وفيناها بعض حقها .

منزلته

للحطيئة منزلة عالية في الشعر يزاحم بها افحل الشعراء ، ويماز بحلاوة ألفاظه ، ووضوح معانيه ، وصحة تعبيره ، وإحكام قوافيه ، وبعده من الضعف والاسفاف . ولعل الفضل في ذلك لعنايته بتهذيب شعره وتنخله . وقد عدّه ابن سلاّم في الطبقة الثانية ، وقال فيه : «هو متين الشعر شَرود القافية[1] .»

وروى حمّاد عن ابيه اسحق قوله : «أما اني ما أزعُم أنّ أحداً بعد زهير أشعر من الحطيئة .» وقال ابو عبيدة : «ما تشاء ان تطعن في شعر شاعر إلا وجدتَ فيه مطعناً ، وما اقلّ ما تجد ذلك في شعر الحطيئة .» ورُوي عن أبي صفوان الأحوَزيّ قوله : «ما من احدٍ إلا لو أشاء ان اجد في شعره مطعناً لوجدته إلا الحطيئة .» وقيل لابن ميّادة الشاعر : سبقك الحطيئة الى قولك : «تَمَشّى به ظِلمانُهُ وجَآذِرُه[2]» فقال :

---

١ القافية : اي القصيدة مجاز مرسل جزء من كل . وقافية شاردة وشرود : اي سائرة في البلاد .

٢ الظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام . الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . وتشبّه به الحسان لجمال عينيه .

« والله ما علمت ان الحطيئة قال هذا قط ، والآن علمتُ اني شاعر حين واطأت[١] الحطيئة . » وقال الاصمعي وقد أُنشد شيئاً من شعر الحطيئة : « أفسدَ مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع . »

ووقف الحطيئة على حسّان بن ثابت وهو ينشد ، فقال له حسّان : « كيف تسمع يا اعرابي ؟ » قال : « ما اسمعُ بأساً . » قال حسان : « اما تسمعون الى الاعرابي ! ما كنيتك ايها الرجل ؟ » قال : « ابو مُلَيكة . » قال : « ما كنتَ قط اهون عليّ منك حين اكتنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ » قال : « الحطيئة . » فأطرق حسان ثم قال له : « امضِ بسلام . »

وسئل الحطيئة : من اشعر الناس ؟ فأخرج لسانه ثم قال : « هذا اذا طمِع . » وقد صدق بقوله ، وهو اشهر الشعراء الهجّائين الذين كثر عددهم في الاسلام .

---

١ واطأه : وافقه ، اي وطأ موطأه .

النثر في الجاهلية

النثر	: معناه اللغوي . تأخر ظهوره عن الشعر . ما وصل الينا منه . مخيلة الانسان الفطري وحسه . الكتابة في الجاهلية وتدوين الآداب .
ميزة النثر الجاهلي	: موسيقي مسجع وموزون احياناً دون تكلف .
الخطب	: قصيرة لقلة تعدد اغراضها ، ولكي تحفظ . اندماجها في الشعر . مكانة الخطب عندهم . لم تكن الخطابة قائمة على القواعد العامة بل على السليقة والفطرة . مواضيع الخطب .
الأمثال	: فائدتها : تمثل اخلاق الشعب واحواله . اختلاط الامثال الجاهلية بالاسلامية . اين ينبغي ان ندرس النثر الجاهلي ؟

النثر

النثر لُغَةً رَمي الشيء متفرقاً ، وعكسه النظم فهو الضم والتأليف ، ومن ذلك قال الأدباء : كلام منثور اذا كان لا يقيّده وزن وقافية ، وكلام منظوم اذا كان موزوناً مقفّى[1] .

والنثر خلاف الشعر يغلب فيه التفكير الصحيح على الخَيال المطلق ، فلا غرو اذاً ان يتقدم الشعرُ النثرَ ، لأن الشعب في فطرتـه خيالي عاطفي أكثر منـه عاقلاً مفكـِّراً . ونحن في كلامنا على النثر نعني به الانشاء الفني لا الكَلِمَ الذي تتخاطب به الناس .

وانه لمن العبث ان نلتمس هذا الفن في الجاهلية ، ونضعه في درسنا الى جانب الشعر ، لأن ما وصل الينا منه زهيد لا يُعتدُّ به . والسبب في ذلك

---

١ النظم والنثر في معناهما الادبي مولـّدان ظهرا مع علم الأدب .

ان الانسان الفطري ، على اميته ، فيه من قوة المخيلة والحس ما يفسح له في مجال التعبير الشفهي عن عواطفه وتصوراته دون ان يحتاج الى الكتابة . ومعلوم ان الحياة الجاهلية ، في حدودها السياسية والاجتماعية ، لا تتسع للفن الكتابي الذي انما هو ينشأ بنشوء الجماعات المنظمة ، وينمو بنمو القوى المفكرة ، ويعظم بعظم الحاجة اليه .

ورب معترض يقول ان الكتابة كانت معروفة عند العرب في جاهليتهم. فنحن لا ننكر ذلك ، ولكنهم كانوا يعتمدون عليها في حاجاتهم الاقتصادية ، لا لتدوين شعرهم او نثرهم . واذا كان الشعر الجاهلي وصل الينا منه شيء غير قليل ، فلأن العرب في جاهليتهم نظموا أكثر مما نثروا ، ولأن الشعر اسهل للحفظ والرواية من النثر .

ميزة النثر الجاهلي

النثر في الجاهلية موسيقيّ كالشعر ، تتخلله احياناً جمل موزونة مسجعة يأتي بها البدويُّ دون تكلفٍ . واكثر الجمل قصيرة موجزة ، فيها قوة وبلاغة تعبير . ويمكننا ان نجد امثلة للنثر الجاهلي في بعض ما وصل الينا من الخطب والأمثال ، ولكن هذه الامثلة ، على قلتها ، لا تكفي وحدها لابداء رأي صحيح في هذا الفن الأدبي .

الخطب

لم يكن حظ الخطابة في العصر الجاهلي كحظها في صدر الاسلام ، ولكنها وُجدت فيه على قدرٍ ما ، واشتهر خطباء مصاقع كقُس بن ساعدة الإيادي ، وأكثم بن صيفي التميمي وغيرهما .

وأكثر ما كانت الخطب عندهم قصيرة ، لقلة تعدد اغراضها ، ولانها اسهل للحفظ . وكانوا يتخيرون لها الالفاظ المأنوسة ، والمعاني الواضحة بغية التأثير والاقناع . وربما تخللها الشعر دون تعمد من الخطيب ، لأن نثرهم ، بما فيه من رنة موسيقية وتقيُّد احياناً بالوزن والقافية ، يندمج في الشعر من تلقاء نفسه ، فيتحوّل نظماً ثم يعود الى حاله . وربما لا يشعر الخطيب بهذا الاندماج لتشابه النثر والشعر عندهم .

على ان هذا التشابه لا يعني ان العرب في جاهليتهم لم يفرقوا بين النظم والنثر . فقد كان للشعراء مكانةٌ ، وللخطباء مكانة دونها . فالشعر أحفظ لمفاخر القبيلة وانسابها ، لأنه اسهل للرواية . ولو كان النثر عندهم كالشعر لوصلت الينا خطبهم في كثرتها ، كما وصلت الينا أشعارهم .

وقد يكون الشاعر خطيباً ، والخطيب شاعراً ولكن تغلب عليه احدى الصفتين فيسمّى بها . وغالباً يكون خطيب القبيلة شيخها أو أميرها ، وقد يكون قاضيها وقائدها معاً .

وبعدُ فلا يسوغ لنا ان نعدّ الخطابة في الجاهلية مرتكزة على القواعد العامة ، فانها انما كانت كالشعر تأتي بعامل السليقة والفطرة ، لا بالاعتماد على الفن التعليمي وما فيه من مقدمات ونتائج . وكانت موضوعات الخطب محصورة في اغراض محدودة :

١ — المواعظ الدينية .

٢ — المفاخرة والمنافرة[١] .

---

١ المنافرة : المحاكمة في الحسب والنسب والمفاخرة فيها . وكانوا يتنافرون الى الناس في ذلك ليقضوا لأحد المتنافرَين على الآخر . وفي المنافرة يقوم الشاعر او الخطيب من كل فريق فيبين مفاخر قومه ومعايب منافريهم ، فمن فخر الآخر نفّروه على خصمه .

٣ — التحريض على الأخذ بالثأر .

٤ — الحض على الصلح بعد الحرب .

٥ — الوصايا والنصائح[١] .

وجميع هذه الموضوعات تناسب الحياة البدوية ، وما في القبائل من اختلاف وانفصال واستقلال .

الأمثال

للعرب في جاهليتهم اقوال كثيرة ذهبت امثالاً . فمنها ما كان شعراً ، ومنها ما كان نثراً . وقد جمع المَيداني طائفة كبيرة منها في كتابه الموسوم : «بمجمع الأمثال» ولهذه الأقوال فائدة لا تنكر، لصدورها عن مختلف طبقات الشعب ، فيمكننا ان نعرف فيها شيئاً كثيراً من أخلاق العرب وأحوالهم . وهي في جملها القصيرة تمثل بلاغة الجاهلي وايجازه ، ومقدار ما وصل اليه من قوة التعبير . ولكن الامثال الجاهلية مخلوطة بالامثال الاسلامية ، فلا يتسنى التمييز بينهما الا اذا كان في المثل ما يدل على جاهلية صاحبه وهاك شيئاً منها :

إنَّ الهَزِيلَ إذا شَبِعَ ماتَ[٢]. أوَّلُ الشَّجَرَةِ النَّواة[٣]. أمُّ الجَبانِ لا تَفْرَحُ ولا تَحْزَنُ[٤] . أَتى عَلَيْهِمْ ذو أَتى[٥] . إنَّ أخاكَ مَنْ

---

١ منها وصايا الآباء لبنيهم عندما تحضرهم الوفاة ، ونصائح الكهان والعرافين والحكماء والشيوخ.

٢ يُضرب لمن استغنى فتجبر .

٣ يُضرب للأمر الصغير يتولد منه الكبير .

٤ لأنه لا يأتي بخير ولا شر ايما توجه لجبنه .

٥ هذا من كلام طيء وذو عندهم بمعنى الذي ، اي اتى عليهم الذي أتى على الخلق من حوادث الدهر .

آسَاكَ[1] . إنْ كنتَ كَذوباً فكُنْ ذَكُوراً[2]. بكلّ وادٍ أثرٌ مِنْ تَعْلبة[3] . بَرْقٌ لو كان له مَطَرٌ[4] . المَرءُ بأصْغَرَيْهِ[5] .

على انه لو أُتيح لنا معرفة الامثال جاهليها واسلاميها ، لما اعطتنا صورة تامة عن النثر قبل الاسلام ، لانها جمل مقتضبة لا تنشىء في ذاتها ادباً صحيحاً نستطيع التعويل عليه . واذا كان لا بدّ لنا من درس النثر الجاهلي على حقيقته فلا ينبغي ان نلتمسه في الجاهلية استناداً الى خطبهم وامثالهم ، بل في صدر الاسلام استناداً الى خطب النبي والخلفاء الراشدين والأمراء وغيرهم من الصحابة ، فان فيها مثالاً صادقاً للنثر العربي في جاهلية اصحابه .

---

١ آساك : جعلك اسوة لنفسه ، يضرب في الحث على مراعاة الاخوان .
٢ يُضرب للرجل يكذب ثم ينسى فيحدّث بخلاف ذلك .
٣ قاله ثعلبي رأى من قومه ما يسوؤه فانتقل عنهم فرأى منهم ايضاً مثل ذلك .
٤ يُضرب لمن له حسن منظر ولا معنى وراءه .
٥ أي قلبه ولسانه .

*

صدر الاسلام

٦٢٢ - ٧٥٠ م.
١ - ١٣٢ هـ.

يبتدىء
بالهجرة النبوية ،
وينتهي
بسقوط الدولة الأموية وقيام
العباسيين .

لمحة تاريخية

النبي محمد :	مولده . نشأته . انفراده في الغار . نزول الوحي عليه . مَن آمن به ؟ انكار قريش دعوته . هجرته الى المدينة . التاريخ الهجري . الحرب بين المسلمين والمشركين . فتح مكة . انتشار الاسلام . موت النبي .
الخلفاء الراشدون :	ابو بكر . حروب الردة . فتح العراق . موته . عمر بن الخطاب . فتح اليرموك والقدس ودمشق وفارس . مقتله . عثمان بن عفان . حصره المناصب في اقربائه . غضب الشعب عليه . مقتله . فتح افريقية وقبرص . علي بن أبي طالب . اخلاقه وورعه . شجاعته . سياسته . تأليف حزب المعارضة . معاوية في دمشق . واقعة الجمل . واقعة صفين التحكيم . الخوارج . مقتل علي . الحسن بن علي . تنازله لمعاوية . مدة خلافة الراشدين .
الخلفاء الامويون :	نقل الخلافة من المدينة الى دمشق . جعل الخلافة وراثية . مدة خلافة بني أميّة . عدد خلفائهم . اولهم معاوية ، وآخرهم مروان . صدر الاسلام صدران : المخضرمون ، والأمويون . ميزة كل عصر على حدة .

محمد

وُلِدَ مُحَمَّدُ بن عَبْدِ الله بن عبد المُطَّلِب الهاشِمِيُّ القُرَشيُّ في مكة في سنة ٥٧٠ م. وأمه آمنة بنت وَهْب بن عبد مَناف من قرَيش. وكانت حاملًا بـه لمّا توفي زوجها أبوه ، ولم يترك لهما من المـال إلاّ خمساً من الابل ، وقطيعاً من الغنم ، وجارية . فكفل الصيَّ جدُّه عبد المُطَّلِب . ثم ماتت أمه ، ومات جدّه ، فكفله عمه أبو طالبٍ والد علي ، وكان قليل المال كثير العيال. فنشأ محمـدٌ يتيماً في كنف عمه ، حتى إذا بلغ الخامسة

والعشرين من عمره تزوج خديجة بنت خُوَيلد ، وهي في الأربعين من عمرها ، وكانت من اغنياء قريش واشرافهم ، فأمدته بمالها فأيسر واتسعت حاله .

وكان يميل الى العُزلة ، ويذهب الى غار قرب مكة يسمى غار حِرَاء ، فينفرد فيه متعبداً . وبينا هو نائم ذات ليلة في الغار ، نزل عليه الوحي ، وكان قد بلغ الأربعين ، فأخبر زوجه خديجة بما رأى ، فسارعت الى قبول دعوته ، ثم تبعه بعدها ابن عمه عليُّ بن أبي طالب ، وأبو بكر .

ولكنَّ قومه انكروا دعوته ، وسخروا منه وقالوا : «ساحرٌ أو مجنون .» ثم أخذوا يضطهدونه وأتباعه ، فيئس منهم ، فحوَّل وجهه شطر الطائف[1] ، ودعا أهلها ، فاذا هم أقسى من قريش ، واغروا به سفهاءهم فرجموه بالحجارة .

ثم علم ان قومه يريدون الايقاع به ، فهاجر من مكة الى يثرب مستخفياً ، فلقي في يثرب من أهلها قبيلتي الأوس والخزرَج اتباعاً يناصرونه فسُمُّوا الأنصار ، وسُمِّي الذين هاجروا مع النبي المهاجرين ، وسُمِّيت يثرب المدينة ، اي مدينة الرسول . ومن ذاك التاريخ يبتدىء التاريخ الهجري ، اي سنة ٦٢٢ م.

وساء القُرَشيين ان ينجوَ النبي ويحتمي في يثرب ، ويلاقي هناك انصاراً ، فناصبوا أهلها العداء ، وقابلهم هؤلاء بالمثل ، فقطعوا الطرق على قوافلهم ، فابتدأت الغزوات يتبع بعضها بعضاً ، وكان النصر في اكثرها حليف المسلمين ، حتى فُتَّ في عَضُد المشركين ، فغزا النبيُّ مكة بعشرة آلاف مقاتل فافتتحها سلماً في سنة ٦٣٠ م. و٩ هـ. ووقعت قريش في يده ،

---

[1] الطائف : بلد في الحجاز لبني ثَقيف .

فأمنهم وأسلموا. ثم دخل الكعبة وأزال ما بها من أصنام وصور وتماثيل. واخذ العرب يدخلون في الاسلام افواجاً بعد ان اسلمت قريش وهي صاحبة الزعامة هنـاك ، فتم النصر للنبي ، وبنى حجر الزاوية في الوحدة العربيـة الاسلامية ، وظل يسوسها حتى قُبِض يوم الاثنين في ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ. و٨ حزيران سنة ٦٣٢ م ، وكانت وفاته بالمدينة وفيها قبره .

الخلفاء الراشدون — ابو بكر

اختلفت الصحابة بعد موت الرسول فيمن يبايعونه بالخلافـــة ، فأبى المهاجرون من قريش إلاّ ان يكون الخليفـة منهم ، وأبى الأنصار عليهم ذلك ، وقالوا : « منا أمـير ومنكم امير . » واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فقال لهم أبو بكر : « منا الأمراء ومنـكم الوزراء ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين : عُمَر بن الخطاب وأبا عُبيدة بن الجرّاح . » فقام عمر وبايع أبا بكر ، وبايعه أبو عُبيـدة ، وبايعه الناس . فقال الأنصار : « لا نبايـع إلا عليّ بن أبي طالب . » وكان علي قد تخلف عن المبايعـة ، وتخلف معه بنو هاشم ، والزُّبَيْرُ بن العَوّام ، وطلحة بن عُبَيد الله . فما زال بهم عمر بن الخطاب حتى حملهم جميعاً على مبايعة أبي بكر ، فاستتب له الأمر. ثم ارتدت أغلب قبائل العرب عن الاسلام ، فحاربهم حتى خضد شوكتهم وأرجعهـم الى الدين . وفي ايامه افتتح خالد بن الوليـد العراق وضرب الجزية على اهله. ومات أبو بكر وجيوش المسلمين تحارب الاروام في اليرموك من أرض فلسطين . قيـل انه مات مسموماً في طبخـة أرز ، وقيل : بـل استحم في يوم شديد البرد فحمّ ومات . وكانت خلافته من ٦٣٢ — ٦٣٤ م و١١ — ١٣ هـ.

عمر بن الخطاب

وكان قد أوصى بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب فبويع بها . وعلى عهده تم فتح اليرموك والقدس ودمشق وفارس ومصر . ومات عمر مقتولاً ، قتله فَيروز أبو لؤلؤة غلام المُغيرة بن شُعبة من أجل خراج درهمين لم يعفه منهما عمر لورعه وحرصه على بيت المال. وكانت خلافته من ٦٣٤ — ٦٤٤ م و١٣ — ٢٣ هـ.

عثمان بن عفان

وكان عمر قد جعل قبل وفاته مجلس شورى للخلافة من ستة اشخاص، بينهم علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفّان ، فتشاوروا فيما بينهم وبايعوا عثمان بعد جدال .

وعلى عهد عثمان فُتحت افريقية وقبرص. ولكنه لم يكن محبوباً لحصره ولايات الحكم في أقربائه ، فطلب منه الناس ان يعتزل فأبى ، فحاصروه في داره أربعين يوماً ، ثم تسلق محمد بن أبي بكر مع رجلين حائط قصره ، فقتلوه بالحراب والعمد . وكانت خلافته من ٦٤٤ — ٦٥٥ م و٢٣ — ٣٥ هـ.

علي بن ابي طالب

ثم بويع عليُّ بن أبي طالب ، فتخلف عن مبايعته بنو أمية أقرباء عثمان ، وبعض الصحابة . وكان علي من الأبطال المغاوير والفرسان المعدودين ، ومن أفصح العرب وأخطبهم ، وأتقى الناس وأورعهم ، ولكنه لم يكن موفقاً في الخلافة ، لأنه لم يعرف ان يداهن في سياسته . وكانت عائشة زوج النبي تؤلب على عثمان وتطعن فيه رغبة منها في طلحة ، فلمّا بويع علي

ولم يبايع النـاس طلحة ، صرخت : «واعثماناه ! ما قتله إلا علي .» وعلم بالأمر طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وكانا بايعا علياً ، فرجعا عن مبايعتهما وانضما الى عائشة ، يناصبان معها ابن أبي طالب العداء .

ولم يكن معاوية يومئذ يطمع في الخلافة ، ولكنه توقع العزل عن ولاية دمشق فآلمه الخطب ، فجاهر بعداء علي ، وألف حزب «العثمانية» من أقرباء عثمان للمطالبة بدم الخليفة «الشهيد» أو «المظلوم» .

وذهب بنو أمية وعائشة ومحازبوهم الى البصرة ، فنتفوا لحية ابن حنيف أميرها ، فجاء المدينـة وقال لعلي : «بعثتني ذا لحية وقـد جئتك أمرد .» قال : «أصبت أجراً وخيراً .»

واقعة الجمل

ورأى علي ان الفتنة قائمة ولا بد من اخمادها ، فسار الى البصرة بسبعة آلاف مقاتل ، فالتقاه حزب عائشة وطلحة والزبير في جيش كبير ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وكانت عائشة على جمل تحرّض الرجال على الاقدام ، فرُمي هودجهـا وهو كالقُنفُذ لما علق به من النبـال ، بعد ان قُطع على خطام[1] الجمل سبعون يـداً . ولكنها لم تُصب بأذى ، وارجعها عليّ الى المدينـة مكرمة . وانتهت الواقعة بانتصار عليّ ، وقتل الزبير ، وجرح طلحة جرحاً لم يلبث ان مات به . وسميت هـــذه الحرب واقعة الجمـل اشارة الى جمل عائشة .

---

١ خطام : زمام .

واقعة صفين

ثم سار علي لمحاربة معاوية فقطع الفرات الى الرَقّة فالتقى جيوش معاوية في سهول صِفّين ، وهو موضع غربي الرقة على ضفة الفرات اليمنى ، فاقتتلوا ثم تهادنوا ، ثم اقتتلوا . وكانت «ليلة الهرير» احماها وطيساً ، اذ حمل الأشتر النَخَعيّ قائد جيوش علي حملةً زحزحت جيوش الشام عن مراكزها. وبينا جيوش العراق يتقدمون والنصر حليفهم ، اذ رأوا المصاحف[1] مرفوعة على رؤوس الحراب في جيش معاوية ، فهابوا ، وتوقفوا عن القتال ، فأخفق علي بحيلة عدوه . ثم اقترح عليه معاوية التحكيم ، فرضي به مُكرَهاً .

التحكيم

وأقام معاوية عنه حَكماً عمرو بن العاص، وهو داهية مثله . واقترح على علي اصحابه ان يقيم حكماً أبا موسى الأشعري ، وكان قصير الرأي ، فأقامه عليّ على غير رغبة منه. فأخلي للحكمين مكان يجتمعان فيه مدة ثلاثة ايام ، فأقبل عمرو بن العاص على أبي موسى بأنواع من الطعام يشهيه بها ، حتى اذا استبطن أخذ يقنعه بأن يخلع علياً وهو يخلع معاوية ، فتنجو الامة من الفتنة ، وتحقن الدماء . فرضي ابو موسى بذلك ، على ان يُبايع بالخلافة عبد الله بن عمر بن الخطاب .

ولما كان يوم التحكيم ، أجتمع القوم على مقربة من مكان يُعرف بدُومة الجَندَل ، فقام ابو موسى فخلع علياً ، ولكنّ ابن العاص لم يُسقط معاوية كما وعد وأقسم ، بل اثبته في الولاية على دمشق ، وأجاز له حق المطالبة

---

[1] المصاحف : نسخ القرآن ، واحدها مُصْحَف .

بدم الخليفة الشهيد . فاضطرب جيش علي لهذا الحكم ، وأبى علي ان يذعن له ، وأراد استئناف القتال ، ولكن شغله امر الخوارج من جيشه .

الخوارج

كان قسم كبير من جيش العراق رفض التحكيم ، فلما رأوا ما آلت اليه نتيجته غضبوا وخرجوا على عليّ ، ولم يرجعوا معه الى الكوفة ، بل ساروا الى حَرُوراء[1] ثم احتلوا المدائن[2] وعاثوا فيها فساداً ، نابذين كل سلطة متخذين شعارهم « الحكم لله لا للناس » . وحجتهم في ذلك ان علياً ومعاوية كافران ، فعليٌ كفر لأنه رضي بالتحكيم ، وشك فيما كان يعتقد من انه صاحب الحق الشرعي في الخلافة ، وما كان له ان يشك في هذا الحق . فاما وقد فعل فليس من الخلافة في شيء ، وقد تجاوز الدين فلا بدّ له من الاعتراف بالكفر ثم يتوب الى الله ، والا فالخوارج حرب عليه . ومعاوية كفر لأنه والٍ بغى على الخليفة ، فلما خشي الانكسار لجأ الى التحكيم خديعةً وكيداً ، فالخوارج عدوٌ له .

فلما استفحل امرهم قصدهم علي بجيشه فالتقوا بالنَّهْرَوان[3] فأكثر فيهم التقتيل وارجع بعضهم سلماً .

---

[1] حَرُوراء : قرية بظاهر الكوفة ، واليها ينسب الخوارج فيقال لهم الحرورية لأن اولهم خرج فيها .

[2] المدائن : يراد بها عدة مدن متجاورة وهي : المَوصل والسَّواد وحُلوان ومسابيذان وقِرْقيساء .

[3] النهروان : ثلاث قرى بين واسط وبغداد .

مقتل علي

ثم عاد علي الى الكوفة يتأهب لقتال معاوية . وفي اثناء ذلك اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل « ائمة الضلال » في ليلة واحدة وأرادوا بهم : علياً ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص . ولكن لم يُقتل من هؤلاء الثلاثة غير علي ، ونجا الآخران ، وقاتله عبد الرحمن بن مُلجَم ضربه بسيف مسموم وهو في مسجد الكوفة يريد الصلاة[1] فمات بعد ثلاثة ايام ، وعمره ٦٣ سنة ، وخلافته من ٦٥٥ — ٦٦١ م و٣٥ — ٤٠ هـ.

وبويع الحسن بن عليّ في الكوفة بعد مقتل ابيه ، ولكنه تنازل لمعاوية نفوراً من الحرب ، وكانت مدة خلافته خمسة أشهر من ٦٦١ — ٦٦١ م. و٤٠ — ٤١ هـ.

الخلفاء الامويون

استولى معاوية على الخلافة بدهائه ، وانتزعها انتزاعاً من ابن بنت الرسول[2] فجعل قاعدته دمشق بدلاً من المدينة ، لأن انصاره في الشام ولولاهم لما تم له الظفر . وتمكن بسياسته وحزمه من توطيد دعائم مملكته ؛ على ما كان يهددها من شر الخوارج الحرورية في الجزيرة ، ومن ثورات انصار علي وابنائه في الكوفة وما يليها من العراق . وبلغ به الأمر ان جعل الخلافة وراثة بعد ان كانت شورى ، ونادى بابنه يزيد ولياً لعهده ، وحذا حذوه من جاء بعده من الخلفاء .

---

١ كان ذلك في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ. و٢٤ كانون الثاني ٦٦١ م.

٢ الحسَن بن عليّ واخوه الحسين من فاطمة ابنة النبي .

وظلت الخلافة في بني أمية من سنة ٦٦١ — ٧٥٠ م. و٤١ — ١٣٢ ه. فتعاقب عليها منهم اربعة عشر ملكاً اولهم معاوية وآخرهم مروان بن محمد ابن مروان بن الحَكَم الملقب بالحمار لصبره على الأعمال . ثم انتقلت الى بني العباس .

فيتضح مما تقدم ان صدر الاسلام صدران : الأول عصر المخضرمين[1] اي الذين عاشوا في الجاهلية والاسلام وهو عصر النبي والخلفاء الراشدين . والثاني عصر بني أمية . فينبغي ان ندرس شعر كل عصر على حدة ، لأن ميزة الصدر الأول تختلف اختلافاً بيّناً عن ميزة الصدر الثاني . واما النثر فلا يصح درسه إلاّ اذا جمعنا العصرين معاً .

---

١ المخضرمون : اصل اللفظة مأخوذ من الناقة المخضرمة وهي التي قطع طرف اذنها . فكأن ما ذهب من عمر المخضرمين في الجاهلية ساقط لا يعتدّ به كما يسقط طرف اذن الناقة المخضرمة

الشعراء المخضرمون

ميزة الشعر المخضرم : له ميزة الشعر الجاهلي من حيث التعبير والايجاز ، وفيه خصائص التطور الجديد . اكتسب تعابير والفاظاً جديدة من القرآن . اصابه فتور بعد وفاة الرسول .

شعراء النبي وشعراء قريش : اخذ شعراء قريش يهاجون النبي واتباعه. فهاجاهم شعراء النبي. استفاد الشعر من هذه الملاحيات فنهض ، وكثر عدد الشعراء خصوصاً في قريش .

الشعراء المخضرمون : نظرنا اليهم من حيث زمن اشتهارهم في الشعر ، لا من حيث حياتهم في الجاهلية والاسلام .

ميزة الشعر المخضرم

لا نجد فرقاً بين الشعر الجاهلي والشعر المخضرم من حيث الايجاز وقوة التعبير ، وطريقة النظم ، وتعدد الموضوعات ، وبراعة الوصف ، الى غير ذلك مما مرّ بنا وعرفناه . فالشعر المخضرم جاهلي في أصله ، ولكن فيه خصائص جديدة : منها ما رأيناه في الشعراء الذين عاشوا في السنوات الملاصقة للاسلام او ادركوه ، فبدا لنا تطور في لغتهم ، ورقة في ألفاظهم ، ووضوح في معانيهم . ومنها ما انفرد به الشعر المخضرم عن الشعر الجاهلي فكان له ميزة خاصة .

ويمتاز الشعر المخضرم بتلك النفحة الدينية التي نفحه بها الاسلام بعد ظهوره ، فلا ترى فيه يأساً من الحياة وتبرماً بصيرها شأن الشعر الجاهلي ، بل تلمس به ارتياحاً شديداً الى نعيم الآخرة ، الى الجنة التي وعد بها القرآن المتقين . واكتسب الشعر المخضرم خصوصاً ، واللغة عموماً ، تعابير جديدة من القرآن ، وألفاظاً لم تكن مألوفة من قبل ، كالجنة والنار ، والكفر

والايمان ، والصلاة والزكاة ، والركوع ، والوضوء الخ ... وهذه الألفاظ كانت معروفة في الجاهلية ولكنها ، في اكثرها ، لم تكن تدل على معانيها المستحدثة في الاسلام . واكتسب الشعر ايضاً نوعاً جديداً وهو الهجاء السياسي ، هجاء مرّ مُقذع أليم ، كان بين شعراء النبي ، وشعراء قريش والأحزاب .

على ان الشعر أصابه فتور بعد وفاة النبي ، فلم يجد من الخلفاء الراشدين مشجّعاً ، وربما نهوا عنه ، وزجروا الشعراء . بَيدَ ان هذا الفتور لا يعني ان الشعر خمدت ناره ، فقد بقي في الشعراء طائفة لم تنصرف عنه كالحطيئة مثلاً ، وكعب بن زهير ، وحسّان بن ثابت ، والشمّاخ بن ضِرار ، والنابغة الجعدي وغيرهم . إلاّ انه لم يكن له ذلك الازدهار الذي عرفه في حياة الرسول .

شعراء النبي وشعراء قريش

عرفنا ان قريشاً انكروا على محمد دعوته وحاربوه نحو ثماني سنوات بعد هجرته . ولم تقتصر الحرب على السيف وحده ، بل كان للشعر فيها شأن كبير . فان شعراء قريش وأحزابها أخذوا يهجون النبي هجاء مرّاً ، ويسفّهون رسالته ، ويسخرون منها ، ويعيرون تابعيه الأنصار والمهاجرين . فاضطرّ النبيُّ ان يقابلهم بسلاحهم ، لما للشعر من التأثير في نفوس القبائل العربية ، فأرسل عليهم ثلاثة من شعراء الأنصار وهم : حسّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحة . فكان حسّان وكعب يعارضانهم بمثل أقوالهم ، ويفاخرانهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويذكران لهم مثالبهم . أما عبد الله فكان مقتصراً على تعييرهم الكفر .

وقد استفاد الشعر من هذه الملاحيات فنهض نهضة عظيمة ، وغزرت مادته ، وكثر القول بكثرة الشعراء ، ولا سيما شعراء قريش ، وكانت قبلاً لا تذكر مع القبائل في الشعر . واشتهر من شعرائها أربعة هاجَوا النبيّ وقاوموا شعراءه ، وهم عبد الله بن الزِبَعْرى ، وأبو سُفْيان بن الحرث بن عبد المطَّلِب ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطّاب . ولكن لم يصل الينا من شعرهم إلا شيء يسير ليس فيه غناء . ولا عجب ان تُطمس أشعارهم وأشعار غيرهم من الذين ناصبوا الرسول العداء ، خصوصاً بعد ان اسلمت قريش ، واصبحت جزيرة العرب لا يسودها دين غير الاسلام ؛ لا عجب ان تُطمس هذه الأشعار ، فان فيها ما يثير الحزازات وينبّه كوامن الأحقاد؛ وان فيها من هجاء النبي وأصحابه ما يمنع المسلمين عن روايتها ، بل ما يهيب بهم الى التعفية عليها ومحو آثارها .

ونحن ، في بحثنا الشعر المخضرم ، سنقتصر على درس حسّان بن ثابت أنبه الشعراء الذين دافعوا عن الرسول وأخصبهم آثاراً ، وعلى كعب بن زهير للاميته الشهيرة التي اعتذر بها الى النبي يوم اسلامه .

الشعراء المخضرمون

وقد نظرنا الى الشعراء المخضرمين من حيث شعرهم لا من حيث حياتهم. فعددنا لبيداً والخنساء من الجاهليين لأن أكثر شعرهما في الجاهلية. وعددنا حسان وكعباً من المخضرمين لان ريحهما هبّت في الاسلام[1] . اما الحطيئة فقد اشتهر في العصرين ولكنه لم يتأثر بالاسلام كثيراً ، فتركنا له جاهليته .

---

[1] يقال هبّت ريحه : اي نبه ذكره واشتهر .

كعب بن زهير

٦٦٢ م و ٤٢ هـ (?)

حياته : نشأ في بيت عريق في الشاعرية . كعب في الاسلام . تأنبه اخـاه بجيراً لاسلامه . اهدار دمه . قدومه على الرسول ، واعتذاره بقصيدته . حديث البردة ، وتاريخ وفاة كعب .

آثاره : ابيات متفرقة اشهرها مثوبته .

ميزته : بانت سعاد. هو كأبيه في تنحل القوافي وتثقيفها . المذهب الزهيري. غرابة الفاظه ، رأي الدكتور طـه حسين . صوَر حسية متراكمة . حِكَمه وامثاله . وصف الناقة . مدح النبي والمهاجرين . رقته في الاستعطاف . خشونته في وصف الاسد والقفار. جزالته في المدح . مقابلة مدحه بما نسب الى الاعشى من مدح الرسول. نفَسه جاهلي اكثر مما هو اسلامي. منزلته. بارع الفن، بديع التصوير، واسع المخيلة ، وأحد اساتذة المذهب الزهيري.

حياته

هو كَعْب بن زُهَـيْر بن ابي سُلمى المُزَني ، نشأ في بيت يكتنفه الشعر من كل جانب ؛ كما عرفنا في كلامنا على والده زهير ، فنشأت معه ملَكَة الشعر ، فما ترعرع حتى نظمه، ولكن والده زجره عنه وضربه مخافة ان تكون شاعريته لم تستوسق[1] بعد ، فيُروى له ما لا خير فيه . على ان الزجر والضرب لم يصرفا الولد عن الشعر ، وهو جِدٌ كَلِفٍ به ، فلبث يقوله غير مرتدع حتى ضاق والده ذرعاً ، فاردفه على ناقته وانطلق به الى الصحراء ، واخذ يقول البيت ويستجيز ابنه فيجيز ، فوثق عندئذ باستحكام ملكته ، واذن له بقول الشعر .

---

[1] لم تستوسق : لم يجتمع بعضها الى بعض ، من استوسقت الابل : اجتمعت .

كعب في الاسلام

لم يحدثنا الرواة كثيراً عن حياة كعب ، فنحن لا نكاد نعلم عنها ما يستحق الذكر الا خبر اسلامه، واعتذاره الى النبي بقصيدته الشهيرة . وذلك ان بُجَيراً اخا كعب وفد الى محمد في اواخر السنة السابعة للهجرة فأسلم ، فاستاء كعب من اخيه ، وقال فيه ابياتاً يؤنبه ويحثه على الارتداد .

وبلغت ابياته النبيّ فاهدر دمه . ثم شهد بجير فتح مكة وانتصار محمد، فارسل الى اخيه كعب يحذره ويخبره بانخذال قريش ، وفرار عبد الله بن الزِبَعْرى ، وقال له : « قد اوعد الرسول رجالاً بمكة فقتلهم ؛ وهو والله قاتلُك او تأتِيَهُ فتسْلِم . » فاستطير كعب ولفظته الارض[1] ثم قدم المدينة متنكراً ، واستجار بأبي بكر، فاتى به المسجد وهو متلثم بعمامته، وقال : « يا رسول الله ، رجل يبايعك على الاسلام . » فبسط النبيُّ يده ، فحسر كعب عن وجهه وقال : « هذا مقام العائذ بك يا رسول الله ، انا كعب ابن زهير . » فتجهمته الانصار وغلظت عليه ، ولانت له قريش واحبوا اسلامه وايمانه . فأمنه محمد ، فأنشده كعب قصيدته « بانت سعاد » فسُرّ بها الرسول . ولما وصل الى قوله :

إنّ الرّسولَ لَسَيفٌ يُستَضاء به ، مُهنّدٌ من سُيوفِ اللهِ ، مَسلولُ

خلع عليه محمد بردته[2] . وقد بذل معاوية لكعب فيها عشرة آلاف درهم فلم يبعها . فلما مات اشتراها معاوية من ورثته بعشرين الف درهم وقيل بثلاثين . وتوارثها الخلفاء الامويون والعباسيون، ويقال انها وصلت الى سلاطين آل عثمان ، وهي البردة التي يلبسها الخلفاء في العيدين .

---

١ لفظته الارض : اي انه صار لا يجد له مأوى فيها .

٢ البردة : الثوب المخطط .

ومدح كعب في قصيدته المهاجرين من قريش، وعرّض بالانصار لغلظتهم عليه. فانكر المهاجرون قوله في الانصار، وقالوا: «لم تمدحنا اذ هجوتهم.» ولم يقبلوا ذلك حتى قال فيهم :

من سَرَّهُ كرمُ الحياةِ ، فلا يَزل في مِقنَبٍ من صالحي الانصارِ[1]

وكانت وفاة كعب في خلافة معاوية ، وجعل بعضهم[2] موته في السنة الرابعة والعشرين للهجرة ، مع انهم ذكروا رواية البردة . فكان عليهم ان ينتبهوا الى ان الشاعر ادرك الخليفة الاموي الاول ، لان معاوية لم يفكر في اشتراء البردة من كعب الا بعد ان تبوأ سدّة الخلافة .

آثاره

ابيات متفرقة في كتب الادب . اشهرها لاميته « بانت سعاد » وهي معدودة من المشوبات . وقد شرحها كثيرون ، وشطرها غير واحد .

ميزته — بانت سعاد

علمنا في كلامنا على الحطيئة ان كعباً كأبيه زهير يهذب شعره، وينتقي الفاظه ، ويتخير معانيهُ ، واوردنا له ابياتاً يصف فيها نفسه والحطيئة بتنخُّل القوافي[3] وتثقيفها ، ولا عجب ان يشبه الولد اباه وهو سره . وسنرى في درسنا « مشوبته » ان له خاصة زهير في براعة التشبيه والتصوير الحسي، وله خاصته ايضاً في ارسال الامثال الحكَمية . وقد نكون منصفين اذا قلنا : ان زهيراً وكعباً والحطيئة ينتحلون مذهباً ادبياً ذا صبغة واحدة . على اننا

---

١ المِقنَب : جماعة الخيل الجياد ما بين الثلاثين الى الثلثمائة . واراد بالمقنب : جماعة الانصار . يقول : من اراد كرم الحياة فليكن في جماعة من صالحي الانصار .

٢ جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية .

٣ القوافي : اي القصائد .

سنجد في شعر كعب كثيراً من اللفظ الغريب، وقد عزاه الدكتور طه حسين الى ان كعباً قلّد فيه استاذ ابيه أوْس بن حَجر. ولعله مصيب برأيه، فان زهيراً كان راوية أوس كما علمنا، وعنه اخذ اسلوبه الوصفي وما فيه من التشابيه والصور المادية. وكان أوس جاهلياً قديماً يؤثر اللفظ الغريب في شعره. فجاء شعر كعب وعليه طابع المذهب الزهيري، او المذهب الاوسي على رأي الدكتور، مع ايثار الغريب من الالفاظ تشبهاً باستاذ ابيه. فنحن الآن امام مذهب ندعوه زهيريّاً او اوسيّاً اذا ذهبنا الى ابعد من زهير[1].

ولنشرع الآن في درس مشوبة كعب التي اعتذر بها الى الرسول. وقد استهلها متغزلاً واصفاً ثغر حبيبته، شاكياً هجرها، واخلافها، ومواعيدها العرقوبية. فترى الصور الحسية تتراكم في اوصافه ويتبع بعضها بعضاً، ولا سيما تشبيهه حلاوة الثغر وبرودته بخمرة شُجَّت بماء بارد، ثم الحاقه بوصف هذا الماء ليبالغ في تصوير برودته وصفائه. وانظر الى قوله: «لكنها خلة قد سيط من دمها ...» اراد ان يصفها بالكذب والاخلاف والفجع والتبديل فصوّر لك هذه الصفات ممزوجة بدمها. ثم انظر الى قوله: «الا كما تُمسك الماءَ الغرابيلُ ...» فهو لم يجد لديه غير التصوير الحسي لتمثيل نكثها العهود. ثم الحكمة ايضاً وضرب المثل في قوله: «ولا تَمَسّك بالعهد ...، ان الامانيّ والاحلام تضليلُ ...، كانت مواعيدُ عُرقوب ...»

وينتقل الى وصف الناقة فيبدع ابداعاً قد يجاري فيه طرفة، ويتلاعب بالمعاني تلاعباً لم يسبقه اليه احد. وفي هذا القسم تكثر الصوَر المادية، وتكثر الالفاظ الغريبة فيصف ضخامة عنقها وطوله، وعظم وجنتيها، ونعومة جلدها.

---

[1] يرى الدكتور طه حسين ان النابغة احد اساتذة المذهب الاوسي لأن على شعره طابعه الخاص.

ثم يشبه وجهها في صلابته بمعول من حديد او حجر مستطيل، وذنبها بجريد النخل، وقوائمها بالرماح الصلبة . وهي في سرعتها لا تمس الارض الا تحليلاً[1] ولا تحتاج الى تنعيل يقيها الحجارة لصلابة اخفافها . ويصف حركة ذراعيها وسرعة تقلبهما ، فيرينا صورة مادية رائعة لم يُسبَق اليها ، ويستطرد معها الى وصف شدّة الحر .

وبعد ان ينتهي من هذه الصورة القصصية البارزة الجمال، ينتقل الى مدح النبي والاعتذار اليه ، ومدح المهاجرين من قريش . وفي هذا القسم ترقّ الفاظه ، ويقلُّ غريبه الا في وصف الاسد ، ولا بدع فانه مقام استعطاف ولين . والشاعر الجاهلي يجعل لكل مقامٍ مقالاً ، فاذا تغزل او استعطف او رثى رقت عاطفته ورقت الفاظه، واذا افتخر او مدح اشتدت عاطفته، فتجزل الفاظه ، ويشتد اسرها . واذا وصف ناقته والقفار الموحشة والسباع الضارية ، خشنت عاطفته ، وخشنت الفاظه معها . وفي هذا القسم تنتهي « مشوبة » كعب .

ونرى ان كعباً مدح الرسول باسلوب جاهلي صرف ، دون ان يشير الى فرض من فروض الدين الاسلامي ، او الى آية من القرآن ؛ ذلك بانه كان يجهل حقيقة الاسلام يوم نظم قصيدته ، وهو لم يُسلم الا رهبةً وفرقاً. فاذا قابلنا مدحه بالقصيدة التي نُسبت الى الاعشى في مدح الرسول ، تبين لنا الفرق بينهما ، وعرفنا الصحيح من المنحول . ولو لم تكن هذه القصيدة قيلت في النبي واشتهر كعب بها ، لما جاز لنا ان نعده من الشعراء المخضرمين لان النفَس الجاهلي فيه اقوى من النفَس الاسلامي .

وبعدُ ، فان في ابيات المدح ما في غيرها من تأثير المذهب الزهيري ،

---

١ مست الارض تحليلاً : اي مسّاً يسيراً . كما يحلف الانسان ليعملن هذا الشيء فيفعل منه اليسير ليتحلل به من القسَم .

فالصور المادية قوية ، ولا سيما تشبيه النبي بالاسد ، ثم وصف هـذا الاسد وصفاً قصصياً عرفناه بزهير . وتظهر لنا حكمة زهير في قوله : « كل ابن انثى وان طالت سلامته ... » ويظهر لنا ايمان زهير على جاهليته في قوله : « فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ ... »

وما اجمل التصوير على بداوة المعنى في وصفه هيبة الرسول، وما يستولي من الفزع على الماثل في حضرته. وكأنَّ الشاعر اراد الاعتذار من خوفه فلم يجد غير الفيل الضخم مثالاً للجرأة فقال : لو وقف الفيل موقفي ورأى ما رأيت ، وسمع ما سمعت ، لظلَّ يُرعَد ، فلا لوم علـيَّ اذا هبت الرسول فهو أهيب عندي من اسد في بطن عثَّر ، كثير الصيد ، شديد الضراوة .

اوَليس في ذلك الاعتذار ، وفي ذلك التمثيل سذاجة جاهليـة خشنة ، ولكنها لطيفة مُستَحبَّة ؟..

منزلته

عدَّه ابن سلاَّم في الطبقة الثانية قبل الحطيئة. ولو جاز لنا ان نبني حكماً صحيحاً على شعره، وليس لدينا منه ما يعتد به غير مشوبته ، لقلنا : ان له من البراعة والتصرف في المعاني ما يضعه في مصاف افحل الشعراء الجاهليين . وحسبنا ان ننظر الى تفننه في وصف الماء بعد ان مزج به الخمرة التي علَّ بها ثغر سعاد، ثم الى تفننه في وصف حركات المرأة الثكلى بعد ان شبه ذراعي ناقته بذراعيها في السرعة والتقلب، ثم الى الحاحه في وصف ضراوة الاسد بعد ان فضل الرسول عليه في الهيبة. حسبنا ان ننظر الى كل ذلك لنتبين منزلة الشاعر السامية، وبراعته في سوق المعاني والتلاعب بها والغوص على دررها البعيدة القرار.

وقصارى القول ان كعباً شاعر بارع الفن ، ورسام بديـع التصوير ، ومخترع واسع المخيلة ، وأحد اساتذة المذهب الزهيري .

حسان بن ثابت الانصاري

٦٧٠ م و ٥٠ هـ (؟)

حياته : نسبه . حظوته عند الغساسنة . اسلم في جملة من اسلم من الانصار . حسّان الجبان. حديث صفية بنت عبد المطلب. حسّان الشاعر. هجوه المشركين . استرشاده بأبي بكر . موته في خلافة معاوية .

آثاره : ديوان فيه شعر كثير في اغراض مختلفة . من اصحاب المذهبات . نسبت اليه اشعار ليست له .

ميزته : شاعر الرسول . يصوّر حالة عصره . سبب وصول شعر حسّان الينا . فن الشعر السياسي الصحيح . الاقذاع والفحش . موقفه الحرج في الهجو وطريقته المؤلمة . صدق هجائه وأمله بالثواب . الفاظ جديدة احدثها الاسلام . مدحه : يُعنى بوصف شمائل الرسول ، وتصديق الرسالة ، ويعرّض بمن يكذبها . مدح جديد فطري صقله الدين . شعره التاريخي : نبذة من تاريخ الصدر الاول للاسلام . بين الجاهلية والاسلام . لا يتسع له الخيال . اكثر قصائده قصيرة . شعره الجاهلي أوسع خيالاً . يخلو شعره من التشابيه التمثيلية . لا يُتم الوصف . كثير القطع في مطالعه . رأي الأصمعي . اللين والاسفاف . منزلته : شاعر مؤرخ ، مجدد ، طليعة الشعراء السياسيين .

حياته

هو حسّان بن ثابت بن المُنذر بن حَرَام من بني النَّجّار من قبيلة الخزْرَج ، ينتهي نسبه الى قَحطان ، فهو يمنيُّ الاصل يثربيُّ النشأة . وكان يُكنى أبا الوليد ، وأبا عبد الرحمن ، وأبا الحُسام . وقد لقي حظوة في الجاهلية عند ملوك غسّان فمدحهم واسترفدهم ، فأفاضوا عليه النعم ، فحفظ لهم الجميل ، وبقي يذكرهم بالخير الى آخر عمره .

ولما ظهر الاسلام، وهاجر النبي الى يثرب، اسلمت الأوس والخَزرج، واسلم حسّان معهم فكان في جملة الانصار .

حسان الجبان

ولكنه كان جباناً شديد الجبن ، فلم يجرّد سيفاً لنصرة الرسول ، ولا شهد واقعة من وقائع المسلمين واهل الشرك ، بل كان يتخلف في المنازل مع النساء والاولاد . حدّثت صَفيّة بنت عبد المطلب قالت : « كنتُ يوم الخندق[1] في فارع[2] حِصن حسّان بن ثابت ؛ وكان حسّان معنا فيه مع النساء والصبيان ، فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن . وقد حاربت بنو قُرَيظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله، وليس بيننا وبينهم احد يدفع عنا ، ورسول الله والمسلمون في نحور عدوهم ، لا يستطيعون ان ينصرفوا الينا عنهم اذا اتانا آتٍ . فقلت : « يا حسّان، ان هذا اليهودي، كما ترى ، يطوف بالحصن ، واني والله ما آمنه ان يدل على عوراتنا مَن وراءنا من يهود ، وقد شُغل عنا رسول الله واصحابه ، فانزل اليه فاقتله . » فقال حسان : « يَغفرُ الله لكِ يا ابنة عبد المطلب ، لقد عرفت ما انا بصاحب هذا . » فلما قال ذلك ولم أرَ عنده شيئاً ، اعتجرت[3] ثم اخذت

---

١ يوم الخندق ويقال له غزوة الاحزاب : هو يوم بين النبي والاحزاب في السنة الخامسة للهجرة . وسببه ان يهود المدينة بني قُرَيظة والنَّضير حزبوا الاحزاب على الرسول وقدموا مكة ودعوا قريشاً الى محاربته ، وقالوا : نحن معكم حتى نستأصله . فاجابوهم الى ذلك . ثم اتوا غطفان ودعوهم فاجابوا ايضاً . وسمع الرسول بالخبر فامر بحفر الخندق في المدينة ، ثم التقى الجيشان فاشتد الامر على المسلمين ، فبعث الرسول الى قائدي غطفان ان يرجعا على ان يعطيهما ثلث ثمار المدينة . ثم اختلفت قريش واليهود ، وهبت عليهم ريح شديدة في ليال شاتية ، فرجعوا ورجعت غطفان لرجوع قريش وانتهى القتال .

٢ فارع : مرتفع .

٣ اعتجرت المرأة : لبست المِعجَر وهو ثوب تشده على رأسها .

عموداً ونزلت اليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت : « يا حسان انزل اليه فاسلبه ، فانه لم يمنعني من سلبه الا انه رجل. » قال : « ما لي الى سلبه حاجة يا ابنة عبد المطّلب. »

وانشد حسان النبيّ يوماً قوله :

لَقَدْ غَدَوتُ أمامَ القَومِ مُنْتَطِقاً بِصارِمٍ مِثْلِ لَونِ المِلحِ قَطّاعِ [1]
تَحْفِزُ عني نِجادَ السَّيفِ سابِغةٌ فَضْفاضَةٌ ، مِثْلُ لونِ النِّهْيِ بالقاعِ [2]

فضحك النبيُّ لوصف حسّان نفسه بما تصف به الفرسان نفسها وهو يعلم جبنه .

حسان الشاعر

ولئن فات حسّان ان يدافع عن نبيّه بحسامه ، لقد اتيح له ان يناصره بلسانه ، وهو سلاحه الوحيد الذي كان يستطيع ان يشهره على الاعداء . فاصبح شاعر الرسول يمدحه ويرد على من يهجوه من شعراء قريش . وكان النبيُّ يقول له : « اهجهم وروح القدس معك ، واستعن بأبي بكر فانه علاّمة قريش بانساب العرب . » فكان ابو بكر يدله على معايب القوم ومثالبهم . ويقول له : « كف عن فلانة واذكر فلانة ، وكف عن فلان

---

١ منتطقاً : شادّاً وسطه . بصارم : بسيف قاطع . مثل لون الملح : اي ابيض . قطّاع : مبالغة في القطع .

٢ تحفز : تدفع . نجاد السيف : حمائله . سابغة : درع طويلة تامة . فضفاضة : واسعة . النهي : الغدير . القاع : سهل مطمئن انفرجت عنه الجبال . وقوله : تحفِز عني نجاد السيف ، اي انه يعقد نجاد سيفه على درع سابغة فهي فاصل بينهما وكأنها تدفع السيف عنه. وقوله: مثل لون النهي بالقاع ، اي انها مجلوّة بيضاء كلون الغدير . وقوله : بالقاع ، اي ان المياه صافية لجريها في مطمئن من الارض ، شبه بها صفاء الدرع وبياضها .

واذكر فلاناً . » فكان يفعل ومحمد يعطيه ويحسن له الجائزة ، وقد وهبه سيرين القبطية اخت ماريةَ ام ولده ابراهيم، فولدت له عبد الرحمن الشاعر. وما زال حسّان يعيش من مال المسلمين حتى مات بعد ان كُفَّ بصره في اواخر ايامه . وكانت وفاته بالمدينة في خلافة معاوية ، وهو من المُعمَّرين .

آثاره

ديوان فيه قصائد كثيرة في المدح والهجاء والرثاء والغزل والفخر. وهو من اصحاب المُذهَبات[1] ومطلع مذهبته :

لَعَمْرُ أبيكِ الخَيرِ ، يا شَعْثُ ، ما نَبا عَلَيَّ لِساني في الخُطوبِ ، ولا يَدي[2]

ونُسبت اليه اشعار ليست له. قال ابن سلام : « وقد حُمِل على حسّان ما لم يُحمَل على احد ، لما تعاضهت[3] قريش وضعوا عليه اشعاراً كثيرة لا تليق به . »

ميزته — شاعر الرسول

لحسان شعر جميل في الجاهلية لا يُبخَس حقه ، وقد يكون اجود من شعره في الاسلام كما يزعم الاصمعي . ولكن شهرة حسان قامت على انه

---

١ المذهبات : اي المكتوبة بماء الذهب او التي تستحق ان تكتب بماء الذهب .

٢ الخير : نعت لأبيك . شعث : يريد بها شعثاء صاحبته . ويجوز ان تقول : يا شعثَ بالفتح على تقدير الترخيم . نبا : امتنع والتوى . الخطوب : الامور . يقول مقسماً : لعمر ابيك الكريم يا شعثاء ان لساني لم ينبُ في الخطوب ولا نبت يدي . واراد بيده سيفه الذي تحمله يده .

٣ تعاضهت : جاءت بالزور والبهتان . يريد يوم كانت تجاهد النبي وضعت على حسان شعراً سخيفاً ساقطاً لا يليق به .

شاعر الرسول ، فينبغي لنا ان ننصرف الى درس هذه الميزة التي خُص بها دون غيره لنتبين سرها ونروز حصاتها . فان لشعر حسان منزلةً ليست لسواه من شعراء الصدر الاول ، فهو في نضاله عن النبي يصوّر حالة ذلك العصر اصدق تصوير ، ويمثل حقيقة تهاجي الانصار والقرشيين وما في هذا الهجو من فُحش واقذاع . فنحن مدينون لشعر حسّان في درس هذا النوع الجديد الذي دخل على آدابنا العربية ، ولو لم يصل الينا شعره لما تسنّى لنا ان نقف على حقيقة هذا النوع ، ونتبين خصائصه بشكل واضح مُبين .

ولسنا نعجب لوصول شعر حسان على ما فيه من هجاء مقذع ، فان الرواة لم يتحرّجوا من حفظه وروايته ، وكلّه ذود عن بيضة الدين ، ولكنهم تحرّجوا وانفوا من ذكر شعر هُجي به الرسول . ولعلنا نستطيع ان ندرك مبلغ اهمال اشعار القرشيين والتأثم من روايتها في حديث لعبد الله بن الزِبَعْرى بعد اسلامه . وذلك لما قدم المدينة في صحبة ضِرار بن الخطّاب لملاحاة حسّان ، فقال ابن الزبعرى : « يا ابا الوليد ، ان شعرك يُحتمل في الاسلام ولا يُحتمل شعرنا ، وقد احببنا ان نُسْمِعك وتُسمعنا . » فاذا كان ابن الزبعرى يستنكر رواية شعره بعد ان اسلم ، فالرواة اولى بان يطمسوه ولا يحفظوه .

فنحن اذاً في درسنا شعر حسّان نطالع صفحة تاريخية جليلة ، ونطلع على فن جديد ألا وهو فن الشعر السياسي الصحيح ، ونقول : الصحيح ، لان العرب في جاهليتهم عرفوا شيئاً منه في منافراتهم ومفاخراتهم ، ولكنه كان ضئيلاً ضعيف الاثر ، لا يستند في كثرته الى عقيدة صحيحة ، وربما قُصد منه التكسب كما كان يفعل الأعشى والحطيئة .

ومن المعلوم ان المنافرات في الجاهلية كانت تجري بين شخصين او بين قبيلتين ، كما وقع لتغلب وبكر في حضرة عمرو بن هند ، ولكن تأثيرها الموضعي لم يكن له من القوّة ما يجعل لها هيكلا قائماً بنفسه ، او يخلق منها فناً مستقلاً عن غيره . واما الشعر الذي نحن بصدده فهو حرب عوان بل جهاد عنيف بين انصار الدين القديم وانصار الدين الجديد شُحذت له القرائح ، وانطلقت الالسنة حداداً ، لا للتكسب والاستجداء ، بل للدفاع عن سلطتين دينيتين زمنيتين تتنازعان البقاء . فلا غرو ان يترك هذا الجهاد اثراً قوياً في الادب ، ويكون فاتحة الشعر السياسي الصحيح الذي سنراه مزدهراً في الصدر الثاني للاسلام . ثم لا غرو ان نجد في هذا الشعر افحاشاً شديداً لم نعهده من قبل ، فهو وليد عصبية قوية احدثت في النفوس ميلاً غريباً الى النكاية والتشفي ، فلم يقصر الشعراء هجوهم على التعيير بالانكسارات او على نيل المهجو من منزلته الاجتماعية ، بل صاروا الى ابعد من ذلك مدى، وابلغ ايلاماً: الى نهش الانساب، وتمزيق الاعراض. ففي شعر حسان كثير من الابيات التي يمنعنا الادب من روايتها ، ولا بد ان يكون مثلها في شعر ابن الزبعرى وغيره من شعراء قريش .

هجوه

على ان موقف حسّان كان حرجاً في هجو القرشيين وهم انسباء محمد . فالرواة يحدثوننا انه لما اراد هجاءهم قال له الرسول: « وكيف تصنع بي؟» فقال : « اسلُّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين . » فبعثه الى ابي بكر ليدله على الاشخاص الذين يستطيع هجوهم ، والاشخاص الذين لا ينبغي ان يعرض لهم، فدله ابو بكر كما ذكرنا، فهجاهم حسّان ونال منهم نيلاً شديداً،

وقد اتخذ لذلك اسلوباً سياسياً حكيماً ، كان يجعل فيه المهجو من خشارة قريش لا يرتفع له رأس الى الذؤابات من هاشم ، كهجائه لأبي سفيان بن الحرث[1] ، فانه في هجوه اياه يهجو ابن عم الرسول ، فما استقام له ان يمعن في ذم والده الحرث ، فاقتصر على ان يجعله عبداً بين اخوته والد النبي واعمامه ، ثم عطف على ابي سفيان من جهة أمه وأم ابيه فهشمهما ، وجعل ابا سفيان من بني هاشم كقدح الراكب من الرحل ، فاخرجه من الدوحة الهاشمية التي ينتمي اليها الرسول : « هو الغصنُ ذو الافنان ، لا الواحد الوغد . »

ومثل هذا الهجاء مؤلم مُمِضٌ يوغر الصدور ، ويثير الضغائن ، ويهتك الحرمات والانساب . قيل : لما بلغ ابا سفيان اصاب منه مقتلاً ، فقال : « هذا شعر لم يَغب عنه ابن ابي قُحافة[2] . » فهو يعلم ان تلك الامور لا يعرفها الا علاّمة بالانساب كأبي بكر .

وكان هجو حسّان على مرارته صادقاً لا تكلف فيه ، لم يندفع الشاعر اليه حبّاً للتكسب والاستجداء ، بل ذوداً عن دين يؤمن به وبرسوله ، وأملاً بالثواب في الدنيا الباقية . فترى فيه ارتياحاً الى حُسن المصير لم يكن في عُبّاد الاوثان من شعراء الجاهلية ، بل حمله اليهم الاسلام ، فأصبحوا وفي نفوسهم امل كبير ، يجاهدون في سبيل نبيهم ودينه ، لا بُغية لهم غير الجنة التي وُعِدوا ، ونعيمها « وعند الله في ذاك الجزاء . »

وفي هذا الشعر الفاظ جديدة لم نألفها قبل كقوله: « جبريل امين الله ،

---

[1] هو ابو سفيان بن الحرث بن عبد المطّلب بن هاشم ، ابن عم النبي واخوه من الرضاع، كان في جاهليته يهجو محمداً ثم اسلم .

[2] ابو قحافة : والد ابي بكر الصدّيق .

وروح القُدس ، وأرسلتُ عبداً ، وشهدتُ به ، ورسول الله . » فهذه الالفاظ وغيرها احدث القرآن معانيها الجديدة في الاسلام .

مدحه

ولحسّان في مدح النبي اسلوب غير الاسلوب الذي عهدناه في الجاهلية ، فهو لا يشبه محمداً بالاسد فِعلَ كعب بن زهير ، ولا يُمعن في وصف جوده وسخائه كمن يريد الاستجداء والتكسب من ممدوحه ، بل يُعنى بوصف شمائله الغر ، ويُلح في ذكر الرسالة والتصديق بها ، وذكر ما حمل الاسلام للعرب من نور وهداية ، وأمل بعد يأس ؛ ويُعرّض احياناً بمن انكر النبوّة وكذّب بها ، فهو مدح جديد في نوعه وطريقته ، جديد في تعابيره والفاظه ، جديد في النفحة الدينية العابقة منه. بيد انه ساذج لا تعدوه الفطرة الجاهلية ، ولكنها فطرة صقلها الدين وجلاها الايمان .

شعره التاريخي

وليست ميزة حسّان في شعره مقصورة على خصائصه في المدح والهجاء ، بل له خاصة ذات منزلة عالية ، وهي خاصة المؤرخ الامين لحوادث عصره ، فانه يحدثنا عن غزوات النبي وايامها ، ويذكر لنا اسماء من قُتل من الصحابة ومن قتل من المشركين ، ويرثي مَن قُتل بعد النبي من الخلفاء الراشدين . فكأنك ، وانت تقرأ شعره ، تطالع نبذة من تاريخ الصدر الاول للاسلام .

حسان بين الجاهلية والاسلام

وحسان في شعره الجاهلي مثله في شعره الاسلامي ، لا يتسع له الخيال

فيطول نفَسه ، فأكثر قصائده قصيرة ، واطولها لا يزيد على الاربعين بيتاً . على انه في قصائده الجاهلية اوسع خيالاً منه في قصائده الاسلامية ، ولعل عنايته بذكر الحوادث التاريخية أثرت في مُخيّلته ، او لعلّ هذا الضعف ناتج عن كبر السن. ولست تجد في شعره تلك التشابيه التمثيلية الخصبة التي عرفتها في اشعار غيره من الجاهليين ؛ فهو اذا وصف شيئاً لا يمعن في وصفه فيتمّه ، بل ينتقل بسرعة الى غيره كمن ضاق صدره فطلب التنفس. ولذلك كثر في مطالعه الاقتضاب والقطع بما يشبه التخلص، فما يكاد يستهل قصيدته بالغزل وذكر الديار حتى ينتقل بعد بيتين أو ثلاثة الى غرضه مدحاً كان او هجاء ، واكثر ما يكون انتقاله بقوله : « دع هذا ، ودع ذكر ذا » . واغلب هذا الانتقال المقتضَب في شعره الاسلامي .

وقد يكون هذا الضعف الخيالي هو الذي حمل الاصمعي على الزعم ان شعر حسان في الجاهلية اجود منه في الاسلام، وعلّل ذلك بقوله : « الشعر نَكِدٌ يقوى في الشر ويسهل ، فاذا دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره. » وقيل لحسّان : « لانَ شعرُك أو هَرِمَ في الاسلام يا ابا الحسام. » فقال: « يا ابن اخي ، ان الاسلام يمنع من الكذب وان الشعر يزينه الكذب . » يريد بذلك ان التجويد في الشعر الافراط في الوصف والتزيين بغير الحق ؛ وذلك كله كذب.

وربما اراد الاصمعي ان يقول ايضاً : ان شعر حسان الاسلامي ليِّن يكثر فيه الاسفاف . فاللين من خصائص الشاعر الانصاري ، ولا يخلو منه شعره الجاهلي . واما الاسفاف فيمكننا ان نعود ببعضه على النحل مستندين الى قول ابن سلام من ان حسان حُمل عليه ما لم يُحْمَل على احد، وببعضه

الآخر على الشاعر نفسه لان كثرة اللين تؤدي الى الاسفاف .

واللين في حسان ناتج عن نشأته ، فهو من شعراء القُرى[1] والشعراء القرويون معروفون برقة شعرهم لتنعمهم واخذهم باسباب الحضارة ، خلافاً لشعراء البادية . واذا كان شعره زاد ليناً في الاسلام وأسفّ احياناً ، فلخلوّه من براعة الوصف ، ومن الصور الخيالية الرائعة ، ثم لاعتماد الشاعر على الارتجال[2] اكثر من التحكيك والتنخل ، فكثر في شعره الكلام الساقط ، والاقواء ، والتوجيه[3] . ثم لتأثير اسلوب القرآن في نفسه ، وما في هذا الاسلوب من رقة في اللفظ والتعبير ، فقد عدل بالشاعر عن الالفاظ الغريبة الصلبة الى الرقيقة السهلة ، ولكن أنّى لحسّان ان يجاريه في نصاعة بيانه ، وبلاغة تعبيره ، فازداد ليناً على لين ، واسفّ مرة بعد مرة فسقط اكثر شعره في الاسلام . على ان له بعض قصائد في الهجو والفخر وذكر الوقائع تعد من اطيب الشعر واجوده .

منزلته

قال ابو عبيدة : « فَضَلَ حسّانُ الشعراء بثلاث : كان شاعر الانصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوّة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام . »

---

١ شعراء القرى عند العرب : الشعراء الذين ينشأون في المدن . والقرى العربية خمس : المدينة ، ومكة ، والطائف ، واليمامة ، والبحرين .

٢ حسان مشهور بارتجاله ، ومن أطيب قصائده الارتجالية « عينيته » :

انّ الذّوائبَ مِن فِهرٍ ، واخوتَهُم ، قد بَيّنوا سُنّةً للناس تُتّبَعُ

(الذوائب : الاعالي مفردها ذؤابة . فِهر : اصل قريش ويريد بهم المهاجرين . اخوتهم: أي الانصار . السنّة : الخطة والنظام .)

٣ الاقواء : الاختلاف في حركة الروي . التوجيه : الاختلاف في حركة ما قبل الرويّ الساكن .

وقال ايضاً : « اجتمعت العرب على ان حسان اشعر اهل المدر[1] . » وقال الاصمعي: «حسان فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الاسلام سقط شعره . » وقال الحطيئة : «ابلغوا الانصار ان شاعرهم اشعر العرب حيث يقول :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ ، لا يَسألونَ عَنِ السَّوادِ المُقْبِلِ»

وقال عمرو بن العلاء : « حسان اشعر اهل الحضر . » وقال ابو الفرج الاصفهاني : « حسان فحل من فحول الشعراء . » وقال الحرث بن عَوْفَ المُرّي لمحمد : « أجرني من شعر حسّان ، فوالله لو مُزج به ماء البحر لمزجه . » وكان حسان قد هجاه بقوله :

وأمانَةُ المُرّيِّ ، حيثُ لَقيتَهُ ، مِثْلُ الزُّجاجةِ ، صَدْعُها لم يُجْبَرِ

وكان محمد يقول لحسّان: « اهجُهم، فوالله لشِعرك اشدُّ عليهم من نَضْح النبل في غَلَس الظلام[2] .» وقال ايضاً: « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء في النار، وحسّان بن ثابت يقود جموعهم الى الجنة.» وكان حسان كثير الادعاء، يدلع لسانه ويقول : « والله لو وضعته على شَعر لحلقه ، او على صخر لفلقه.»

اما نحن فنرى ان حسان في شعره الجاهلي مجيد ، ولكنه لم يبلغ شأو فحولة الشعراء . وفي شعره الاسلامي مجيد في بعضه ولا سيما الهجو والفخر، ضعيف في اكثره ولا سيما مدحه ورثاؤه للرسول ، ولكن فيه من الفوائد التاريخية ، ومن جديد الاسلوب ما ليس في شعره الجاهلي . فحسّان في الاسلام شاعر مؤرخ ، وشاعر مجدد في وقت واحد ، وهو في دفاعه عن النبي طليعة الشعراء السياسيين .

---

١ اهل المدر : أي اهل الحضر ، والمدر : الطين ، اي الذين يبنون منازلهم بالطين . وعكسهم اهل الوَبر : اي الذين يجعلون بيوتهم من الوَبر وهو الشَّعَر .

٢ النَّضْح : رمي النبل . الغلس : ظلمة آخر الليل ، وهي هنا الظلمة على الاطلاق .

الشعراء الاسلاميون*

ميزة الشعر الاسلامي

تكاثر عدد الشعراء في هذا العصر لأسباب سياسية واجتماعية سنأتي على ذكرها ، فتطور الشعر تطوراً محسوساً بتأثير هذه الأسباب ، وظهرت فيه فنون جديدة كانت ضعيفة في الجاهلية فقويت في الاسلام : كالغزل والشعر السياسي .

وقد ورث الشعراء الاسلاميون من شعراء الجاهلية الايجاز ، وقوة التعبير ، وبداهة الفكر ، ومتانة السبك ، ثم تثقفوا بالقرآن فظهرت آثاره في تعابيرهم وأفكارهم .

على ان تقدمهم في الحضارة أضعف فطرتهم ، فخرجوا عن سذاجة البدوي في جاهليته ، وظهر على شعرهم ترف العصر ورخاؤه ، وأثرُ انتقالهم من الخيام الى القصور ، واختلاطهم بعد الفتوحات بأبناء المدنيات القديمة كالفرس في العراق وفارس ، والروم في الشام ومصر .

ولكن العصر الاسلامي لم يطل عمره فيبلغ اهلوه غايتهم من التأنق والعمران ، بل اديل منه وهو في إبّان شوطه ، فتلقاه العباسيون طريفاً يانعاً ، فاستغلوه وأحسنوا انماءه فأورق وازدهر على أيديهم . ولذلك لم يُدرك الشعراء الاسلاميون شأوَ المولّدين[1] في الرقة والتصرف في المعاني .

وقد كثر المدح والتفاخر ، والهجاء المقذع في شعر الاسلاميين ، لعلاقة هذه الأغراض بالأحزاب السياسية ، وكثر الشعراء الغَزِلون الذين قصروا همهم على الغزل والتشبيب لتأثير المدنية الجديدة في نفوسهم .

---

* نعني بالشعراء الاسلاميين الذين ولدوا ونشأوا في صدر الاسلام وتأدبوا بأدبه الخاص .

[1] الشعراء المولّدون او المحدثون : هم الشعراء الذين جاؤوا بعد الاسلاميين في العصر العباسي.

نهضة الغزل

الغَزَل الجاهلي : الشاعر الجاهلي مادي اكثر منه روحانياً . طريقته في الغزل . تعدد اغراضه . انصرافه الى الغزو والغارات .

الغَزَل في الاسلام : تطور الحياة . منع الغزو والغارات . الشاعر الاسلامي اضاف الى الوصف المادي وصفاً روحياً . اصبح الغزل فناً مستقلاً بنفسه . انحصاره في جزيرة العرب . نوعه البدوي ، ونوعه الحضري . كيف اصبحت مكة والمدينة في هذا العصر ؟ طريقة شعرائها في الغَزَل . تشبيبهم بكرائم النساء .

الغَزَل من الفنون التي كانت ضعيفة في الجاهلية فقويت في الاسلام ، ذلك بأن الشاعر الجاهلي قلما قصر كلمته[1] على فن واحد ، فهو في شعره كثير التنقل ، متعدد الأغراض . وكان له من الغزوات والمفاخرات ما يمنعه من الانصراف الى التشبيب بالنساء . بَيْدَ انه تغزل وبكى على الطلول ، وشبّب بالمرأة ، وكان صادقاً في غزله وبكائه ، مجيداً في تشبيبه ووصفه ؛ ولكنه لم يحسن تصوير عواطفه وما يشعر به من صبابة وألم ، أو من أمل وارتياح . فاكتفى بذكر الديار الدارسة تلعب بها الرياح والامطار ، وتسرح بها الآرام والوحوش ؛ واكتفى بوصف الفراق من تحمُّل الاحبة ، الى الوَداع ، الى سير الاظعان في الأودية والجبال ؛ واكتفى بوصف اعضاء المرأة والتشبيب بمحاسنها . فالشاعر الجاهلي ماديٌ في تصوره أكثر منه روحانياً ، ولذلك لم يحسن التعبير عن تأثراته النفسية ؛ ولا أحسن وصف سواها من الأشياء غير المنظورة .

---

[1] الكلمة : القصيدة .

أمّا في الاسلام فتطوّرت الحياة بتأثير القرآن ، واختلاط العرب بالشعوب الأعجمية من روم وفرس ، فرقّت الأمزجة والأذواق ، وقوي الاحساس في النفوس . وكان للامويين من السلطان في إبّان دولتهم ما كبح جِماح البدو ومنعهم من الغزو والغارات ؛ ففرغ الشاعر الى نفسه يتفحصها ويتبين خفاياها ، واصبح يلذ له ان يعبر عمّا يحس فيها من عاطفة أو هوى ، وحزن أو سرور . فلم يبقَ الغزل غرضاً تابعاً لغيره من الأغراض الشعرية ، أو واسطة يستهلّ بها الشاعر قصيدته للوصول الى غايته ، بل صار فنّاً مستقلاً بنفسه ، له أتباع تخصصوا به ووقفوا عليه شعرهم . ولم يبقَ مقصوراً على الوصف المادي بل أُضيف اليه شيء جديد ينبعث من الروح وهو وصف العواطف والاهواء وما يتصل بها من التأثرات النفسية .

على ان هذا الفن بقي محصوراً في الجزيرة العربية لبعدها من سياسة الأحزاب في الشام والعراق . اما الشعراء الذين اتصلوا بالبلاط الأموي ، وغيرهم من شعراء الأحزاب ، فلم ينصرفوا الى اتقان هذا الفن بل لبثوا يقلدون فيه من تقدمهم ، ويوطئون به اغراضهم من مدح او هجاء ، وقلّ من نظم منهم شعراً غزلياً صِرفاً .

وينقسم الغزل في جزيرة العرب الى نوعين : بدويّ وحضريّ . فالبدوي غلبت عليه العفة والرصانة لسذاجته وقربه من الفِطرة ، وبُعده من ملاهي الحضارة ومفاسدها ، وأصحابه عُرفوا بالشعراء العُذْريين[1] ، وكانت مواطنهم

---

[1] العُذْريون : نسبة الى قبيلة بني عُذرة وهم قوم عرفوا بالحب الصادق العفيف حتى قيل انهم كانوا اذا احبوا ماتوا فنسب اليهم الحب العفيف فقيل له : الهوى العُذري . وبين الشعراء العذريين من ليسوا من بني عذرة ولكنهم نسبوا اليهم لعفتهم .

في بوادي نجد والحجاز ، وهم في غزلهم لا يشببون إلاّ بامرأة واحدة ، يحبونها حبّاً صادقاً عفيفاً . واكثر ما يطيب لهم وصفُ ما يلاقون من ألم البعد ، ومرارة الهجران والصدود . واشهر اولئك الشعراء : جَميل بن مَعْمَر ، وقَيس بن ذَريح ، وقيس بن المُلَوّح أو مجنون ليلى ان صح وجوده .

ولكن هؤلاء المتيمين ليس لهم خصائص متميزة في أشعارهم ، فقد تغزلوا كلهم باسلوب واحد ، وتواطأوا على المعاني والألفاظ في بث لواعجهم ووصف خليلاتهم ؛ فاختلطت اقوالهم بعضها ببعض ، فأصبح يضاف الى جميل ما يضاف الى قيس بن ذَريح ، ويضاف الى المجنون ما يضاف اليهما ، ويضاف اليهما ما يضاف الى المجنون . واختُرعت اخبار عنهم تناسب هذه الأشعار ، فيها كثير من الغلوّ والتناقض ، ولكنها تلتقي جميعاً في موقف واحد ، وهو ان الشاعر أحب فتاة فشبب بها ، ثم خطبها الى أهلها فردوه مخافة التعيير ، لاشتهار حبه لها وقوله فيها ، ولم يستطع الوصول اليها لعفة نفسه وعفة نفسها ، ولكنه كان يجتمع بها سرّاً ، فعرف اهلها بحبهما ، فاستَعْدوا عليه السلطان ، فأهدر دمه ، ففرّ هائماً على وجهه يقطع القفار وينشد الأشعار ، حتى يأتيه الموت فينقذه من عذابه .

وأمّا الغزل الحضري فقد غلب عليه الرخاء والترف ، والعبث والتهتك ؛ فصوّر شعراؤه حياتهم الناعمة ادقّ تصوير ، وتفننوا في أساليبهم فأبدعوا ، ولا سيما اسلوب الغزل القصصي . وكانت مواطنهم مكة والمدينة ؛ وفيهما القرشيون والأنصار .

وخشي الخلفاء الأمويون ان يشتغل هؤلاء الأشراف بالسياسة فتطمح

أنظارهم الى الخلافة ، وكلهم له الحق بها ، فأجبروهم أن لا يبرحوا الحجاز إلاّ بإذن منهم ، ولكنهم أسبغوا عليهم النّعَم الكثيرة ، وفرضوا لهم الأرزاق الواسعة من بيت المال ؛ فالتهوا عن طلب الملك ، وانصرفوا الى العبث والمجون ؛ فأصبحت مكة والمدينة موطنين للذة واللهو والقصف ، وشاع فيهما فنُّ الغناء ، فكان الشعراء الغزلون ينظمون ، ويتغنى بأشعارهم القيان والمغنُّون . وكان لهؤلاء الشعراء منزلة ليست لغيرهم ، يرفعهم اليها كرم محتِدهم ، فلم يتورعوا من التشبيب بنساء الخلفاء والامراء . وسُرّ أولئك النسوة بأقوالهم ، فكنّ يتعرّضنَ لهم ليشببوا بهنّ ، ولطالما شفعن لهم إذا غضب الخليفة على أحدهم وأراد عقابه .

فيتضح من ذلك ان الشاعر الحضري لم يقتصر في تشبيبه على امرأة واحدة كالشاعر البدوي ، بل كان مو كلًا بالجمال يتبعه اين رآه . وأشهر هؤلاء الشعراء الغزلين : عُمَر بن أبي ربيعة والعَرْجي القرشيّان ، والأحوَص ابن محمد الانصاري . فأما وقد عرفنا كيف نهض الغزل في الصدر الثاني للاسلام فينبغي لنا ان نتخذ مثالاً لدرسه شاعرين مشهورين ، وهما جميل ابن مَعْمَر حامل لوائه البدوي ، وعمر بن أبي ربيعة رافع عرش حضارته . ولنبدأ بجميل .

جميل بن معمر

(توفي ٧٠١ م. و٨٢ هـ.)

حياته	:	جميل بُثينة من بني عذرة . وبثينة صاحبته . اول حبه لها . هَدْرُ دمه وهربه الى اليمن . رجوعه وذهابه الى مصر . موته . بلوغ الخبر لبثينة . اخبار جميل . السخف والغلو والتناقض في قصته . سبب ذلك .
آثاره	:	أشعار وأخبار في كتب الأدب . مجموعة خطية من شعره في برلين .
ميزته	:	جلالة البداوة . رقة العاطفة . رصانة الاسلوب . الحب الصادق العفيف . القناعة منه بالشيء الزهيد . اختلاف غزله عن غزل الجاهليين . وصف الشاعر نفسه وآلامه مع الوصف المادي لمحبوبته . التفاته من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة . الغلو البريء الساذج . منزلته : زعيم الشعراء الغزلين ، وزعيم العُذريين في عفافه .

حياته

هو جَميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذري ، اشتهر بحبه لابنة عمه بُثَينة ، فعُرف بجميل بثينة . وكانا يقيمان في وادي القُرى[١] ، واحبها وهو غلام صغير. قيل انه اقبل يوماً بابله حتى أوردها وادياً يقال له بغيض ، فاضّجع وأرسل ابله مصعّدة واهل بثينة بذيل الوادي . فأقبلت بثينة وجارة لها واردتين ، فمرّتا على فِصال[٢] لجميل بُرُوك[٣] فعزقتهنّ[٤] بثينة ، وكانت حينئذٍ جويرية لم تُدرك ، فسبّها جميل فسبّته ، فملُح اليه سبابها وأحبها . وفي ذلك يقول :

---

١ وادي القُرى : موضع في الحجاز قريب من المدينة .
٢ الفِصال : جمع فصيل وهو ولد الناقة اذا فصل عن أمه .
٣ البُرُوك : جمع بارك وهو للابل بمعنى الجالس للانسان .
٤ عزقتهنّ : ضربتهنّ فأثخنتهنّ .

وأوّلُ ما قادَ المودّةَ بَيْنَنا ، بوادي بَغيضٍ ، يا بُثَينَ ، سِبابُ
فقُلْنا لها قَولاً ، فجاءتْ بمِثْلِهِ ، لكُلِّ كَلامٍ ، يا بُثَينَ ، جَوابُ

ثم صارت بثينة شابة ، وصار جميل شابّاً ، فازداد بها هياماً وطفق ينسب بها حتى اشتهر امره . فخطبها الى أهلها فردوه مخافة ان يعيرهم الناس لقوله فيها وشيوع حبه لها ، وزوّجوها رجلا اسمه نُبَيه .

وكان عند بثينة مثل ما عند جميل ؛ فأخذا يجتمعان على موعد عند غفلات الرجال ، فعرف قومها فجمعوا له جمعاً ، وترصدوه ذات ليلة ليقتلوه فحذرته بثينة ، فاستخفى . ثم هجا قومها فاستعدوا عليه مَرْوان بن الحَكَم ، وهو على المدينة من قِبَل معاوية ، فأهدر دمه او نذر ليقطعنّ لسانه ، فهرب الى اليمن وفي ذلك يقول :

أتانيَ عن مَروانَ بالغَيْبِ أنَّه
مُقيدٌ دَمي ، أو قاطِعٌ مِن لسانِيا[1]

ففي العِيس مَنجاةٌ ، وفي الأرضِ مذهبٌ ،
إذا نَحْنُ رَفَّعْنا لَهُنَّ المَثانِيا[2]

فأقام هناك الى ان عُزل مروان ، فرجع الى بلده .

وانتجع أهل بثينة الشام فرحل جميل اليهم ، فشكوه الى عشيرته فعنفه اهله وهددوه ، فانقطع عنها . ثم لجأ الى مصر وعليها عبد العزيز بن مروان فأحسن وفادته ، ولكنه لم يلبث ان مرض مَرضةً فمات بها .

---

١ مقيد دمي : اي مُهدر دمي .
٢ العيس : الابل . المثاني : جمع مَثناة وهي الحبل من صوف او شعر . اي اذا نحن رفعنا الحبال للعيس فتنطلق في سيرها .

قيل لما حضرت جميلاً الوفاة دعا برجل وقال له : « هل لك ان أعطيك كل ما أخلّفه على ان تفعل شيئاً اعهد به اليك ؟ » قال : « نعم . » قال : « إذا متُّ فخذ حلتي هذه واعزلها جانباً ، وكل شيء سواها لك ؛ وارحل الى رهط بثينة على ناقتي هذه ، والبس حلتي هذه اذا وصلت ، واشققها ثم اعْلُ على شرَفٍ ، وصح بهذه الأبيات :

صَدَعَ النعِيُّ ، وما كَنى ، بجَميلِ ، وثَوى بِمِصْرَ ثَواءَ غيرِ قَفُولِ[1]
ولقد أجُرُّ الذَّيلَ ، في وادي القُرى ، نَشْوانَ بينَ مَزارعٍ ونَخيلِ[2]
قُومِي بُثَيْنَةُ ، فآندُبي بعَويلِ ، وأبكي خَليلَكِ دونَ كلِّ خليلِ

فلمّا أتى الرجل وأنشد الأبيات ، برزَت بثينة وقالت : « يا هذا ، ان كنتَ صادقاً فقد قتلتني ، وان كنت كاذباً فقد فضحتني . » فقال : « ما أنا إلاّ صادق . » وأراها الحلة . فصاحت وصكّت وجهها ، فاجتمع نساء الحيّ يبكين معها حتى صَعِقَت[3] ، فمكثت مغشياً عليها ساعة ثم قامت وقالت :

وإنَّ سُلُوِّي عن جَميلٍ لَساعةٌ من الدهرِ ما حانت ، ولا حانَ حِينُها
سَواءٌ علَينا يا جَميلُ بنُ مَعْمَرٍ ، إذا مُتَّ ، بَأساءُ الحياةِ ولِينُها

---

١ صدع : تكلم بالحق جهاراً ، اي صرح النعيُّ . بجميل : متعلق بصدع . وقوله : ما كنى ، اي ما ستر ولا تكلم بصورة الكناية وهي ضد التصريح . ثوى : اقام ، والضمير يعود على جميل . غير قَفول : غير راجع اي ثواء شخص غير راجع .

٢ ولقد أجرُّ الذيل : التفات الى المتكلم وهو جميل . وجرُّ الذيل : كناية عن التيه والتبختر في المشي .

٣ صعقت : غشي عليها .

وقال عبّاس بن سَهْل الساعديّ : « لَقِيَني رجل من أصحابي فقال : « هل لك في جميل ، فانه يعتلُّ ، نعوده ؟ » فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه ، فنظر إليّ وقال : « يا ابن سهل ، ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ؛ ولم يزنِ ، ولم يقتل النفس ، ولم يسرق ، يشهد ان لا إله إلا الله ؟ » قلتُ : « اظنه قد نجا ، وأرجو له الجنة ؛ فمن هذا الرجل ؟ » قال : « أنا . » قلتُ : « ما أحسَبُكَ سلمت وانت تُشبب ببثينة منذ عشرين سنة . » قال : « لا نالتني شفاعة محمد ان كنتُ وضعت يدي عليها لريبة . »

وكان جميل طويل القامة ، عريض ما بين المنكبين ، جميل الخلقة ، حسن البِزّة[1] .

اخبار جميل

لصاحب بثينة أخبار كثيرة يتألف منها قصة فكهة لمن اراد التسلية دون ان يشغل فكره بالدرس والانتقاد ، ولكن اذا رماها بنظر الناقد بدا له ما فيها من سخف وغلوٍّ وتناقض ، مما يدل على ان واضعها قليل الحظ من فن التأليف . فهو يروي لنا مرّة خبراً يصوّر فيه جميلًا مثالاً للعفة ، كما نعهده في شعره ، ثم يشفعه بخبر آخر يشوّه هذه العفة ويفسدها . ويحدثنا مرة اخرى عن وفاء جميل حديثاً لذيذاً ، ولكنه لا يلبث ان ينقضه بغيره فيرينا هذا العاشق غادراً لئيماً . وهكذا يصح القول في شجاعة جميل وجبنه .

وبيّنٌ ان هذه المناقضات تعود باجمعها على تعدد رواة القصة ووضّاعها . فإنهم لم يقصدوا منها خدمة الحقيقة والتاريخ بل مفاكهة الناس في ذلك

---

[1] البزّة : الثياب .

العصر الاموي الذي كثر فيه الترف واللهو ، وكان احب شيء الى قومه استماع اخبار العشّاق المتيمين .

ونحن في درسنا جميلاً نعتمد على شعره ، لا على تلك الأقاصيص المتفرقة التي ليس لأكثرها قيمة تاريخية ولا فنية ، وليس لها نفع لولا حسن انشائها . وأما شعره فيمكننا ان نتمثل فيه حالة جميل وغير جميل من اولئك الشعراء الغزلين الذين عطّروا البادية بأنفاسهم في الصدر الثاني للاسلام .

آثاره

لجميل اشعار واخبار متفرقة في كتب الأدب ، وأكثر شعره في الغزل وله أقوال في الفخر والهجاء . وكان له ديوان كبير معروف في ايام ابن خلّكان[1] فضاع ، ولكن بقي له اشعار مجموعة في كتاب منه نسخة خطية في برلين .

ميزته — الغزل البدوي

جلال البداوة وسذاجتها ، ورقة العاطفة ولوعتها ، ورصانة العبارة وقوتها : شيء يتألف منه شعر جميل .

عفاف النفس وقناعتها ، وصدق المودة ووفاؤها : هذا هو حب جميل.

وما جميل الا زعيم الشعراء المتيمين ، واستاذ الغزل البدوي في نهضته الاسلامية ؛ فاذا انت قرأته تعلم مبلغ تطوّر الشعر الغزلي على عهد بني امية ، وتميز الفرق بينه وبين الغزل في الجاهلية ، ثم ترى تلك اللوعة الصادقة ، وذلك الحب العفيف .

---

١ ابن خلّكان : عالم مؤرخ شهير توفي سنة ١٢٨٢ م. و٦٨١ هـ.

فهذا الغزل يختلف عن غزل امرىء القيس وطرفة وزهير وغيرهم من الجاهليين ، اذ لا يقتصر على التشبيب بمحاسن المرأة بل يضيف اليه شيئاً روحياً يُعنى بنفس الشاعر وعواطفه . وربما كانت عناية الشاعر الاسلامي بنفسه أكثر من عنايته بوصف محبوبته . فجميل لا يكاد يذكر بثينة ، ويلمّ بشيء من أوصافها حتى ينصرف الى نفسه ، فيبث شكايته وما يلاقيه من ألم البعد ، ثم يشرح هواه الذي يرافقه الى ما بعد الموت « يتبع صداي صداكِ بين الأقبر . » ثم يتقاضى ديونه ويلح في طلبها ، ولكنه يقنط أخيراً من وفائها فيقول :

ما أنتِ ، والوعدَ الذي تَعدِينَني ، إلاّ كَبَرْقِ سَحابةٍ لم تُمْطِرِ

وهو ، في شكايته وشرح هواه وتقاضيه ديونه ، ملتاع صادق اللوعة لا يتكلف الحب تكلفاً ؛ وعف اللسان والضمير لا تخرج من فمه كلمة تخدش جبين الأدب .

وما اجمل الالتفات في شعره من الغيبة الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الغيبة ، وما أشد وقعه في النفس ، فانه في كل التفاتة ينبّه السامع ، ويبعث فيه نشاطاً جديداً للاصغاء اليه .

وقد تجد في غزله شيئاً من الغلو ولكنه بريء ساذج ، تَدافَعُ به اللوعة من جميع جهاته ، فلا تنكره عليه ، ولا تحس فيه تكلفاً او اغراباً ، بل يلذ لك ان تسمعه يقول :

فلو أرسلَتْ يوماً بُثَينةُ تَبْتَغي يَميني ، ولو عَزّتْ عَليَّ يَميني ،
لأعْطَيْتُها ما جاءَ يَبْغِي رَسُولُها ، وقلتُ لها بعدَ اليَمينِ : سَلِيني ،
سَلِيني مالي يا بُثَينَ ، فإنّما يُبَيَّنُ عندَ المالِ كلُّ ضَنينِ

أفليس من الغلو الساذج ان ترى الشاعر يجود بيمينه غير آسف عليها ثم لا يجد ذلك كافياً لاظهار حبه اذا لم يشفعه ببذل ماله فيقول : « سليني مالي يا بثينَ . . . »

وهو على تهالكه في حبها شجاع باسل يهدد قومها : « فليت الرجال الموعدين لقوني . » وفخور معجب بنفسه : « يقولون : من هـذا ؟ وقد عرفوني . » وأنِف يأبى الضيم ولو كان الحبيبُ الفاعل :

ولستُ، وإنْ عَزّتْ عليّ، بقائلٍ لها بَعْدَ صَرْمٍ: يا بُثَينَ صِليني

ولكنه ، وان صرمت حباله ، لا يرضى بها بديلاً ، ولا يسمع قول العواذل فيها ، فيرد تلك التي عرضت عليه نفسها ردّاً لطيفاً لأن حب بثينة لم يترك في صدره فراغاً لغيرها . ويشكو الى بثينة ما يعاني من حبها ، وما تصنع العواذل للتفريق بينهما . ولله أبوه ما أبلغ الألم وحب التشفّي من عواذله في قوله : « وودت لو يعضضن صُمّ جنادل . » بل ما أشدّ وفاءه في قوله : « واذا هَويتُ فما هواي بزائل . » وما اعظم قناعته وصدق ولائه حيث يقول :

ويَقُلْنَ: «إنكِ يا بُثَينَ بَخيلةٌ»، نفسي فِداؤكِ مِنْ ضَنينٍ باخِلِ

الا وان قناعة جميل ، ورضاه من بثينة بالشيء الزهيد ، يتمثلان في ثلاثة أبيات له إذ يقول :

وإني لأرضى مِنْ بُثَينَةَ بالذي ، لو أبْصَرَهُ الواشي لقَرّتْ بَلابلُهْ[1]

---

[1] قرت : بردت وسكنت . البلابل : جمع بَلبَال وهو شدة الهم والوسواس .

بِلا ، وبالا ً أستَطِيعَ ، وبالمُنى ، وبالأمَلِ المرجُوّ قد خابَ آمِلُهْ[1]
وبالنَّظرَةِ العَجْلى ، وبالحَولِ ينقَضي أواخِرُهُ ، لا نَلتَقِي ، وأوائِلُهْ[2]

ولعل هذه الأبيات لا تمثل القناعة مجردة ، بل تمثّل معها ذلك الحب العفيف الذي اشتهر به عُشّاق بني عُذرة وفي طليعتهم جميل .

منزلته

قال عبد الرحمن بن أزهر : «جميل أشعر اهل الاسلام .» وقال عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الانصاري : «جميل أشعر اهل الجاهلية والاسلام ، والله ما لأحدٍ منهم مثل هجائه ولا نسيبه .» وقال محمد بن سلاّم : «كان لكُثيّر حظٌ وافر ، وجميل مقدّمٌ عليه وعلى أصحاب النسيب في النسيب. وكان جميل صادق الصبابة والعشق ، ولم يكن كُثيّر بعاشق ولكنه كان يتقوّل .» ورأي ابن سلاّم هو المعوّل عليه ، فان جميلاً، في صدق مودته وخلوص وفائه ، يتقدّم الشعراء الغزلين على الاطلاق، وهو في عفة نفسه وشرف عاطفته يقود شراذم الشعراء العذريين الى جهاد الحب العفيف .

---

١ بلا وما بعدها : بيان لقوله: واني لأرضى بالذي ، اي ارضى من بثينة ان تقول : لا، اذا سألتها شيئاً ، وان تقول : لا استطيع ، اذا طلبت منها موعداً . وارضى منها بالمنى : اي بالتمنيات . مفردها مُنْية . وأرضى بالأمل ، أرجوه وأخيب فيه .

٢ ثم يقول : وارضى منها بالنظرة المستعجلة ، وبأن تمضي أواخر السنة وأوائلها دون ان نلتقي بعد هذه النظرة .

عمر بن ابي ربيعة

٦٤٤ — ٧١١م و ٢٣ — ٩٣ هـ

حياته : نسبه . انصرف الى اللهو . استقباله الحواج في مكة . خبره مع فاطمة بنت عبد الملك . خبره مع عائشة بنت طلحة . اخلاق المرأة الحجازية المترفة . خبره مع هند بنت الحرث المُرّية . مشاركة المرأة للرجل في ملاهيه . حبه . موكل بالجمال . وصيته للفتيين . حب النساء له . زواجه كلثم المخزومية . زواجه الجارية الجُمحية . توبته . تلهفه على شبابه . مساعدته الفتى المحب على الرواح . موته في ايام عمر بن عبد العزيز . دعاء المرأة عليه وموته .

آثاره : ديوان شعر كله في الغزَل اشهره الرائية .

ميزته : شاعر الغزل الحضري . قصر همه على الغزل . وسّع نطاقه القصصي بما فيه من حوار تمثيلي . وكّل نفسه بجمال المرأة . يمثل عصره في شعره، ويمثل نفسه اللطيفة . تأثير مذهبه في الشباب الحجازي والنساء . اعجابه بنفسه . رائيته . تحليلها . الصلة بينه وبين امرىء القيس . منزلته . قول جرير في تطور شعره . تأثير شعره في النساء . هو شاعر قريش وفتاها وزعيم الغزلين على الاطلاق .

حياته

هو عُمَر بن عبد الله بن ابي ربيعة حُذَيفة بن المُغيرة المخزوميّ القُرشيّ. ويكنى ابا الخطّاب ، وأمه يقال لها مجد ، سُبيت من حَضْرَمَوت او من حِمْيَر ، فتزوجها عبد الله بن ابي ربيعة ، وكان تاجراً موسراً وعاملاً للنبي والخلفاء الثلاثة من بعده ، فولدت له شاعرنا يوم قتل عمر بن الخطاب ، فنشأ في اسرة عظيمة الجاه ، ضخمة الثروة ، توافرت فيها اسباب الترف والنعيم. وقضت مصلحة بني أمية باقصاء القرشيين عن الحياة السياسية ، فانصرف عمر

الى اللهو والعبث ، وكان له من شبابه وجماله وشاعريته ومحتده وثروته ما سهّل له سبل الملذات ، فلها كثيراً وعبث كثيراً . فلم تعرض له حسناء قرشية او غير قرشية الا شبب بها وشهّرها . وكان يقضي ايامه لاهياً مستمتعاً حتى اذا آن موسم الحج اعتمر[1] ولبس الحلل الفاخرة ، وركب النجائب[2] المخضوبة بالحنّاء ، عليها القُطوع[3] والديباج ، واسبل لمّته[4] وخرج من مكة يتلقى الحَواجّ المدنيات والعراقيات والشآميات فيتعرض لهنّ ويتبعهنّ الى مناسك الحج ، ولا يزال يترقب خروجهنّ للطواف في الكعبة ، حتى ينظر اليهنّ مُحْرِمات فيرى منهن ما لا يراه خارج الحرم فيصفهن ويشهرهن بشعره .

اخباره مع الحسان

كان الحسان لا يسوؤهن ان يشبب بهن ابن ابي ربيعة ، ولطالما التمسن الاجتماع به وطلبن اليه ان يقول فيهن متغزلاً ، على ان لا يقول هُجْراً[5] مخافة ان يفضحهن. فكان يتعفف في غزله مرةً ، ثم يتعهر مراراً ، فيذكر حوادثه معهن بقالب قَصَصيّ رائع الفن . ولولا تعهره لما خشي شره بعض كرائم النساء ، فصرن يخفن الخروج الى الحج حذراً من ان يراهن فلا يسلمن من شيطان شعره .

على ان تعهره كان يقف به غالباً عند طائفة من صواحبه فلا يجاوزهن الى اللواتي يَعرِضن له في الطواف، او الى المحصَنات الموسومات بالعفاف .

---

١ اعتمر الرجل : لبس العَمْرة أي العمامة .
٢ النجائب : كرائم النوق .
٣ القُطوع : جمع قطْع وهو الطنفسة يحملها الراكب تحته وتغطي كتف البعير .
٤ لمّته : شعره .
٥ هُجراً : فُحشاً .

وقد يتورّع من تشهير مليحة حُرمة او خوفاً ، شأنه مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ؛ فقد روى صاحب الاغاني : انها حجّت، فكتب الحجاج[1] الى عمر بن ابي ربيعة يتوعده، ان ذكرها في شعره، بكل مكروه . وكانت تحب ان يقول فيها شيئاً وتتعرض لذلك، فلم يفعل خوفاً من الحجاج . فلما قضت حجّها خرجت ، فمر بها رجل فقالت له : « من انت ؟ » قال : « من اهل مكة . » قالت : « عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله ! » قال : « ولِمَ ذاك ؟ » قالت: « حججتُ فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم ترَ الاعين مثلهن ؛ فلم يستطع الفاسق[2] ابن ابي ربيعة ان يزوّدنا من شعره ابياتاً نلهو بها في الطريق في سفرنا . » قال : « فاني لا اراه الا قد فعل . » قالت : « فأتنا بشيء ان كان قاله ، ولك بكل بيت عشرة دنانير . » فمضى اليه فاخبره . فقال : « لقد فعلت ، ولكن أُحبُّ ان تكتم عليَّ . » قال : « أفعلُ . » فانشده قوله :

راعَ الفؤادَ تفرّقُ الأحبابِ ، يومَ الرّحيلِ ، فهاجَ لي أطرابي[3]

ولكنه لم يذكرها باسمها فرَقاً من عبد الملك بن مروان ومن الحجاج.

وجرى له مثل ذلك مع عائشة بنت طلحة بن عبد الله وهي قرشية من بني تَيم بن مُرّة ؛ فقد رآها وهو يطوف بالبيت ، وكانت من اجمل اهل دهرها ، فبهت لما رآها . ورأته وعلمت انها وقعت في نفسه ، فبعثت اليه

---

١ الحجّاج بن يوسف اقامه عبد الملك بن مروان اميراً على الحجاز بعد انتصاره على الزبيريين.

٢ كان عمر يُلقب بالفاسق تحبباً مرةً وتحقيراً مرةً اخرى ، واكثر ما كانت تلقبه به النساء مداعبة .

٣ راع : اخاف . الاطراب ، جمع الطرب : وهي خفة تلحقك من سرور او حزن وهنا بمعنى الحزن .

جارية لها وقالت : « قولي له : اتق الله ولا تقل هُجراً ، فان هذا المقام لا بُدّ فيه مما رأيت . » فقال للجارية : « أقرئيها السلام وقولي لها ابن عمك لا يقول الا خيراً . » وقال فيها :

لِعائشةَ ابنةِ التَّيميِّ عندي حِمىً في القلبِ لا يُرعى حِماها[1]

ثم شبب بها كثيراً ، فبلغ ذلك فتيان بني تَيم ، ابلغهم اياه فتى منهم وقال لهم : « يا بني تَيم بن مرة ! لَيَقذِفنّ بنو مخزوم بناتنا بالعظائم ! » فمشى وَلَدُ ابي بكر ، وولدُ طلحة بن عبيد الله الى عمر بن ابي ربيعة فاعلموه بذلك ، واخبروه بما بلغهم ؛ فقال لهم : « والله لا اذكرها في شعر ابداً . » ثم اخذ يكني عن اسمها في قصائده ويتلطف في تبليغها ما يريد على اعواد المغنين .

فيمكننا ان نستدل من هذين الخبرين على اخلاق المرأة المترفة في العصر الاموي ، وميلها الى الشعر ، واستلطافها ان يقال فيها الغزل البريء من الفحش . ذلك بانها كانت على جانب عظيم من الادب ، ولها في الشعر نظر صائب وذوق سليم ، يَرقيها[2] جيّده وينفّرها رديئه ، ويسرها ان تجالس الشعراء وتحادثهم وتستنشدهم . ومنهن من جعلت دارها نَدوة ادبية ، تجمع فيها الشعراء والمغنين وتجادلهم وتنتقد اقوالهم وغناءهم انتقاداً مرّاً ، كسُكَينة بنت الحسين بن علي بن ابي طالب ، وكانت تنافس عائشة في الجمال وربما

---

١ قوله : لا يُرعى حماها ، اي لا يُنتهك ولا يسكنه سواها .

٢ يرقيها : اي يرضيها ويستميلها ، وأصله من رقاه : عوّذه ونفث في عوذته اي نفخ مع ريق يسير . والعوذة : عقدة تعقدها النساء السواحر وينفثن فيها . ومنه في سورة الفَلَق : «ومِن شرّ النّفّاثاتِ في العُقَدِ . »

فضلتها . ولسكينة اخبار كثيرة مع عمر بن ابي ربيعة ، وله فيها غزل رقيق تغنى به المغنون .

ونستطيع ان نتبين مبلغ ترف المرأة الحجازية في هذا العصر ، وحبها للشعر واللهو في خبر لابن ابي ربيعة مع احدى سيدات قريش ، وهي هند بنت الحرث المرية ، وهذا الخبر حدثه عمر عن نفسه ورواه صاحب الاغاني قال : « بينا انا منذ اعوام جالس اذ اتاني خالدٌ الخِرِّيتُ فقال لي : « يا ابا الخطاب ، مرّت بي اربعُ نسوة قُبَيل العِشاء يُردن موضع كذا وكذا ، لم ارَ مثلهنَّ في بَدْوٍ ولا حضَر ، فيهنَّ هند بنت الحرث المُرّيّة . فهل لك ان تأتيهن متنكراً فتسمع من حديثهن وتتمتع بالنظر اليهن ولا يعلمن من انت ؟ » فقلت : « ويحك ! وكيف لي ان أُخفي نفسي ؟ » قال : « تلبَسُ لِبسة اعرابي ثم تجلس على قَعود[1] ، فلا يشعرن الا بك وقد هجمتَ عليهن . » ففعلتُ ما قال وجلست على قعود ، ثم اتيتهن فسلمت عليهن ، ثم وقفتُ بقربهن . فسألنَني أن أنشدهن واحدثهن ، فأنشدتهن لكُثيّر وجميل والاحوَص ونُصَيب وغيرهم . فقلنَ لي : « ويحك يا اعرابي ! ما املحك وأظرفك ! لو نزَلت فتحدثت معنا يومنا هذا ، فاذا امسيت انصرفت في حفظ الله . » فأنختُ بعيري ثم تحدثت معهن وأنشدتهنّ فسُررن بي وجَذِلن[2] بقربي واعجبهن حديثي . ثم انهن تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض : « كأنّا نعرف هذا الاعرابي ! ما اشبهه بعمر بن ابي ربيعة . » فقالت احداهن : « هو والله عمر ! » فمدت هند يدها فانتزعت عمامتي فالقتها عن رأسي ، ثم قالت لي :

---

١ القَعود : الناقة الطويلة القوائم . او من الابل ما يقتعده الراعي في كل حاجة .

٢ جذلن : فرحن .

«هِيهِ[1] يا عمر ! أتُراك خدعتنا منذ اليوم ! بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالدٍ ، فارسلناه اليك لتأتينا في اسوأ هيئة ونحن كما ترى . »

فحسبك من هذا الخبر دليل على حرية المرأة الحجازية وتحضُّرها في العصر الأموي ، وبوسعك ان تقابلها بشقيقتها في العصر الجاهلي ، فترى الفرق بينهما وتعلم مبلغ التطور السريع الذي احدثه الاسلام في نفوس العرب ، فاستبدلوا من الخشونة رقة ، ومن الوأد[2] حبّاً ، ومن الناقة امرأة ؛ وافادوا مالاً كثيراً من فتوحاتهم ، فاتسعت احوالهم بعد ضيق ، فاستمتعوا بحياتهم وأغرقوا في الاستمتاع . وكان للشباب الحجازي المترَف دافع من السياسة الى اللهو والعبث ، فتهافت عليهما ؛ وللمرأة حظها من كل ذلك ، فشاركته في تهافته ، وكان عصرهما عصر دعابة ومجون .

حبه

لم يقف ابن ابي ربيعة حبّه على امرأة واحدة كما وقف جميل حبه على بُثينة ، بل كان يتبع نساء يتنقل كالطائر من فننٍ الى فنن ، او كالنحلة من زهرة الى زهرة . ولكنه على تنقله كان صادقاً في حبه لانه انما كان يهوى الجمال ، فما رأى مليحة الا احبها واستُطير اليها فؤاده ، فهو صادق في حبه للجمال ، كاذب في اخلاصه للمرأة التي يحبها . ولعل ابلغ تعريف لحب ابن ابي ربيعة حديثه لِمُصعَب بن عُروة بن الزُّبير وأخيه عُثمان ، وكان قد أسنّ وجفّ عوده ، فبصر بهما يطوفان بالبيت وهما فتَيان ، فاقبل عليهما وقال :

---

[1] هِيه : كلمة استزادة .

[2] الوأد : دفن البنت حيةً تخلصاً من عارها او مؤونتها ، وكان بعض العرب في جاهليتهم يئدون بناتهم فحرّمه الاسلام .

« يا ابنَيْ أخي، لقد كنت موكّلاً بالجمال أتبعه، واني رايتكما فراقني حُسنُكما وجمالكما، فاستمتعا بشبابكما قبل ان تندما عليه . »

وكان عمر ناعماً في حبه تهواه النساء لجماله وشاعريته وجاهه، فلم يزره الصدود الا غراراً . وتجد اثر هذه النعمة مطبوعاً على شعره، واذا رأيت فيه شيئاً من التألم والشكوى فانما هو ناتج عن فراق حسناء لمحها في الطواف فاتبعها فافلتت من يده، او عن هجران موقوت سببته غيرة المرأة عليه لتنقله في الحب وعدم اخلاصه .

زواجه

كان عمر يهوى كَلثم بنت سَعد المخزومية وهي تصد وتمتنع عنه لعلمها بغدره، وما زال يبعث اليها الرسل حتى أذنت له بزيارتها، فمكث عندها شهراً لا يدري أهله أين هو . ثم استأذنها في الخروج، فقالت : « والله لا تخرج الا بعد ان تتزوجني . » ففعل وتزوجها فولدت منه ابنين احدهما جُوان، وماتت عنده. وكان جُوان هذا امرءاً صالحاً فلم يسلك مسلك ابيه وقد استعمله بعض ولاة مكة على تُبالة[1] فحمل على خَثعَم[2] في صدقات اموالهم حملاً شديداً فجعلت خثعم سنة جوان تاريخاً . قال ضُبارةُ بن الطُّفَيل:

ولو شَهِدتني في لَيالٍ مَضَينَ لي ، لِعامَينِ مَرّا قَبلَ عامِ جُوانِ ،
رأتنا كَريمَي مَعشَرٍ ، حُمَّ بَيننا هَوىً ، فَحَفِظناهُ بِحُسنِ صِيانِ[3]

وفي جوان يقول العَرجي :

---

١ تُبالة : بلدة من ارض تهامة في طريق اليمن .
٢ خَثعَم : اسم قبيلة .
٣ حُمَّ : قُدِّر .

تشهيدي جوانُ على حبّها ، أليس بعدلٍ عليها جوانُ ؟

فجاء جوانُ الى العرجي فقال له : « يا هذا ، ما لي وما لك ، تشهّرني في شعرك ؟ متى اشهدتني على صاحبتك هــذه ؟ ومتى كنتُ انا اشهد في مثل هذا ! »

ويروي لنا صاحب الاغاني خبر زواج آخر لابن ابي ربيعة هو أطروفة[1] في بابه ، ومنه نعلم مبلغ تأثير شعر عمر في الحرائر ، وتخوّف الناس على بناتهم هذا الشعر الساحر الفاضح . قيل : وُلدت لرجلٍ من بني جُمَح جارية لم يولد مثلها بالحجاز حسناً ، وكان من اهل مكة ، فقال : « كأني بها وقد كبرت فشبب بها عمر بن ابي ربيعة وفضحها ونوّه باسمها كما فعل بنساء قريش ، والله لا اقمت بمكة . » فباع ضيعة له بالطائف ومكة ورحل بابنته الى البصرة فاقام بها وابتاع هناك ضيعة ونشأت ابنته من اجمل اهل زمانها . ومات ابوها فلم ترَ احداً من بني جُمَح حضر جنازته ، ولا وجدت لها مُسعداً[2] ولا عليها داخلاً[3] ، فقالت لداية[4] لها سوداء : « مَن نحن ؟ ومن اي البلاد نحن ؟ » فخبرتها ، فقالت : « لا جَرَمَ والله ، لا أقمت في هذا البلد الذي انا فيه غريبة . » فباعت الضيعة والدار ، وخرجت في ايام الحج .

وكان ابن ابي ربيعة قد خرج للقاء الحواج العراقيات ، فاذا قبة مكشوفة فيها جارية كأنها القمر ، تعادلها[5] جارية سوداء كالسُّبْجة[6] . فقال للسوداء :

---

١ الاطروفة : الحديث النادر .
٢ المسعد : من تساعد المرأة في النوح على فقيدها من جاراتها او ذوات قرابتها .
٣ داخلاً : اي زائراً .
٤ الداية : المرضع . وقد تظل مع الطفلة تربيها حتى تشب .
٥ تعادلها : تركب معها في احد شقّي الهودج .
٦ السُّبْجة : كساء اسود .

« من انت ؟ ومن اين انت يا خالة ؟ » فقالت : « لقد اطال الله تعبك ، ان كنت تسأل هذا العالم مَن هم ومن اين هم . » قال : « فأخبريني عسى ان يكون لذلك شأن . » قالت : « نحن من اهل العراق ، فاما الاصل والمنشأ فمكة ، وقد رجعنا الى الاصل ورحلنا الى بلدنا . » فضحك . فلما نظرت الى سواد ثَنِيَّتَيه[1] قالت : « قد عرفناك . » قال : « ومن انا ؟ » قالت : « عمر بن ابي ربيعة ! » قال : « ومَ عرفتني ؟ » قالت : « بسواد ثَنِيَّتَيك وبهيئتك التي ليست الا لقريش . » ولم يزل بها حتى تزوجها .

توبته

على انّ صاحبَنا لم يشأ ان تنقضي حياته بالفتك والمجون ، فالرواة يحدثوننا بانه ما بلغ الاربعين حتى نسك وتاب الى ربه وحلف الاّ يقول بيت شعر الا اعتق رقبة . ولكنه ظل على الرغم منه يحن الى شبابه وجماله ، فتمرّ به ساعات يتلهف فيها على ما مضى من صبابته وصباه . فقد رأيت وصيّته للغلامين الجميلين اللذين شاهدهما يطوفان بالحرم . وابصر مرة فتى جميلاً عليه جُمّة[2] وجعل يمد الخصلة من شعره ثم يُرسلها فترجع الى ما كانت عليه ،

---

١ الثّنِيّتَان : مثنى الثّنية وهي ضرس في مقدمة الفم . والثنايا : اربعة اضراس ثِنْتان من فوق وثِنتان من أسفل . ولسواد ثنيّتي عمر خبر وهو انه اتى صاحبته « الثُّريّا » يوماً ومعه صديق له يصاحبه ، فلما كشفت الثُّريا الستر وارادت الخروج اليه رأت صاحبه فرجعت ، فقال لها : « انه ليس ممن أحتشمه ولا أُخفي عنه شيئاً . » واستلقى فضحك — وكان النساء اذ ذاك يتختّمن في اصابعهن العشر — فخرجت اليه فضربته بظاهر كفها ، فاصابت الخواتم ثنيتيه العُلْيَيَين فنَغَضتا (اي قلِقتا وتحركتا) وكادتا تسقطان ، فقدم البصرة فعولجتا له فثبتتا واسودتا .

٢ الجُمة : مجتمع شعر الرأس .

ويقول : « واشباباه ! » ونظر مرة الى رجل يكلم امرأة في الطواف فعاب ذلك عليه وانكره ، فقال له : « انها ابنة عمي . » قال : « ذلك اشنع لامرك . » فقال : « اني خطبتها الى عمي، فأبى عليّ الا بصَداق اربع مائة دينار وانا غير مطيق ذلك . » وشكا اليه من حبها وكلفه بها امراً عظيماً ، وتحمّل[1] به على عمه فسار معه اليه فكلّمه ، فقال له : « هو مملِق[2] وليس عندي ما أُصلح به أمره . » فقال له عمر : « وكم الذي تريده منه ؟ » قال : « اربع مئة دينار . » قال : « هي عليّ فزوجه . » ففعل ذلك .

وانصرف عمر الى منزله يحدّث نفسه ، فجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جواباً ؛ فقالت له : « ان لك لامراً واراك تريد ان تقول شعراً . » فقال تسعة ابيات :

تقولُ وَليدتي ، لمّا رأتني   طَربتُ، وكنتُ قد أقصرتُ حينا

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم لكل بيت واحد برّاً بحلفه .

واخبار ابن ابي ربيعة بعد توبته قليلة لم يُعنَ بهـا الرواة عنايتهم باخبار فتكه .

موته

يختلف الرواة في موته، فمنهم من يزعم ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة نفاه الى دَهْلَك[3] ثم رأى ابن ابي ربيعة ان يكفّر عن سيئاته بالتوبة والجهاد،

---

١ يقال: تحمّل بفلان على فلان ، اذا استشفع به لديه .

٢ مملق : فقير .

٣ دَهْلَك : جزيرة من بلاد الحبش في البحر الاحمر بين برّ اليمن وبرّ الحبش على ٢٥ ميلاً من مصوّع الى الشرق وفي جوارها عدة جزر صغيرة تدعى جزائر دَهْلَك .

فغزا في البحر فاحترقت السفينة التي كان فيها واحترق هو ايضاً . ويزعُم غيرهم انه نظر في الطواف الى امرأة شريفة فرأى احسن خلق الله صورةً ، فذهب عقله عليها وكلمها فلم تجبه ؛ فشبب بها ، فبلغها شعره فجزعت منه فقيل لها : « اذكريه لزوجك فانه سيُنكر عليه قوله . » فقالت : « كلا والله لا اشكوه الا الى الله . » ثم قالت : « اللهمّ ان كان نوّه باسمي ظالماً فاجعله طعاماً للريح . » فضَرَب الدهرُ من ضربه[1] ، ثم انه غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر بسَلَمةٍ[2] ، فعصفت الريح فخدشه غصن منها فدمي وورم به ومات من ذلك .

ولا يخفى ما في الرواية الثانية من التكلف والاصطناع ، واما الرواية الاولى فينفيها تاريخ وفاة ابن ابي ربيعة ، فان اكثر الرواة متفقون على انه مات في السنة الثالثة والتسعين للهجرة . ونحن نعلم ان عمر بن عبد العزيز لم يبايَع بالخلافة الا في السنة التاسعة والتسعين[3] اي بعد وفاة الشاعر بست سنوات ، حتى ان ابن ابي ربيعة لم يدرك خلافة سليمان بن عبد الملك[4] بل هلك في خلافة اخيه الوليد[5] . والدليل على ذلك ما رواه ابو الفَرج في الاغاني ، قال : « خرجت الثُريا[6] الى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة

---

١ يقال : ضَرب الدهر من ضربه ، اي مرّ من مروره وذهب بعضه ، والمراد انه مرّت مدة من الدهر .

٢ السلَمة : واحدة السلَم وهو شجر من العضاه ورقها القرَظ الذي يُدبغ به الاديم .

٣ خلافة عمر بن عبد العزيز من سنة ٧١٧ – ٧١٩ م و ٩٩ – ١٠١ هـ .

٤ خلافة سليمان بن عبد الملك من ٧١٤ – ٧١٧ م و ٩٦ – ٩٩ هـ .

٥ خلافة الوليد بن عبد الملك من ٧٠٥ – ٧١٤ م و ٨٦ – ٩٦ هـ .

٦ الثُريا : بنت عليّ بن عبد الله بن الحرث بن أُمية الاصغر ، القرشية احدى صواحب عمر .

بدمشق في دَين عليها ، فبينا هي عند أُم البنين بنت عبد العزيز بن مروان[1]، اذ دخل عليها الوليد فقال : « من هذه ؟ » فقالت : « الثريا جاءتني تطلب اليك في قضاء دين عليها وحوائج لها . » فاقبل عليها الوليد فقال : « أتروين من شعر عمر بن ابي ربيعة شيئاً ؟ » قالت : « نعم ، أما إنه يرحمه الله كان عفيفاً عفيف الشعر . » ثم انشدته قوله :

إذ فؤادي يهوى الرَّبابَ ، وانّى الدَّ   هرَ حتى المَمَات انسى الرَّبابا[2]
وحِساناً جَوارياً خَفِراتٍ ،   حَافِظاتٍ عندَ الهوى الأحسابا[3]
لا يُكَثِّرنَ في الحديثِ ، ولا يَتْبَعْ   نَ يَنعِقْنَ بالبِهامِ ، الظِّرابا[4]

فقضى حوائجها وانصرفت بما أرادت منه ، فلما خلا الوليد بام البنين قال لها : « لله درُّ الثريا ! أتدرين ما ارادت بانشادها ما انشدتني من شعر عمر ؟ » قالت : « لا . » قال : « لما عَرَّضتُ لها به عَرَّضت لي بأن أمي اعرابية . » وأمُّ الوليد وسليمان ولادة بنت العبّاس من بني عبس . »

فمن هذه الرواية نعلم ان ابن ابي ربيعة توفي في خلافة الوليد ولم يدرك

---

١ ام البنين : زوجة الوليد بن عبد الملك .

٢ الرباب : اسم امرأة . أنى : بمعنى كيف . وقوله : الدهرَ ، اي مدى الدهر ، والمراد مدى العمر . يقول : كيف انسى الرباب مدى العمر وحتى الممات .

٣ وحساناً : معطوفة على قوله : انسى الربابا . خفرات : حييات . الاحساب : الشرف ، اي يحفظن شرفهن في الحب .

٤ لا يكثرن في الحديث : اي لسن بثرثارات . ينعقن : من نَعَق الراعي بالغنم صاح بها وزجرها . البهام ، جمع بَهْمة : وهي الصغير من اولاد الغنم : الضأن والمعز والبقر من الوحش وغيرها ، الذكر والانثى في ذلك سواء . الظراب : الروابي الصغار ، مفردها ظَرِب . يقول : لا يتبعن الروابي ناعقات بالبهام . يريد : انهن لسن اعرابيات راعيات الغنم .

سليمان ، ولا ادرك عمر بن عبد العزيز . فخبر نفيه الى دهلك وغزوه واحتراق السفينة به مصنوع لا شك في اصطناعه ، وضعه انصار بني أمية ليبالغوا في غيرة خلفائهم على الحُرُمات، فجعلوا الشاعر طريداً لخليفة اشتهر بتحرّجه وهو عمر بن عبد العزيز ولكنهم لم ينتبهوا الى تاريخ خلافته ولا الى تاريخ موت ابن ابي ربيعة . وقد وقع بعض كتّابنا المعاصرين في خطئهم[1] ، فتبعوهم على غير رويّة، وذكروا حادثة النفي دون ان ينظروا الى السنوات الست التي تفصل بينها وبين تاريخ الوفاة .

فيتبين لنا من كل ذلك ان موت ابن ابي ربيعة مجهول السبب لعدم اهتمام الرواة باخبار الشاعر بعد توبته ، ولكنهم كادوا يجمعون على انه توفي وقد قارب السبعين او جاوزها .

آثاره

ديوان شعر كله في الغزل والنسيب ، واخبار كثيرة متفرقة في كتب الادب ، جمع منها صاحب الاغاني طائفة حسنة في اكثر من ١٨٠ صفحة . واشهر شعره « رائيته » التي مطلعها :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ، غَداةَ غَدٍ ، أَمْ رائِحٌ فَمُهَجِّرُ ؟

ميزته — الغزل الحضري

عرفت ميزة الغزل الحضري في كلامنا على نهضة هذا الفن ، وعرفت ان زعيمه عمر بن ابي ربيعة المخزومي ؛ وقد استحق صاحبنا هذا اللقب

---

١ الدكتور احمد فريد رفاعي في كتابه عصر المأمون . الدكتور زكي مبارك في كتابه حب ابن ابي ربيعة .

لعدة أسباب ، منها انه أول شاعر قصر همه على الغزل دون غيره ونظم فيه القصائد الطوال ؛ وأول شاعر وسّع نطاقه القصصي وادخل فيه الحوار التمثيليّ اللذيذ ؛ واول شاعر أجاد تصوير عواطف المرأة ، واختلاجات نفسها ، واختلاف حركاتها . وهو في دعابته ومجونه يصور الحياة الاجتماعية في حواضر الحجاز ، وفي تشبيبه وقصصه يمثل لنا ترف المرأة المتحضرة في القرن الأول للهجرة وسرفها في اللهو ، ولغتها الحبّية في التخاطب مع الرجل ؛ وفي رقته ولينه يرينا صفة الشعر في القُرى خصوصاً ، وميزته بعد تطوره عموماً . فشعر ابن أبي ربيعة مرآة لنفسه اللطيفة المتهالكة على الجمال ؛ ومرآة لما في عصره من لهو ومجون . فاذا اردت ان تعلم حالة الحجاز المتحضر في الصدر الثاني فعليك بشعر عمر فان فيه البلاغ المبين .

واذا كان ابن أبي ربيعة زعيم الغزل الحضري كما كان جميل زعيم الغزل البدوي ، فان مذهب عمر كان أشد تأثيراً في ابناء عصره من مذهب الشاعر العُذري ، فاستهوى الشباب الحجازي المترف ، وتلمذوا له ، فأخرج منهم اساتذة كباراً ولكنهم دون زعيمهم ، كالعَرْجي والأحوَص والحرث ابن خالد المخزومي وغيرهم ، واستهوى النساء ايضاً ، فكان من أشدّ الأخطار على العفاف .

وقد قام هذا المذهب على ركنين من الغزل : احدهما التشبيب والآخر الحوار والقصص ، وفي كليهما اجاد ابن ابي ربيعة ؛ ولا سيما فن القصص فقد ابدع فيه ما شاء له الابداع .

وابن أبي ربيعة في غزله ناعم فرح ، مبتسم لعوب ، اذا بكى فنادراً ، وربما كان بكاؤه رُقْيةً وعبثاً . ولماذا يبكي ؟ .. وكل ما يحيط به ضاحك

له : شباب وجمال ، وثروة وجاه ؛ وخليل يبادله المودة والولاء !..

فلا تعجب له اذا رأيته يشبب احياناً بنفسه اكثر من تشبيبه بصاحبته ، فهو جميل معجَب بالجمال ، يحبه في وجهه كما يحبه في وجه غيره . وقد انتقد عليه ذلك بعضُ معاصريه فلم يظفروا منه بطائل ، ولا استطاعوا ان يردوه عن غروره لأنه في وصفه نفسه لا يتكلف تصنعاً بل يتكلم بحسِّه .

وسمعه ابن ابي عتيق[1] ينشد شيئاً من غزله فقال له : « انت لم تنسُب بها وانما نسَبت بنفسك ، كان ينبغي ان تقول : قلتُ لها فقالت لي ، فوضعتُ خدّي فوطئت عليه . »

وقد تعابثه النساء في الحَرَم فيصدُّ عنهنَّ ، فيُطاردنَه ليُفسِدْنَ عليه طوافه ، فاذا هو قنَصٌ لهنّ ، واذا هنّ يتبعْنَه بدلاً من ان يتبعَهُنّ فيريك نفسه قِبْلة انظار الحسان يتجنّى عليهنّ وهنّ يَسعَينَ في أثره . على انك اذا اردت ان تستوعب خصائص عمر من تشبيب ، وقصص ، وتتبين خفّة روحه وظرفه ، وما كان يجري بينه وبين صواحبه من حوار يطلعك على حديث النساء الحجازيات ، وعلى طرف من اخلاقهن ومعاشراتهن ، فلا غُنْية لك عن درس رائيته الشهيرة فهي خير شعره ، وبها اعترف له جرير بالشاعرية .

رائية عمر

يستهل الشاعر قصيدته بذكر صاحبته نُعْم ويكثر من تكرار اسمها تلذّذاً :

---

[1] ابن ابي عتيق : من ادباء قريش له اخبار كثيرة مع عمر بن ابي ربيعة وغيره من الشعراء الغزلين .

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبْكِرُ، غَداةَ غدٍ ، أمْ رائِحٌ فمُهَجِّرُ ؟[1]

وتراه يحاذر زيارتها خشية التشهير ، ولكنه لا يلبث ان يشهّر نفسه شيئاً فشيئاً ، فيذكر أولاً حواراً جرى بين نُعم وأُخت لها ، وقد رأتاه متغيراً لوّحت وجهه الأسفار ، فأنكرته نُعم ، وعرفته اختها . فلا تغفل عن هذا الحوار الذي يمثل لنا شيئاً من محاورات النساء عندما يبصرن رجلاً يعرفنه ، ولكن تغيرت هيئته فاشتبهت عليهن ّ معرفته . ثم ينتقل الى ذكر زيارته لها ، فيزيد نفسه تشهيراً على تشهير ، ويروي لنا خبر هذه الزيارة الليلية باسلوب قصصي شائق اختص به ابن ابي ربيعة ففاق اقرانه .

ويختتم هذه القصيدة البديعة واصفاً ناقته الصلبة القوية ، وانطلاقه بها طلباً للماء في القفار الخالية . وليس في هذا القسم ما يعنينا درسه لأن خاصة ابن ابي ربيعة محصورة في غزله ، بل في قصصه الغرامي الذي يريك في الأدب العربي شيئاً جديداً ، وفي ذلك الحوار اللذيذ الدي يدور بين النساء من ناحية ، وبينه وبينهن ّ من ناحية اخرى ، حتى ليخيل اليك انك تقرأ في شعره قطعة تمثيلية تكاد تكون تامة . ومثل هذا الاسلوب القصصي كثير في شعر عمر ، وعليه قامت شهرته . لأن التشبيب وحده لا يجعل منه شاعراً متفرداً ممتازاً . فالشعراء الغزلون في الاسلام اجادوا جميعاً وصف الحبيبة ووصف العواطف والاهواء ، ولكن لم يقم فيهم واحد يستطيع ان يجاري عمر في

---

١ غادٍ : سائر غدوة . مبكر : سائر بكرة ، وهما الوقت بين ظهور الفجر وطلوع الشمس . الرائح : السائر في الرواح وهو العشي . المُهَجِّر : السائر في الهاجرة وهي شدة الحر . وكان حقه ان يقول : أم مُهجّر ورائح . ولكن القافية حكمت عليه . يسأل نفسه : أهو منصرف عن نُعم في يوم من الأيام . ولماذا يريد الانصراف ؟

قصصه الغرامي ومخاطبته النساء، وتصوير حركاتهن واشاراتهن، ونزعات نفوسهن.

ولا بدّ ان تتذكر امرأ القيس، وانت تقرأ رائيــة فتى قريش، لأن الصلة قوية بين الشاعرين، فكلاهما يتعهر في غزله، وكلاهما يتجشم الاخطار للوصول الى من يحب، وكلاهما يباغت حبيبته بالزيارة فتخاف وتلومــه، وكلاهما يدركه الصبــاح عندها فيتهيأ لملاقاة الحي مستميتاً. ولكن امرأ القيس يمتنع بسيفه وسهامه ويسخر بزوج صاحبته ويستهين به، وأما ابن أبي ربيعة فيعمد الى الاستخفاء وكان مِجَنَّهُ... ثلاث شخوص: كاعبان ومعصر.

على ان هذه الصلة بين الشاعرين لا تجيز لنا القول ان عمر جاء مقلّداً أمير الشعراء في قصصه الغرامي، فانما هو جاء مجدداً ومحسناً له، والقصص في غزل الشاعر القُرشي أتم منه في غزل امرىء القيس فهو صفة لازمة لشعر ابن ابي ربيعة وليس بصفة لازمــة لشعر امرىء القيس. ومن العدل ان نسمي هــذا الفن: «اسلوب ابن أبي ربيعة» لأنه احتكره احتكاراً وان يكن شاعر كندة قد سبقه اليه.

ورائيته الحسناء تزف اليــك ما في هذا الاسلوب من روعة وجمــال فتطلعك على تلطفه في الوصول الى حاجته، وانتظاره رقدة الحي وسكون الصوت، وغيوب القمر، ثم تنفيضه النوم عن عينيــه، وانسيابه كالحباب أزوَر الركن من الخوف والحذر. وتريــك ما جرى بينه وبين نُعم من حوار لذيذ تزينه تعابير قُرشيّة لطيفة كأنها في نعومتها وُجــدت لتكون لغة السيدات: «أرَيتَكَ إذ هُنّا عليك، ألم تخف، وُقيتَ... ، كَلاك بحفظٍ ربُّك المتكبر...»

ولم يغفل ابن أبي ربيعة في هــذه الزيارة عن التشبيب بنفسه، وكيف يغفل عنها؟ وهو معجب بجماله اعجابــه بجمال صاحبته. فاذا هو يسمعنا

نُعماً تقول له :

فأنتَ أبا الخطّابِ ، غيرَ مُدافَعٍ ، علّيَ أميرٌ ، ما مَكَثْتَ ، مُؤمّرُ

وما أجمل الانتقال من الغيبة الى الخطاب في قوله :

أشارت : « بأنّ الحيَّ قد حان منهمُ هُبُوبٌ ، ولكن مَوعِدٌ لكَ عَزوَرُ »

وهي لم تنتقل هذا الانتقال الجميل الا لتضرب له موعداً جديداً .

وانظر الى ظرف القرشيات في يوبخهنّ الشاعر بعد أن كنّ له مِجَنّاً : «أهذا دأبك الدهر سادراً ؟.. أما تستحي أم ترعوي أم تفكّر ؟ .. » ثم الى قولهن له بعد هذا التوبيخ :

إذا جِئْتَ فامنحْ طَرْفَ عينَيكَ غيرَنا ،
لِكَيْ يَحْسَبُوا أنّ الهوى حيثُ تنظُرُ

ألا وان في هذه الوصية دهاء نسائياً ، ولكنه دهاء محبوب .

منزلته

قيل كانت العرب تُقرُّ لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلاّ في الشعر ، فانها كانت لا تقرُّ لها به حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرّت لها الشعراء بالشعر ايضاً ولم تنازعها شيئاً .

وقيل : بينا كان عبد الله بن عبّاس ابن عم النبيّ في المسجد الحرام وعنده نافع بن الازرق[1] وناس من الخوارج ، اذ اقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغَين مورّدين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عبّاس فقال : « أنشدنا . » فأنشده : « أمن آل نُعم ... » حتى أتى على آخرها ،

---

[1] هو زعيم الأزارقة الذن خرجوا بالبصرة ايام عبد الله بن الزبير فحاربوه لأنه أبى مساعدتهم وحالفهم .

فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال: « اللهَ[1] يا ابن عبّاس ! إنّا نضرب اليك أكباد الابل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترَف من قريش فينشدك :

رأتْ رجُلًا أمّا إذا الشّمْسُ عارضتْ ،
فيَخْزى ، وأمّا بالعَشِيّ فيَخْسَرُ »

فقال : « ليس هكذا قال . » وانشده البيت على صحته ، ثم انشده القصيدة برمتها ، وكان قوي الحافظة ، فلامه بعض أصحابه في حفظه اياها ، فقال: « إنّا نستجيدها . » وكان يسأل كثيراً عن عمر فيقول: « هل احدث هذا المغيريُّ شيئاً بعدنا ؟ »

ورُوي عن نُصَيب الشاعر قوله: « لَعَمَر بن أبي ربيعة اوصفنا لربّات الحجال[2] . » وقال هشام بن عروة: « لا تُروُّوا فتياتكم شعرَ عمر بن أبي ربيعة لا يتورّطن في الزنا تورطاً . » وسئل حمّاد الراوية عن شعر عمر فقال : « ذاك الفُسْتُق المقشّر . » وسمع الفرَزدَق شيئاً من نسيب عمر فقال : « هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار، ووقع هذا عليه . » وقال ابو المقوّم الانصاري: « ما عُصِي الله بشيء كما عُصِي بشعر عمر ابن ابي ربيعة . » وقال جرير : « ان انسب الناس المخزومي . » يعني عمر .

ورأى عبد الله بن مُصعَب بن الزُّبير مولاته[3] داخلة منزله ومعها دفتر ، فسألها عنه ، فقالت : « شعر عمر بن ابي ربيعة . » فقال : « ويحك ! أتدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة ! ان لشعره لموقعاً من القلوب

---

١ الله : منصوب بفعل محذوف اي خفِ الله او راقبه .
٢ الحِجال : الخدور مفردها حجَلة .
٣ مولاته : جاريته .

ومدخلًا لطيفاً ، لو كان شعر يَسْحر لكان هو ، فارجعي به . » ففعلت . وقال الأصمعي : «عمر حُجَّةٌ في العربية ولم يؤخذ عليه إلا قوله :

ثمّ قالوا: « تُحِبُّها ؟ » قلتُ: « بَهْراً ! عَدَدَ الرَّمْلِ والحصى والتُّرابِ[1] »

وله في ذلك مخرَج اذ قد أتى به على سبيل الاخبار[2] . وانشد عمر « رائيته » طلحة بن عبد الله بن عوف الزُّهْريّ ، وهو راكب ، فوقف وما زال شانقاً ناقته[3] حتى كُتبت له . وكان جرير اذا أنشد شعر عمر قال : « هذا شعر تِهاميٌّ إذا أنجد وجد البرد[4] . » حتى أنشد رائيته فقال : « ما زال القرشي يهذي حتى قال الشعر . » وقال ابن أبي عَتيق : « لشعر عمر نَوطةٌ[5] في القلب وعلوق في النفس ليست لشعر . » وسمع جميلُ بن مَعمَر عمر ينشد لاميته :

جرى ناصِحٌ بالوُدِّ بَيْني وبَيْنَها ، فقَرَّبَني يومَ الحِصابِ الى قَتْلِي[6]

فقال: « هيهات يا أبا الخطّاب ! لا أقول والله مثل هذا سَجيس الليالي[7] »

---

١ بهراً : منصوب على المصدرية اي احبها حباً بهرني بهراً اي علبني غلبة . او تكون بهراً بمعنى عجباً اي عجباً لكم . او بمعنى تعساً اي تعساً لكم . عدد : منصوب على المصدرية اي حباً معدوداً عدد الرمل .

٢ وذلك لأن حذف همزة الاستفهام غير جائز على مذهب سيبويه الا في الضرورة وان كان غيره يجيزه في الاختيار عند أمن اللبس .

٣ يقال : شَنق البعير من باب ضرَب ونَصر ، اذا جذبه بالشّناق حتى يرفع رأسه ، والشناق : الزمام .

٤ انجد : اتى نجداً . يريد بذلك انه شعر ضعيف لين يصلح له العيش في سواحل تهامة ولا يصلح له في جبال نجد الباردة التي لا يحيا فيها الا الشعر الصلب المتين .

٥ النَّوطة : التعلُّق .

٦ الحِصاب كالمحصَّب : موضع رمي الجمار في مناسك الحج . والجمار ، جمع الجَمْرة : الحصاة يرميها الحجّاج في المناسك وهي ثلاث : الجمرة الاولى والوسطى والعَقَبة .

٧ سجيس:كلمة تستعمل للتأييد. وقوله: «لا اقول مثل هذا سجيس الليالي» اي لا اقوله ابداً.

والله ما يخاطب النساء مخاطبتك احـد . » ولِمُصْعب بن عبد الله الزبيري رأي في ابن ابي ربيعة تجده في الأغاني يقدمه به على اقرانه بأشياء كثيرة منها : سهولة الشعر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى .

فيتبين من هذه الأقوال ما للشاعر القرشي من منزلة رفيعة في الغزل ، فقد اجمعوا على انـه أغزل الشعراء وأدخلهم شعراً في النفس ، واسحرهم للنساء . وإذا نظرنا الى قول جرير فيه نعلم ان شعره لم يقف على حالة واحدة بل تطور كثيراً حتى بلغ مرتبته من الحسن والجودة ، ويظهر لنـا ذلك جليّاً في درسه ، فاننا نجد فيه قسماً ضعيفاً بيِّن الاسفاف واللين ، ثم نجـد قسماً وشيقاً حلو الالفاظ سهلا على غـير ضعف كأنه وضع للغناء ؛ ثم نجد قسماً آخر شديد الاسر حسن الديباجة ؛ وهو الشعر الذي استهوى كبار الشعراء كالفرزدق وجرير .

واذا نظرنا الى قول الفرزدق وجميل بدا لنا ان ابن ابي ربيعة لم يصل الى منزلته الأدبية العالية الا بشعره القصصي ، فقد رأى فيه الناس شيئاً جديداً ليس في غيره ، ولا سيما محاطبته النساء ، فافتتنوا به وراقهم اسلوبه . ونستطيع ان نعلم من اقوال المقوّم الانصاري وعبد الله بن مُصْعَب الزُبيري وهشام ابن عُروة ما كان لهـذا الشعر من التأثير في نفوس النساء حتى اصبحوا يخافون عليهنّ منه ، ويمنعونهنّ من حفظه وروايته . فقد كان شعر ابن ابي ربيعة ، وهو الفستق المقشّر ، كما وصفه حمّاد ، خطراً على النساء لما فيـه من تشبيب بليغ وقصص غرامي شائق ، ولكنه بوّأ صاحبه ارفع رتبة في هذا الفن ، فجعله شاعر قريش وفتاها ، واستاذ الغزل الحضري ، وزعـيم الغزلين على الاطلاق .

ازدهار الشعر السياسي

الأحزاب وشعراؤهم : قول الانصار : منا امير ومنكم امير. مقتل عثمان ايقظ الفتنة. المضرية واليمانية. حرب الشيعة في العراق. الخوارج في الجزيرة. الحزب الزُبيري . مقتل مُصعَب وعبد الله ابني الزبير. موقف الحزب الاموي امام احزاب المعارضة. شعراء الحزب الاموي. شعراء حزب المعارضة . النعمان بن بشير والاخطل .

قصيدة النعمان : يتوعد معاوية . سياسة الانصار وسياسة النعمان . جرأته . حلم معاوية .

الاحزاب وشعراؤهم

تكلمنا على الشعر السياسي في الصدر الاول ، وذكرنا الاسباب التي ساعدت على نشوئه وجعله فنّاً مستقلاً بنفسه ، غير ان هـــذا الفن لم يتم ازدهاره الا في الصدر الثاني ، لان الشعر الذي قيل في حياة النبيّ كان فاتحة لهذا الفن في صورته التامة. ولما قُبض الرسول اصاب الشعرَ السياسيَّ شيءٌ من الفتور كما اصاب غيره من الفنون الشعرية ، فانصرف العرب الى القرآن والجهاد ، وكادوا يتناسون عصبيتهم الجاهلية ، وما كان بين قبائلهم من منافرات ومخاصمات . على ان مقتل عثمان بن عفان ايقظ الفتنة من مضجعها ، فاعصوصب الشر ، وتفرقت الجماعة شيعاً واحزاباً ، وجرت الدماء انهاراً بين عليّ وخصوم عليّ . ثم استقرّ الامر في بني أمية على كره من اعدائهم ، فقبضوا على ناصية الملك بيد من حديد، وشددوا النكير على مناوئيهم ، فأصلوهم حرباً عواناً ، فقاتلوا الشيعيين ، وقاتلوا الخوارج ، وقاتلوا الزُبيريين حتى وطدوا دعائم دولتهم بشفار السيوف .

ولا نستطيع ان نتفهم حقيقة الشعر السياسي في هـذا العصر ما لم نُلمّ

بتاريخ الاحزاب السياسية في الاسلام ، ونعلم الاسباب التي ادّت الى نشوئها وتنظيمها . وانه ليحسنُ بنا ان نعود قليلاً الى الصدر الاول ، ونستعيد صور الحياة العربية بعد وفاة محمد ، وقول الانصار للقرشيين : «منا امير ومنكم امير .» فالانصار يرون ان لهم الحق في الخلافة كما لقريش ، فهم الذين جرّدوا سيوفهم على رؤوس المشركين ، وآووا النبيّ واصحابه المهاجرين ، وجعلوا ديارهم موطناً للاهوال في سبيل الاسلام ونصرة المسلمين . ولكن القرشيين ابوا عليهم هذا الحق ، واستأثروا بالخلافة دونهم لان النبيّ منهم . ثم اراد الانصار ان تحصر الخلافة في بني هاشم لانهم اهل النبي الادنون ، ودعوا الى مبايعة عليّ بن ابي طالب ، فأبت قريش ذلك واخفق الانصار في دعوتهم ، فنبّه هذا الاستئثار روحاً عصبيّاً جديداً بين القرشيين والانصار[1] ، او بين المضرية واليمانية ، او بين العدنانية والقحطانية .

على ان هذه العصبية بقيت ضعيفة حتى قُتل عثمان وطولب عليّ بدمه ، فشدت الانصار ساعد بني هاشم ، وحازبوهم على قريش كما حازبوا النبيّ من قبل ، ولم تكن الحروب التي قامت بينهم الا نزاعاً عنيفاً بين المضرية واليمانية . ثم نشأ حزب الشيعة في العراق[2] واكثره يماني ، ومنه الانصار ، ورأيه ان تكون الخلافة في بني هاشم بل في ابناء علي اسباط الرسول وابناء عمه . ونشأ حزب الخوارج في الجزيرة وقد اتينا على سبب نشوئه في لمحتنا التاريخية ، ورأيه ان تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، غير محصورة في قبيلة دون اخرى ، وكان يرمي سائر الاحزاب بالكفر والمروق من الدين .

---

١ قريش مضرية عدنانية والانصار يمانية قحطانية .

٢ كانت الكوفة وما يليها من العراق موئل علي بن ابي طالب وابنه الحسن في خلافتيهما فنشأ الحزب الشيعي في تلك الامصار .

وانشقت قريش ثانية على نفسها ، فقام آل الزُّبير في مكـة ينكرون على بني أمية جعلهم الخلافة وراثة فيما بينهم دون سواهم من القرشيين ، فنشأ الحزب الزُّبيري وعلى رأسه عبـد الله بن الزبير يجاهد الأمويين ويطالب بالخلافة ، فبايعه بها اهل الحجاز في خلافة يزيد بن معاوية[1]، ثم بايعـه اهل العراق واليمن ومصر . امـا دمشق فثبتت على ولاء الامويين ، فبايعت معاوية بعد موت ابيه يزيـد ، ثم بايعت مروان بن الحكم[2] فقاتل الزبيريين وفتح مصر . ثم بايعت عبد الملك بن مروان[3] فافتتح العراق بعـد مقتل مُصعب بن الزبير اخي عبد الله ، وارسل الحجاج بن يوسف في جيش عظيم الى الحجاز ، فكانت بينه وبين اصحاب ابن الزبير وقائع كثيرة ، وحاصر الحجاج مكة سبعة اشهر ورماها بالمنجنيق[4] ؛ فظل عبد الله بن الزبير يقاتل حتى قُتل في سنة ٦٩٢م و ٧٣هـ بعد خلافة تسع سنوات ، وبموتـه صار الامر لعبد الملك بن مروان فبايعه اهل الحجاز واليمن وامَّحى حزب الزبيريين .

فهـذه الاحزاب الثلاثة كانت تناوىء الحزب الاموي ، والامويون يناوئونها جميعاً ، مدعين انهم احق بالخلافة من غيرهم ، لان الخليفة عثمان بن عفان الاموي قُتل ظلماً ولم يؤخذ بثأره ، فحق لهم المطالبة بدمـه ، والاستيلاء على الملك من بعده .

ولم يقتصر خصام هذه الاحزاب على الغزو والقتل ، بل اخذ منه الشعر

---

١ تولى الخلافة يزيد بن معاوية من سنة ٦٨٠ - ٦٨٤م و ٦٠ - ٦٤هـ . ثم تولاها ابنـه معاوية ولم يلبث ان تخلى عنها بعد اربعين يوماً . فانتقلت من آل معاوية بن ابي سفيان الى آل مروان بن الحـكم وكلاهما من أمية .

٢ خلافة مروان بن الحكم سبعة اشهر او اكثر من ٦٨٤ — ٦٨٤م و ٦٤ — ٦٥هـ .

٣ خلافته من سنة ٦٨٤ — ٧٠٥م و ٦٥ — ٨٦هـ .

٤ المنْجَنيق : آلة تُرمى بها الحجارة ، مؤنثة وقد تذكر ، فارسية الاصل .

قسطاً كبيراً ، فكان لكل حزب شعراء يدافعون عنه ويؤيدون آراءه ويشتمون خصومه ، فعلَ الشعراء المخضرمين في الصدر الاول للاسلام .

وكان شعراء بني أُمية اكثر عدداً وابعد صوتاً لان الخلفاء الامويين بسطوا لهم الاكف واسبغوا عليهم النعم ، وساعدهم على البذل ما في بيت المال من فَيْءٍ[1] وفرٍ ، فاقبلت عليهم طوائف الشعراء تمدحهم وتؤيد حقهم بالخلافة غير هيَّابة جانب خصومهم . واما شعراء المعارضة فكانت اصواتهم تقوى بقوّة احزابهم ، وتضعف بضعفها ، فعبَيد الله بن قيس الرُّقَيَّات القرشي كان زبيرياً يكره الامويين ويهجوهم ، فلما قُتل مُصعب بن الزبير واخوه عبد الله ، انحاز الى عبد الملك بن مروان فمدحه خائفاً ، فأمنه على حياته . والفرزدق كان يتشيع لعليّ وابناء عليّ ، ولكنه لم يستنكف من مدح خلفاء بني أُمية وعمالهم رهبة منهم ، او رغبة في نوالهم . وكذلك فعل الكميت لما امر هشام بن عبد الملك بقطع لسانه من اجل قصيدة رثى بها زيد بن علي[2]. والنعمان بن بشير كان انصارياً من الخزرج، ولكنه ساير معاوية، فشهد معه واقعة صفّين ، وقد اجتذبه معاوية بسخائه ودهائه ، ولما افضت الخلافة الى مروان بن الحكم كان النعمان على حمص فدعا اهلها الى مبايعة عبد الله بن الزبير فلم يجيبوه ، فهرب منهم ، فتبعوه وادركوه وقتلوه .

والنعمان على مسايرته معاوية وآله كان شديد التعصب للانصار ، ولما دفع يزيد بن معاوية الاخطل لهجاء الانصار فهجاهم بقوله :

---

١ الفيء : الخراج والغنيمة . او ما ردّه الله على المسلمين من اموال من خالفهم في الدين بلا قتال اما بالجلاء او المصالحة على جزية او غيرها .

٢ هِشام بن عبد الملك الخليفة الاموي العاشر ملك من سنة ٧٢٣ — ٧٤٣م و ١٠٥ — ١٢٥هـ . وفي ايامه خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب طالباً الخلافة لنفسه فبايعه اهل الكوفة وكان عاملها من قبل هشام يوسف بن عمر الثَّقَفي فجمع العسكر وقاتل زيداً فانتصر عليه ، وقُتل زيد بسهم اصابه في جبهته .

ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بالمَكارِمِ كُلِّها ، والُّلؤْمُ تحتَ عَمائِمِ الأنصارِ

دخل النعمان على معاوية غضبان ، وانشأ قصيدته التي يقول فيها :

مُعاويَ إلا تُعْطِنا الحَقَّ، تَعْتَرِفْ لِحِى الأزدِ مَشدوداً عَلَيها العَمائِمُ

ثم حسر عمامته وقال: « يا امير المؤمنين ، أترى لؤماً ؟ » قال : « لا، بل ارى كرماً وخيراً[1] ، فماذا ؟ » قال : « زعم الاخطل ان اللؤم تحت عمائم الانصار. » قال: « أوفعل ذلك ؟ » قال : « نعم. » قال : « لك لسانه. » فاستجار الاخطل بيزيد، فمنعه منه ، وارضى النعمان حتى كفَّ عنه .

ولعل من الخير ان نعرض لقصيدة النعمان بن بشير في الدفاع عن الانصار فانها مظهر قوي لاستيقاظ العصبية في الاسلام ، واشتداد الخصومة بين المضرية واليمانية ، ثم ننتقل الى درس الاخطل شاعر بني أمية الاكبر ، فدرس الفرزدق وجرير ، وما كان بين الثلاثة من هجاء مقذع ؛ فان الهجو في هذا العصر لم يكن مقصوراً على سياسة الاحزاب، بل تعداها الى اغراض خاصة بالشعراء، منها ما يتصل بالعصبية القومية والمفاخرة بالآباء والجدود ، ومنها ما يقصد منه اظهار قوة الشاعرية وبراعة الشاعر في هجو خصمه وإذلاله.

قصيدة النعمان

يستهل النعمان قصيدته متوعداً معاوية، ذاكراً هجاء الاخطل للانصار ، ولكنه لا يُعنى بالرد على شاعر تغلب ، بل يجعل همته في تهديد الخليفة الاموي ، ثم يفتخر عليه ويذكّره يوم بدرٍ وما فعلت الانصار بقريش ؛ ثم يختم ضارباً على الوتر الحسّاس الذي يُرجف وقعُهُ قلب السياسة الاموية

---

١ الخير : الكرم والشرف والاصل .

وهو مصير الخلافة الى بني هاشم لانهم احق بها واولى .

فقصيدة النعمان بن بشير تظهر لنا سياسة الانصار ورأيهم في الخلافة وسخطهم على الامويين بعد ان استأثروا بها ، وتظهر لنا خصوصاً سياسة النعمان في مصانعته معاوية وابناء معاوية ، وهي بما فيها من وعيد وتعيير وفخر وانذار تمثل ألم الانصار لاخفاقهم في الحياة السياسية بعد ان استبدت قريش بالخلافة والسلطان ، فهم ساخطون عليها لا يستثنون الا بني هاشم آل البيت . بيد انهم يؤثرون من الهاشميين ابناء علي ويرونهم احق من غيرهم بالخلافة لانهم اسباط الرسول وابناء عمه . والنعمان بن بشير على مسايرته الامويين ، لم يشذ عن الانصار في سياسته ، بل كان يرى رأيهم ، ولكنه يصانع معاوية رغبة في نواله :

أصانِعُ فيها عَبْدَ شَمْسٍ ، وإنَّني لِتِلكَ التي في النَّفسِ منّي أُكاتِمُ

ولا بدّ ان تُدهشك جرأة الشاعر على الخليفة ، ومخاطبته اياه بتلك اللهجة الشديدة التي لا تليق بالملوك ، ولا يسلم من يخاطبهم بها مهما عظم خطره . اجل ، ان جرأة النعمان عجيبة غير مألوفة ، ولكن اعجب منها حلم معاوية واناته ، بل سياسته ودهاؤه ، فهو يعلم ان ملكه قائم على كره من الانصار وغير الانصار ، ولا يستطيع تأييده الا بالحكمة والحلم وحسن تصريف الامور . فبهذه الصفات السامية تمكن معاوية من تأسيس عرش بني امية وتوطيده .

فأما وقد عرفنا الآن شيئاً من الشعر السياسي الذي كان يناوىء به بني أمية خصومهم ، فلننتقل الى درس الشعر الذي كان يؤيد سياسة الامويين ويرد على اعدائهم ، الى درس شعر الاخطل شاعر بني أميّة .

الاخطل*

٧١٠م و ٩٢هـ (?)

حياته : نسبه. تعرضه لكعب بن جعيل. هجوه الانصار واتصاله ببني امية. حرب قيس وتغلب. اتفاق امية وتغلب وافناء اليمن على قيس. تمسك الاخطل بدينه. حبسه في الكنيسة. عبد الملك يعرض عليه الاسلام. حبه الخمر. دالته على عبد الملك. تدخله في سياسة الخلافة لمصلحة قومه. حادثته مع زفر بن الحرث. تهاجي الاخطل وجرير. موت الاخطل في خلافة الوليـــد.

آثاره : ديوان كبير، ونقائض جرير والاخطل. من اصحاب الملحمات.

ميزته : شعره السياسي. المدح والهجاء. دفاعه عن الخلافة. مدحه الخليفـــة والامويين. سياسته لمصلحة قومه. هجوه قيس عيلان وجريراً وقومه. مدح قوم الفرزدق. صلته بالنابغة. وصف الخمر. منزلته: تفضيل أئمة اللغة له. لا يقل في الهجو عن جرير. نصرانيـــة الاخطل ضيّقت عليه القول. براعتـــه في المدح. شاعر متصرف في المعاني. متقدم في الشعر السياسي على سواه.

حياته

هو غِياثُ بن غَوثِ بن الصَّلتِ التَّغلبيُّ من اهل الحـــيرة، ويُلقب بالأخطل لخبث لسانه، وبذي الصليب لانه كان نصرانيّاً يعلّق صليباً على صدره، وبدَوْبل[1] لان أُمه كانت تُرقصـــه به في صغره، ويُكنى ابا مالك، ومالك اكبر بنيه.

---

* الاخطل: الطويل الاذنين المسترخيها. والخفيف السريع. والاحمق. وذو المنطق الفاسد المضطرب. والكلام الفاسد الكثير. والانسان الطويل المضطرب.

[1] الدّوبَل: الخنزير أو ولده، وولد الحمار او الحمار الصغير لا يكبر، والذئب والثعلب.

نشأ الاخطل في قبيلة عزيزة الجانب شديدة البأس، حافل تاريخها بالمفاخر الكثيرة حتى قيل: « لو تأخر الاسلام لأكلت بنو تغلب الناس . » وكانت تدين بالنصرانية ؛ فلما ظهر الاسلام وانتحله العرب ، أبت تغلب ان تنزل عن دينها ، ورضيت بالجزية تدفعها، فاقرّها عمر بن الخطاب على نصرانيتها، وكانت منازلها في الجزيرة والعراق فترعرع الاخطل مَزهوّاً بمناقب قومه ، حافظاً اخبارهم وايامهم ، يُعِدّ منها ذخائرَ وأُهباً لشاعريته التي بدأت تظهر منذ نعومة اظفاره .

ويحدثنا الرواة انه هجا امرأة ابيه طفلا ، وكانت تضيّق عليه وتؤثر بنيها باللبن والتمر والزبيب، وتبعثه يرعى اعنزاً، فلحظ ذات يوم شَكْوَةً[1] فيها لبن ، وجراباً فيه تمر وزبيب ، وكان جائعاً ، فقال : « يا أُمّاه ، آل فلان يزورونك ويقضون حقك وانت لا تأتينهم وعندهم عليل ، فلو اتيتهم لكان اجمل واولى بك . » قالت : « جُزيت خيراً يا بُنيّ، لقد نبّهت على مكرُمة . » وقامت فلبست ثيابها ومضت اليهم . فمضى الاخطل الى الشّكوة فشرب ما فيها، والى الجراب فأكل التمر والزبيب. فلما رجعت ورأت الشكوة والاناء فارغين ، علمت انه قد دهاها فعمدت الى خشبة لتضربه بها فهرب وقال :

أَلَمٌّ على عِنَبَاتِ العَجوزِ ، وشَكْوَتِها ، مِنْ غباثٍ ، لَمَمْ[2]

---

١ الشكوة : وعاء من جلد للماء واللبن .

٢ اللمم : الذنب الصغير والجنون. فان كان المعنى الأول كان المراد اصيبت العنبات والشكوة بذنب صغير. وان كان الثاني كان المراد ألمّ بالعجوز جنون على عنباتها وشكوتها . وقوله : على عنبات العجوز من نوع القلْب .

فَظَلَّتْ تُنادي : ألا وَيْلَها ! وتَلعَنُ ، واللَّعْنُ مِنْها أمَمْ[1]

وكان لتغلب شاعر معروف يقال له كَعْب بن جُعَيل ، فتعرض الاخطل لهجائه وهو حَدَث ما برح مُقرزِماً[2] ، فضربه ابوه وقال له : « أبقرْزَمتك تريد ان تقاوم ابن جُعيل ! » ثم لجّ الهجاء بينهما فأخمل الاخطلُ كعباً وصار شاعر تغلب غير مدافع .

ولكن ريحه لم يبدأ هبوبها إلاّ في عهد معاوية ، وكان العداء قد اشتدّ بين الأنصار والقرشيين وكثر الهجاء والتفاحش بين شعرائهم ، ولا سيا بين عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي حتى أمر معاوية بأن يُجلد كل واحد منهما مائة سوط . ثم كان من أمر عبد الرحمن بن حسان ان شبب برَمْلَة بنت معاوية ، فبلغ ذلك أخاها يزيد فغضب فدخل على أبيه فقال : « يا أمير المؤمنين ، ألا ترى ان هذا العلج[3] من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا ويشبب بنسائنا ! » قال : « ومن هو ؟ » قال : « عبد الرحمن بن حسّان . » وأنشده ما قال ، فقال : « يا يزيد ، ليست العقوبة من أحد اقبح منها من ذوي القدرة ، ولكن أمهل حتى يقدم وفد الأنصار ثم ذكرني . » فلمّا قدموا ذكّره به ، فلما دخلوا عليه قال : « يا عبد الرحمن ، ألم يبلغني انك تشبب برملة بنت أمير المؤمنين ؟ » قال : « بلى ، ولو علمت ان أحداً أشرّف به شعري أشرف منها لذكرته . » قال : « وأين أنت عن اختها هند ! » قال : « وانّ لها لأختاً ؟ » قال :

---

١ الأمم : القُرْب ، والشيء اليسير . يقول : اللعن على قرب منها ، اي يأتي اليها لأنه ابن زوجها . او اللعن شيء يسير منها لأنه تعوّد منها اكثر من ذلك .

٢ مقرزماً : يقول الشعر الرديء .

٣ العلج : الرجل الضخم من كفّار العجم وهو هنا الكافر على الاطلاق .

« نعم . » وانما أراد معاوية ان يشبب بهما جميعاً فيكذب نفسه . فلم يُرض يزيد ما كان من أبيه ، فأرسل الى كعب بن جُعيل بأن يهجوَ الأنصار ، فاعتذر خوفاً ودلّه على الأخطل . ولعلّ كعباً أراد ان يُلقي خصمه في تهلكة لما ناله من شرّ لسانه ، فنفعه من حيث لا يريد . فدعا يزيد الأخطل وقال له : « اهج الأنصار . » فقال : « أفرقُ من أمير المؤمنين . » فقال : « لا تخف شيئاً ، أنا لك بذلك . » فهجاهم وكان ما كان من أمره مع النعمان ابن بشير وانتصار يزيد له فانقطع اليه يمدحه وليّاً للعهد وخليفةً ؛ ثم مدح الخلفاء بعده ، وجاهد حزب الزُّبيريين خصومهم ، ودافع عن مصالح قبيلته في حروب قيس وتغلب فارتفع قدره ونبه ذكره .

حروب قيس وتغلب

ولا نستطيع ان نتفهم شعر الأخطل السياسيّ ما لم نُلِمّ بأخبار الحروب التي وقعت بين قيس وتغلب في أيام الامويين ، لأن لها صلةً متينة بمصير الخلافة وانخذال الحزب الزبيري . وقيس هذه قبائل مضرية جاءت في الاسلام الى الجزيرة وما يليها فزاحمت التغلبيين ، وهم من ربيعة ، في عقر دارهم ، وزاحمت معهم بعض قبائل يمانية كانت تناصر الأمويين[1] .

فلما هلك معاوية وبايع الناس يزيد ابنه أبت القيسية مبايعته وقالوا : « والله لا نبايع ابن الكلبية . » فوقعت الحرب بين امية وقيس فكانت

---

[1] لما رأى معاوية ان اكثر اليمنية تشايع علياً عمد الى استمالتهم فقرّب منهم قبيلة كلب وتزوج منها ميسون بنت بَحدل الكلبي وهي أم يزيد . ثم استنصرهم على قتلة عثمان لأن أم عثمان كانت كلبية واستغواهم بالمال فحاربوا معه وناصروا ابنه يزيد من بعده لأنهم اخواله. وكانوا في جانب مروان بن الحكم على ابن الزبير وفي جانب ابنه عبد الملك من بعده .

تغلب وكلب في نحور القيسية مع ابناء ابي سفيان . ولما صارت الخلافة الى مروان بن الحكم بايعت قيس عبد الله بن الزبير فخرجت اليهم أمية وافناء اليمن[1] فالتقوا بمرج راهط على مقربة من دمشق فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت القيسية وقُتل رئيسها الضَّحَّاك بن قيس الفِهري وقُتل منها تسعة آلاف ومن اليمن ألف وثلثمائة . وفي أيام عبد الملك بن مروان استؤنفت الغارات بين اليمنية والقيسية فاقتتلوا مدة . ثم وقعت الحرب بين قيس وتغلب لما كان بينهما من التنافس والشحناء ، فاتفقت امية وتغلب وافناء اليمن على استئصال هذا الحيّ من مضر ، حتى تم النصر لعبد الملك بن مروان في العراق وقتل مصعب بن الزبير .

تمسك الأخطل بدينه

وكان الأخطل ، على حظوته عند الخلفاء المسلمين واشتماله بنعمهم ، شديد التمسك بنصرانيته ، كثير التوقير للقسيسين وان يكن ، كما ذكر الأب لامنس ، رقيق الدين ، متهافت العقيدة شأن أهل البادية . حدث اسحق بن عبد الله من بني عبد المطّلب ، قال : « قدمت الشام وانا شاب مع ابي فكنت أطوف في كنائسها ومساجدها ، فدخلت كنيسة دمشق واذا الأخطل فيها محبوس فجعلت انظر اليه ، فسأل عني فأخبر بنسبي ، فقال : « يا فتى ، انك لرجلٌ شريف واني اسألك حاجة . » فقلت : « حاجتك مقضيّة . » قال : « ان القس حبسني ههنا فتكلمه ليخلي عني . » فأتيت القس وانتسبت له فرحّب وعظّم ، فقلت : « ان لي اليك حاجة . » قال : « ما حاجتك ؟ » قلت : « الاخطل تخلي عنه . » قال : « اعيذك بالله من

---

[1] افناء اليمن : اخلاط من قبائل اليمن .

هذا ! مثلك لا يتكلم فيه ، فاسقٌ يشتم أعراض الناس ويهجوهم . » فلم ازل اطلب اليه حتى مضى معي متكئاً على عصاه ، فوقف عليه ورفع عصاه وقال : « يا عدوّ الله ، أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذف اعراض المحصنات ؟ » وهو يقول : « لستُ بعائد ولا أفعل . » ويستخذي[1] له . فقلت : « يا أبا مالك ، الناس يهابونك ، والخليفة يكرمك ، وقدرك في الناس قدرك ، وانت تخضع لهذا هذا الخضوع وتستخذي له !.. » فجعل يقول لي : « انه الدين انه الدين ! »

وأخبر ابو عبد الملك قال : « رأيت الاخطل بالجزيرة وقد شُكِيَ الى القس ، وقد أخذ بلحيته وضربه بعصاه وهو يَصئي[2] كما يصئي الفرخ ، فقلت له : « أين هذا مما كنت فيه بالكوفة ؟ » فقال : « يا ابن اخي ، إذا جاء الدين ذلّلنا . »

وقيل : كانت امرأته حاملا ، فمرّ بها الاسقف يوماً ، فقال لها : « الحقيه فتمسّحي به . »

ومرّ بالكوفة في بني رؤاس ومؤذنهم ينادي بالصلاة ، فقال له بعض فتيانهم : « ألا تدخل أبا مالك فتصلي ؟ » فقال :

أُصلّي حيثُ تُدْرِكُني صَلاتي ، وليسَ البِرُّ عنـدَ بَني رُؤاسِ

وسمع هشامُ بن عبد الملك الاخطل يقول :

وإذا افتَقَرْتَ الى الذّخائرِ ، لم تَجِدْ ذُخْراً يكونُ كصالِحِ الاعمالِ

---

[1] يستخذي : يخضع بذلّة .
[2] صأى الفرخ يَصْئي صَئِياً مثلّثة : صاح .

فقال : « هنيئاً لك ، أبا مالك ، هذا الاسلام ! » فقال له : « ما زلت مسلماً في ديني[1] . »

وعرض عليه عبد الملك الاسلام مراراً فكان يتخلص في جوابه الى الهزل فِعْلَ من لا يريد ان يسيء الى رجل أحسن اليه وآثره على جميع الشعراء المسلمين . ومن ذلك ما روي ان عبد الملك قال له يوماً : « لِمَ لا تُسْلِم يا أخطل ؟ » قال : « إن انت أحللتَ لي الخمر ووضعت عني صوم رمضان أسلمت . » فقال له عبد الملك : « ان انتَ أسلمتَ ثم قصرت في شيء من الاسلام ضربتُ الذي فيه عنقك . » وقال له مرّة : « ألا تُسلم فنفرض لك ألفين في عطائك ، وتوصل بعشرة آلاف درهم ؟ » قال : « فكيف بالخمر ؟ » قال : « وما تصنع بها وان اوّلها لَمُرٌّ وانّ آخرها لسُكْرٌ ؟ » قال : « أما أن قلت ذاك ، فان بينهما لمنزلة ما مُلكك فيها الا كلعقةٍ من ماء الفرات بالإصبع . » فضحك عبد الملك .

حبه الخمر

على ان الاخطل لم يكن كاذباً في حبه الخمر ، وان قصد الهزل وحسن التخلص في جعله اياها حائلًا دون اسلامه ، فقد احبها كثيراً وبالغ في شربها ووصفها بشعره يوم كان الشعراء المسلمون في كثرتهم يعرضون عن ذكرها فَرَقاً من السلطان او تورعاً من وصف شيء نهى عنه القرآن . وكان يرى انها تنعش الفؤاد وتنطق الشعراء ؛ وربما دعا غيرَه الى شربها لتجويد قريحته كما فعل بالمتوكل اللّيثي اذ سمع شعره فقال له : « ويحك يا متوكل ، لو

---

[1] اضاف بعضهم الى ذلك قوله : « يا امير المؤمنين » وهذا خطأ لأن الأخطل لم يدرك هشاماً وهو خليفة ليدعوه بأمير المؤمنين. وخلافة هشام من ٧٢٣–٧٤٣ م و ١٠٥–١٢٥ هـ.

نَبَحَتِ الخمرُ في جوفكَ كنت اشعر الناس . »

وقد يستنشده الخليفةُ فما يطيق انشاداً إلّا بعد ان يبرّد حلقه بالراح . فقد روي انه دخل يوماً على عبد الملك فاستنشده ، فقال : « قد يبس حلقي فمر من يسقيني . » فقال : « اسقوه ماء . » فقال : « هو شراب الحمار وهو عندنا كثير . » قال : « فاسقوه لبناً . » قال : « عن اللبن قد فُطمت . » قال : « فاسقوه عسلا . » قال : « شراب المريض . » قال : « فتريد ماذا ؟ » قال : « خمراً يا أمير المؤمنين . » قال : « أوَعهدتني اسقي الخمر لا أمَّ لك ؛ لولا حرمتك بنا لفعلتُ وفعلت . » فخرج فلقي فرّاشاً لعبد الملك فقال : « ويلك ان امير المؤمنين استنشدني وقد صحِل[1] صوتي ، فاسقني شربة خمر . » فسقاه رطلاً ، فقال : « اعدله بآخر . » فسقاه رطلاً آخر ، فقال : « تركتهما يعتركان في بطني ! فاسقني ثالثاً . » فسقاه ، فقال : « تركتني امشي على واحدة ، اعدل ميلي برابع . » فسقاه رابعاً ، فدخل على عبد الملك فأنشده رائيته الشهيرة : « خفَّ القطين ... »

وهذه الرواية على علاتها لا تقتصر على اظهار حب الاخطل للخمر بل تظهر لنا ايضاً دالته على عبد الملك بن مروان .

حرمة الأخطل

ولا نعجب لدالة الشاعر النصراني على الخليفة المسلم حتى ليبلغُ به الامر ان يستقيه الراح ، فلقد كان الاخطل موفور الحرمة عند عبد الملك ، مقرباً اليه دون سائر الشعراء ، وكان يدخل عليه بغير اذن ولحيته تنفض خمراً . والشعر هو الذي جعل للاخطل هذه الكرامة ، فقد كان الخلفاء الامويون

---

[1] صَحِل : بُحّ .

مضطرين الى اصطناع شعراء فحول يقاومون خصومهم ، وكان الاخطل شاعراً فحلا يجيد مدح الملوك ويجيد الهجاء ، فاصطنعه بنو أمية ورموا به أعداءهم فسقط عليهم سقوط الداهية الدهياء ، واولع عبد الملك بشعره ولعاً عظيماً فرفع قدره ، ووالى نعمه عليه ولقبه بشاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين وأشعر العرب .

وقد بلغت الدالة بالاخطل ان يخاطب عبد الملك بقوله :

ولستُ بِصائمٍ رمضانَ يوماً ، ولستُ بآكِلٍ لحمَ الاضاحي [1]

ولستُ بِزاجرٍ عَنْساً بُكوراً الى بَطْحاء مكّةَ للنَّجاحِ [2]

ولستُ بقائمٍ كالعَيرِ أدعو قُبَيلَ الصُّبحِ : حيَّ على الفَلاحِ [3]

ولكِنِّي سأشربُها شَمولاً ، وأسجدُ عند مُنبلَجِ الصباحِ [4]

ثم بقوله :

إذا ما نَديمي عَلَّني ، ثمَّ علَّني ثَلاثَ زُجاجاتٍ ، لهنَّ هَديرُ ، [5]

خَرجتُ أجُرُّ الذَّيل زهواً كأنَّني عليكَ ، أميرَ المؤمنينَ ، أميرُ [6]

---

١ الاضاحي : جمع أضحيّة وهي شاة يضحى بها . واراد بلحم الاضاحي ما يذبح الحُجّاج من الشاء في عيد الاضحى .

٢ زجره : دفعه وصاح به . العنْس : الناقة الصلبة الفتية . بكوراً : غدوة . وقوله : للنجاح ، اي طلباً للنجاح من زيارتها .

٣ العَير : الحمار . حيّ على الفلاح : صلاة المسلم . وحيّ : اسم فعل بمعنى الامر مبني على الفتح . الفلاح : الفوز والنجاة . والمعنى : هلمّوا الى طريق النجاة والفوز اي الصلاة .

٤ الشّمول : الخمر الباردة . منبلج الصباح : زمان انبلاجه اي اشراق الشمس حين لا تجوز الصلاة المسلم . يقول : انه يشرب الخمر ويصلي عند طلوع الشمس وهو نشوان غير متقيد بالآية القرآنية التي تقول : « لا تَقرَبوا الصّلاة وانتمْ سُكارى » .

٥ علني : سقاني تباعاً . الهدير : غليان الخمر عند تصفيقها .

٦ زهواً : تيهاً وتكبراً .

ولم تكن دالته تقف عند هذا الحد بل كانت تدفعه الى التدخل في سياسة الخلافة من عقد صلح او مجاهرة بعداء، فهو لا يقنع في شعره السياسي بالدفاع عن بني أمية وهجو أعدائهم، ولكنه يطمح الى ابعد من ذلك، الى التأثير في مجرى السياسة الاموية، اي الى الفائدة الادبية مقرونة بالفائدة المادية. وربما سخّر سياسة الخليفة لمصلحة قومه بني تغلب.

الاخطل وزفر بن الحرث

وحسبك ان تعلم خبره مع زُفَر بن الحرث لتتبين مبلغ دهائه السياسيّ، وتدخله في شؤون الخليفة لمصلحة قبيلته. وزُفَر هذا رئيس القيسية، وكان قد اوقع بالتغلبيين في بعض الايام، وتحزّب لعبد الله بن الزبير على بني أمية ثم انقاد لهم بعد عصيانه، فقربه عبد الملك بغية استمالة قومه. فدخل ابن ذي الكلاع يوماً على الخليفة فرأى زفر معه على السرير فبكى، فقال له عبد الملك: «ما يبكيك؟» فقال: «يا أمير المؤمنين، وكيف لا ابكي وسيف هذا يقطر من دماء قومي في طاعتهم لك وخلافه عليك، ثم هو معك على السرير وانا على الارض!» قال: «اني لم اجلسه معي ان يكون اكرم عليّ منك ولكن لسانه لساني وحديثه يعجبني.» فبلغت الأخطلَ وهو يشرب فقال: «أما والله لأقومنّ في ذلك مقاماً لم يقمه ابن ذي الكلاع!» ثم خرج حتى دخل على عبد الملك فلما ملأ عينه منه قال:

وكأسٍ مثلِ عينِ الدّيكِ صِرفٍ، تُنسّي الشّاربينَ لها العُقُولا[1]

---

[1] وكأس: وخمرة حالّة في كأس، مجاز مرسل. مثل عين الديك: حمراء صافية. صرف: غير ممزوجة بالماء. الشاربين: مفعول اول لتنسي. العقول: مفعول ثان.

إذا شَربَ الفتى منهـــا ثلاثاً بغيرِ الماء، حاولَ أن يَطولا[1]
مَشى قُرَشيَّةً لا شكَّ فيهـا، وأرخى مـن مآزِرهِ الفُضُولا[2]

وقال عبد الملك: «ما أخرج هذا منك يا ابا مالك إلا خطة في رأسك!» قال: «أجل والله يا امير المؤمنين حين تجلس عدوّ الله هذا معك على السرير وهو القائل بالأمس:

فقد يَنبُتُ المرعى على دِمَنِ الثرى، وتَبقى حَزازاتُ الصُّدورِ كما هيا[3]»

فقبض عبد الملك رجله ثم ضرب بها صدر زُفر فقلبه عن السرير وقال: «أذهَبَ الله حزازات تلك الصدور.» وكان زفر يقول: «ما ايقنتُ بالموت قطُّ الا تلك الساعة حين قال الاخطل ما قال.»

تهاجي الاخطل وجرير

قال ابن سلاّم وغيره: لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك: «انحـدر الى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما.» فانحدر مالك حتى لقيهما وسمع منهما ثم أتى أباه، فقال له: «كيف وجدتهما؟» قال: «وجدت جريراً يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر.» فقال الأخطل: «فجرير اشعرهُما.» ثم قال:

---

١ ثلاثاً: اي ثلاث زجاجات. ان يطول: اي ان يعلو ويعظم.

٢ قرشية: اي مشيةً قرشية. المآزر، جمع مِئزَر: وهو كل ما سترك. الفضول، جمع فَضل وهو ذيل الثوب وما يريد دمه. يقول: اذا شرب الفتى من هذه الخمرة زهيَ وطلب العظمة فيمشي مشية قرشية فيها تبختر وخيلاء. والقرشي شديد التيه لان النبوّة والخلافة فيه. وارخى من مآزره الفضولا: اي جر اذياله تيهاً وتكبراً.

٣ الدمن، جمع دمنة: وهي آثار الدار وما تلبد فيها من البعر والرماد وغير ذلك. يقول: قد ينبت المرعى على دمنة فيظهر منظره حسناً ولكن باطنه يبقى خبيثاً، وهكذا نحن وانتم نظهر الصلح وصدورنا تحنُّ الحقد الذي لا تزول حزازاته اي آلامه التي تحز في القلوب.

إني قضيتُ قضاءً غيرَ ذي جَنَفٍ ، لمَّا سمعتُ ولمَّا جاءني الخَبَرُ[1]

أنّ الفَرَزدقَ قد شالتْ نَعامتُهُ ، وعَضّهُ حيّةٌ من قومِه ذَكَرُ[2]

ثم قدم الأخطل الكوفة على بِشر بن مروان ، فبعث اليه قوم الفرزدق بدراهم وحملان وكسوة وخمر ، وقالوا له : « لا تعينْ على شاعرنا واهجُ هذا الكلب الذي يهجو بني دارم[3] . » فلما دخل الاخطل على بشر سأله عن الفرزدق وجرير ، فقال الاخطل : « اصلح الله الأمير ، الفرزدق اشعر العرب . »

فردَّ عليه جرير بقوله :

يا ذا الغَباوةِ إنّ بِشراً قد قَضى أنْ لا تجوزَ حُكومةُ النَّشوانِ

ثم استطار بينهما الهجاء واضطرمت نار العداوة ، واخبارهما كثيرة .

موت الاخطل

وعُمِّر الاخطل حتى شاخ وتحطّم ، وكانت وفاته في خلافة الوليد بن عبد الملك وله فيه عدة قصائد امتدحه بها . وزعم بعضهم ان الاخطل ظلَّ مقرَّباً عند خلفاء بني أمية حتى ملك عمر بن عبد العزيز فاقصاه ؛ ونقل هذه

---

١ الجنَف : الجور والتحامل . يقول : حكمت حكماً ليس بذي جور وتحامل .

٢ شالت : ارتفعت . النعامة : القدم او باطن القدم . وشالت نعامته : مات . مأخوذ من ارتفاع باطن القدم عند الموت . او من نفور النعامة وهي اشد الحيوان نفاراً . ولهذا قالوا الرجل اذا فزع من شيء وارتحل او مات : نفرت نعامته . ويقال للقوم اذا خلت منازلهم منهم او ارتحلوا عن منهلهم او تفرقوا او تفرقت كلمتهم او ذهب عزهم : شالت نعامتهم . يقول : ان الفرزدق قد مات وذهب عزه بعد ان عضّه حيّة ذكر من قومه . والحية يطلق على الذكر والانثى . وقوله : من قومه ، لان جريراً والفرزدق من بني تميم .

٣ دارم : قبيلة الفرزدق من تميم .

الرواية على علاتها بعض كتّابنا المعاصرين[1] دون ان ينتبهوا الى تاريخ وفاة الشاعر وتاريخ خلافة عمر بن عبد العزيز[2] .

وليس في ديوان الاخطل ما ينبئنا انه ادرك عمر او ادرك قبله سليمان ابن عبد الملك[3] ، ولو ادركهما لذكرهما في شعره كما ذكر غيرهما من الخلفاء الامويين .

وربّ معترض يقول ان الاخطل مدح عمر بن عبد العزيز بأبيات متبته في ديوانه ، ونحن لا ننكر دلك ولكننا نعلم انه لم يمدحه بها وهو خليفة ، بل مدحه وهو امير من امراء بني أمية ومدح معه اخاه ابا بكر فخصَّه بالقسم الاوفر من ابياته ولم يذكر عمر الا في البيت الاخير حيث يقول :

فَرْعانِ ما مِنْهُما إلاّ أخو ثِقَةٍ ، ما دامَ في النّاسِ حيٌّ ، والفَتى عُمَرُ

ومما يدلنا على ان الاخطل مات في خلافة الوليد ما رواه صاحب الاغاني من ان الوليد بن عبد الملك قال لجرير يوماً : « فما تقول في الاخطل ؟ » قال: « ما اخرج لسانُ ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات . »

آثاره

ديوان كبير اكثره في المدح والهجاء ووصف الخمرة وشاربها . وهو

---

١ الاخ ساروفيم فيكتور في كتابه تاريخ الآداب العربية . الاب نعمة الله العنداري في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية .

٢ خلافة عمر بن عبد العزيز من ٧١٧ – ٧٢٠ م و ٩٩ – ١٠١ هـ .

٣ خلافة سليمان من ٧١٤ – ٧١٧ م و ٩٦ – ٩٩ هـ .

من اصحاب المُلحَمات[1] ، ومطلع مُلحَمته :

تَغَيَّر الرَّسْمُ مِنْ سَلْمَى بأحفارِ ، وأقفرَتْ مِن سُلَيْمى دِمنَةُ الدارِ[2]

وجمع ابو تمام الشاعر العبّاسي « نقائض جرير والاخطل[3] » وشرحها وصدّرها بكلمة في حرب قيس وتغلب . والديوان والنقائض نشرهما في بيروت الاب صالحاني اليسوعي .

ميزته

كان الأئمة الاقدمون يشبهون الاخطل بالنابغة لصحة شعره ، ولكننا نرى ان الصلة بين الشاعرين اقوى من ذلك ، فكلاهما شاعر بلاط خص مدائحه بالملوك وحظي عندهم ، وكلاهما اجاد المدح وتفنن في معانيه ، بيد ان الاخطل كان يتوكأ احياناً على الشاعر الجاهلي ، وتجد آثار هذا التوكّؤ ظاهرة في مدحه وفي وصفه الثور الوحشي . فالاخطل يتشبه النابغة بصحة شعره وباشياء أُخر كما سترى ، ولكنه ينفرد عنه بموقفه السياسي في المدح والهجاء . فالصفة السياسية هي الخاصة البارزة في الاخطل سواء كان مادحاً او هاجياً . فينبغي لنا ان ندرسه الآن شاعراً سياسيّاً ، ثم نلمّ بما بينه وبين النابغة من صلة ، ونعرض لخاصته في وصف الخمر ، فهو اشهر وصّافيها في صدر الاسلام .

شعره السياسي — المدح والهجاء

كان الاخطل يعلم ان الأمويين يهمهم ان يعرف لهم الناس حقهم بالخلافة ،

---

[1] المُلحَمات : المُحْكَمات النظم ، من قولهم : ألحم الشعرَ ، اي احسن نظمه واحكم لحمته .

[2] احفار : موضع في بلاد تغلب . الدمنة : آثار الدار وما تلبد من الرماد والسواد .

[3] النقائض : جمع النقيضة وهي القصيدة يقولها الشاعر فينقضها عليه خصمه اي يرد عليه ملتزماً مثله البحر والقافية ، ويعرض لمعانيه فينفيها او يقلبها او يفسدها .

وكان يعلم ايضاً انهم يستندون في تأييد هذا الحق الى مقتل عثمان بن عفّان زاعمين انهم ورثته وان لهم الحق بان يطالبوا بدمه. فتراه اذا عرض للخلافة رمى الى هذا الهدف ، كقوله :

وَيَومَ صِفّينَ ، والابْصارُ خاشِعَةٌ ، أَمَدَّهُمْ ، اذ دَعوا ، مِن رَبِّهِم مَدَدُ[1]
على الأولى قَتَلوا عُثمانَ مَظلِمَةً ، لم يَنهَهُم نَشَدٌ عنهُ وقد نُشِدوا[2]
فَثَمَّ قَرَّتْ عُيونُ الثّائِرينَ بِهِ ، وأَدْرَكوا كُلَّ تَبْلٍ عِندَهُ قَوَدُ[3]
وأَنتمْ أَهلُ بَيْتٍ لا يُوازِنُهُمْ بَيتٌ ، إذا عُدَّتِ الأَحسابُ والعَدَدُ[4]

ويختمها مخاطباً يزيد بن معاوية :

والمُسْلِمونَ بِخَيرٍ ما بَقيتَ لَهُمْ ، وليسَ بَعدَكَ خَيرٌ حينَ تُفْتَقَدُ

واذا عرض لمدحهم وصفهم باحسن ما توصف به الملوك ، ثم انبرى الى هجو القيسية انصار الزبيريين واعداء قبيلته فقذفهم بهجاء مقذع أليم ، وهجا معهم احلافهم بني كليب قوم جرير . ولعل العداء السياسي هو الذي أثار الهجاء بين الشاعرين وجعله حامي الوطيس .

ويحسن بنا ان نعتمد في اظهار ميزة الاخطل على رائيته الشهيرة اولاً ،

---

١ راجع يوم صِفّين في اللمحة التاريخية . يقول : أمد بني أمية مددٌ من ربهم اذ دعوه. ولعله يشير الى فوزهم وخسران عليّ بعد ان رفعوا المصاحف .

٢ على الاولى : الجارّ متعلق بأمدّهم . مظلمة : ظلماً . نشَد : من نشده الله ، أي اقسم عليه بالله . وقد نُشدوا : اي نشدوا الله ان لا يقتلوه فلم ينههم عنه هذا النشد بل قتلوه ظلماً .

٣ قرت العين : بردت سروراً وانقطع بكاؤها . ثأر بالمقتول : اخذ بثأره . التَّبْل : الثأر . القَوَد : القصاص . يقول: ادركوا ثأرهم وكان ذلك عقاباً لما اقترفه من الاثم قتلة عثمان .

٤ يقول : انتم اعظم الناس احساباً واكثرهم عدداً .

ثم على غيرها من شعره . فان الرائية تكاد تشتمل على اكثر خصائصه تفكيراً وتعبيراً ، ومطلعها :

خَفَّ القَطِينُ فراحوا مِنكَ أو بَكَروا ،
وأزعَجَتْهُمْ نَوًى في صَرْفِها غِيَرُ [1]

وهذه القصيدة من النقائض قالها في عبد الملك بن مروان بعد فتحه العراق وانتصاره على مصعب بن الزبير .

ولا يقصر مدحه على الخليفة بل يعنيه ان ترضى عنه أمية كلها ، فاذا مدح اميراً منها لا يغفل عن تخصيص جانب من مديحه باسرته الاموية . وحُقَّ له ان يفعل ذلك وهو مقرَّب اليها جميعاً ، واقف شعره للدفاع عنها ، والاشادة بمكارمها ، حتى اذا ارضى الخليفة وارضاهم جميعاً يفرغ الى نفسه والى قومه فيذكر ما لهم من الايادي البيض على الامويين ، ويدس خلال ذلك رأيه السياسي لمصلحة قبيلته فيحرّض عبد الملك على اقصاء زُفر بن الحرث وترك الوثوق به .

فاذا تم له ما اراد من مدح وغرض سياسي يرمي اليه انصرف الى هجاء قيس عَيلان وأحلافهم الكليبيين قوم جرير ، فيقذفهم بجحيم من لواذع اقواله ، واذا افحش لا يتورط في الخنى تورُّط جرير والفرزدق ، بل يجعل همته في تعييرهم ووصف هزيمتهم وما لقوا من مذلة وهوان ، فيبدو لنا

---

١ خفَّ : عجّل واسرع . القطين : القوم المحاورون . راحوا : ساروا مساءً . بكروا : ساروا بكرةً . أزعجتهم : اقلقتهم وحاتهم على الرحيل . نوى : بُعد . الصَرف : نوائب الدهر وحدثانه . الغيَر : احداث الدهر ، تغير الناس من حال الى حال . يخاطب نفسه فيقول : ذهبت حيرتنا وأبعدتهم نوى في أحداثها ما يغيّر الناس من حال الى حال .

حينئذٍ مؤرخاً وسياسياً دقيق النظر يلقي الذنب على اعدائه الذين كفروا نعمة الخليفة وجازاهم بكفرهم ، ونرى فيه مصوّراً بارعاً للحرب وللجيش عند الهزيمة والانكسار .

فبمثل هذا الهجاء المؤلم الممضّ كان الاخطل يرمي اعداءه القيسيين ، ويرمي جريراً وقوم جرير فيجعلهم خشارة تميم بل خشارة مضر اجمعين ، وينفّر عليهم ابناء عمهم من دارم قبيلة الفرزدق :

مُلَطَّمُون بِأَعْقارِ الحياضِ ، فمَا يَنْفَكُّ مِنْ دارِميٍّ فيهِمُ أَثَرُ

وأشدُّ الهجاء اقذاعاً عند العرب ان تفضل قوماً على قومٍ ولاسيما اذا كانوا اخواناً او ابناء اعمام . فبنو نُمَير لم يضعهم الا قول جرير فيهم :

فَغُضّ الطَّرفَ إنّكَ مِنْ نُمَيرٍ، فلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابا !

ونُمير وكعب وكلاب ثلاثة ابطن من عامر بن صعصعة . وقلما تخلو قصيدة للاخطل في جرير من مدح بني دارم وتفضيلهم على بني كليب بن يربوع :

أَجَرِيرُ ، إنّكَ والذي تَسْمو لهُ، كأَسِيفَةٍ فَخَرَتْ بِحَدَجِ حَصانِ [1]

في دارِمٍ تاجُ المُلوكِ وَصَهْرُها ، أَيّامَ يَرْبوع مَعَ الرُّعْيانِ [2]

وإذا وَضَعْتَ أَباكَ في مِيزانِهِمْ، رَجَحوا ، وَشالَ أَبوكَ في المِيزانِ [3]

---

١ الاسيفة : الأمة . الحدج : مركب للنساء . الحَصان : العفيفة الحرّة . يقول : انت تسمو الى تميم مفتخرا كالأمة التي تفتخر بحدج مولاتها الحرة .

٢ أصهر اليهم وفيهم صَهراً : اي تزوج فيهم . يقول : ان الملوك يتزوجون في قبيلة دارم لشرفها .

٣ شال : ارتفع. يقول : اذا وزنت مفاخرهم ومفاخر ابيك رجحت كفتهم لثقلها ، وارتفعت كفة ابيك لخفتها .

وهو وان مدح دارماً واطنب في ذكرهم، لا يغفل عن الافتخار بقومه بني تغلب وتعداد مآثرهم . فقد فاخر بهم وهو يمدح الخليفة ، فأحرِ به ان يفاخر جريراً عندما يريد هجو جرير :

إنَّا نُعَجِّلُ بالعَبيطِ لِضَيْفِنا ، قَبْلَ العيالِ ، ونَقْتُلُ الأبطالا[1]
أَبَنِي كُلَيبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذا قَتَلا المُلوكَ ، وفَكَّكا الأغلالا[2]

صلته بالنابغة

فأما وقد عرفنا ما للشاعر السياسي من ميزة في المدح والهجاء وخصائص في التفكير والتعبير، فينبغي لنا ان نلتفت الى تلك الصلة الوثيقة التي تربطه بالنابغة حتى جعلت الادباء الاقدمين يشبهونه به ، فليست هذه الصلة مقصورة على صحة شعره كما ذكرنا ، بل تتعداها الى المعاني والتعابير ، وقد تقع على بعض الاساليب فما تدري أشعر النابغة تقرأ أم شعر الاخطل .

ونحن قبل ان نشرع في اظهار هذه الصلة نسلّم أن شاعر أُمية يمتاز في صحة شعره ورونق الفاظه وتخير معانيه كما امتاز في ذلك صاحبه النابغة ؛ ولا بدع ان تظهر هذه الميزة على شعر الاخطل فهو من الذين يتنخلون قوافيهم ويثقفون متونها ، فقد حدثنا الرواة انه كان يختار اجود ما ينظم فاذا اجتمع له تسعون بيتاً انتخب منها ثلاثين ؛ وانه اقام سنة في مدحته : «خفَّ القطين . . . » ولكن هذه الصلة لا تكفي لتشبيهه بالنابغة، لان صحة الشعر لا تجعل وجهاً حقيقياً للشبه، فعلينا ان نلتمس هذه الصلة في اسلوب

---

١ العبيط : الطريّ يوصف به اللحم والدم .

٢ اللذا : أي اللذان ، حذف النون ، وقوله : ان عميّ ، أراد بهما عمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند وأخاه مرة بن كلثوم قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر .

الشاعر وفي ألفاظه ومعانيه . وقد ذكرنا ان الاخطل يمتّ الى النابغة بصلة ادبية اجتماعية ، فكلاهما مدح الملوك وحظي عندهم ، ولعل هذه الصلة هي التي حملت الشاعر الاسلامي على النظر الى صاحبه الجاهلي فاغار على بعض اساليبه في المدح ووصف الوحوش ، مثال ذلك قوله :

وَما الفُراتُ ، إذا جاشَتْ حوالِبُهُ ،   في حافَتَيْهِ ، وَفي أوساطِهِ العُشَرُ ،[1]

وَزعزَعتهُ رياحُ الصيفِ ، واضطربت ،   فَوقَ الجآجىءِ مِن آذيّهِ ، غُدُرُ ،[2]

مُسحَنفِرٌ مِن جِبالِ الرُّومِ يستُرُهُ   مِنها أكافيفُ ، فيها دونَهُ زَوَرُ ،[3]

يوماً بأجوَدَ مِنْهُ ، حينَ تَسألُهُ ،   وَلا بأجْهَرَ مِنْهُ ، حين يُجتَهَرُ[4]

ولا بدّ أنك تذكر هذه الصورة الشعرية في دالية النابغة التي اعتذر بها الى النعمان؛ فالاسلوب واحد والالفاظ والمعاني متواطئة في اكثرها. وقد اولع الاخطل بهذه الصورة فرددها غير مرة ، فانت تجدها في قصيدة ثانية اذ يقول :

---

١ جاشت : غلت واضطربت . حوالبه : امواجه . حافتيه : جانبيه . العُشَر : شجر . يقول : من شدة اضطراب امواجه يقتلع الشجر فيرمي بها .

٢ زعزعته : حركته شديدا . الجآجىء : جمع الجؤجؤ وهو الصدر واراد به صدر السفينة . آذيه : امواجه . غُدُر : جمع غدير وهو النهر والقطعة من الماء يغادرها السيل . يقول : اذا ضربت الريح الشديدة المياه انقذفت كالغدر على جآجىء السفن الجارية .

٣ مُسحنفر : سريع الجري . أكافيف : جمع كِفاف وكُفّة وهي التلة . الزَّوَر : المَيل . يقول : هذا النهر يجري بسرعة من جبال الروم تستره من هذه الجبال تلال يمر في وسطها وهي مائلة عليه .

٤ اجهر : أحسن . يُجتهَر : يُنظر اليه . وهذا البيت متصل بقوله : فما الفرات ، أي فما الفرات وهو في مثل هذا الحال بأكثر جوداً بمياهه من الممدوح اذا سألته فجاد عليك بعطاياه ، ولا الفرات بأحسن منه منظراً اذا نظرت اليه .

كأنَّهُ مُزبِدٌ رَيّانُ ، مُنتجَعٌ ، يَعلو الجزائرَ ، في حافاتِهِ الزَّبَدُ[1]
تَظَلُّ فيه بناتُ الماء أنْجِيَةً ، وفي جَوانِبِهِ اليَنبوتُ والخَضَدُ[2]

وتجدها أيضاً في قصائد أُخر لا نرى حاجة الى ذكرها ، ولا بدع ان يكثر الاخطل من هذه الصورة الاستطرادية في شعره ، فانها منطبعة على مخيلته . وهو وان يكن واطأ فيها النابغة فتكراره لها يدل على تأثيرها في نفسه ، وهذا التأثير لم يحدثه شعر النابغة وحده بل شاركه فيه نشوء الشاعر في الجزيرة على شط الفرات يشاهد امواجه المتلاطمة ويسمع زمزمتها وهديرها . ونحن نعتقد ان نشأة الشاعر لها اليد الطولى في اثبات هذه الصورة بمخيلته ؛ ولذلك اكثر من ايرادها وتفنن فيها فأبرزها لنا باشكال جميلة مختلفة . ولكنه لا يُعد مبتكراً لها بل كان مقلداً . وكذلك وصفه الثور الوحشي فانه يذكرك النابغة ، وتتمثل لك رائيته التي يعدّها بعضهم من المعلقات ؛ فقد جاراه في البحر والقافية وترسّم اسلوبه ناسجاً على منواله ، وواطأه في معانيه والفاظه .

فحسبك ان تراجع وصف الثور في رائية النابغة حتى تعلم مبلغ تأثر الاخطل له. ولشاعر أمية قصائد غير هذه يصف بها الثيران وهي في أكثرها متشابهة الاسلوب، على انها جعلت صاحبها اشهر وُصّاف الوحوش في الاسلام.

---

١ المزبد الريّان : اي الفرات في حال ازباده وارتفاع امواجه . المنتجَع : الذي يُقصد لما فيه من الخير. والانتجاع : طلب الكلاء في موضعه . وقوله : الريّان : شديد الارتواء ، والمراد انه ممتلىء ماء .

٢ بنات الماء: طيوره. أنجية : جماعة . الينبوت : ضرب من الشجر ذو شوك . الخضد : المتكسر من الشجر . يقول : تظل فيه طيور الماء مجتمعاً بعضها الى بعض من الخوف لشدة هيجانه وفي جوانبه ركام الشجر المتكسر .

وصف الخمر

كان الاخطل سكيراً يدمن الشراب ولا يجد عنه صبراً فلا عجب ان تفوح رائحة الخمر من شعره كما فاحت قبله من شعر الاعشى ، فيسمعنا في وصفها ما تنطق به نفسه النشوى ، وما تنطق النفس الا عن هوى . وقد عرفنا في درسنا الاعشى ان الاخطل اخذ عنه بعض معانيه في الخمر؛ ولكن الشاعر الاسلامي لم يقف في وصفها عند حد الشاعر الجاهلي بل تخطّاه بعيداً، وادخل على الشعر الخمري شيئاً جديداً لم نعهده في الجاهلية . فهو اول من تفنن في وصف السكران واحسن تصوير دبيب الخمر في الاجسام ، وشبه زقاق الخمر برجال من السودان عراة . ولسنا ننكر ان الاعشى وصف السكارى وصوّر حالتهم، غير ان الاخطل كان في ذلك اكثر فناً وابداعاً . واليك وصفه للسكران :

صَريعُ مُدامٍ يَرفَعُ الشَّربُ رأسَهُ ،
لِيَحيا ، وقد ماتت ، عِظامٌ ومَفصِلُ،[1]

نُهاديهِ أحياناً ، وحيناً نَجرُّهُ ،
وما كاد الا بالحُشاشَةِ يَعقِلُ،[2]

إذا رَفعوا عُضواً ، تحامَلَ صَدرُهُ ،
وآخرُ ، ممّا نالَ منها ، مُخَبَّلُ[3]

---

١ الشَّرْب : جمع الشارب . المفصل : مكان انفصال بعض الاعضاء من بعض .

٢ نهاديه : نسوقه . الحُشاشة : بقية النفْس . وقوله نهاديه : التفات من الغائب الى المتكلم بعد قوله : يرفع الشربُ رأسَه .

٣ تحامل : تثاقل وتكلف الرفع بمشقة وعناء . صدره : اي صدر ذلك العضو . وآخر : اي وعضو آخر . مما نال منها : اي من المدام . مُخَبَّلٌ : فاسد به شلل .

ثم يصف زقاق الخمر فيقول :

اناخُوا ، فجَرّوا شاصِياتٍ ، كأنّها رجالٌ من السّودانِ ، لم يتسَربَلوا[١]

ويصف تعبُّد الشَّرب لها فيقول :

تَمرُّ بها الأيْدي سَنِيحاً وبارحاً ، وتُرفَعُ باللّهُمَّ حيّ ، وتُنزَلُ[٢]

ويصف مجلس الشراب والمغني فيوجز ولا يتعدى ما يقول فيهما الاعشى :

وتُوقَفُ أحياناً ، فيَفْصِل بَيننا غِناءُ مُغَنٍّ أو شِواءٌ مُرَعْبَلُ[٣]

ويصف فعلها في العظام فيرينا صورة رائعة لم يُسبق اليها :

تَدِبُّ دبيباً في العِظامِ ، كأنه دبيبُ نِمالٍ في نَقاً يَتهيّلُ[٤]

فما أبدع هـذا التشبيه الذي يصوّر لنا تمشي الخمرة في المفاصل ، وما أجدر لفظة الدبيب بتأدية هـذا المعنى ، ولا شك في أن أبا نواس نظر الى هذا البيت حين يقول :

---

١ اناخوا : اي اركوا جمالهم . الشاصيات : زقاق الخمر لانها اذا امتلأت شالت اكارعها ، يقال : شصا برجله اذا رفعها . لم يتسربلوا : لم يلبسوا ثياباً اي عراة .

٢ بها : اي بالكؤوس . السنيح : ما جاء عن اليمين الى الشمال . البارح : ما جاء عن الشمال الى اليمين . وروي عجز البيت : « وتوضَعُ باللهمّ حيّ وتُحمَلُ . » فعكسنا الرواية الأخرى لان رفع الكأس يكون قبل وضعها .

٣ وتوقف : اي الكؤوس . شواء : لحم مَشوي . مُرعْبل : مُقطّع .

٤ نمال : جمع نمل . النقا : ما ارتفع من الرمل . يتهيّل: يتحدّر. شبه دبيب الخمرة في العظام بدبيب نمل يتحدر في مرتفع من الرمل. ووجه الشبه بطء السير وما يترك من الاثر، فالنمل يترك اثراً في تحدره على الرمل ، والخمر تترك اثراً في المفاصل عند دبيبها وهو ما يعرف بالنشوة وما يصحبه من ارتخاء في الاجسام . ولم نقصد الصورة المبتكرة في قوله: تدب دبيباً في العظام ، كما توهم بعضهم ، وانما هي في قوله : دبيب نمال ، اي الصورة التشبيهية ، كما يدل عليها قولنا فما ابدع هذا التشبيه .

وتَمَشّتْ في مَفاصِلِهِمْ ، كتَمَشّي البُرءِ في السَّقَمِ [1]

ويشربها فتلذع لسانه فيخيل اليه انه مصاب بالحمى فيقول :

وكأنَّ شارِبَها أصابَ لِسانَهُ، مِنْ داءِ خَيْبَرَ، أو تِهامَةَ، مُوم [2]

وتهزه نشوتها فيناله منها زهو وخيلاء فيقول :

خرَجْتُ أَجُرُّ الذَّيْلَ زهواً كأنني، عليك ، اميرَ المؤمنينَ ، أميرُ

او يقول :

مَشَى قُرَشِيَّةً لا شَكَّ فيها ، وأرخى مِنْ مآزِرِهِ الفُضُولا

وقصارى القول ان الاخطل احبَّ الخمر كما احبها الأعشى ووصفها مثله ، ولكنه وصف شاربها وتأثيرها فيه بما لم يسبقه اليه شاعر قبله .

منزلته

عدَّه ابن سلاَّم في الطبقة الاولى بين الشعراء الاسلاميين . وكان حمَّاد الراوية يفضله على جرير والفرزدق فإذا سُئل عنه قال : « ما تسألوني عن شاعر حبَّب شعره اليَّ النصرانية ! » وسأل جريراً ابنُه : « يا أبتِ أأنت أشعر أم الأخطل ؟ » فقال : « يا بني ادركتُ الاخطل وله ناب ، ولو

---

١ تمشت : اي الخمر .

٢ حيبر : ناحية على ثمانية بُرد من المدينة لمن يريد الشام وهي موصوفة بالحمى . تهامة : بلاد تساير البحر وتمتد مستطيلة بين الحجاز والبحر ، جاء في معجم البلدان عن ابن الاعرابي : سُميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها . وهو من التَّهَم اي شدة الحر وركود الريح . الموم : داء البرسام وهو التهاب يعرض للحجاب الذي بين الكبد والقلب . يقول : كأن لسان شاربها اصابه التهاب على أثر حمى أتته من حيبر او من تهامة .

ادركته وله ناب آخر لأكلني . » وقال فيه ايضاً : « الأخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر . » وقال عبد الملك للفرزدق : « من اشعر الناس في الاسلام ؟ » فقال : « كفاك بابن النصرانية اذا مدح . » وقال الاصمعي وذكر جريراً : « كان ينهشه ثلاثة واربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحداً واحداً وثبت له الفرزدق والأخطل . » وقال صاحب الأغاني في جرير : « هو والفرزدق والاخطل المقدمون على شعراء الاسلام الذين لم يدركوا الجاهلية جميعاً ، ومختلف في ايهم المتقدم ولم يبق احد من شعراء عصرهم الا تعرض لهم فانفضح وسقط وبقوا يتصاولون . » واخبر ابو عبيدة قال : « جاء رجل الى يونس فقال له : « من اشعر الثلاثة ؟ » قال : « الأخطل . » قلنا : « من الثلاثة ؟ » قال : « اي ثلاثة ذكروا فهو اشعرهم . » فقيل له : « وبأي شيء فضّلوه ؟ » قال : « بأنه كان اكثرهم عدد قصائد طوال جياد ليس فيها سقط ولا فحش وأشدهم تهذيباً للشعر . » وسأل سليمان ابن عبد الملك عمر بن عبد العزيز : « أجرير اشعر ام الأخطل ؟ » قال : « ان الاخطل ضيّق عليه كفره القول ، وان جريراً اوسع عليه اسلامه قوله ، وقد بلغ الاخطل منه حيث رأيت . » فقال له سليمان : « فضّلت والله الاخطل . » وكان ابو عبيدة يقول : « شعراء الاسلام ثلاثة : الاخطل ثم جرير ثم الفرزدق . » وكان ابو عمرو يفضل الاخطل ويشبهه بالنابغة لصحة شعره ، ويقول : « لو ادرك الاخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما فضّلت عليه احداً . » وقال ابو عبيدة ايضاً : « الاخطل اشبه بالجاهلية واشدهم اسر شعر واقلهم سقطاً . » وحدّث عمر بن شبّة قال : « كان مما يُقدَّم به الاخطل انه كان اخبثهم هجاء في عفاف من الفحش . » وقال الاخطل : « ما هجوت احداً قط بما تستحي العذراء ان تنشده اباها . » ولقبه عبد الملك

بشاعر امير المؤمنين ، وشاعر بني أمية ، وأشعر العرب .

والأقوال في الاخطل كثيرة متضاربة ، نكتفي منها بهذا القدر الذي يدلنا على ما لشاعرنا من منزلة رفيعة عند الاقدمين . وبوسعنا ان نعتمد على بعضها في اظهار ميزة الشاعر وفضله على اقرانه . فقد رأيت ان علماء اللغة كأبي عمرو وأبي عبيدة ويونس وحماد كانوا يفضلون الاخطل ويشبهونه بشعراء الجاهلية ، ولهذا التفضيل سبب وهو ان هؤلاء الأئمة وغيرهم كانوا يميلون الى جزالة اللفظ وشدة الأسر ، فراقهم في الاخطل فخامة شعره اكثر من رقة شعر جرير وطبعه . وكانوا يغارون على صحة اللغة ويستنكرون اللحن ففضّلوا الاخطل على الفرزدق لأنه أصح شعراً وأبعد به من الساقط المرذول . وكانوا معجبين بالسبع الطوال وغيرها من الشعر الجاهلي ، فأحبوا الأخطل لطول نفَسه ومتانته . وكانوا يعدّون له عشر قصائد طوال جياد ليس فيها سقط ، وعشراً غيرها إن لم تكن مثلها فليست بدونها ؛ ولم يجدوا لجرير بهذه الصفة الا ثلاثاً . واجمعوا ، او كادوا ، على ان الاخطل احسنهم مدحاً ، وشهد له الفرزدق بذلك .

ونحن نرى انه لا يقل في الهجاء عن جرير وان قلّ عنه فحشاً ، فهو في هجوه لاذع مؤلم ؛ واذا درسنا « نقائض جرير والاخطل » وموقف الشاعرين في ذلك العصر نعلم مبلغ براعة الشاعر التغلبي في هذا الفن . فالاخطل دخل بين جرير والفرزدق بعد ان اسنّ ونفد اكثر عمره ، ومن المعلوم ان شاعرية الشيوخ اضعف من شاعرية الشباب ، ولكن الاخطل على كبره استطاع ان يقاوم فحلاً من مضر هابته فحول الشعراء في الاسلام . واذا نظرنا الى قول عمر بن عبد العزيز بدا لنا فضل الاخطل في مقارعته

جريراً ، فقد قال عمر لسليمان بن عبد الملك : « ان الاخطل ضيق عليه كفره القولَ ، وان جريراً اوسع عليه اسلامه قوله ، وقد بلغ الاخطل منه حيث رأيت . » وهذا ما نستطيع ان نتبينه في تهاجي الشاعرين ، فان جريراً يجول في عرض الاخطل جيئة وذهاباً فيناله من دينه ويعيره نصرانيته ويفتخر عليه بالاسلام ، ويناله من قبيلته فينهش اعراض تغلب واعراض ربيعة بن نزار جميعاً ، واما الاخطل فلم يكن يجرؤ ان يقابل جريراً بالمثل فيطعنه في ديانته وهو في كنف دولة اسلامية عزيزة الجانب ، ولو حدثته نفسه بذلك لما سلم الذي بين كتفيه ، وان يكن شاعر بني أمية وشاعر امير المؤمنين . وكان يقتصر على هجو كليب قوم جرير الادنين فلا يجاوزهم الى بني تميم وهم قبيلة صاحبه الفرزدق واخوال بني قريش ، ولا يتناول مضر بكلمة سوء لأن قريشاً من مضر والنبوة والخلافة في قريش . فانت ترى ان نطاق الاخطل كان ضيّقاً في هجو جرير ، وهذا ما اشار اليه عمر بن عبد العزيز في قوله : « ان الاخطل ضيق عليه كفره القول . » ويروي لنا صاحب الأغاني ان رجلًا من بني شيبان جاء الى الاخطل فقال له : « يا أبا مالك ان لك عندي نصحاً . » قال : « هاته فما كذبت . » فقال : « انك قد هجوت جريراً ودخلت بينه وبين الفرزدق وانت غنيّ عن ذلك ولا سيما انه يبسط لسانه بما ينقبض عنه لسانك ، ويسب ربيعة سبّاً لا تقدر على سب مضر بمثله والملك فيهم والنبوة قبله ، فلو شئت امسكتَ عنه . » فقال : « صدقت في نصحك وعرفتُ مرادك ، فوالصليب والقربان ، لأتخلصنّ الى كليب خاصةً دون مضر بما يلبسهم خزيه ويشملهم عاره ، ثم اعلم ان العالم بالشعر لا يبالي ، وحق الصليب ، اذا مرّ به البيت السائر الجيد أمسلمٌ قاله ام نصراني ! »

فالاخطل إذاً لم يكن مطلق العنـان فيتصرف في هجو جرير تصرُّف جرير في هجوه ، ومع ذلك فقد بلغ من خصمه مثل ما بلغ خصمه منـه ، وكان في هجائـه فتّاكاً ممضّاً فلم يترك شائنة الا رمى بهـا بني كليب ورهط جرير .

وجماع القول ان الاخطل شاعر لعوب بالألفاظ والمعـاني، وله في الابتكار باع طويل، وهو مبدع في مدحه وهجائه ، متفنن في وصف الخمر، مقدّم في الشعر السياسي على سائر الشعراء في صدر الاسلام .

الفرزدق*

٧٣٢م. و١١٤ هـ. (؟)

حياته	:	نسبه . جده صعصعة . كان فخوراً بقومه . جافي الطبع . نظم الشعر صغيراً . تشيّعه . مدح زين العابدين . حبسه . اتصاله بالامويين . كان يتكلف مدحهم . الفرزدق الطريد . حبسه . خبره مع النوار . الفرزدق وجرير . سبب تهاجيهما . موته .
آثاره	:	ديوان . نقائض جرير والفرزدق . من أصحاب المُلحمات .
ميزته	:	الهجاء والفخر : يفاخر بقبيلته وبنفسه ويحقّر المهجوّ وقبيلته ويستعلي عليهم ويحشوهم شتماً ويروي عنهم الأخبار الفاحشة ، ويعدد انكساراتهم . دوافعه عن تميم . يهجو قيس عيلان وينعو عليهم تغلب . مدحه : متكلف في مدح الامويين صادق في مدح آل البيت . غزله : متصلب العاطفة جافي الألفاظ والمعاني . فاحش في غزله القصصي . رثاؤه : لا يحسن الرثاء لصلابة عاطفته . زهده : هجاء لابليس لم يُسبق اليه . لم تكن ندامته صادقة . سرقاته . مقلداته : قصاره وابتداءاته . منزلته : احد الثلاثة المقدمين في الاسلام . ينحت من صخر . شعره حفظ ثلث اللغة ، وحفظ كثيراً من ايام العرب وعاداتهم . انقسام الناس حزبين معه ومع جرير . هو افخر الثلاثة .

حياته

هو همّام بن غالب بن صَعْصَعَة من دارم ثم من تَمِيم ، لُقّب بالفرزدق لغلاظة وجهه وجهومته[1] ، وكنيته ابو فِراس . وكانت ولادته في البصرة ونشأته في باديتها ، فشب خالص البداوة ، جافي الطباع ، قوي الشكيمة ،

* الفَرَزدق : الرغيف الضخم الذي تجمعه النساء للفتوت . وقيل بل هو القطعة من العجين التي تُبسط فيُخبز منها الرغيف .

١ الجهومة والجَهامة : اجتماع الوجه وغلاظته وسماجته .

لا تلين قناته . وكان له من مناقب قومه ومآثرهم ما أفعم نفسه زهواً
وكبراً ، وفسح له في مجال الفخر على اقرانه ، فباهى الناس بآبائه وجدوده .
وكان ابوه غالب من اجواد العرب المشهورين ، اذا نحر لا يجاريه منافس ،
وإذا اعطى لا يسأل عفاته : من هم ؟ وجده صعصعة له صحبة ولكنه لم
يهاجر ، وهو الذي احيا الوئيدة ، وبه افتخر الفرزدق في قوله :

وجَدّي الذي مَنَعَ الوائِداتِ، وأحْيا الوئِيدَ ، فلم يُوأدِ[1]

قيل انه اشترى ثلاثمائة وستين موؤودة كل واحدة منهنّ بناقتين
وجمل . وأم الفرزدق ليلى بنت حابس اخت الصحابي الأقرع بن حابس .
ونظم الفرزدق الشعر صغيراً فجاء به ابوه الى الامام عليّ وقال :
« ان ابني هذا من شعراء مُضر فاسمع منه . » قال : « علّمه القرآن . »
فلمّا كبر الفرزدق تعلمه وهو مقيّد لئلا يلهو عنه .

تشيعه

وكان يتشيع لعلي وابناء علي ويجاهر بحبه لهم ، واذا مدحهم تدفق شعره
عاطفة وحماسة ، فما ترى فيه اثراً لتكلف المادح المتكسب . وخير دليل
على صدق موالاته آل البيت قصيدته في زين العابدين فهي من ابلغ الشعر
واخلصه عاطفة ؛ انشدها في وجه هشام بن عبد الملك لما حجّ على عهد ابيه
وطاف بالبيت ، وجهد ان يستلم الحجر الأسود فلم يبلغه لكثرة الزحام ،

---

[1] منع الوائدات : أي منع النساء من وأد بناتهنّ وهو دفن البنت حية حين ولادتها . الوئيد والوئيدة والموؤودة : البنت المدفونة حية . وقوله : لم يوأد بالتذكير : حملاً على اللفظ . وكان العرب في الجاهلية اكثر ما يئدون بناتهم في الحدث ، ومنهم من يئدها تخلصاً من عار سبيها . وكانت كندة وتميم تئد بناتها .

فنُصب له كرسي وجلس عليه ينظر الى الناس وحوله جماعة من اهل الشام . فبينما هو كذلك اذ اقبل زين العابدين عليُّ بن الحسين بن عليّ بن ابي طالب ، وكان من اجمل الناس وجهاً ، فطاف بالبيت حتى اذا انتهى الى الحجر انشقت له الصفوف ومكنته من استلامه. فقال رجل من اهل الشام لابن عبد الملك : « من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة ؟ » فقال هشام : « لا اعرفه . » وخاف ان يذكر اسمه فيرغّبهم فيه . وكان الفرزدق حاضراً فقال : « أنا اعرفه . » فقال الشآمي : « ومن هو يا ابا فراس ؟ » فقال كلمته :

هذا الذي تَعرِفُ البَطحاءُ وَطْأتَه، والبيتُ يَعْرِفُهُ، والحِلُّ والحَرَمُ[1]

فغضب هشام فحبسه بين مكة والمدينة فهجاه الفرزدق بقوله :

أتَحْبِسُني بينَ المدينةِ والتي إليها قلوبُ الناسِ يَهْوي مُنيبُها[2]

يُقَلِّبُ رأساً لم يكُنْ رأسَ سَيِّدٍ، وعيناً له حَولاءَ، بادٍ عيُوبُها[3]

فبلغ شعره هشاماً فأمر باطلاقه خوفاً من لسانه .

اتصاله بالامويين

على ان تشيعه لآل البيت لم يصرفه عن التقرب الى الامويين ، فمدحهم

---

١ البطحاء : الأرض المنبطحة التي في وسطها مكة . الوطأة : موضع القدم . البيت : اي البيت الحرام . الحِل : ما سوى الحَرَم من بلاد الله . الحَرَم : ما احاط بمكة من الارض الى خط معلوم . يقول : ان زين العابدين تعرفه اهل الدنيا قاطبة .

٢ يهوي : يسرع ويمضي في سيره . منيبها : تائبها ، من اناب الى الله رجع اليه وتاب . وقوله : التي، اراد بها مكة فعرف باسم الموصول تعظيماً لها . يقول: اتحبسني بين المدينة ومكة التي يسرع اليها ذوو القلوب التائبة . والضمير في منيبها يعود على القلوب .

٣ بادٍ : ظاهر . وكان هشام أحْوَل .

رهبةً منهم او رغبةً في نوالهم ، واكثر مدائحه في سليمان بن عبد الملك ، ولكنه لم ينل حظوة الاخطل عندهم ولا استقام له ان يمدحهم بمثل شعره . فهم كانوا يعلمون موضع هواه ، وهو كان يتكلف مدحهم على كره منه . وربما مرت به ساعة لا يستطيع فيها ان يسخّر عاطفته ، فيدعوه الخليفة الى مدحه فما يطيق ذلك ، فيعمد الى الافتخار بنفسه فعله في حضرة سليمان بن عبد الملك لما استنشده فيه او في أبيه فأنشده مفتخراً عليه :

وركْبٍ ، كأنّ الرّيحَ تَطْلُبُ عِنْدهُمْ
لها تِرَةً ، مِنْ جَذْبِها بالعَصائِبِ[1]

سَرَوا يَخْبِطُونَ الليلَ ، وَهْيَ تَلُفُّهُمْ
الى شُعَبِ الأكوارِ ، مِنْ كلّ جانِبِ[2]

إذا اسْتَوضَحُوا ناراً يقولونَ : لَيْتَها ،
وقد خَصِرَتْ أيْدِيهِمُ ، نارُ غالِبِ[3]

فتبين غضب سليمان ، وكان نُصَيْبٌ الشاعر حاضراً فأنشده ابياتاً يمدحه

---

١ الركب : المسافرون فوق الابل . تِرَة : ثأراً . العصائب : جمع العصابة وهي العمامة . يقول : كأن الريح لها ثأر على هذا الركب لشدة ما تحدث بعمائم جماعته . يصف قوة الريح .

٢ سروا : ساروا ليلا . يخبطون الليل : يسيرون فيه على غير هدى ، مأخوذ من الخَبْط : وهو الضرب على غير اتساق . شُعَب الاكوار : نواحيها مفردها شُعبة . الاكوار : جمع الكُور وهو رحل البعير . يقول : سرى هذا الركب يخبطون على غير هدى لشدة الظلام والريح العاصفة تلفهم أي تضمهم من كل جانب الى نواحي الاكوار .

٣ استوضحوا : وضعوا ايديهم على عيونهم لينظروا الشيء من بعيد . خصرت : بردت . يقول : اذا نظروا ناراً من بعيد قال بعضهم لبعض وقد بردت ايديهم : « ليتها نار غالب » وغالب : ابو الفرزدق ؛ لأنهم يجدون عندها دفئاً وقِرى .

بها ، فقال الخليفة : « يا غلام أعطِ نُصَيباً خمس مائـــة دينار ، وألحِق الفرزدق بنار ابيه . » فخرج الفرزدق مغْضَباً يقول :

وَخَيرُ الشّعْرِ أكْرَمُـهُ رِجالاً ، وَشَرُّ الشّـعْرِ ما قالَ العَبيـدُ[1]

وقد يمدح عمّال بني أمية ثم يهجوهم اذا وجد سبيلا الى هجوهم ، او يهجوهم ثم يمدحهم اذا خشي شرهم . فقد رثى الحجّاج بقوله :

فلَيْتَ الأكُفُّ الدّافنـاتِ ابنَ يوسُفٍ
يُقَطّعْنَ ، إذْ غَيّبنَ تَحْتَ السّقائفِ[2]

فلما بويع بالخلافة سليمان بن عبد الملك بعد اخيه الوليد مدحه الفرزدق وهجا الحجّاج وقومه؛ فقيل له: كيف تهجوه وقد مدحته ؟ فقال: « نكون مع الواحد منهم ما كان الله معه ، فاذا تخلّى منه انقلبنا عليه . »

وهجا آل المهلّب فسخطوا عليه ، فلما ولّى سليمانُ بن عبد الملك يزيدَ بن المهلّب خراسان والعراق خاف الفرزدق فمدحهم. فلا تعجب اذاً ان ترى الفرزدق مجفوّاً على سموّ قدره في دولة الشعر ، فبنو أمية وعمّالهم لم يطمئنوا الى ولائه ولطالما نالوا منه فحبسوه او ابعدوه ، واذا اجازوه احياناً فتقيّة للسانه او رغبةً في شعره ليمدحهم به .

---

١ كان نُصيب مولى حبشيّاً لبني كَعْب فاشتراه عبد العزيز بن مروان ، وهو شاعر مجيد . يعرّض الفرزدق به في قوله : وشر الشعر ما قال العبيد .

٢ السقائف : جمع السقيفة وأراد بها القبر . اي اذ عين ابن يوسف تحت سقائف الاحداث. وابن يوسف هو الحجّاج توفي في اواخر خلافة الوليد بن عبد الملك في سنة ٧١٣ م و ٩٥ هـ . وكان والي العراقين وخُراسان، ومدة ولايته عشرون سنة .

وكان خبث لسانه وتعهره يساعدان اولي الامر على اذيتـه ، فاذا هجا قوماً او نال من حرماتهم استعدوا عليه السلطان فيطارده فيفر من وجهه ، او يحبسه او ينفيه فيكفي الناس شره ولو الى حين .

ويحدثنـا صاحب الاغاني ان الفرزدق كان يهاجي الاشهب بن رُمَيلة النهشَليّ وبني فُقَيم وكلاهما من دارم ؛ فاستعدوا عليه زياد ابن أبيـه وهو على البصرة من قِبَل معاوية ، ففرّ الفرزدق الى المدينة مستجيراً بعاملها سعيد بن العاص فأمّنه. ثم ولي المدينة مروان بن الحكَم فعلم ان الفرزدق يشرب الخمر ويدخل الى القيان ، فدعاه وتوعده وقال : « اخرج عني . » فعزم على الشخوص الى مكة ، فكتب مروان الى بعض عماله ما بين مكة والمدينة بان يصله بمائتي دينار فارتاب بكتاب مروان فجاء اليه يقول :

مَرْوانُ إنّ مَطيّتي مَعْقولَـةٌ ترجو الحِباء ، ورَبُّها لم يَيْأسِ[1]
أتَيْتَني بِصَحيفَـةٍ مَخْتومَـــةٍ ، يُخْشى عليّ بها حِباء النِقْرِسِ[2]
ألقِ الصحيفَةَ يا فَرزدقُ ، لا تكن نَكداء مِثلَ صحيفَةِ المُتَلمّسِ[3]

ثم رمى بالصحيفة ، فضحك مروان وقال : « ويحك انك أميٌّ لا تقرأ

---

١ مطيتي : دابتي . معقولة : محبوسة . الحباء : العطاء . ربها : صاحبها . يقول : ان مطيتي محبوسة لا تستطيع السير لانها تنتظر عطاءك وصاحبها لم يقطع رجاءه منك .

٢ النِقْرِس : ورم في مفاصل الكعبين واصابع الرجلين. يقول: اعطيتني كتاباً مختوماً اخشى ان يكون فيه عطاء موجع كداء النقرس .

٣ قوله : لا تكن ، مجزوم بجواب الامر وهي بمعنى لئـــلا تكون ولا حرف نفي . يقول مخاطباً نفسه: ألق صحيفتك لئلا تكون مشؤومة مثل صحيفة المتلمس. راجع خبر صحيفة المتلمس في بحث طرفة بن العبد .

فاذهب بها الى من يقرؤها ثم ردها حتى اختمها . » فذهب بها ، فلما قرئت له اذا فيها جائزة فردها الى مروان فختمها .

وظل الفرزدق طريداً عن البصرة حتى هلك زياد .

خبره مع النوار

ولم تكن حظوته عند النَّوار بأحسن من حظوته عند الخلفاء وعمالهم . مع ان النَّوار بنت عمه ، والدها أعيَن بن ضُبَيعة المُجاشعي ؛ وكان الفرزدق وليَّها ، فخطبها رجل من دارم فرضيته وارسلت الى ابن عمها ان يزوجها اياه ، فقال: « لا افعل او تشهديني انك قد رضيت بمن زوجتك. » ففعلت ، فلما توثَّق منها وقف في مسجد بني مجاشع بن دارم فحمد الله واثنى عليه ثم قال : « قد علمتم ان النوار قد ولتني امرها وأشهدكم اني قد زوجتها نفسي على مائة ناقة حمراء ، سوداء الحدقة . » فنفرت منه وفزعت الى مكة وفيها عبد الله بن الزبير وقد بايعه العراق والحجاز ، فاستجارت بامرأته بنت منظور بن زبَّان الفَزاري ، فتبعها الفرزدق ولما قدم مكة اشرأب الناس اليه ، ونزل على بني عبد الله بن الزبير فاستنشدوه ثم شفعوا له الى ابيهم ، فجعل يشفّعهم في الظاهر حتى اذا صار الى امرأته قلبته عن رأيه ، فمال الى النوار واشار عليه بتطليقها فابى وهجاه . وظل يرقيها حتى اصطلحا على ان يرجعا الى البصرة ويحكّما في امرهما بني تميم . فلما صارا الى البصرة رجعت اليه النَّوار بحكم عشيرتها ، ومكثت عنده زماناً ترضى عنه حيناً وتخاصمه احياناً ، فاراد اغاظتها فتزوج عليها حَدراء[1] بنت

---

[1] الحدراء : الحولاء . او من لها قرحة في باطن جفنها .

زيق بن بسطام بن قيس الشيباني فخاصمته النّوار واخذت بلحيته وقالت: «تزوجت اعرابية دقيقة الساقين على مائة بعير.» فقال يفضل عليها حدراء:

لَعَمْري، لأعْرابيّةٌ في مِظَلّةٍ، تَظَلُّ بِرَوقَي بَيْتِها الرِّيحُ تَخْفِقُ[1]
أحَبُّ إلينا مِن ضِناكٍ ضِفِنّةٍ، إذا وُضِعَتْ عَنها المَراوِحُ تَعرَقُ[2]

فشكته الى جرير فهجاه وهجا حدراء.

ولم يطب للنّوار عيش في كنف الفرزدق فظلت ترققه وتستعطفه حتى اجابها الى طلاقها، واخذ عليها ان لا تفارقه ولا تبرح من منزله ولا تتزوج رجلاً بعده ولا تمنعه من مالها ما كانت تبذله له، واخذت عليه ان يشهد الحسن البصري على طلاقها ففعل وطلقها ثلاثاً، ثم ندم وتحسّر، وله فيها شعر كثير منه:

نَدِمتُ نَدامَةَ الكُسَعيّ لمّا غَدَتْ مِنّي مُطَلَّقَةً نَوارُ[3]
وكانَتْ جَنّتي فَخَرَجْتُ منها، كآدَمَ حينَ أخرَجَهُ الضِرارُ[4]
وكنْتُ كَفاقِىءٍ عَينيهِ عَمْداً، فأصْبَحَ ما يُضيءُ لَهُ النّهارُ

---

١ المِظلّة: الخيمة. الرّوْق والرواق: سقف في مقدّم البيت. تخفِق: تصوّت عند هبوبها.
٢ الضِناك: المرأة المكتنزة الثقيلة الجسم. الضِفِنّة: القصيرة الحمقاء في عظم خَلْق. المراوح: جمع المروحة. يقول: يظل جسمها لضخامته يعرق اذا لم يُرَوّح له بالمراوح.
٣ الكُسَعي: نسبة الى كُسَع وهو حي باليمن او من بني ثعلبة، ومنه عامد بن الحرث الكُسَعي الذي يضرب به المثل في الندامة لانه رمى حُمُراً ليلاً فكانت السهام تنفذ منها وتصدم الجبل فتوري ناراً فظن انه اخطأها جميعاً فحنق وكسر قوسه، ولما اصبح نظر فاذا الحُمُر مصرّعة واسهمه بالدم مضرّجة فندم فقطع ابهامه.
٤ الضرار: المخالفة؛ من ضارّه: خالفه. واراد بذلك مخالفة آدم وصية الله.

جبنه

وكان الفرزدق على اعجابه بنفسه ومباهاته باصله شديدَ الجبن لا يقاتل الا بلسانه. وكان خصومه يتخذون من جبنه ذريعة للضحك به والتشفي من غيظهم ، وله معهم اخبار كثيرة نكتفي بواحدة منها رواها ابو عُبيدة عن رؤبة بن العَجَّاج قال : حجَّ سليمان بن عبد الملك وحجت الشعراء معه ، فلما جاء المدينة تلقوه بنحو اربع مائة اسير من الروم فقعد يدفعهم الى الوجوه والى الناس فيقتلونهم حتى دفع الى جرير رجلاً منهم فدسَّت اليه بنو عبس سيفاً قاطعاً فضربه فابان رأسه، ودفع الى الفرزدق اسيراً فلم يجد سيفاً فدسوا اليه سيفاً كليلاً فضرب الاسير فلم يصنع شيئاً ، فضحك القوم به ومن سوء ضربته ، وشمت بنو عبس ، فغضب الفرزدق وانشأ يقول :

إنْ يَكُ سَيفٌ خانَ ، أو قَدَرٌ أبى   لِتأخيرِ نَفْسٍ حَتْفُها غيرُ شاهِدِ[1]

فَسَيفُ بَني عَبسٍ ،وَقد ضَربوا بِهِ ،   نَبا بِيَدَيْ وَرقاءَ عَنْ رأسِ خالد[2]

كذاكَ سُيوفُ الهِندِ تَنبو ظُباتُها ،   وَيَقطَعنَ أحياناً مَناطَ القَلائِدِ[3]

---

١ قوله : ان يك ، لحقه الجَزْم فحذفت واو يكون فاصبح يكن فنقل الى يك. الحتف : الموت . شاهد : حاضر . يقول : ابى القَدَر ان يقطع السيفُ ليؤخر موت نفس لم يحضر اجلها بعد .

٢ نبا السيف : اذا لم يقطع . ورقاء : هو ابن زهير بن جذيمة العَبسي رأى والده تحت صدر خالد بن جعفر بن كِلاب وخالد مُكبّ عليه فجاء ورقاء لانقاذ والده فضرب خالداً ضرباتٍ فلم يصنع شيئاً وقُتل والدُه .

٣ سيوف الهند : أي المصنوعة في الهند . الظُّبات : جمع الظبة وهي حد السيف . مناط القلائد: كناية عن الاعناق. ومناط: اسم مكان من ناط اي علّق. القلائد : جمع القِلادة وهي ما جعل في العنق من الحلي .

وقال ايضاً :

أيَعْجَبُ النّاسُ أنْ أضْحَكْتُ خيرَهُمُ،
خَليفَةَ اللهِ يُسْتَسْقى بِهِ المَطَرُ ؟[1]

لم يَنبُ سَيفيَ، من رُعْبٍ ولا دَهَشٍ،
عن الاسيرِ، ولكن أخّرَ القَدرُ[2]

ولنْ يُقَدّمَ نَفْساً، قبلَ مدّتِها،
جَمعُ اليَدينِ، ولا الصّمصامَةُ الذّكرُ[3]

ثم مضى وهو يقول :

ما إن يُعابُ سَيّدٌ اذا صَبا، ولا يُعابُ صارمٌ اذا نبا،

ولا يعابُ شاعرٌ اذا كبا[4]

فشمت به جرير وعيّرَه بقوله :

بسَيفِ أبي رَغوانَ، سَيفِ مُجاشِعٍ،
ضَرَبتَ، ولم تَضرِبْ بسَيفِ ابنِ ظالِمِ[5]

---

١ حيرهم : أي سليمان . وعجز البت للاخطل انتحله الفرزدق .

٢ الدّهش : الحيرة والذهول .

٣ الصمصامة : السيف القاطع . الذكر : السيف اليابس الصلب . وقوله : جمع اليدين ، اي الاسر والاعتقال، وهو ان تكبّل اليدان الى العنق بالجوامع اي الاغلال مفردها جامعة.

٤ صبا : اي اذا صبت نفسه ومالت . كبا : سقط على وجهه . وكبا الشاعر : اذا اخطأته جودة الشعر تشبيهاً له بالفرس الكابي في المضمار .

٥ يقول : ان السيف الذي ضربتَ به لم يتعود القطع لانه سيف بني مجاشع بن دارم الجبناء لا سيف الحرث بن ظالم المُرّي. وكان الحرث من فُتّاك العرب فتك بخالد بن جعفر وهو اذ ذاك نازل على النعمان بن المنذر ، وبنو مُرّة وبنو عبس أبناء اعمام كلهم من غَطَفان . يرد جرير على الفرزدق لتعييره بني عبس بسيف ورقاء فيشير الى سيف الحرث بن ظالم تنبيهاً على ان بني عبس ادركوا ثأرهم من خالد بن جعفر قاتل زهير .

ضَرَبْتَ به عندَ الامامِ ، فأرعِشَتْ
يَداكَ ، وقالوا : «مُحدَثٌ غيرُ صارمِ» [1]

فرد عليه الفرزدق بقوله :

ولا نَقتُلُ الأسرى ، ولكن نَفُكُّهم ،
إذا أَثقلَ الاعناقَ حَملُ المغارمِ [2]

فهلْ ضَربةُ الرُّوميّ جاعِلةٌ لكم
أباً عَن كُلَيبٍ ، او اباً مِثلَ دارمِ ؟ [3]

الفرزدق وجرير

وكان السبب في تهاجي الفرزدق وجرير ان شاعراً من بني يَربوع يقال له غسّان السليطي هجا جريراً فردّ عليه جرير وأخزاه ، فشكا آلُ يَربوع الى البَعيث المُجاشعي قهرَ جريرٍ صاحبهم ، فجعل البعيث يقول : «وجدنا الشرف والشعرَ في بني النَّوار بنت مجاشع .» فبلغ ذلك جريراً فهجا البعيث وقومه ، فجاء البعيث الى بني الخَطَفى رهط جرير ، وقال : «يا قومِ عَجِلتم عليّ .» فقالوا : «بلغنا عنك امرٌ وان شئت قُلت كما قلنا ، وان شئت صفحت .» فقال : «بل اصفح .» فأقام مجاوراً لهم ثلاث سنين ثم انه فارقهم راضياً ، فقدم على ناس من بني مجاشع فسألوه عن بني الخطفى فأثنى

---

١ الامام : الخليفة. أُرعشت : ارتعدت من الخوف. محدث : اي حديث العهد بحمل السيوف. غير صارم : غير قاطع اي لم يتعود القطع بالسيوف .

٢ المغارم : جمع المَغرَم وهو الغرامة . يقول : نحن نفكّ الاسرى اذا عجزوا عن دفع الغرامة ليفتدوا انفسهم .

٣ كليب : قوم جرير . وقوله : أباً عن كليب : عوضاً عنه .

عليهم خيراً ، فقال رجل منهم : « لَحُسْنَ ما جازيتهم على الذي قالوا لك. » ثم انشده قول جرير فيه، ولم يزالوا به حتى أغضبوه، فهجا بني كليب. فقالت بنو كليب لعَطاء بن الخطَفى : « اركب الى بني مجاشع واستنههم من انفسهم فقد قالوا كما قيل لهم . » فأتاهم عطاء فقال : « اي بني مجاشع الاخوة والعشيرة ، وقد قلتم كما قيل لكم فانتهوا عنا . » فابى البعيث الا هجاءهم ، فلحم الهجاء بين جرير والبعيث فسقط غسّان . ثم استطال جرير وافحش القول في نساء مجاشع . فضج البعيث الى الفرزدق وهو يومئذٍ بالبصرة وقد قيّد نفسه وآلى ألا يفك قيده حتى يقرأ القرآن . وأقبلت عليه نساء مجاشع وقلن له : « قبّح الله قيدَك وقد هتك جرير عورات نسائك فلُحيتَ شاعرَ قوم . » فأحفظنه ففضّ قيده وقال :

ألا أستَهزَأتْ مني هُنَيدةُ أن رأتْ
أسيراً يُداني خطوَهُ حلَقُ الحِجْلِ [1]

ولوْ عَلِمتْ أن الوَثاقَ أشُدُّهُ
الى النّارِ ، قالتْ لي مَقالةَ ذي عَقلِ [2]

لَعَمري ، لَئن قَيّدتُ نَفسي ، لَطالما
سَعَيتُ، وأوضَعتُ المَطيّةَ في الجَهلِ [3]

---

١ هُنَيدة : امرأة الزبرقان عمة الفرزدق . الحِجل : القَيد. وقوله : اسيراً يداني خطوه ، اي يقصّر خطوه .

٢ قوله : أشُدهُ الى النار، اي خوفاً منها ، وفي رواية أخرى: أشَدُّه ، فيكون المعنى أشد الوثاق وثاق النار .

٣ أوضع المطيةَ : رفعها في السير . وقوله : أوضعتُ المطية في الجهل ، اي سرت في الجهل كل مسير .

ثلاثينَ عاماً ، ما أرى مِن عَمايَةٍ ،
إذا بَرَقَتْ ، إلاّ اشُدُّ لها رَحْلِي[1]

أتَتْني أحاديثُ البَعيثِ ، ودونَهُ
زَرودٌ ، فشاماتُ الشَّقيقِ منَ الرَّملِ[2]

فقُلتُ : أظَنَّ ابنُ الخَبيثةِ أنَّني
شُغِلتُ عنِ الرَّامي الكِنانةَ بالنَّبلِ ؟[3]

فإنْ يكُ قَيدي كان نَذراً نَذرتُهُ ،
فما بيَ عن أحسابِ قَوميَ مِن شُغلِ

أنا الضَّامنُ الرَّاعي عليهِمْ ، وإنَّما
يُدافِعُ عن أحسابِهِمْ أنا ، أو مِثْلِي[4]

وهجا الفرزدق البعيث لعجزه عن مقاومة جرير فسقط البعيث . قال ابن سلاّم : « ولجَّ الهجاء بين جرير والفرزدق نحواً من اربعين سنةً لم يغلب

---

١ العَماية : الجهالة. أشدُّ بها رحلي : أي اقصدها . يقول . انه اوصمها ثلاثين عاما فما لاحت له جهالة الا قصدها .

٢ زَرود : ماء لبني مجاشع على طريق الكوفة . الشامات : آثار مختلف لون الارض . الشقيقة : الحَدَد بين الرملتين وربما كان اميالاً . والحَدَد : الارض الغليظة المستوية .

٣ ابن الخبيثة : يعني جريراً . وقوله : الرامي الكنانة ، يريد رجلاً من اسد التقى رجلاً من فَزارة وكانا راميين ومع الفزاري كنانة جديدة ومع الاسدي كنانة رثّة فقال له الاسدي : « انا ارمى او انت ؟ » قال الفزارى : « انا ارمى منك. » فقال الاسدي : « فانا انصب كنانتي وتنصب كنانتك حتى نرمي فيها. » فنصب الاسدي كنانته فجعل الفزارى يرمي ويصيب حتى نفدت سهامه، فرماه الاسدي بسهم فقتله واخذ كنانته . ضرب الفرزدق هذا المثل ليقول لجرير انه ليس بغافل عنه كما غفل الفزاري عن صاحبه الاسدي .

٤ يقول : لا يدافع عن احسابهم الا انا او رجل مثلي .

واحد منهما على صاحبه ، ولم يتهاجَ شاعران في الجاهلية ولا في الاسلام بمثل ما تهاجيا به . »

موته

يحدثنا صاحب الاغاني ان لَبَطَة بن الفرزدق قال : « ان اباه اصابته ذات الجنب فكانت سبب وفاته . ووُصف له ان يشرب النفط الابيض فجعلوه في قدح وسقوه اياه فقال : « يا بنيّ عجلت لابيك شراب اهل النار . » وكان له عبيد فأوصى بعتقهم بعد موته وبدفع شيء من ماله اليهم ، فلما احتضر جمع اهل بيته وأنشأ يقول :

أروني من يقومُ لكم مَقامي ، اذا ما الأمرُ جلَّ عن الخِطابِ ؟[1]
الى مَنْ تَفزَعون اذا حَثَوتُمْ بأيديكم عليَّ من التُرابِ ؟[2]

فقال له بعض عبيده : « الى الله . » فأمر ببيعه قبل وفاته وابطل وصيته فيه . »

وذكر ابن قُتَيبة انه مات وقد قارب المائة ، وكانت علته الدُبَيلة[3]، وكان يسقى النفط الابيض وهو يقول : « اتعجلون لي النار في الدنيا ! »

وكانت وفاته في خلافة هشام بن عبد الملك ، وله قصيدة يمدحه بها ويهنئه بالخلافة ، منها قوله :

رَمَتني بالثمانين الليالي ، وسَهمُ الدَّهرِ أصْوَبُ سَهمِ رامِ

وخلافة هشام تبتدىء في السنة الخمسين بعد المائة للهجرة ، فاذا كان

---

١ جل : عظم . يقول : اذا اشتدّ الامر واصبح الكلام المفصّل لا يجدي نفعاً .
٢ تفزعون : تلجأون وتستغيثون . حثا التراب على الميت : صبه عليه ليواريه .
٣ الدُبَيلة : دمّل كبيرة ، تظهر في الجوف فتقتل صاحبها غالباً .

الفرزدق يومئذ في الثمانين من عمره كما ذكر في شعره، فلا يصحّ ان تكون سنُّه قد نَيَّفت على التسعين يوم وفاته ، هذا اذا حسبنا ان القصيدة قيلت في السنة الاولى لخلافة هشام وان الشاعر كان في الثمانين دون زيادة او نقصان. وفي اي حال فان الفرزدق لم يبلغ المائة وانما مات في التسعين او دون التسعين او انه جاوزها قليلًا .

آثاره

آثاره ديوان مطبوع اكثره في المدح والفخر والهجاء، وطبعت « نقائض جرير والفرزدق » في ليدن فجاءت في مجلدين ضخمين . وهو من اصحاب المُلْحَمات ومطلع ملحَمته :

عَزَفتَ بأعشاش وما كِدتَ تَعزُفُ ،
وانكَرتَ من حَدراءَ ما كُنتَ تَعرفُ[1]

ميزته

لم يشغــل الناسَ شاعرٌ في الجاهلية ولا في الاسلام كما شغلهم جرير والفرزدق بتهاجيهما ، فقد لبثا اربعين سنةً يتشاتمان والناس تسمع لهما ولا تتفق على تفضيل الواحد منهما على الآخر . وكان يصح لنا ان نقتصر على درس خاصة الهجاء في الفرزدق، وما يتبع هذا الهجاء من فخر ، لو لم تكن لشاعرنا خصائص أخرى لا ينبغي اغفالها ، وان تكن خاصة الهجاء اظهرها . فالفرزدق في تشيعه لآل البيت وفي اتصاله بالخلفاء الأمويين وعمالهم شاعر مدّاح ولكن مدحه لهؤلاء يختلف عن مدحه لأولئك ، فهو في ذكر آل البيت

١ عزفت : اي رجعت عن باطلك . اعشاش: اسم موضع . حدراء : زوجته . يخاطب نفسه بصورة التجريد .

صادق اللهجة ، بيّن الحماسة ، متدفق العاطفة ؛ وفي مدح الأمويين كذوب متكلف يظهر خلاف ما يبطن والفرزدق في غزله يصطنع القصص الغراميّ كابن ابي ربيعة ويتعهر مثله، غير انه لا ينقاد اه هذا الفن في الجودة والرقّة نقياده لعمر . والفرزدق اول شاعر مسلم نظم في الزهد وخاطب ابليس وهجاه . وهو اكثر الشعراء الاسلاميين سرقة وانتحالاً . فعلينا ان ندرس به خاصة الهجاء في شيء من الاسهاب، ثم نلم بسائر خصائصه لنعرف من هو الفرزدق وما هي ميزة شعره .

هجوه وفخره

ولسنا نعجب اذا رأينا للفرزدق شعراً كثيراً في الهجاء بعد ان علمنا انه نتاج حرب عوان دارت بينه وبين جرير اربعين سنة ؛ وكان فيها كلا الشاعرين يُعنى بنقض اقوال خصمه لئلا يُعَدّ مُغَلَّباً ، فالهجاء صفة لازمة لشعر الفرزدق كما انه صفة لازمة لشعر جرير .

واذا اراد الفرزدق ان يهجو وضع نفسه في مرتبة يتضاءل دونها خصمه، وشرع يعدد مفاخر قومه ويذكر ما لهم من الايام وما هم عليه من كرم وخير ونجدة واباء . وكان له من شرف قبيلته وامجاد آبائه ما فسح له في مجال الفخر والاستعلاء .

وهو على شدة اعجابه بقومه لا يغفل عن الافتخار بنفسه ، واكثر فخره بشاعريته ، وهي المفخرة الوحيدة التي نجدها فيه ونرى انه يحق له ان يباهي بها . ولا ينتهي الفرزدق من مفاخرة خصمه الا ليحشوَه شتماً وتعييراً ، فيعلن مخازيَه ومخازيَ قبيلته ، ويطعن في اعراضهم طعناً قبيحاً مكثراً من الالفاظ الفاحشة ، والاخبار الشائنة ، حتى ليصبحُ شعره بؤرة فجور وفساد .

واذا رأيته يفتخر بقوله :

وَلا نَقْتُلُ الأسرى، وَلكِنْ نَفُكُّهُمْ،
إذا أَثقلَ الأعْناقَ حَمْلُ المَغارِمِ

فلا تتوهم انه يؤثر الرحمة على الظلم ، ولكنه اراد الردّ على من عيّره الجُبنَ فلم يجد غير هذا السبيل . وربما افتخر بالظلم فقال :

إذا مُضَرُ الحَمراءِ حولي تعَطّفَتْ عَليَّ ، وقد دَقّ اللّجامُ شَكيمي،[1]
أَبَتْ أنْ أسومَ النّاسَ إلا ظُلامَةً ، وَكُنْتُ ابنَ مرغامِ العَدوِّ ظَلومِ[2]

ولا يقتصر في هجاء جرير على الدفاع عن بني دارم ، بل يدافع ايضاً عن تغلب قبيلة حليفه الاخطل ، ويفاخر بهم جريراً وقومه ، كما فاخر الاخطل ببني دارم ودافع عنهم :

لولا فَوارِسُ تَغلِبَ ابْنَةِ وائِلٍ، نزلَ العَدوُّ عليكَ كُلَّ مَكانِ[3]

---

١ مُضر الحمراء: هو احد اولاد نزار بن معد بن عدنان ، اختلف مع اخوته ربيعة واياد وأنمار على تركة ابيهم فتحاكموا الى الافعى الجرهمي فاعطى ربيعة الخيل فقيل له ربيعة الفرس، واعطى مضر الذهب فقيل له مضر الحمراء ، واعطى اياداً الجواري والامتعة المختلفة فقيل له اياد الشمطاء ، وأعطى أنماراً الحمير والمواشي فقيل له أنمار الحمار . تعطفت : مالت الى واحاطت بي . الشكيم : جمع الشكيمة وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس. واللجام يشتمل عليها وعلى السير . وقوله : دق اللجام شكيمي ، أي دقها بفمه اي وقّمها عليه ليرسل في الرهان . شبّه نفسه بالجواد .

٢ أسوم : اكلّف . الظُلامة : ما يتظلمه الرجل . مرغام : للمبالغة من رغمه : اذلّه .

٣ يقال: تغلب ابنة وائل باعادة الصفة على القبيلة ، وتغلب بن وائل باعادتها على الأب. يقول: ان العدو كان ينزل في كل مكان تنزل فيه او تهرب اليه. يشير الى يوم ساتيدما بين كسرى والروم وكان كسرى وجّه اياس بن قبيصة لقتال الروم فهزمهم بساتيدما ولا يبعد ان يكون بنو تغلب أعانوا اياساً في هذه الواقعة لان ساتيدما جبل في ديارهم. والمعنى ان تغلب ردوا جيوش قيصر عن اكتساح بلاد العرب .

حَبسوا ابنَ قيصرَ، وابتنوا برماحهم، يومَ الكُلابِ كأفضَلِ البُنيانِ[1]

قومٌ هُمُ قَتَلوا ابنَ هندٍ، عَنْوَةً، عَمْراً، وهُم قَسطوا على النُّعمانِ[2]

إنّ الأراقِمَ لن يَنالَ قَديمَها كَلبٌ عَوى، مُتَهَتِّمُ الأسنانِ[3]

فعلى هذا النحو كان الفرزدق يهجو جريراً ويفتخر عليه، ويمزّق عرضه واعراض بني كليب اجمعين، ذاكراً سوءاتهم، فاضحاً نساءهم، معدداً انكساراتهم. وله في ذلك اسلوب خاص لا يتعداه، فهو لا يستطيع ان ينكر ان كليباً من تميم وانهم ابناء عمه على الرغم منه، ولكنه يجعلهم اذل بني تميم واحقرهم، واخسهم واجبنهم، ثم يجعلهم يتطاولون الى دارم وينتحلون نسبها؛ ودارم تزبنهم[4] عنها. وهو اذا افتخر بايام بني تميم جعل الفضل فيها لبني دارم، واذا ذكر ما عليها من الايام حصر مخازيها ببني كليب. فرهط جرير عند الفرزدق اعجز من ان يطاولوا دارماً.

وهو على عنايته بهجو كليب لا يعفّ عن قيس عيلان بل يهجوهم هجاء خبيثاً وينفر عليهم التغلبيين:

وما لَقيَتْ قيسُ بنُ عَيلانَ وَقعَةً، ولا حرَّ يومٍ، مِثلَ يومِ الاراقمِ[5]

---

١ حبسوه: اي ردوه على ان يبلعكم. وابتَنَوا: بَنَوا شرفاً. الكُلاب: ماء لبني تميم وفيه كان يوم الكُلاب وهو لتغلب على تميم.

٢ عمرو بن هند ملك العراق قاتله عمرو بن كلثوم التغلبي. عنوةً: اقتداراً. قسطوا: جاروا. وقوله: على النعمان، يشير الى مقتل المنذر بن النعمان اي قابوس وقاتله مرّة اخو عمرو بن كلثوم.

٣ الاراقم: حيٌّ من تغلب. قديمها: حسبها القديم. متهتم: متكسر أي هَرِم فذهبت اسنانه.

٤ تزبنهم: تدفعهم.

٥ يقول: لم تلق قيس حرباً احمى وطيساً من حرب الاراقم.

ويندّد بهم لمناصرتهم ابن الزبير على بني أمية ، ويعيرهم انكساراتهم ويشتم جريراً معهم لانه كان يدافع عنهم .

مدحه

عرفنا ان الفرزدق كان يشايع آل البيت وان الأمويين كانوا يعرفون ذلك فيه ، فلم يحظ عندهم كما حظي الاخطل النصراني ، ولكنه مدحهم واجازوه على مدحه . ونستدلّ من شعره انه اخذ يتصل بهم في خلافة الوليد بن عبد الملك ؛ اد ليس له في ابيه ما يستحق الذكر . على ان مدحه لهم لم يكن الا تكلفاً ، وسنجد اثر هذا التكلف في شعره الذي مدحهم به اذا قابلناه بشعره الذي مدح به آل البيت . فهو في مدح الامويين متكسب يستجدي او راهب يستعطف ، وفي مدح آل البيت عاطفيّ بحت ينطق عما في نفسه من هوى . فنحن لا نستطيع ان نصدق شاعراً يتشيع لعليّ وابنائه حين نسمعه يخاطب الوليد بن عبد الملك :

أمّا الوليدُ فإنّ اللهَ أورثَـهُ ، بعِلمِهِ فيهِ ، مُلكاً ثابِتَ الدِّعَمِ [1]
خِلافةً لم تكن غَصْباً مشورَتُها ، أرسى قَواعِدَها الرّحمنُ ذو النِّعَمِ [2]
كانت لِعثمانَ لم يَظلِم خِلافَتَها ، فانتَهكَ الناسُ مِنهُ أعظمَ الحُرَمِ [3]

أفيصح لنا ان نحسب الفرزدق مخلصاً في هذا المدح ، صادقاً في جعله

١ الدعم : جمع الدعمة وهي عماد البيت يسند اليه ويستمسك به . وقوله : بعلمه فيه ، اي لما يعلم فيه من الحق .
٢ خلافة : بدل من قوله مُلكاً . يقول : ان بني أمية اخذوها بالشورى ولم يأخذوها غصباً .
٣ انتهك الحرمة : تناولها بما لا يحل . الحُرم : جمع الحُرمة وهي ما لا يحلّ انتهاكه ، والذمّة ، والمهابة .

الخلافة حقاً من الله لبني أمية ، وفي قوله انهم اخذوها شورى لا غصباً ، وان مقتل عثمان بن عفان اعطاهم هذا الحق الموروث؟ وقد علمنا ان اصحاب آل البيت ينكرون على الامويين هذه الدعوى ، ولا يرون احداً احق بالخلافة من ابناء بنت الرسول . والفرزدق نفسه كان يأبى احياناً ان يمدح الأمويين على ما فيه من ميل الى التكسب ، وقد اوردنا خبره مع سليمان ابن عبد الملك . ورأيناه في مكان آخر لا يحجم عن التعريض بهشام بن عبد الملك وهو حاضر لانكاره زين العابدين. ثم رأيناه يهجو هشاماً بعد ان حبسه ، فيقول فيه :

يُقَلّبُ رأساً لم يكن رأسَ سيّدٍ ، وعيناً له حولاءَ ، بادٍ عيوبُها

ولكنه لم يستنكف من مدحه لما تبوّأ سدة الخلافة ، فقصد اليه في الرُصافة[1] وانشده قصيدة يقول فيها :

رآكَ اللهُ أولى النّاسِ طرّاً بأعواد الخِلافَـةِ ، والسّلامِ[2]

افيمكن ان يُخلص الفرزدق في مدحه لهشام ويصدق في زعمه انه اولى الناس بالخلافة وهو القائل فيه : « تبين فيه الشؤم وهو غُلامُ » ؟ وحسبك ان تقابل قوله في هشام بقوله في زين العابدين لترى الفرق بينهما ، وتعلم ان الشاعر لم يمدح هشاماً الا خائفاً ، او مستجدياً يستمطر الربيع لعياله ، فكان شعره متكلّفاً خالياً من العاطفة ؛ وانه لم يمدح زين العابدين الا مشغوفاً بمناقبه ومناقب آله ، فجاء شعره عاطفياً صرفاً لا اثر للتكلف عليه.

---

١ الرصافة : مدينة في البرية بقرب الرقّة احدثها او جدد بناءها هشام بن عبد الملك لما وقع الطاعون بالشام ، ولما مات هشام دفن فيها .

٢ باعواد الخلافة : أي بأريكتها. وقوله: والسلام، أي انت أولى بأن يُسلّم عليك بالخلافة.

وأنى يكون التكلف في قصيدة جاش بها صدر الشاعر فقذفها بيتاً إثر بيت، والتأثر النفسي يملك عليه ؟ ويختلف اسلوبه فيها عن اسلوبه في مدح هشام، فهو لا يسأل زين العابدين ولا يستجديه ، ولكنه بيت عاطفة متقدة بحب آل البيت ، عاطفة نفس تؤمن بكرامتهم وترجو بهم الثواب في الآخرة .

واذا علمت ان زين العابدين ارسل الى الفرزدق اربعة آلاف درهم لما بلغته القصيدة، فردها الفرزدق عليه وقال له: «انما مدحتك بما انت اهله» ، اذا علمت ذلك تبين لك صدق الفرزدق واخلاصه في مدحه ابناء بنت الرسول.

وقد شك بعضهم في زعم الرواة ان هذه القصيدة قيلت ارتجالاً، ولكننا لا نرى وجهاً للشك يصح الاعتماد عليه، ولا سيما ان ادلة الارتجال متوافرة. فالقصيدة قصيرة لا تبلغ الثلاثين بيتاً ، وفيها من الايطاء[1] شيء كثير مما يدل على انها لم تُحكك في النظم بل جاءت عفو الخاطر. وليس بعجيب ان يرتجلها شاعر في صدر الاسلام كالفرزدق له من ملكته الشعرية ، وبلاغته ، وصفاء ذهنه ما يهوّن عليه الارتجال ، وخصوصاً في موقف كان التأثر يملي على العاطفة ، والعاطفة تكتب .

غزله

لم يكن الفرزدق على تعهره ممن يحسنون الغزَل والتشبيب بالنساء، فاذا نسَب جاء قوله غليظاً جافياً لا ترتاح اليه النفوس . وكان يشعر بتصلب عاطفته وخشونة تشبيبه فيقول : « ما احوج جريراً مع عفته الى صلابة شعري ، وما احوجني الى رقة شعره مع شدة فسقي . »

[1] الايطاء: تكرار القافية بلفظها ومعناها، وهو مكروه يدل على قصر يد الناظم، وجوّزوا تكرير القافية لفظاً ومعنى فيما زاد على سبعة ابيات لانهم يعدون كل سبعة ابيات قصيدة .

وقد يخرج في غزله الى المعاني الوحشية السمجة التي تنبو عنها الاذواق كقوله:

فيا ليتَنا كُنَّا بَعيرَينِ ، لا نُرى على مَنْهَلٍ ، إلا نُشَلُّ ونقذفُ[1]

كِلانا به عَرٌّ ، يُخافُ قِرافُهُ على الناسِ ، مَطليُّ المساعرِ ، أخشفُ[2]

وتجد في ديوانه قصيدة من القصص الغرامي يروي فيها خبر زيارة ليلية هي اشبه بزيارة ابن ابي ربيعة او زيارة امرىء القيس ، ولكنه يقصّر عنهما في السرد والحوار ، ولا يجاريهما في الرقة ولطف التعبير . فمنها قوله :

فما زِلتُ حتى أصعَدَتني حِبالُها اليها ، ولَيلي قد تَخامَصَ آخِرُه[3]

فاذا بلغ اليها لا يسمعك حواراً بينهما كما اسمعك الملك الضلّيل وفتى قريش ، بل يلتقيها صامتة ما تنبس ببنت شفة ، فيصف مجلسه بابيات ثلاثة ، ثم يقول ذاكراً تخوّفه الرجوع :

أُحاذِرُ بَوّابَينِ قد وُكّلا بها ، وأسمَرَ من ساجٍ تَئِطُّ مَسامِرُه[4]

وهنا يسألها : « وكيف النزول ؟ » فتجيبه مظهرة له المصاعب التي تكتنفه ، فيطلب اليها ان تُدَلّيَه بالحبال كما اصعدته . فتفعل وتساعدها على انزاله رفيقة لها :

---

١ بعيرين : جملين . المنهل . مورد الماء . نُشلّ : نُطرد . نُقذف : نرمى بالحجارة .

٢ العَرّ : الجرب . قرافه : مخالطته . المساعر : اصول الفخذين والابطين . اخشف : يابس الجلد من الجرب . يقول : ليتني ومَن احبها بعيران جربان يخشى على الناس مخالطتهما ، فاذا وردا المناهل طُردا ورُميا بالحجارة ، وهما لشدة جربهما يبس جلدهما وطليت مساعرهما بالقطران . والمراد انه يتمنى الانفراد بحبيبته عن العالم فاشتهى لها وله هذه الشهوة الممقوتة .

٣ تخامص الليل : رقت ظلمته عند السحر .

٤ واسمر : صفة لموصوف محذوف وهو الباب . الساج : الخشب . تئطّ : تصوّت . مسامر : جمع مسمار . يقول : اذا فتح الباب يحدث صوتاً .

هما دَلَّتاني من ثمانينَ قامـةً ، كما انقَضَّ بازٌ أقتمُ الرِّيشِ، كاسِرُه[1]

رثاؤه

ولم تكن عاطفته في الرثاء اقلَّ تصلباً منها في الغزل ، فقد مات ابوه فرثاه ، فكان في رثائه اياه جافياً . ومات ولداه فاراد رثاءهما فتصلبت عاطفته ، فاخذ يعزي نفسه بذكر من مات قبلهما من كرام الرجال، وختم مرثاته بقوله :

فما ابناكِ الا ابنٌ من الناسِ، فاصبِري،
فلن يُرجِـعَ المَوتى حَنينُ المآتِمِ[2]

وماتت زوجته، وكان يُحبها ، فلم يستطع رثاءها فبكاها النوادب بشعر جرير ، وقيل له ان يزور قبرها فقال :

ولستُ، وان عَزَّتْ عليَّ، بزائرٍ ترُاباً على مَرموسةٍ قد تَضعضعا[3]

وأهونُ مفقودٍ ، اذا الموتُ نالَـهُ ، على المرءِ من أصحابِـهِ، من تَقَنَّعا[4]

فكيف ترجو ان تلين عاطفته ، فيرثي زوجه رثاءً حسناً ، وهو يرى ان المرأة اهون مفقود على الرجل ؟

---

١ انقض الباز على فريسته: سقط عليها . القاتم: الاسود. الكاسر: الذي يكسر جناحيه عند انقضاضه . يشبه نفسه في سقوطه على الارض بالباز الاسود الكاسر ريشه في الانقضاض .

٢ المآتم ، جمع المأتم : وهو المناحة . يقول للنوار : ان ابنيك كسائر الناس فاصبري ولا تجزعي ، وان النواح في المآتم لن يُرجع الموتى الى الحياة .

٣ المرموسة . المدفونة في الرمس وهو القبر . تضعضع : انتثر عليها وتبدد .

٤ تقنع : لبس القناع . يقول : أهونُ فقيد على المرء من اصحابه فقيد يلبس القناع ، ويريد به المرأة . وقوله : اذا الموت ناله ، اي نال المفقود .

زهده

قد نكون مسرفين اذا وصفنا الفرزدق بالزهد ، وجعلنا لشعره ميزة من هذه الناحية. فالزهد في حقيقته لم يعرفه الشعر العربي الا في خلافة العباسيين ؛ هذا بصرف النظر عما أضيف الى عليّ بن ابي طالب من الاشعار الزهدية لان الامام علياً لم ينظم الشعر وانما كان خطيباً بليغاً ، وله في الزهد اقوال نثرية مشهورة ، وليس له في الشعر شيء ثابت .

ولكن الفرزدق ، على ضعف الخاصة الزهدية في شعره حتى نكاد لا نشعر بها ، هو اول شاعر اسلامي أخذ بأهداب هذا الفن فنظم قصيدة يهجو بها ابليس ويتوب الى ربه نادماً على ذنوبه. وهي وان تكن لا تستوعب شروط الشعر الزهدي من ذم الدنيا وملاذها ، وايراد المواعظ والحِكَم والأمثال ، فانها تنضم اليه بما فيها من اقرار بالخطيئة ، وتوبة الى الله ، وخطاب للشيطان لم يُسبَق اليه .

على ان توبته ، حَرية بالتصديق والاعجاب ، لأنه لم يتمسك بها كثيراً بل ارتدّ عنها بعد حين . ومعاصروه انفسهم لم يتلقوها بالاطمئنان لما يعهدون به من فحش وفجور ، فان ابن سلاّم يحدثنا بان الفرزدق أتى الحسن[1] فقال له : « اني قد هجوت ابليس فاسمع . » فقال : « لا حاجة لنا بما تقول . » قال : « لتسمعنّ او لأخرجنّ فأقول ان الحسن ينهى عن هجاء ابليس . » فقال الحسن : « اسكت فانك عن لسانه تنطق . »

سرقاته

اشتهر الفرزدق بسرقة الشعر فكان لا يسمع بيتاً عائراً[2] إلاّ قال

---

١ اي الحسن البصري ، قاضي البصرة وفقيهها .

٢ العائر : السائر بين الناس .

لصاحبه : «لتتركنّ هـذا البيت لي او لتتركن عرضك !» فيتركه له خوفاً من لسانه ، فينتحله الفرزدق ويدمجه في شعره. وكان يقول : «خير السرقة ما لا يجب فيه القطع[1] .» يعني سرقة الشعر . ويروي لنا صاحب الاغاني : ان الفرزدق مرّ يوماً بالشَّمَرْدَل وهو ينشد قصيدة حتى بلغ الى قوله :

وما بينَ مَنْ لم يُعْطِ سَمْعاً وطاعةً ، وبين تميمٍ غيرُ حزّ الغَلاصِمِ[2]

فقال : «والله لتتركنّ هـذا البيت أو لتتركنّ عرضـك !» قال : «خذه على كره مني !» فأخذه الفرزدق وهو في احدى قصائده .

ومرّ بابن ميّادة وهو ينشد :

لو أنّ جميعَ الناسِ كانوا برَبْوةٍ ، وجئتُ بجَدّي ظالِمٍ وأبنِ ظالِمِ ،[3]
لظَلّتْ رقابُ الناسِ خاضعةً لنا ، سُجُوداً على أقدامِنـا بالجَماجِمِ

فقال : «اما والله يا ابن الفارسية لتَدَعَنَّهُ لي او لأنبشنّ امـك من قبرها.» فقال له ابن ميّادة : «خذه لا بارك الله لك فيه.» فانتحل الفرزدق البيتين ووضع دارماً مكان ظالم فقال : «وجئت بجدي دارم وابن دارم.» واخذ لُملحمته من جميل بثينة أسْيَرَ بيت فيها ، وهو قوله :

ترى الناسَ ما سِرْنا يسيرونَ خلفَنا ، وإنْ نحنُ أومأنا الى الناس ، وقَفُوا

مداخلته الكلام

وكان يداخل الكلام ويجوّز في شعره ما لا يجوّزه غيره ، فرويت له

---

١ القطع : اي قطع اليد وكان السارق تقطع يده عملاً بالشرع الاسلامي .

٢ الغلاصم : جمع الغَلصمة وهي اللحم بين الرأس والعنق او رأس الحلقوم . يقول : بين تميم ومن يعصيها حز الأعناق .

٣ الربوة : ما ارتفع من الأرض .

أبيات كثيرة خالف فيها القواعد النحوية والبيانية ، فأخذها النحاة وعلماء البيان شواهد في بحوثهم . وسخط بعضهم عليه من أجلها وسُرَّ بها بعضهم الآخر ولا سيا اصحاب النحو ، لأنها كانت تشغلهم في تمحل اوجه اعرابها . فمن ذلك قوله يمدح ابراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك :

وما مثلُهُ في الناسِ إلاَّ مُمَلَّكاً ، أبو أمِّه حَيٌّ أبوهُ يُقارِبُهْ

والشاهد فيه التعقيد ، وهو ان لا يكون الكلام ظاهر المراد ، والمعنى: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلاَّ مُمَلَّكاً ابو امه ابوه ، اي ابن اخته هشام. فالضمير في أمه يعود على المملَّك يعني هشاماً ، والضمير في ابوه يعود على الممدوح يعني خاله ابراهيم. ففصل بين ابو أمه وهو مبتدأ ؛ وابوه وهو خبر بلفظ اجنبي وهو حيٌّ. وكذا فصل بين حي ويقاربه ، وهو نعته ، بأجنبي آخر وهو ابوه . وقدَّم المستثنى على المستثنى منه ، فهو كما تراه في غاية التعقيد . وكان من حقه ان يقول : وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلا مملَّك ابو أُمه ابوه . ورفع مملَّكٍ اشهر لان ما يبطل عملها اذا انتقض خبرها بإلاَّ ، وعدم ابطاله لغة حجازية .

وقوله :

وعَضُّ زمانٍ يا أبنَ مَروانَ لم يَدَعْ من َالمالِ إلا مُسْحَتاً ، أو مُجرَّفُ[1]

فنصب مسحتاً على انه مفعول لم يدع ، ورفع بعده مجرَّف مع انه معطوف عليه ، فجعله النحاة خبراً لمبتدإٍ محذوف . وأما أبو عبيدة فانه فسر لم يدع بمعنى لم يثبت ويستقر من الدَّعة ، فارتفع مسحت ومجرَّف بفعلهما . وفي ذلك ما فيه من تعسف وتمحل . وللفرزدق شعر كثير من هذا النوع.

١ المُسحت من المال : المُذهَب المُتلف . مجرَّف : اي مجروف ذاهب كله .

مقلداته

قال ابن سلام : وكان الفرزدق أكثرهم بيتاً مقلَّداً . والمقلَّد البيت المستغني بنفسه ، المشهور الذي يضرب به المثل . فمن ذلك قوله :

وكُنَّا إذا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ، ضربناهُ حتى تَسْتَقِيمَ الأخادِعُ[1]

وقوله :

ترى كلَّ مظلومٍ إلينا فِرارُهُ ، ويَهْرُبُ مِنّا جُهْدَهُ كلُّ ظالمِ

وقوله :

والشَّيْبُ يَنْهَضُ في الشبابِ كأنه ليلٌ يَصيحُ بجانِبَيْهِ نهارُ[2]

وله غير ذلك كثير . ولعل مقلداته هي التي جعلت الادباء الاقدمين يشبهونه بزهير بن ابي سُلمى .

قصاره وابتداءاته

وكان الفرزدق يكثر من القصائد القصيرة ويفضلها على الطويلة ، فسئل يوماً : «ما بال قصارك اكثر من طوالك ؟» فقال : «لاني رأيتها اثبتَ في الصدور ، وفي المحافل أجول .» وغلبت الجودة على قصاره ولم تخلُ طواله من الجميل الرائع .

ومما يجدر ذكره ان الفرزدق كان لا يُعنى كثيراً باختيار مطالعه ، فليس له ابتداءات تُذكر كما لغيره . وأكثر ابتداءاته خالية من التصريع[3].

---

١ صعّر خدّه : لواه تجبراً . الاخادع : جمع الاخدع ، وهما اخدعان : عرقان في صفحتي العنق . يقول : نضربه حتى تستقيم اخادعه ويذهب صعره وكبره .

٢ ينهض في الشباب : اي يقوم فيه . كأنه : اي كأن الشباب .

٣ التصريع : ان يكون لعروض البيت قافية كضربه .

فكأنه كان يميـل الى التملص من قيود طالما رسف بها الشعراء في ايامـه ، وقبله وبعـده . وكثيراً ما تناول موضوعـــه مدحاً او هجاء دون ان يوطّئه بالغزل .

منزلته

عدّه ابن سلاّم في الطبقة الاولى من الاسلاميين وقدّمه في الذكر على جرير والاخطل . وقال : «كان يونس يقدّم الفرزدق بغير افراط ، وكان المفضّل يقدمه تقدمة شديدة .» وقال جرير : «الفرزدق نبعة الشعر[1] .» وقال ابو عبيدة : «كان الفرزدق يشبّه من شعراء الجاهلية بزهير .» وقال ايضاً : «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب .» وقال ابو الفرج الأصفهاني : «والفرزدق مقدّم على الشعراء الاسلاميين هو وجرير والاخطل، ومحله في الشعر اكبر من ان يُنبّه عليه بقول ، أو يُدلّ على مكانه بوصف. أما من كان يميل الى جزالة الشعر وفخامتـه وشدة اسره فيقدم الفرزدق ، واما من كان يميـل الى اشعار المطبوعين والى الكلام السمح السهل الغزل فيقدّم جريراً .» وقال الفرزدق : «قد علم الناس اني افحل الشعراء وربما اتت عليّ الساعـة وقلع ضرس من أضراسي اهون عليّ من قول بيت .» وقال مالـك بن الاخطل : «جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر .»

وهذا الحكم يصف لنا ادقّ وصف صلابة شعر الفرزدق وخشونة ألفاظه. وفي كلام الفرزدق على نفسه ما يعلمنا ان الشعر كان يعصيه أحياناً فما ينقاد

---

[1] النبعة : شجرة من اجود الشجر واصلبه .

له الا بعد نصَب . واجهاد النفس في قرض الشعر يحتاج الى النحت ، والشعر المنحوت يكثر فيه التكلف اللفظي ويقل الطبع . وقد افرط الفرزدق في استعمال الوحشي من الكلام حتى قال فيه ابو عبيدة : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب . » وحفظ لنا شعره كثيراً من ايام العرب وعاداتهم واخلاقهم ، فقلما تقرأ له نقيضة الا وجدتها حافلة بطائفة من الاخبار .

ومنزلة الفرزدق قائمة على نقائضه ، فان مهاجاته لجرير جعلت الناس في صدر الاسلام ينقسمون حزبين : حزباً فرزدقياً وآخر جريرياً ، وكان كل واحد منهما يتعصب لشاعره ويفضله على قرنه ، حتى بلغ من احد الفرزدقيين انه عقد جائزة قيمتها ٤٠٠٠ درهم ، وفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير .

ومجمل القول ان الفرزدق لم يبلغ شأو الاخطل في المدح ، غير انه اناف عليه وعلى جرير بالفخر ، وتبت لجرير في الهجاء . ولكنه تضاءل عنه بالغزل والرثاء لتصلب عاطفته . وفضله على الشعر لا يقل عن فضل صاحبيه .

•

جرير*

٧٣٢ م. و١١٤ هـ. (؟)

حياته : من تميم . اسرته دون اسرة الفرزدق . صفاته وتدينه . اتصاله بالامويين . جرير وخصومه . مات باليمامة . اربت سنه على الثمانين .

آثاره : ديوان في جزئين . نقائض جرير والفرزدق في مجلدين . نقائض جرير والأخطل. من اصحاب المُلحمات .

ميزته : هو والاخطل والفرزدق يتنازعون امارة الشعر . كان اطبعهم شعراً . احسنهم في الغزل والرثاء . شغله الهجاء . هجاؤه بؤرة فجور وفساد كشعر الفرزدق . اسلوبه يختلف عن اسلوب الفرزدق . يتتبع مثالب عدوه ، واذا اعيته اخترعها . هجوه الاخطل : يتناول تغلب حتى ربيعة ابن نزار ، ويفضح اعراضهم . يعنى كثيراً بالافتخار عليه بدينه . يعيره النصرانية ، وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير . هجوه الراعي : ابلغ قصيدة تظهر لنا ميزة جرير في الفخر ، وغير الفخر كالرقة والرنة الموسيقية . مدحه : الاعتذار الى بني امية واسترضاؤهم . تعريضه بآل الزبير . غزله : رقيق العاطفة لطيف المعاني . يخلط الفن القديم بالجديد. يتغزل غزلاً صادقاً لا تكلف فيه . رثاؤه : رقيق شجي. رثاؤه لامرأته. منزلته : احد رجال الطبقة الاولى في الاسلام . لينه واضطراب شعره في بعض القصائد الطويلة . دون الاخطل في المدح والوصف . دون الفرزدق بالفخر . كاد يبذهما بالهجاء . فاقهما بالغزل والرثاء . اجمعهم لأبواب الشعر .

حياته

هو جَرير بن عَطيّة بن الخَطَفى ، والخَطَفى لقب جده حُذَيفة بن

---

* الجرير : الحبل الذي يُجرّ به . زعموا ان أمه رأت في نومها وهي حامل به كأنها ولدت حبلاً من شعر اسود فجعل ينزو فيقع في عنق هذا فيخنقه حتى فعل ذلك برجال كثيرين ، فانتبهت مرعوبة فقيل لها : تلدين غلاماً شاعراً ذا شر وبلاء على الناس ، فلما وُلد سمته جريراً.

بذر من كليب بن يربوع ثم من تميم . وأمه حقة بنت معيد الكلبية . وكان يكنى أبا حزرة وحزرة ولده ؛ وله غيره سبعة ذكور وابنتان .

نشأ جرير في بادية اليمامة في اسرة دون اسرة الفرزدق جاهاً وثروةً وشرفاً. وكان أبوه مضعوفاً لا يقاس بأبي الفرزدق في الشهرة والجود وعلو القدر . وقد نستطيع ان نعرف مكانة والده من حديث لبلال بن جرير قال : «قال رجل لوالدي : «من أشعر الناس ؟» قال : «قم حتى اعرفك الجواب .» فأخذه بيده وجاء به الى ابيه عطيّة ، وقد اخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمصّ ضرعها ، فصاح به : «يا أبتِ !» فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته . فقال أبي للرجل : «أترى هذا ؟» قال : «نعم .» قال : «أفتدري لمَ كان يشرب من ضرع العنز ؟» قال : «لا .» قال : «مخافة ان يُسمعَ صوتُ الحلب فيُطلبَ منه لبن .» ثم قال : «أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الاب ثمانين شاعراً وقارعهم به وغلبهم جميعاً .»

على ان جريراً لم يكن برّاً بأبيه ، فالرواة يحدثوننا بانه كان أعق الناس له . وتأثره بلال فعقّه فلم ينكر جريرٌ ذلك عليه . وشتمه مرة فقالت له أمه : «يا عدوّ الله أتقول هذا لأبيك !» فقال جرير : «دعيه ، فوالله لكأني به سمعها وأنا أقولها لأبي .» فيتبين لنا ان نشأة جرير تختلف عن نشأة الفرزدق والأخطل ، فقد كان عيشه لا يخلو من شظف وبؤس وشقاء . ويحدّثنا ابن سلام ان جريراً اشترى جارية من رجل من اهل اليمامة يقال له زيد ، ويعرف بابن النجّار ، ففركته[1] وكرهت خشونة عيشه فقال :

---

[1] فرِكَت المرأة زوجها : ابغضته فهي فارك .

تُكَلِّفُني مَعيشةَ آلِ زيدٍ ، ومَنْ لي بالمُرَقَّقِ والصِّنابِ ؟[1]

فقال الفرزدق :

لئِنْ فرِكَتْكَ عِلْجَةُ آلِ زيدٍ ، وأعْوَزَكَ المُرَقَّقُ والصِّنابُ ،[2]

لَقِدْماً كان عيشُ أبيكَ جَدْباً ، يَعيشُ بما تَعيشُ به الكِلابُ[3]

ولكن هذا الرجل الوضيع الحسب ، الخشن العيش ، الخامل الأبوين ، أعطي شاعرية بوأته أعلى مرتبة في الأدب العربي . وقد نظم الشعر صغيراً كما نظمه الاخطل والفرزدق .

صفاته وتدينه

كان جرير متعففاً لا يتعهر ، ولا يشرب الخمر ، ولا يشهد مجالس القيان . وكان شديد التعصب للاسلام ، كثير التظاهر بالدين ، وتجد اثر ذلك بادياً على شعره . فأخلاقه من هذا القبيل تختلف كل الاختلاف عن اخلاق الفرزدق . وكان أنِفاً يأبى الضيم ، ولا يغمض على القذى ، حادّ اللهجة ذا مُشارّة[4] ومُهارّة[5] . لا يحجم عن مقارعة خصومه ومهاجاتهم مهما كثر عددهم عليه . وكان اذا تكلم يخِنُّ في كلامه[6] .

---

١ المُرقَّق : الخبز الرقيق . الصِّناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب . والصباغ : جمع الصِّبغ وهو ما يُصطبغ به في الطعام أي ما يؤتدم به من الأدام ، لأن الخبز يغمس ويلوَّن به ، كالخل والزيت .

٢ العِلجة : الضخمة الغليظة والكافرة .

٣ جَدْباً : ماحلاً .

٤ المشارّة : المخاصمة .

٥ المُهارّة : من هارّه اي هرّ في وجهه كما يهِرُّ الكلب ، والمراد بذلك انه كان يحب النزاع والخصام .

٦ يخِن في كلامه : يخرج صوته من خياشيمه .

اتصاله بالامويين

كان جرير حدَّثاً لما وفد الى يزيد بن معاوية وهو خليفة في الشام . فلم يؤذن له بالدخول وجاء الجواب : ان امير المؤمنين يقول : « لا يصل الينا شاعر لا نعرفه ولا نسمع بشيء من شعره . » فقال جرير : « قولوا له : أنا القائل :

وإني لَعَفُّ الفقرِ ، مُشْتَرَكُ الغِنى ، سريعٌ ، إذا لم أرضَ داري ، انتِقاليا[1] »

وكان يزيد في خلافة ابيه قد انتحل بضعة أبيات من قصيدة لجرير وعاتب بها اباه في غرض له ، فاعتقد معاوية ان الابيات لابنه . فلما انشد يزيد البيت أذن لجرير فدخل عليه ، فاستنشده القصيدة فأنشده ، فقال يزيد : « لقد فارق أبي الدنيا وما يحسب الا اني قائلها . » وأمر له بجائزة .

وهذه القصيدة قالها جرير في صباه يعاتب بها جده الخطفى ، وكان ذا ابل ومال ، فلما وُلد جرير لعطيَّة اخذ ينحله[2] من ابله وماله . فوُلد للخطفى صبيَّة فرجع في ما كان نحل جريراً ، فعاتبه جرير بأبيات رقيقة .

ولكن جريراً لم يُعرف في بلاط الامويين الا بعد ان طارت شهرته في خلافة عبد الملك بن مروان . وكان اتصاله اولاً بالحجاج بن يوسف ، وهو على العراقين ، فمدحه ونال جوائزه ، فأوفده الحجّاج في صحبة ابنه محمد الى عبد الملك . وكان لا يسمع لشعراء مضر ، ولا يأذن لهم لانهم كانوا زُبيريةً . فلما دخل عليه جرير بعد لأي ، قال له عبد الملك : « ماذا عسى ان تقول فينا بعد قولك بالحجاج عاملنا :

---

[1] عف الفقر : اي يعف عن المسألة اذا افتقر . مشترك الغنى : اي يشارك بماله غيره اذا اغتنى . ثم يقول : واذا ضاقت عليَّ داري اسرعت في الانتقال الى سواها .

[2] نحَلَه : اعطاه شيئاً من غير عوض .

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفاقِ عليكُمُ ،   أو مَنْ يَصُولُ كصولةِ الحَجّاجِ ![1]

ان الله لم ينصرنا بالحجاج وانما نصر دينه وخليفته !» وظهر الغضبُ في وجه عبد الملك، فتوسّط ابن الحجّاج في الرضى، فاستأذن جرير في الانشاد وانشد كلمته التي يقول فيها :

أَلَسْتُمْ خيرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا ،   وأندى العالَمِينَ بُطونَ راحِ ![2]

فتبسم عبد الملك وقال : « كذلك نحن . » وأمر له بمائة من الابل وثمانية اعبد لرعايتها . وكان بين يديه صحاف من فضة ، فقال جرير : « والمِحلَب يا امير المؤمنين ؟ » فنبذ اليه بواحدة منهنّ ، فلذلك يقول جرير في قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك :

أَعْطَوا هُنَيدةَ يَحْدُوها ثمانيَةٌ ،   ما في عَطائِهِمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ[3]

وصار يفد الى عبد الملك من ذلك الحين ويأخذ الجوائز ، وكانت جائزته اربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة . ومدح جرير من تولى بعد عبد الملك من الخلفاء فأجازوه ، غير انه لم يحظ حظوة الاخطل عندهم.

---

١ المطّلع : المأتى . يقال : ما لهــذا الأمر مطّلع، اي مأتى . وقوله : مَن سدّ مطّلع النفاق عليكمُ ، يخاطب اهل العراق مشيراً الى قول الحجاج في خطبته الشهيرة : « يا أهل العراق ! ومعدن الشر والنفاق . » النفاق : ستر الكفر والتظاهر بالايمان .

٢ المطايا : جمع المطية وهي الركوبة . أندى : اسخى . الراح : جمع الراحة وهي الكف .

٣ هُنيدة : اسم للمائة من الابل ، لم يصرفها باعتبار كونها علماً مؤنثاً . وقوله : يحدوها ثمانية ، أي يسوقها ثمانية رعاة . مَنّ : تكدير العطية بذكرها ، فكأن المعطي يعيّر بهــا من اعطاه ليكسر قلبه . سرَف : اغفال وخطأ . اي لا يخطئون في العطاء بأن يعطوه من لا يستحق ويحرموه المستحق .

لم يتصدَّ لشاعر في الجاهلية ولا في الاسلام خصوم يقارعونه مثل ما تصدّى لجرير ، فقد قال الاصمعي عنه: « كان ينهشه ثلاثة واربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحداً واحداً، وثبت له الفرزدق والاخطل.» وسواء صحَّ هذا العدد كله او بعضه ، فانه كافٍ للدلالة على ان شاعرنا كان محسَّداً ، وان شعراء عصره كانوا يتحرشون به إما طلباً للشهرة او تشفياً للغض من شأنه . فنحن نرى طائفة من الاسماء التي هاجى جريرٌ اصحابها وخذلهم قد بقيت خالدة باسم جرير ، ولو لم يلتفت لِفْتَهَا لاندثرت ولم يُسمع لها خبر . واذا استثنينا الاخطل والفرزدق وراعي الابل[1] نجد ان سائر الشعراء الذين هاجاهم مدينون له بالخلود . فمن هو غسّان السَّليطي؟ ومن هو البَعيثُ واشباههما ليقفوا في وجه جرير؟ ولكنهم ارادوا الشهرة فتعرضوا له ، فردَّ عليهم ، فجعل لهم ذكراً .

واكثر الشعراء الذين هاجوا جريراً كانوا هم البادئين بمعاداته، فقد حدَّث جرير عن نفسهِ قال : « لما دخلتُ على الحجّاج قال : « إيهٍ[2] يا عدوَّ الله علامَ تشتم الناس وتظلمهم ؟ » قلت : « جعلني الله فداء الامير ، والله اني ما اظلمهم ولكنهم يظلمونني فأنتصر . ما لي ولابن أم غسّان ، وما لي وللبعيث ، وما لي وللفرزدق ، وما لي وللاخطل ، وما لي وللتَّيْم » حتى

---

١ هو عُبَيد بن الحُصين النُّمَيري اي الملقب براعي الابل من فحول الشعراء ، عده ابن سلاّم في الطبقة الاولى بعد الفرزدق وجرير والاخطل ، وجعله ابو زيد القرشي من اصحاب الملحمات وملحمته مثبتة في الجمهرة .

٢ ايهٍ بالتنوين : اسم فعل بمعنى حدّثنا . وايهِ بالبناء على الكسر : اسم فعل بمعنى زدني من الحديث المعهود بيننا .

عدهم واحداً واحداً وذكر كيف كان اعتداؤهم عليه . وقد علمت في كلامنا على الفرزدق ان جريراً هجا غسّان السليطي، ولكنه لم يكن البادىء بالهجاء ، فان غسّان هو الذي تعرّض له وهو من قومه ، فهجاه وهجا عشيرته ؛ فردّ عليه جرير فأخزاه . فانتصر له البعيث وهو من مجاشع قوم الفرزدق ، فألحقه جرير بابن أم غسان وفضح مجاشعاً . فلم يجد الفرزدق بدّاً من الدفاع عن قومه ، فاصطلى معمعان الهجاء فأحمى وطيسه .

وشاق الاخطل وقعُ الالسنة حداداً فبعث ابنه مالكاً يكتشف عن الخبر . فانحدر الى العراق، ثم عاد اليه بحكمه: « جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر . » فقضى الاخطل لجرير ونعى الفرزدق . ولكن بني مجاشع تداركوه واكرموه واستعانوه على خصمهم . ولم يشأ جرير ان يقول له كلمة خير بعد ان فضّله على الفرزدق، فغيّر ابو مالك رأيه وتحرش بجرير فزادت النار به اشتعالاً .

وكان عُبَيْد الراعي بغنى عن مهاجاة جرير ، ولكنه احبّ ان يَصْلى بناره فأحرقته ، ولم يستطع الثبوت له كما ثبت الفرزدق والاخطل، فخزي واخزى قومه بني نُمَير . روى ابن سلاّم ان الذي هاج الهجاء بينهما ان الراعي كان يُسأل عن جرير فيقول : « الفرزدق اكرمهما واشعرهما . » فلقيه جرير وطلب اليه ألا يدخل بينهما وقال : « انا كنت اولى بعونك ، إني لأمدحكم وانه ليهجوكم . » قال : « أجل ولست لمساءتك بعائد . » ثم بلغ جريراً انه عاد في تفضيل الفرزدق عليه ، فلقيه بالبصرة ، وجرير على بغلته ، فعاتبه وقال : « زعمت انك غير داخل بيني وبين ابن عمي . » فأخذ الراعي يعتذر اليه ؛ واذا بابنه جندل قد اقبل فقال لابيه : « اني

لأراك تعتذر لابن الأتان ! والله لنفضّلن عليك ولنروينّ هجاءك عليه ، ولنهجونك من تلقاء انفسنا . » وضرب وجه بغلته، فانصرف جرير مغضباً. فقال الراعي لابنه: « اما والله ليهجوني واياك. » وكان جرير نازلاً بالبصرة على امرأة من بني كليب، فبات في عِليّة لها وهي في سفل دارها ، فقالت المرأة: « فبات ليلته لا ينام، يتردد في البيت حتى ظننت ان قد عُرِض[1]. » حتى فُتح له :

أَقِلّي اللّومَ عاذِلَ والعِتابا ، وقولي ، إنْ أصَبْتُ : لقد أصابا

ثم اصبح بالمِرْبَد[2] فقال : « يا بني تميم ، قيّدوا قيدوا[3] . » وانشدها ثمانين بيتاً ، والراعي والفرزدق يسمعان ، فلم يجبه الراعي ولم يهجه جرير بغيرها ، ولكنها كانت كافية لاخراء بني نُمير ، فصاروا ينتسبون بالبصرة الى عامر بن صعصعة ، ويتجاوزون اباهم نُميراً الى ابيه هرباً من ذكر نمير ، وفراراً مما وُسِم به من الفضيحة والوصمة . وتشاءموا بعُبَيد الراعي ، وسبوه وابنه .

قال بعضهم : « كان الراعي فحل مضر فضغمه[4] الليث. » يعني جريراً. على اننا وان قلنا ان الشعراء كانوا يتعرضون لجرير بغضةً ، او حسداً ، او رغبة في الشهرة ، فلسنا نعني ان جريراً كان يكره هذه الملاحيات او يتجنبها ، فلطالما عرّض نفسه لها وابتاعها ان لم يجد لها شارياً . فعُمَر بن

---

١ عُرِض : جُنّ .
٢ المِرْبَد : سوق في البصرة كانت مجتمعاً للشعراء في الاسلام كما كانت عكاظ في الجاهلية .
٣ قيّدوا : اي اكتبوا .
٤ ضغمه : عضّه .

لَجأ التَّيْمي لم يتحرَّش بجرير ، ولكن جريراً عاب عليه بيتاً من شعر ، فعاب عليه التيميُّ بيتاً من قصيدة له، فهجاه جرير فردَّ عليه التيمي ، فالتحم بينهما الهجاء . وما كان التيمي بمستطيع ان ينافس جريراً لو اهمله جرير ، ولكنه قارعه فشهره ، حتى ان الفرزدق أنف لجرير ان يتعلق بـه التيميُّ فهجا اخا التيم بقوله :

وما أنتَ ، إنْ قَرْما تَميمٍ تساميا، أخا التَّيْمِ، إلا كالوشيظة في العظمِ[1]

ولقي عمر بن عطية اخا جرير فقال له : « قل له : ويلك أئتِ التيميَّ من عَلُ كما اصنع بك انا . »

ويحدثنا ابن سلاّم ان رجال تيم مشت بين جرير والتيميّ ، وقالوا : « والله ما شعراؤنا الا بلاء علينا ، يثيرون مساوئنا ، ويهجون احياءنا وامواتنا . » فلم يزالوا بهما حتى اصلحوا بينهما بالعهود والمواثيق المغلّظة ، ان لا يعودا في هجاء . فكفَّ التيميّ ، وكان جرير لا يزال يسلّ الواحدة بعد الواحدة ، فيقول التيميّ : « والله ما نقضت هذه ولا سمعتها . » فيقول جرير : « هذه كانت قبل الصلح . »

فمن هـذه الرواية وغيرها نعلم مبلغ ميل جرير الى الشر والخصام ، ورغبته في ملاحاة الشعراء . وقد قال فيه الحجّاج لما سمع اخباره مع خصومه: « قاتله الله أعرابياً ! انه لجرو هراش[2] . » ولعل ابلغ وصف لجرير في مهاجاته الشعراء قول الفرزدق فيه : « قاتله الله ! ما احسن ناجيتـه[3]

---

١ القَرْم : الفحل والسيد . تساميا : تفاخرا . الوشيظة : قطعة عظم تكون زيادة في العظم الصميم . يقال : هم وشيظة في قومهم ، أي حشو فيهم .

٢ الهراش : من تهارشت الكلاب اذا تحرش بعضها على بعض وتواثبت .

٣ الناجية : الناقة السريعة تنجو بصاحبها ، واراد بها سرعة خاطره وخصب قريحته .

واشرد قافيته[1] ! والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها ، والشابة على احبابها ، ولكنهم هرّوه[2] فوجدوه عند الهراش نابحاً ، وعند الجدّ قادحاً[3] . »

وقد رأينا في درسنا الاخطل والفرزدق ان اشد الهجاء كان بينهما وبين جرير ، ولا سيما جرير والفرزدق ، فقد علمت كيف انقسم النـاس حزبين معهما ، فناصر كل حزب شاعره وفضله على الآخر ، وبلغ من اشتغال الناس بهما ان جعلوا لهما شيطاناً واحداً يلقنهما ، ولكل شاعر عند العرب شيطان يوحي اليه . ونقل الرواة لنا اخباراً كثيرة عن وحدة شيطانهمـا ، نكتفي منها بواحد نورده لا ايماناً بصحته ، ولكن لنظهر مـا كان لشعرهما من التأثير في نفوس ابناء عصرهما .

زعموا ان جريراً والفرزدق خرجا من العراق يطلبان الرُّصافة لهشام بن عبد الملك ، وقد مدحاه ، فلما كانا ببعض الطريق نزل جرير في حاجة له ؛ فتلفتت ناقة الفرزدق فضربها بالسوط وقال :

إلامَ تَلفَّتـينَ وأنتِ تَحتي ، وخَيرُ النّاسِ كلّهِمُ أمامي
متى تَردي الرُّصافة تَستريحي منَ التَّهجيرِ ، والدَّبَرِ الدَّوامي[4]

ثم قال لرواتهما : « الساعة يجيء ابن المراغة[5] ، وأنشده البيتين فينقضهما بان يقول :

---

[1] اشرد قافيته : اي اسير شعره .
[2] هرّوه : نبحوه .
[3] الجدّ : الاجتهاد في السير ، والمراد السباق . قادحاً : اي يوري زنده ، وهي كناية عن ان به خيراً عند السباق . يقال : هذا لا يورى له زند ، اي لا خير فيه .
[4] التهجير : السير في شدة الحر . الدبر : جمع الدبرة ، وهي القرحة في الدابة .
[5] ابن المراغة : لقب جرير ، لقبه به الفرزدق والاخطل ، والمراغة مكان تمرغ الدابة .

تَلَفَّتُ أنّها تحتَ ابنِ قَينٍ، حَليفِ الكيرِ والفأسِ الكَهامِ[1]،
متى تَرِدِ الرُّصافةَ تَخْزَ فيها، كَخِزيكَ في المَواسِمِ كُلَّ عامِ[2]»

فرجع جرير فوجد القوم يضحكون فقال: «ما الخبر؟» فقال احد الرواة: «يا ابا حزرة انّ اخاك ابا فراس وقع له كَيْتَ وكَيْتَ.» وانشده البيتين الاولين. فارتجل البيتين الآخرين، فتعجب القوم من ذلك الاتفاق وقالوا: «والله يا ابا حزرة لهكذا زعم انك تقول.» فقال: «أوَما علمتم ان شيطاننا واحد؟»

فالاصطناع في هذه الرواية ظاهر لا يحتاج الى دليل، واما البيتان الآخران فهما لجرير من قصيدة نقض بها قصيدة قالها الفرزدق في هشام بن عبد الملك.

موته

عُمِّر جرير حتى اربت سنُّه على الثمانين، وكانت وفاته باليمامة وفيها قبره. وقد هلك بعد ان شهد هُلك خصميه: الاخطل والفرزدق. فلما مات الاخطل هجاه بقوله:

زارَ القُبورَ أبو مالِكٍ، فكانَ كألأمِ زُوّارِها

ولما مات الفرزدق قال فيه:

ماتَ الفرَزدَقُ بعدَما جَدَّعتُهُ، ليتَ الفرَزدقَ كان عاش قليلا[3]

---

١ القين: الحدّاد وكل صانع. وكان جرير يلقب بني مجاشع بالقيون. الكير: ما ينفخ فيه الحداد. الكهام: الكليل. يقول: تتلفت ناقتك من الخوف لانها تحت ابن حداد لا يعرف غير الكير وليس بدي سيف متطمئن اليه ولكنه ذو فأس كايلة لا تقطع، جعله حدّاداً وحطاباً.

٢ الرصافة: رصافة هشام وقد مرّ ذكرها في اخبار الفرزدق. تخزَ: تفضح. المواسم: اي المواسم التي تمد بها الشعراء الى الخلفاء لمدحهم واخذ جوائزهم وكان لهم في كل سنة موسم.

٣ جَدّعته: قطعت انفه.

فقيل له : « لبئس ما قلت ، أتهجو ابن عمك بعدما مات ! لو رثيته كان احسن بك . » فقال : « والله اني لاعلم ان بقائي بعده لقليل ، وان كان نجمي موافقاً لنجمه فلأرثينه ! » ثم قال فيه :

فلا وَلدَتْ بعد الفرزدقِ حاملٌ ، ولا ذاتُ بَعلٍ مِن نِفاس أَبلَّتِ [1]

وبين وفاة الفرزدق ووفاة جرير بضعة اشهر وعدّها بعضهم ستة .

آثاره

ديوان طبع في القاهرة في جزئين اكثره في الهجاء والمدح ، و« نقائض جرير والفرزدق » طبعت في مجلدين كبيرين بلَيْدن ، و« نقائض جرير والأخطل » نشرها الاب صالحاني اليسوعي في بيروت . وهو من أصحاب الملحمات ، ومطلع ملحمته :

حيِّ الغَداةَ بِرامَةَ الأطْلالا ، رَسْماً تَحمّلَ أهلُهُ ، فأحالا [2]

ميزته

كان جرير والفرزدق والاخطل يتنازعون امارة الشعر في عصر الامويين ، ولكل واحد منهم ميزة رفعته الى الدرج الاعلى فتبوّأ من دولة الادب سدة عالية . ولكن لا بدّ لنا ان ننصف جريراً فنقول : انه كان اطبعهم شعراً ، وأخصبهم مادة ، وأبعدهم من تكلف . فكأنك به ، وهو يهاجي

---

١ النفاس : الولادة . أبلّت : شفيت .

٢ رامة : ماء لقيس على اثنتي عشرة مرحلة من البصرة آخر بلاد بني تميم. الاطلال، جمع الطلل: ما شخص من الآثار . الرسم : ما لس له شخص ، ورسماً بدل من الاطلال . أحال : اتت عليه احوال اي سنون وتحول من حال الى حال . وقوله : تحمّل اهله ، اي رحلوا . وروي : رسماً تقادم عهده ، اي قدم اللقاء به .

اربعين شاعراً ونيّفاً[1] ، بركان مشتعلٌ لا تخمد ناره ولا يبرد حميمه . فتراه يتنقل من شاعر الى شاعر غير عابىء ولا حافل ، يدعو الشعر فيجيبه ؛ ويهيب بالمعاني فتترامى على أسَلة لسانه[2] ، فيتصرف فيها كيف شاء .

ألا وان الشاعر الذي تتألب عليه جمهرة من الشعراء تنهشه نهشاً ، وهو لا يبالي ، ولا يعجز ان يرد عليهم جميعاً ، فيسلقهم واحداً بعد واحد ، دون ان تنضب قريحته او يجفّ معينها ، ان هذا الشاعر لكما قال فيه مالك بن الاخطل : « يغرف من بحر . » فجرير كان ينظم الشعر بطبعه لا يحككه كالاخطل ، ولا يدحرج ألفاظه كالفرزدق ، فغلبت عليه السهولة . والشاعر المطبوع لا يأنس بالتكلف وانما يرخي العنان لقوافيه فتنطلق إرسالاً .

وأوتي جرير من الرقة والهلهلة ما جعل لشعره علوقاً في الحافظة اكثر من شعر صاحبيه ، فسارت قصائده كل مسير في بوادي العرب وامصارها.

ورقّة جرير فضّلته على الاخطل والفرزدق بالغزل والرثاء ، ولو لم يكن همه مقارعة الشعراء الذين يهاجونه لما ترك باباً من الشعر إلا فتحه. ولكنهم « هرُّوه فوجدوه عند الهراش نابحاً. » فشغلوه عن كثير من فنون الشعر : كالوصف والقصص. ولم ينظم في الغزل الا ما كان يوطّىء به قصائد المدح والهجاء ، على أن ما نظمه كافٍ للدلالة على مهارته في هذا الفن ، وتمكنه من التأثير في النفس. فغزله اللطيف يختلف عن غزل الفرزدق الجافي ، وعن غزل الاخطل الذي هو اقرب الى الاسلوب الجاهلي منه الى الاسلوب الاسلامي .

---

١ النيّف : من الواحد الى الثلاثة ولا يستعمل الا بعد العقود .
٢ أسَلة لسانه : طرفه .

ونحن في درسنا شعر جرير ، سنحلل اولاً خاصته في الهجاء وما يتبعها من فخر ، وهي اظهر خاصة فيه ، ثم نتناول مدحه فغزله فرثاءه .

هجاؤه

قد يُخيل اليك ، وانت تقرأ ما كتبناه عن تعفف جرير وتدينه ، ان جريراً في هجائه اطهر لساناً من الفرزدق او اقل افحاشاً واقذاعاً ، في حين ان الفرزدق على تعهره يكاد لا يجاريه في حومة الخنى . وربما كان هجو جرير افحش وافجر من هجو الفرزدق ، ونقول : ربما ، لاننا نزعم ذلك في شيء من الاحتياط .

ولا تعجَب لجرير ان يقذع في كلامه ويفحش على ما عرفت من تحرّجه وصدق اسلامه ؛ فالرواة يحدثوننا بان الناس في ذلك العهد لم يكونوا يتأثمون من رواية الشعر او نظمه ، وان خبثت الفاظه . ولابن سيرين خبر يؤيد هذا القول ، تجده في طبقات الشعراء لابن سلاّم وفي العمدة لابن رشيق . ويؤيد ذلك ايضاً ما نعلم من ان طائفة من نقائض جرير والفرزدق مُدح بها الخلفاء ، وسمعوها دون ان يتحرجوا من سماعها على ما فيها من هجر في القول ، وتمزيق للاعراض . فهجو جرير بؤرة فجور وفساد كهجو الفرزدق ولكن اسلوبه يختلف عن اسلوب صاحبه . فقد عرفت ان ابا فِراس يأتي خصمه من علُ فيرفع نفسه الى الذروة العليا ، ويحط مهجوّه في الحضيض . واما ابو حَزرة فانه يتتبع مثالب عدوّه واحدة واحدة ، فيعلنها ، ويبالغ في تقبيحها ، واذا اعياه وجودها لم يعيه الاختلاق ، فهو أقدر الشعراء على اصطناع العيوب في خصومه ، فتراه ينشر عنهم اخباراً مخزية لا مصدر لها الا قريحته الجهنمية .

هجوه الفرزدق

واذا اراد جرير ان يهجو الفرزدق لقبَه بابن القَين[١]، وبنو مجاشع جميعاً قيون على زعمه ، ولا يغفل عن ذكر الكير والعلاة[٢] والقَدُوم وهنّ للقين عدة لا يستغني عنها . ويعيّره قُفَيرة أم جده صعصعة لانها بنت أمة، ويعيبه ويعيب قومه بالخزيرة[٣] وذلك ان ركباً من مجاشع مرّوا برجل من تغلب فسألهم ان ينزلوا ، فحمل اليهم خزيرة فجعلوا يأكلون وهي تسيل على لحاهم، وهم على رواحلهم . ويشهّر بجعثِن اخته راوياً عنها خبراً شائناً . ويندد ببني مجاشع زاعماً انهم خانوا الزُّبير بن العوّام حين فزع اليهم يوم الجمل فقُتل[٤] . وقلما تخلو له قصيدة في الفرزدق من ذكر القيون وجعثن والزبير .

وجرير كثير الافتخار بدينه ، شديد التعصب له ، لا يوقّر غير الاسلام. وكان له من صداقة الفرزدق والاخطل وسيلة لاتهام الفرزدق بالنصرانية وتعييره الكفر ، فيقول :

لَقد لحِقَ الفرزدقُ بالنّصارى ، ليَنصُرَهم ، وليسَ به انتصارُ

---

١ القَين : الحداد وكل صانع . كان لصعصعة جد الفرزدق قيون فلذلك جعل جرير مجاشعاً قيوناً ، وكانت العرب لا تعد اصحاب الصناعات من كرام الناس لان العربي الكريم يكسب رزقه من غزواته ومما عنده من مال ونعم .

٢ العلاة : السندان .

٣ الخزيرة والخزير : دقيق يذرّ على لبن او ماء فيطبخ ثم يؤكل بتمر .

٤ الزُّبير بن العوّام: من الصحابة وأمه صَفيّة بنت عبد المطّلب، وقد ذكرنا خبر مقتله يوم الجمل، وكان قد قاتل ساعة ثم هرب فاتبعه عمر بن جرموز بن الذيّال حتى ادركه في مكان يقال له وادي السباع فقتله واخذ سيفه وخاتمه وترسه وذلك سنة ٣٦ هجرية وعمره ٦٧ سنة.

وَيَسجُدُ للصَّليبِ مع النَّصارى ، وأفلجَ سَهمُنا ، ولنا الخِيارُ[1]

او يتهمه بالنصرانية واليهودية معاً فيقول :

خَرجْتَ من المدينةِ غيرَ عَفٍّ ، وقامَ عليكَ بالحَرَمِ الشُّهودُ[2]

تُحِبُّكَ يومَ عيدِهِمُ النَّصارى ، ويَومَ السَّبْتِ شيعتُكَ اليهودُ[3]

فإن تُرجَمْ ، فقد وجَبَتْ حُدودٌ ، وحَلَّ عليكَ ما لَقِيَتْ ثَمودُ[4]

ولا يفتأ يتتبع زلاته ليندد به ويعيره اياها ، واذا نبا سيفه شهّره واستهزأ منه ، وقد مرّ بك شيءٌ من ذلك في بحث الفرزدق . واذا طُرد من مكان لفجوره او لخبث لسانه ، اخذه بالصيحة من ورائه وراح ينعته باقبح النعوت ، ويلذعه باحرّ الشتائم . ومن ذلك قوله فيه بعد ان طُرد من المدينة :

إذا دخلَ المدينةَ فارجُموهُ ، ولا تَدنوه من جَدَثِ الرَّسولِ[5]

---

١ افلح سهمُنا : فاز . ويروى : افلح سهمَنا : فيكون المعنى افلح الله سهمَنا اي افازه . خيار الشيء : افضله . يقول : ولنا خيار الاديان او خيار العواقب لان الله افاز نصيبنا وأعطانا الاسلام ديناً .

٢ يشير الى طرده من المدينة .

٣ يقول : ان النصارى تحب الفرزدق لانه يشاركهم في اعيادهم ، وهو ايضاً يشايع اليهود ويسبت معهم .

٤ الحدود ، جمع الحدّ : وهو عند الفقهاء عقوبة مقدّرة تجب حقاً لله سميت به لانها تمنع من المعاودة . يقول : فان ترجم بالحجارة فقد وجبت عليك حدود الله . ثمود : قبيلة من العرب ومنهم قدار عاقر ناقة صالح وقد أهلكوا بالرجفة اي بالزلزال . وفي ذلك تقول الآية : « فأخَذَتْهم الرَّجْفةُ فاصبَحوا في دارِهِمْ جاثِمين . » يقول : ان امر الله اصبح حالاً عليه اي واجباً كما حلّ على ثمود .

٥ الجدَث : القبر .

هجوه الاخطل

واذا انبرى جرير لهجاء الاخطل تناول تغلب بالمخزيات حتى يصل بهم الى ربيعة بن نزار ، فما يدع يوماً عليهم الا عيّرهم اياه ، وكثيراً ما يعيرهم مقتل كليب وائل، وينفّر عليهم بني بكر، او يذكر لهم الايام التي قهرتهم فيها قيس عيلان ، ثم ينفّر عليهم قيس عيلان ، ويدافع عنها ناقضاً ما قال الاخطل في هجائها .

وأشد ما يُعنى به جرير في هجو الأخطـــل وقبيلته تعييرهم النصرانية والافتخار عليهم باسلامه ، فهم الخنانيص، وهم الادلاء الذين يؤدون الجزية، ويشربون الخمر ، ويأكلون لحم الخنزير . ويمعن احياناً في ذكر الصليب والقديسين والقسيسين مُعرّضاً ومصرحاً . وأكثر ما يدعو الاخطل بصيغة التصغير ، او يلقبه بدَوبل او بذي الصليب .

ولا تخلو قصيدة لجرير في الاخطل من الطعن على ديانته ، والدفاع عن قيس عيلان وتنفيرهم على تغلب .

فخره

وجرير شديد الافتخار ببني تميم ، يباهي بهم الشعراء ، ويعدد ايامهم مزهوّاً بمفاخرهم ، وما اكثر ما لتميم من المفاخر ، وهي من اكرم القبائل واكثرها حصى . واذا هاجى الفرزدقَ ، وهو مثله من تميم ، افتخر عليه بقومه بني كليب بن يربوع ، وذكر ايامهم ، وعيّره الايام التي خُذلت فيها بنو دارم ، والايام التي خُذلت فيها بنو ضبّة اخواله ، ولكنه يقصر عنه فما يستطيع ان يجاريه في هذا الميدان .

على اننا اذا اردنا ان نتبين الخاصة التي يمتاز بها جرير في الفخر ، فاننا

نجدها في استخفافه بالشعراء المتألبين عليه فتراه يردد اسماءهم مباهياً بقهره اياهم ، وهو لا يهجو شاعراً الا نعى اليه نفسه ، وجعله مغلّباً مشدوداً في حبل واحد مع سائر الشعراء الذين هاجاهم .

مدحه

علمنا ان عبد الملك بن مروان كان لا يأذن لشعراء مضر لانهم زبيرية ، وعلمنا ايضاً ان جريراً لم يتصل ببني أمية الا بشفاعة الحجّاج ، فهو اذن لم يكن بجاهل سخط الأمويين عليه وعلى قومه فتراه يلح في الاعتذار كلما انشأ يمدح امراء أمية ، ولا يحجم عن التعريض بعبد الله بن الزبير واخيه مُصعب ، وانكار حق عبد الله في الخلافة مع انه في هجو الفرزدق والاخطل يؤيد قيس عيلان ويدافع عنها ؛ وقيس عيلان كانت في حروبها تناصر ابناء الزبير . فيتبين لنا من ذلك ان لجرير خطتين متباينتين : احداهما ترمي الى الدفاع عن القيسية وتنفيرها على اعدائها ، والرد على الشعراء الذين يهجونها ، ويطعنون في اعراضها ، فهو من هـذا النحو شاعر ذو سياسة قبلية لا يستطيع الا اظهارها . والأخرى ترمي الى التكسب والانتفاع ، وما من سبيل اليهما الا في الاتصال بالامويين والتملق لهم ، اذ لم يكن للشعراء منهل أغزر من منهلهم ، ولا ماء اعـذب من مائهم ، وخصوصاً بعدما انهارت خلافة ابن الزبير واصبح شعراء مضر لا يرتجون نجعة الا في بني أمية .

وحسبك ان تقرأ شيئاً من مدح جرير لهم لتعلم اسلوبه في استرضائهم ، والاعتذار اليهم . وترى ان مدحه لهم ديني اكثر مما هو دنيوي حتى ليكاد يشغلهم بالآخرة عن الاولى ، والعاطفة الدينية شديدة الظهور في شعر جرير .

غزله

وقد يعجبك ان تسمع هذا الشاعر يتعفف بغزله بعدما سمعته يهتك الاعراض بهجوه . وجرير على شدة فحشه في الهجاء لا ينطق في نسيبه الا باطهر من ماء الغمام . وهو اول غزلٍ طرد الحبيب الزائر ليلاً خوفاً من الريبة ، فقال :

طرَقتكَ صائِدَةُ القُلوبِ ، وليس ذا وَقتَ الزّيارةِ ، فارجِعي بسَلامِ ! [1]

وهو في غزله رقيق العاطفة ، لطيف المعاني ، لين الالفاظ ، يخلط الفن القديم بالجديد ، فيجيد كل الاجادة ، حتى لتحسبه احد اولئك المتيّمين الذين نشأوا في البادية واشتهروا بغزلهم العفيف . على حين انه لم يكن في عداد المتيمين ، ولكنه أوتي من الرقة وبراعة الفن ما جعل لشعره ميزة في الغزل فاق بها صاحبيه .

وإنا ، وان قلنا ان جريراً لم يكن في عداد المتيمين ، لنأبى ان نجاري بعض الرواة في زعمهم انه لم يعشق ، فمثل هذا الغزل الناعم ، لا يصح صدوره الا عن قلب متأثر ملتاع . ونجد في رثائه لامرأته انه كان يهواها ويتألم لفراقها . أجل إن صاحبنا لم يَهِم على وجهه كجميل بثينة وقيس بن ذَريح ، ولم يتهتك كابن ابي ربيعة والعَرجي ، ولكنه احب حبّاً صادقاً ، وتغزل غزلاً صادقاً لا تكلف فيه . فأحبِبْ به متغزلاً حين يقول :

إنّ الذينَ غَدَوا بلُبّكَ ، غادَروا وَشَلًا بعينِكَ ما يَزالُ مَعينا ، [2]

---

[1] طرقتك : زارتك ليلاً . وقوله : وليس ذا وقتَ ، اي وليس ذا الوقتُ وقت الزيارة .

[2] غدوا بلبك : اي ذهبوا بعقلك يوم رحيلهم . عادروا : تركوا . وشلاً : ماءً والمراد به الدمع . معيناً : جارياً . وقوله : غدوا ، بصيغة المذكر ، أي اهل الحبيبة ذهبوا بها فذهبوا بعقله معها .

غَيَّضنَ مِنْ عَبَراتِهِنَّ ، وقُلنَ لي : « ماذا لقِيتَ مِنَ الهوى ولقينا ؟[1] »

فهل رأيت ما في عجز البيت الثاني من لوعة لم تستطع صاحبته الافصاح عنها ، فاكتفت باستفهام حائر ملؤه يأس وتحسر وتأنيب : « ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا ؟ »

فغزل جرير عاطفي رقيق في اكثره ، روحاني متعفف ، مع ما فيه من وصف مادي احياناً . يريك من الشاعر صورة جديدة لطيفة تحجب عنك تلك الصورة الرهيبة التي طبعها هجاؤه في نفسك ، فتحسب انك امام بدوي رقيق الشعور عفيف النفس ، لا امام اعرابي فاجر يهتك الحرمات وينهش الاعراض .

رثاؤه

وجرير في رثائه مثله في غزله ، يذوب رقة وعاطفة اذا كان الميت من اهله ، فترى على شعره مسحة من الكآبة والحزن تترك في نفسك اثراً بليغاً ، فيخيل اليك ان القوافي تُسعد الشاعر على بكائه .

وهو يرى المرأة بغير العين التي يراها بها الفرزدق ، فما يحسبها أهون فقيد على الرجل ، ولا يأنف من التولّه على زوجه بعد موتها . وقد تحدثه نفسه بزيارة قبرها فيمسكه الحياء ؛ ولا تعجب لحيائه ، فالبكاء على قبور النساء غير مألوف عندهم ، فيرتد عن قصده وهو يقول :

لولا الحَياءُ لَعادَني استِعبارُ ، وَلَزُرتُ قبرَكِ ، والحَبيبُ يُزارُ[2]

---

[1] غيّضنَ : حبسنَ . عبراتهن : دموعهن . وقوله : غيّضن ، انتقال الى الحبيبة بعد الكلام على اهلها ، وصيغة الجمع هنا يراد بها المفرد .

[2] عادني : انتابني ثانياً . استعبار : بكاء وحزن .

منزلته

هو أحد الثلاثة المقدمين في الاسلام . ذكره ابن سلاّم بعد الفرزدق وقبل الأخطل . وسُئل عنه الأخطل فقال : « دعوه اخزاه الله ! فانه كان بلاءً على من صَبَّ عليه . » وقال مالك بن الأخطل : « جرير يغرف من بحر . » وقال الفرزدق : « أنا واياه لنغترف من بحر واحد ، وتضطرب دلاؤه عند طول النهر . » وقال بعضهم : « بيوت الشعر اربعة : فخر ، ومديح ، ونسيب ، وهجاء ، وفي كلها غلب جرير . في الفخر قوله : « اذا غضبت عليك بنو تميم . » وفي المدح قوله : « ألستم خير من ركب المطايا . » وفي الهجاء قوله : « فغض الطرف انك من نُمير . » وفي النسيب قوله : « ان العيون التي في طرفها حوَر . » قال ابن سلاّم : « والى هذا يذهب اهل البادية . » وسأل عِكْرِمَةُ بن جرير اباه عن نفسه فقال : « دعني فاني نحرت الشعر نحراً . » وحدّث ابن سلام عن يونس : « ان الفرزدق كان يتضوّر[1] ويجزع اذا انشد لجرير ، وكان جرير اصبرهما . » وسُئل نُصَيب الشاعر عن أشعر الناس فقال : « أخو بني تميم . » يعني جريراً . وكان أبو عمرو يشبّه جريراً بالأعشى. وقال الاخطل للفرزدق : « انك واياي لأشعر من جرير ولكنه أوتي من سَير الشعر ما لم نؤته . » وسمع راعي الابل انساناً يتغنى بشعر جرير فقال : « لعنة الله على من يلومني ان يغلبني مثل هذا . » وحكم بين الثلاثة مَرْوان بن أبي حَفْصة[2] فقال :

ذهَبَ الفَرزدقُ بالفَخارِ ، وإنما حُلْوُ الكَلامِ ومُرُّهُ لجريرِ

---

١ تضوّر : تلوّى من وجع الضرب او الجوع .

٢ مروان بن ابي حفصة : من شعراء العصر العباسي الاول .

ولقد هجَا فأمَضَّ أخطلُ تغلبٍ ،   وحَوى اللُّهَى بمديحِهِ المشهُورِ[1]

فقد حكم للفرزدق بالفخار ، وللاخطل بالمدح والهجاء ، وبجميع فنون الشعر لجرير . وقال بعضهم : « كان جرير ميدان الشعر من لم يجرِ فيه لم يروِ شيئاً . وكان من هاجى جريراً فغلبه جريرٌ ارجح عندهم ممن هاجى شاعراً آخر فَغَلب . » وهجا بشّار جريراً وكان حدثاً فاستصغره جرير فلم يجبه ، فقال بشّار : « لم اهجه لاغلبه ولكن ليجيبني فأكون من طبقته ، ولو هجاني لكنت اشعر الناس . »

فمن كلام بشّار نعلم كيف كان الشعراء يتحرشون بجرير طمعاً في الشهرة لا طمعاً في التغلب عليه ، ولا سيما ان مغلّب جرير ارجح عندهم من مغلّب سواه . وفي حكم ابن ابي حفصة ما يؤيد زعمنا من أنّ جريراً اقدرهم على التصرف في جميع فنون الشعر ، وهو بشهادة الاخطل اسيرهم شعراً . ونُرى ان تشبيهه بالاعشى يتناول سيرورة شعره من ناحية ، ثم رقته وطبعه من ناحية أخرى . ولا ينبغي أن ننسى ان كلا الشاعرين هجّاء مدّاح ، وان كليهما من اليمامة ، ولعل السهولة والانسجام من خصائص الشعر اليامي ، فان في نعومة لغة جرير ووضوح معانيه وسلاسة قوافيه ما يذكرنا بالشاعر الجاهلي ، بالاعشى الاكبر . ولكن رقة جرير قد تنحدر به الى اللين في بعض قصائده الطويلة فتضطرب قوافيه ويسف شعره . وهذا ما نستطيع ان نفسر به قول الفرزدق : « وتضطرب دلاؤه عند طول النهر . » على ان ذلك لا يضير شاعريته وله من بدائع الشعر ما يرفعه الى اعلى ذروة في الادب . ويمكننا

---

١ اللُّهى : جمع اللهوة وهي افضل العطايا .

ان نعزو هـذا الاضطراب او اللين الى الاكثار من النظم ، فقـد كان مضطراً اليه ليرد على خصومه . هذا وان رقة الشعر نفسها لا تخلو احياناً من لين واسفاف .

وبعد ، فان الشاعر الذي يُهاجي اربعين شاعراً ونيّفـــاً ، ويرمي بهم واحداً واحداً، ولا ينكص عن مقارعة قرمين كالاخطل والفرزدق تضافرا عليه وهما لا يقلان شاعرية عنه ، ان هذا الشاعر لأخصب الشعراء قريحة ، واقدرهم على الاختراع ، والتلاعب بالمعاني ، وابعـدهم من تكلف . وهو وان يكن قصر عن الاخطل في المدح والوصف، وعن الفرزدق في الفخر ، فقد كاد يبذهما في الهجاء ، وفاقهما بالغزل والرثاء ، وانه لأجمعهم لابواب الشعر بلا مراء .

•

النثر الاسلامي

القرآن

نزوله وكتابته : نزل منجماً سوراً وآيات في مكة والمدينة . كتبه الصحابة في سعف النخل ورقاع الجلود والعظام والحجارة المسطحة . حروب الردة . مقتل حفظة القرآن . أمر ابو بكر بجمعه وحفظه عنده . اختلافهم في قراءته على عهد عثمان . كتابته واحراق النسخ الباقية .

اقسامه : السوَر المكية عددها ٩٣ . السوَر المدنية عددها ٢٢ . رتبت باعتبار الطول والقصر ، الا سورة الفاتحة . قسمته ٣٠ جزءاً .

اغراضه : يخاطب في السور المكية شعباً غير مؤمن فيدعوه الى عبادة الله ويبين له فساد عبادة الأصنام . ويخاطب في السور المدنية جماعة مؤمنة تجهل طرق عبادتها ونظمها ، فيعلمها ويسن لها الشرائع .

انشاؤه : مثال اعلى للبلاغــة . يوافق اغراضه في الشدة واللين . رنته : مقاطعه القصيرة ومقاطعه الطويلة . سجعه وموازنته .

تأثيره : هذب اللغة . وحّد لهجاتها . نشرها . تأثيره في الشعر والنثر . لاجله وضع علم النحو وعلم المعاني ، وجمعت اشعار العرب . دفاعه عن العربية في غارات التتر والاتراك ، وحفظه فصاحتها مع انتشار اللهجات العامية .

نزوله وكتابته

القرآن كتاب الوحي الذي أنزل على النبي محمد . وكان نزوله حسب مقتضى الحال ، منجّماً[1] سُوَراً سوراً ، وآيات آيات . وقد ظلّ ينزل عليه من نحو سنة ٦١٢م. الى سنة ٦٣٢ م. منها عشر سنوات في المدينة .

---

١ منجّماً : مقسّطاً ينزل نجوماً اي وقتاً بعد وقت .

وأول ما أُوحي الى النبي في غار حِراء: «إقرأ بإسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ. خَلَقَ الانسانَ مِنْ عَلَقٍ . إقرأ وربُّكَ الأكرَمُ . الذي عَلَّمَ بالقَلَم . عَلَّمَ الانسانَ ما لم يَعْلَمْ[1] . » وآخر ما أُوحي اليه : «اليَومَ أكْمَلْتُ لكُمْ دِينَكُمْ وأتْمَمْتُ عليكُمْ نِعْمَتي ورضِيتُ لكُمُ الاسلامَ دِيناً . »

وكان كلما نزل شيء منه تلاه النبيُّ على من حضر من صحابته فيحفظه بعضهم ، ويكتبه بعضهم الآخر في سَعَف النخل ، أو في رقاع من الجلود ، أو في عظام مسطحة ، أو حجارة رقيقة .

ولما مات النبيُّ واستعرت الحرب بين المسلمين والمرتدّين ، قُتل كثير من حَفَظة القرآن ، فخاف عمر بن الخطّاب عليه من الضياع ، فأشار على أبي بكر بجمع الرقاع المكتوبة ، وكتابة ما حُفظ في صدور الرجال ولم يُكتَب في الرقاع . فعهد أبو بكر في دلك الى زيد بن ثابت احد كتبة الوحي ، فجمع الآيات المكتوبة ، وكتب الآيات المحفوظة في صدور الرجال ، وسلمها الى أبي بكر فحفظها في بيته . فلما توفي حُفظت في بيت عمر ، فلما توفي حُفظت في بيت حَفْصة زوج النبي وبنت عمر .

وفي خلافة عثمان انتشر حَفَظة القرآن في حواضر البلاد المفتوحة ، وعند بعضهم نسخ رتبها كل واحد على هواه . فاختلفوا في قراءة بعض آياته ،

---

[1] « العَلَق » : جمع العلقة وهي القطعـة اليسيرة من الدم الغليظ . « وربك الاكرم » : الذي لا يوازيه كريم ، حال من ضمير اقرأ . « الدي علّم بالقلم » : اي علّم الخط بالقلم . « علّم الانسان ما لم يعلم » : اي قبل تعليمه من الهدى والكتابة والصناعة وغيرها .
(تفسير الجلالين)

فبلغ ذلك عثمان ، فتلافى الأمر وجاء بالرقاع المحفوظة عند حفصة ، وعهد الى زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحرث بن هشام في نسخها ، وقال لهم : « اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فانما أُنزل بلسانهم . » ففعلوا ذلك ، وكتبوا اربعة مصاحف ، ارسلها عثمان الى مكة والبصرة والكوفة والشام ، واثنين ابقاهما في المدينة : واحداً لأهلها وواحداً لنفسه . ثم أمر باحراق ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف ، فأحرقت جميعاً الا بعض نسخ ذكر منها صاحبُ الفِهْرست مصحف عليّ ، ومصحف عبد الله بن مسعود ، ومصحف أُبَيّ بن كعب ، وكان لكل واحد منها ترتيب خاص في سوره. أما القرآن اليوم فنسخة عن مصحف عثمان المعروف بالإمام .

اقسامه

يُقسم القرآن فصولاً تُعرف بالسُّوَر ، والسوَر مقاطع تُعرف بالآيات ، وفيها الناسخ والمنسوخ[1] . وتسمى السور باعتبار نزولها مكّيّة وعددها ثلاث وتسعون سورة ؛ ومدنيّة وعددها اثنتان وعشرون . والمكية غالباً اقصر من المدنية . وقد رتبها جامعو الكتاب باعتبار الطول والقصر ، فالسوَر الطوال في أوله ، والقصار في آخره ؛ الا سورة الفاتحة فانها مع قصرها في صدر الكتاب .

ويقسم المسلمون القرآن ثلاثين جزءاً يقرأون منه قسماً في كل حفلة أو صلاة .

---

[1] الناسخ : ان يرد دليلٌ شرعي متراخياً عن دليل شرعي مقتضياً خلاف حكمه ، فالدليل الشرعي المتأخر يسمى ناسخاً والمتقدم يسمى منسوخاً .

يخاطب القرآن في سوره المكيّة شعباً غير مؤمن ، فيدعوه الى ترك عبادة الأصنام ، وان يعبد الله وحده ، ويؤمن بالرسول وبالكتاب المنزل. فيُظهر له عظمة الخالق ، ويحثه على التأمل بعجيبة خلق الانسان وسائر المخلوقات : كالشمس والقمر والنجوم والرياح والليل والنهار . ويرشده ان في الآخرة لثواباً ، وان في الآخرة لعقاباً ؛ فيقص عليه أخبار الأنبياء والمرسلين وأخبار شعوبهم ، وكيف كان جزاء المؤمنين ، وكيف كان عقاب الكافرين .

وهو في اثناء ذلك يتناول صناديد قريش فيسفّه آراءهم ، ويردّ على الذين يجادلون النبيّ او يستهزئون منه فيهددهم ، ويحقّر أصنامهم ، ويبين لهم انها لا تجدي عابدها نفعاً ، ولا تضر من يكفر بها . ويفيض في وصف الجنة ، وما أُعدّ فيها للذين آمنوا من نعيم خالد ؛ ويفيض في وصف النار ، وما أُعدّ فيها للذين كفروا من عذاب خالد . فترى في وصف الجنة ارغب تأميل ، وترى في وصف النار ارهب تهويل .

ويخاطب في سوره المدنية جماعة مسلمة تؤمن بالله ورسوله ، وبكتابه المنزل ، ولكنها تجهل شرائعها وطرق عبادتها ، فيعلمها ما لم تعلم ، ويفرض عليها الصوم والزكاة والحج ، ويبين لها ما حُرّم عليها وما أُحِلّ لها . ويسنّ نظم الزواج والطلاق والميراث ، وحجاب المرأة ، والجهاد في سبيل الله ورسوله .

وكان في المدينة يهود يجاهدون النبيّ ويؤلبون عليه ، ويغرون ضعيفي الايمان بالارتداد عن الاسلام ، فتعرّض لهم القرآن ، وذكّرهم ما أنعم الله

على آبائهم بني اسرائيـــل ، وتوعّدهم لتكذيبهم بالرسول ، ودعـاهم الى تصديق دعوته .

وكان فيها منافقون يبطنون الكفر ويظهرون الايمان ، وكانوا يذيعون الأخبـار عن حروب المسلمين فيتأذى النبيّ ، وتضعف قلوب المؤمنـين ؛ فتناولهم القرآن وندّد بهم وهدّدهم .

واذا رأى في المسلمين تقهقراً ، أو ضعفاً ، او شقاقاً ، دعاهم الى الالفة ، وأنّبهم على الانهزام ، وحضهم على القتال ، وذكّرهم ان الموت في الجهاد مغفرة ورحمة .

ولم يكن في الحجاز نصارى يقاومون الدعوة ، فلم يتعرض لهم القرآن كثيراً ، وهو في كلامه عليهم ارفق بهم منه باليهود .

والقرآن في السور المدنيـة كما في السور المكية يردّد ذكر الأنبيـــاء وأخبارهم ، وما أنزل اليهم . ويدعو الناس الى الايمان ، واصفاً لهم الجنة والجحيم ، مظهراً قدرة الله في مخلوقاته .

انشاؤه

القرآن مثال أعلى للبلاغة ، سواء في ايجازه ، او في قوّة تعبيره ، أو في ائتلاف ألفاظه وانسجام كلماتها . ويمتاز برقته وسهولته ، وبعده من الغريب المستهجن . ولمقاطعه رنة لذيذة ، ظنها الاعراب في اول امرهم شعراً ، حتى نزلت الآية : «ومَا عَلـَّمْناهُ الشّعْرَ وما ينبَغِي له إنْ هُو إلاّ ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِينٌ .» وقد يوازن القرآن ويسجّع ، ولكنه لا يتكلف السجع ولا الموازنة .

وانشاء القرآن يوافق أغراضه في الشدة واللين ، فهو في المواقف العاطفية ،

مواقف الوعد والوعيد ، قصير الآيات ، فيه لفظ مكرَّر لزيادة التهويل ، او لزيادة التقرير ، كثير السجع ، قويّ الرنة عند المقاطع ، واغلب ما يكون ذلك في السور المكية ، ولا سيما السور القصار كسورة القارعة :

« القارِعَةُ ما القارِعَةُ . وما أدراكَ ما القارِعة . يومَ يكونُ النّاسُ كالفَراشِ المبثُوثِ . وتكُونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفُوشِ . فأمّا مَنْ ثَقُلَتْ موازينُهُ فَهوَ في عيشةٍ راضيةٍ . وأمّا مَنْ خفَّتْ موازينُه فأمُّهُ هاويَةٌ . وما أدراكَ ما هِيَهْ . نارٌ حامِيةٌ[1] . »

وهو في غير المواقف العاطفية طويل الآيات ، قليل السجع ، خفيف الرنة عند المقاطع . واغلب ما يكون ذلك في السور المدنية ؛ ولا سيما آيات الاشتراع ، وما كان منها في غير الغزوات ، وفي غير الوعد والوعيد ، كقوله يشرع الصوم في سورة البقرة :

« يا أيُّها الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيَامُ كما كُتِبَ على الذينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أيّاماً مَعْدُوداتٍ . فمَنْ كانَ منكُمْ

---

١ « القارعة » : اي القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها . « ما القارعة » : تهويل لشأنها وهما مبتدأ وخبر ، خبر القارعة . « وما ادراك » : أعلمك . « ما القارعة » : زيادة تهويل لها ، وما الاولى مبتدأ ، وما بعدها خبره . وما الثانية وخبرها في محل المفعول الثاني لأدرى . « يومَ » : ناصبه دل عليه القارعة اي تقرع . « يكون الناس كالفراش المبثوث » : كغوغاء الجراد المنتشر يموج بعضهم في بعض للحيرة الى ان يُدعوا للحساب . « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » : كالصوف المندوف في خفة سيرها حتى تستوي مع الارض . « فاما من ثقلت موازينه » : بأن رجحت حسناته على سيئاته . « فهو في عيشة راضية » : في الجنة ، اي ذات رضى بان يرضاها أي مرضية له . « واما من خفت موازينه » : بان رجحت سيئاته على حسناته . « فأمه » : فمسكنه . « هاوية . وما ادراك ما هيه » : اي ما هاويةٌ هي . « نار حامية » : شديدة الحرارة . وهاء هيه للسكت تثبت وصلاً ووقفاً .
(تفسير الجلالين)

مَريضاً أو على سَفَرٍ فعِدَّةٌ مِنْ أيّامٍ أُخَرَ[1] . وعلى الذينَ يُطيقُونَه[2] فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خيراً[3] فَهوَ خيرٌ لهُ وأنْ تَصُومُوا خيرٌ لكُمْ[4] إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . »

تأثيره

للقرآن فضل عظيم على اللغة العربية ، فهو الذي هذّب عبارتها ، ووحّد لهجاتها ونشرها شرقاً وغرباً بانتشار الدين الاسلامي .

وسحر الناس ببيانه فحفظوه . واثر فيهم اسلوبه ، فرقت ألفاظهم ، ولطفت معانيهم . وظهر هذا التأثير في الشعر والنثر معاً ولا سيما الانشاء الخطابي .

ومن فضله على اللغة ان علم النحو وضع خدمة له واشفاقاً من اللحن في قراءته ، وان علم المعاني وضع توصلاً لمعرفة اسراره ، وان اشعار العرب في الجاهلية وصدر الاسلام جُمعت ليستعان بها على تفسير آياته .

ولولا القرآن لتلاشت العربية بغارات التتر والاتراك ، بعدما أُديل من سلطان بني العباس . ولكنه وقف في وجه الفاتحين والمكتسحين ، يدافع عن لغته الفصحى ، فلم يجرؤوا ان يتعرضوا لها بسوء بعد ان اسلموا فظلت لغة الدين والدواوين والمراسلات . ولم يؤثر فيها انتشار اللهجات العامية ، وطُمْطُمانيّة الأعاجم. فاللغة ، كما ترى ، مدينة بآدابها وحياتها للقرآن .

---

١ « فعدة من ايام أُخر »: أي فعليه عدّة من ايام أُخر يصومها بدلاً من الأيام التي افطر فيها.
٢ « وعلى الذين يطيقونه » : اي الذين لا يطيقونه لكبر او مرض لا يرجى برؤه .
٣ « فمن تطوع خيراً » : اي بالزيادة على القدر المذكور في الفدية .
٤ « وان تصوموا خير لكم » : اي خير لكم من الافطار والفدية . (تفسير الجلالين)

الخطابة

اسباب ازدهارها :	انقلاب ديني وسياسي. حروب ، وفتوح، وخروج، واحزاب. الخطب الدينية. الخطب العسكرية. الخطب السياسية. الحاجة الى الخطباء . اختيار الولاة منهم .
عاداتهم في الخطابة :	وقوفهم . بماذا يشيرون . وعلى ماذا يعتمدون . اول منبر . الوليد اول من خطب جالساً . ماذا يعيبون في الخطيب وماذا يمدحون .
ميزة الخطابة :	طلاوة اسلوب . جمل قصيرة . الفاظ مختارة . الخطب الطوال والقصار . استهلالها بالحمدلة . اعتمادها على الآيات . كثرة عدد الخطباء .

اسباب ازدهارها

لم تزدهر الخطابة العربية في عصر من العصور مثل ازدهارها في صدر الاسلام ، فقد كانت العوامل متوافرة لشيوع هذا الفن وتقدمه ، فمن فصاحة فطرية في العربي ، الى براعة التصرف في ضروب الكلام . ومن انقلاب ديني عظيم ، الى انقلاب سياسي عظيم . ومن حروب وفتوح ، الى خروج وعصيان واحزاب .

فقد جاء الاسلام ، وهو دين اجتماعي ، فكانت الخطب الدينية تُلقى في الجوامع. ثم استعرت حروب الفتح والحروب الداخلية، وانقسمت الجماعة احزاباً من اجل الخلافة ، فكانت الخطب العسكرية تُضرَم بها الحماسة في صدور الرجال ؛ وكانت الخطب السياسية يلقيها الزعماء على احزابهم لتشد ازرهم ، او يردوا بها على خصومهم ليدحضوا اقوالهم ، او يخاطبوا بها بلداً عاصياً ليدعوه الى الطاعة . فلا عجب اذاً ان يكون للخطابة شأن عظيم في

ذاك العهد وهي تعتمد على الدين من ناحية، وعلى السياسة من ناحية اخرى.

ولا عجب ايضاً ان تكون الحاجة الى الخطيب اشدّ منها الى الشاعر، فيعنى الخلفاء باختيار ولاتهم ممن عُرفوا بالفصاحة ومضاء اللسان، لان الخطيب المِصْقَع يستطيع ان يستفيض في غرضه منطلقاً من القيود، فيتوصل الى غايته من اقناع الجمهور اكثر مما يستطيع الشاعر المكبَّل بالوزن والقافية.

عاداتهم في الخطابة

كان العربي اذا وقف خطيباً قام على نَشْزٍ[1] من الارض او على ظهر دابة، واخذ بيده مِخْصَرَة[2] يشير بها، او اعتمد على سيف او قوس او قناة.

وصُنع للنبي اول منبر في مسجد، صنعه تميم الداريّ وكان قد رأى منابر الكنائس في الشام.

وروي ان الوليد بن عبد الملك اول من جلس خطيباً في الناس واقتدى به بعض الخلفاء والعمال، ولكن عادة الوقوف ظلت اكثر شيوعاً واتباعاً.

وكان العرب اذا خطبوا يشيرون برفع اليد ووضعها على غير اكثار، ولا يبالغون في الاهتزاز.

وكانوا يعيبون في الخطيب التشديق[3]، والتقعير[4]، والتَّفَيْهُق[5]،

---

١ النشز : المكان المرتفع .

٢ المِخصرة: كالسوط، وما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها، وما يأخذ الخطيب ليشير به اذا خطب.

٣ التشديق : اخراج الكلام من الشدق .

٤ التقعير : اخراج الكلام من قعر الفم .

٥ التَّفَيْهُق : التنطع والتوسع في الكلام كأن الخطيب ملأ به فمه .

والتزيُّد في جهارة الصوت، وهدل الشفاه[1]، والهذر، والتكلف، والاسهاب، والاكثار، والتوعر لانه يُسلم الى التعقيد، والتعقيد يستهلك المعاني ويشين الالفاظ . ويكرهون اللحن ، والتردد ، واضطراب اللسان، وفساد مخارج الحروف ، والتنحنح ، والسعال ، ومسح اللحية ، وكل حركة يستعان بها على البيان .

وكانوا يمدحون شدة العارضة[2]، وظهور الحجة، وثبات الجنان ، وكثرة الريق ، والعلو عن الخصم . ويحبون الطلاقة ، والتحبير[3] ، والبلاغة ، والتخلص ، والرشاقة .

ميزة الخطابة

تمتاز الخطابة في صدر الاسلام بطلاوة اسلوبها ، وقصر جملها ، وتخير الفاظها . والخطب على ضربين : منها الطوال التي كثر فيها الاطناب ، ومنها القصار التي غلب عليها الايجاز مع بلوغ القصد . وقصارها اكثر شيوعاً من طوالها ، وكانت تبدأ بالحمدلة[4] ، وكثيراً ما تعتمد على الآيات، لما للقرآن من التأثير في نفوس المسلمين ؛ وربما جاءت الخطبة برمتها مجموعة آيات كخطبة مُصعب بن الزبير لما قدم العراق داعياً اهله الى مبايعة اخيه عبد الله .

وكثر عدد الخطباء في هذا العصر لكثرة الحاجة اليهم . وكان النبيُّ

---

١ هدل الشفاه : ارخاؤها الى اسفل .
٢ العارضة : البيان واللَّسَن والقدرة على الكلام .
٣ التحبير : تحسين الكلام .
٤ الحمدلة : حمدُ الله .

خطيباً ، والخلفاء الراشدون جميعاً خطباء وأخطبهم الإمام علي . واشتهر الخوارج بجزالة ألفاظهم ، وبلاغة منطقهم ، ومنهم قَطَرِيُّ بن الفُجاءة وله خطبة بليغة في ذم الدنيا .

وضُرب المثل بفصاحة سحبان وائل ، ولكن لم يصل الينا من آثاره الا شيءٌ قليل ، وكان يطيل الخطبة حتى يسيل عرقاً ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ من غرضه .

ونكتفي بدرس خطيبين شهيرين يمثلان ميزة الخطابـــة في عصرهما احسن تمثيل ، ألا وهما زياد ابن أبيه والحجّاج .

•

زياد ابن ابيه

٦٧٢م و ٥٣هـ (؟)

حياته : لم يُعرف ابوه . امه سُميّة مولاة الحرث بن كَلَدة . خطبتــه في حضرة عمر . ادعاء ابي سفيان اياه . ولايته على فارس . ولايته على البصرة . ولايتـه على الكوفة . موته .

آثاره : خطب سياسية وادارية اشهرها البتراء .

ميزته : الخطبة البتراء . جلاء وبلاغة وايجاز ووضوح وحسن تنسيق . واعظ في القسم الاول . قاسٍ ومشترع في القسم الثــاني . عادل نزيه في القسم الثالث . سياسي داهية يبث الدعوة للامويين في القسم الاخير . منزلته : عبقري في فصاحته وحزمه ودهائـــه . قول ابن العاص : ساق العرب بعصاه .

حياته

هو زياد ابن أبيه ، وزياد بن سُمَيَّة ، وزياد بن ابي سُفيان ، وزياد بن عُبَيد[1]، لانه لم يكن له اب شرعي يُعرف به . ولد بالطائف في السنة الثامنة للهجرة ، وقيل في السنة الاولى . وأمه سُمَيــة مولاة للطبيب الحرث بن كَلَدة الثقَفي .

وظهرت النجابة على زياد منذ حداثته فعُرف بالفصاحة والدهاء ، والحزم والشدة . ولما نشأ استكتبــه ابو موسى الأشعري ، وهو على البصرة من قِبَل عمر ، فأعجب به الناس . ثم عهد اليه عمر في مهمة فأحسن القيام بها ، ولما عاد خطب في حضرة عمر ، وعنــده المهاجرون والانصار ، فدهشوا

---

[1] عُبَيد : غلام رومي للحرث بن كَلَدة قيل انه تزوج سمية أم زياد .

لفصاحته وقال عمرو بن العاص ، وكان حاضراً : « لله در هذا الغلام ! لو كان ابوه قرشيّاً لساق العرب بعصاه ! » فقال ابو سفيان : « اني اعرف اباه . » فقال عمر : « من هو ؟ » قال : « انا هو . » وبهذا القول تمسك معاوية حين استلحق زياداً بابيه .

ولايته على فارس

ولما استُخلِف عليّ استعمل زياداً على فارس فأخمد ثورتها وضبطها وحمى قلاعها . فساء ذلك معاوية فكتب الى زياد يتوعده ويعرّض بولادة ابي سفيان اياه . فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس خطيباً وقال : « العَجَب كل العجب من ابن آكلة الاكباد ، ورأس النّفاق ! يخوّفني بقصده اياي ، وبيني وبينه ابن ُعم رسول الله في المهاجرين والانصار . ولو أذن لي في لقائه ، لوجدني أحمر[1] مخشيّاً ضرّاباً بالسيف . »

وبلغ ذلك عليّاً فكتب اليه : « اني ولّيتُك ما ولّيتك وانا اراك له اهلًا. وقد كانت من ابي سُفيان فَلتة من امانيّ الباطل ، وكَذِب النفس، لا توجبُ له ميراثاً ، ولا تُحِلُّ له نسَباً . وإنّ معاويةَ يأتي الانسانَ من بين يديه، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله، فاحذر ثم احذر والسلام ! »

ولايته على البصرة

ولما قُتل عليّ صالح معاوية زياداً واستلحقه بنسبه ليستميله ويستصفي مودته . ثم ولاه البصرة واعمالها : ُخراسان وسِجستان . ثم جمع له الهند والبحرين وعُمان . فقدم زياد البصرة والمعارضة مستفحلة ، والفسوق عن

---

١ الاحمر : الموت الشديد .

الدين متفشٍّ فيها ، فخطب في الناس خطبته البتراء[1] وجدّ في اقامة الشرائع التي قررها ، فكان اول من شدّد امر السلطان ، وأخذ بالظنّة ، وعاقب على الشبهة حتى هابه الناس ، واذعن المعارضون ، وساد الامن فكان الشيء يسقط من يد المرأة او الرجل فما تُمَدّ اليه يد حتى يعود صاحبه فيجده في مكانه فيأخذه . واصبح الناس لا يغلقون ابوابهم اطمئناناً . وقيل انه اول من سيَّر بين يديه بالحراب والعمد .

ولايته على الكوفة

ولما مات المُغيرة بن شُعبة امير الكوفة استعمل معاوية زياداً عليها فكان اول من جُمع له العراقان ، فكان يقيم في البصرة ستة اشهر وفي الكوفة مثلها .

ولما دخل الكوفة وخطب في الناس ، حصبوه ، فأمسك حتى فرغوا . ثم اسرّ الى اصحابه ان يمسكوا الابواب ، واخذ كرسيّاً وجلس على باب المسجد ، وقبض على من وقعت الشبهة عليهم وقطع ايديهم .

موته

أُصيب زياد بالطاعون فقضى على حياته. وزعموا ان السبب في ذلك انه كتب الى معاوية : « اني قد ضبطت العراق بشمالي ، ويميني فارغة فاشغلها بالحجاز . » فكتب له عهده على الحجاز ، فأنف اهل الحجاز من ذلك ، فاجتمع نفر منهم ودعوا عليه ، وكان من دعائهم : « اللهمّ اكفنا شرّ زياد . » فخرجت طاعونة في اصبع يمينه . فلما حضرته الوفاة دعا شُريحاً

---

[1] الخطبة البتراء: التي لم يذكر فيها الحمدلة والتصلية أي ان تستهل بحمد الله والصلاة على النبي.

القاضي وقال : « امرتُ بقطعها فأشر عليّ . » فقال شُريح : « اني اخشى ان يكون الاجل قد دنا فتلقى الله أجذَم[1] وقد قطعت يدك كراهة لقائه. او ان يكون في الاجل تأخير فتعيش اجذم ويعيَّر ولدُك . » فقال : « لا ابيت والطاعون في لحافٍ واحدٍ . » واراد قطعها ، فلما رأى النار والمكاويَ جزع وعدل ، وقيل : بل اتّبعَ رأي شُرَيح .

فلما بلغ موته عبد الله بن عمر بن الخطاب قال : « اذهب ابن سُميّة ! لا الآخرة ادركتَ ، ولا الدنيا بقيت عليك . »

ورثاه مسكين الدارميّ ، فردّ عليه الفرزدق هاجياً ، وكان يومئذ طريد زياد ، ولكنه لم يجسر ان يهجوه في حياته لشدة سطوته وطول يده .

وظلّ ابناء زياد يُعدّون من قريش حتى استخلف المهديّ العباسي فردهم على عُبيد .

آثاره

خطبٌ سياسية وادارية ، متفرقة في كتب الادب ، اشهرها الخطبة البتراء .

ميزته — الخطبة البتراء

يبدأ زياد خطبته بذكر ما يأتي اهل البصرة من المنكرات في عصيانهم الله ، فيعدد لهم مساوئهم ، ويؤنبهم على فسوقهم .

ثم يعلن قانوناً جديداً للعقوبات ، فكان فيها اول والٍ مسلمٍ جاوز الحدود في احكامه .

---

[1] الاجذم : المقطوع اليد .

ثم يظهر لهم انه لا يحمل الحقد لأحدٍ ممن كان بينه وبينهم عداء ، وانه لا يُبالي مبغضيه ولا يناظرهم ، ويدعوهم الى استئناف اعمالهم .

ثم يدعوهم الى طاعة بني أمية ، والاذعان الى سلطان الله الذي اعطاهم.

وكانت هـذه الخطبة كافيةً لارهاب البصريين ، فان الفاظهـا انقضّت على رؤوسهم انقضاض الصواعق ، فوجموا لها وفُتّ في عضدهم، وهالهم ما فيها من تهديد ووعيد . وما ان همس هامس: « أنبأنا الله بغير ما قلت.» واراد بذلك الاحكام التي جاوز فيها السنّة ، حتى سمعه زياد فقال : « إنّا لا نبلغ المراد فيك وفي صحابك حتى نخوضَ اليكم الباطل خوضاً . »

ولم يكن زياد هازلاً في كلامه ، فانه لم يلبث ان قرن القول بالعمل ، فكان رهيباً في خطبته ، ورهيباً في تنفيذ احكامه .

وتمتاز خطبته بما في معانيها من جلاء وبلاغة، على ايجاز كثير في اللفظ ، وما في تنسيقها من فن وجمال . فانه وقف في القسم الاول منهـا موقف واعظ يذكر للقوم ذنوبهم، ويذكّرهم كتاب الله وما فيه من وعد طيّب للمتقين ، ووعيد راعب للفاسقين .

ثم انه وقف في القسم الثاني موقف القاضي المشترع ، فبيّن للقوم انهم احدثوا في الاسلام احداثاً غير مألوفة ، فأحدث لهم عقوبات غير مألوفـة . ونستدلُّ من هذا القسم ان العرب في صـــدر الاسلام ظلوا يحنُّون الى جاهليتهم ويدعون بها ، لانهم رأوا في الاسلام نُظماً وقيوداً لم يتعودوها . واراد زياد ان يُفهم البصريين انه جادّ في تنفيذ شرائعه ، فأحل لهم معصيته ان تعلقوا عليه بكذبة : « ان كذبة المنبر بلقـاء ! .. » ويختم هذا القسم بدعوتهم الى الاقتداء به والا ضرب اعناقهم .

ووقف في القسم الثالث موقف الحكَم النزيه العادل ، المصفّى من الحزازات والضغائن، المرتفع عن الاحزاب : « فرب مبتئس بقدومنا سيُسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس . »

ووقف في القسم الاخير موقف سياسي داهية يبث الدعوة للامويين ، فطلب من البصريين السمع والطاعة ، ووعدهم بقضاء حاجاتهم ، واعطائهم الرزق في وقته ، وعدم حبس الجيش في ارض العدو .

ثم افهمهم انهم اعجز من ان يبلغوا مأرباً من ائمتهم اذا ابوا الخضوع لهم ، وان بني أمية خير لهم من غيرهم . وكان ختام خطبته وعيداً ليظل صوت التهديد يطنُّ في آذانهم : « إنّ لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاي ! .. »

منزلته

قال الشَعبيُّ: « ما سمعتُ متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا احببت ان يسكت خوفاً من ان يسيء إلا زياداً فانه كان كلما اكثر كان اجود كلاماً . » وقال الحسن البصري: « أوعدَ عُمرُ فعفا ، واوعد زياد فابتلى . » وقال عمرو بن العاص ، وقد سمعه يخطب وهو فتى : « لله درّ هذا الغلام ! لو كان ابوه قرشيّاً لساق العرب بعصاه ! » وكأن الاقدار ارادت ان تحقق قول ابن العاص فيه فما استلحقه معاوية وولاه البصرة حتى لمعت عبقريته ، فصاحةً وحزماً ودهاء ، فساق العرب بعصاه ! ..

الحجاج

٧١٣ م و ٩٥ هـ (؟)

حياته : نشأته في الطائف . اتصاله بالامويين . احترافه فساطيط رَوح . ولايته على الحجاز . حصار مكة . ضرب الكعبة بالمنجنيق . مقتل ابن الزبير . تجديد بناء الكعبة . ختم ايدي الصحابة . ولايته على العراقين : قدومه الكوفة وخطبته . قتله عمير بن ضابىء . قدومه البصرة . قتله شريك بن عمرو . محاربته الخوارج . وصية عبد الملك فيه . موته : في اواخر خلافة الوليد . عدد قتلاه ١٢٠ الفاً . ترك في السجن بعده ٥٠ الف رجل و ٣٠ الف امرأة .

آثاره : خطب اكثرها في التهديد . اكثر من نسخ مصحف عثمان . امر باعجام الحروف .

ميزته : براعة في تصوير الكلام . جمل قصيرة مقطعة قوية ، فيها خشونة البداوة . يقتبس من القرآن ، ويتمثل بالاشعار . ظاهر الحجة . يستهوي سامعيه ، ويغلبهم على ارادتهم . خطبته في الكوفة . خطبته بعد دير الجماجم . منزلته : وطد ملك بني أمية . فلمه ولسانه يجريان الى نحور اعدائه فرسَي رهان .

حياته

هو الحجّاج بن يوسُف الثَّقَفي ؛ وُلد في ايام معاوية سنة ٤١ هجرية ، وقيل بل سنة ٤٢ ، ونشأ في الطائف ، وعلّم فيها الغلمان ، ثم جاء الشام واتصل برَوْح بن زِنباع الجُذاميّ وزير عبد الملك بن مروان ، فكان في شرطته .

وأحسّ الخليفة ان عسكره ينحلُّ ويتراخى عنه فشكا الامر الى رَوح ، فقال : « انّ في شرطتي رجلًا لو قلّده امير المؤمنين امر عسكره لأرحل

الناس برحيله ، وانزلهم بنزوله ، يقال له الحجّاج بن يوسف . » قال : « قد قلدناه ذلك . » فما ان تولى الحجاج إمرة العسكر حتى اخذ يشدد عليهم ، ويكرههم على الطاعة ، فاذعنوا له ولم يعصه الا اعوان رَوح بن زِنباع . فأمر بهم فجُلدوا بالسياط وطوّفهم بالعسكر ، ثم امر بفساطيط[1] رَوح فأحرقت. فدخل رَوح على عبد الملك شاكياً ، فقال: « علي به. » فلما دخل قال له : « ما حملك على ما فعلت ؟ » قال : « انت فعلتَ فانما يدي يدك وسوطي سوطك ، وما على امير المؤمنين الا ان يخلف على رَوح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين، ولا يكسرني في ما قدّمني . » فأعجب به عبد الملك، وفعل ما قال . وكان ذلك اول ما عرف من جرأته وحزمه ، فوجد بعده منهلاً عذباً لارواء آماله ومطامعه .

ولايته على الحجاز

فلما افتتح عبد الملك العراقين بعد مقتل مُصعب بن الزبير، لم يبق دونه غير الحجاز وفيه عبد الله يدّعي الخلافة . فقال الحجاج : « انا له يا أمير المؤمنين ، فلقد رأيت في منامي اني سلخته من جلده . » فجهّز له جيشاً عظيماً فزحف به في السنة الثانية والسبعين للهجرة ، فجرت بينه وبين عبد الله وقائع كثيرة ، دارت فيها الدائرة على ابن الزبير . ثم حاصر الحجاج مكة سبعة اشهر ، ونصب المِنجَنيق على ابي قُبيس[2] ورمى به الكعبة ، وكان يأخذ الحجر بيده ويضعه في المنجنيق لان اصحابه خافوا هتك حرمة البيت.

---

١ الفساطيط : جمع الفُسْطاط وهو السُرادق من الأبنية .
٢ ابو قُبَيس : جبل مشرف على حرَم مكة من جهة الشرق .

وشدّد الحصار حتى تضايق ابن الزبير ، واصاب النـاسَ مجاعةٌ شديدة ، فتفرقوا عنه وخرجوا الى الحجاج مستأمنين. فلم يرَ عبد الله بداً من القتال، فخرج بمن بقي معه ، وحارب مستبسلاً حتى قُتل . فارسل الحجاج رأسه الى عبد الملك ، وصلب جثته . وصار الامر بعد ذلك لعبد الملك وبايعه اهل الحجاز واليمن ، فأقرّ الحجاج اميراً على الحجاز، فجدّد بناء الكعبة بعد ان هدمها ، ثم أقام بالمدينة مدة فأساء الى اهلها ، وختم ايدي جماعة من الصحابة بالرصاص . وكانت ولايته عـلى الحجاز من سنة ٧٣ الى سنة ٧٥ هـ . و ٦٩٢ الى ٦٩٤ م .

ولايته على العراقين

ثم ولاه عبد الملك العراقين ، وقد عاثت فيهما الحروب الداخلية ، فسار من المدينة الى الكوفة في اثني عشر راكباً عـلى النجائب ، فدخل المسجد وصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خزّ[1] حمراء ، وقال : « عليّ بالناس ! » فحسبوه خارجيّاً وهمُّوا به، وهو جالس على المنبر ينتظر اجتماعهم. فاجتمع الناس وهو ساكت قد أطال السكوت . فتناول احدهم حصى لكي يرميه بها ، فلما تكلم جعلت الحصى تتناثر من يده وهو لا يشعر رعباً ومهابةً .

وخطب الحجاج يومئذ خطبته المشهورة في اهل العراق، ثم امر كاتبه بان يتلو عليهم كتاب الخليفة ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك ابن مروان امير المؤمنين الى من بالعراق من المؤمنين سلام ! فاني احمد الله اليكم ... » فصاح الحجاج : « اسكت يا غلام ! » ثم قال مُغضَباً : « يا اهل

---

١ الخز : ما نسج من الصوف والحرير او الحرير فقط .

العراق ، يا عبيدَ العصا ! يسلم عليكم امير المؤمنين فلا تردون عليه السلام ! اما والله لأؤدبنكم ادباً سوى هذا الأدب . » ثم التفت الى الكاتب وقال: « اقرأ يا غلام الكتاب . » فلما بلغ الكاتب السلام ردَّ أهل المجلس : « وعلى امير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته . »

ثم امر بان يلحق الناسُ بجيش المهلّب[1] لقتال الحَرورية فجاءه عُمَير بن ضابيء الحَنظَلي فقال : « اصلح الله الامير ، انا في هذا البعث[2] وانا شيخ كبير عليل ، وابني هذا أشبُّ مني . » فقال الحجاج : « هذا خير لنا من ابيه . » ثم قال : « ومن انت ؟ » قال : « انا عُمير بن ضابيء . » قال : « الست الذي غزا عثمان بن عفّان ؟ » قال : « بلى . » قال : « يا عدوّ الله ، أفلا الى عثمان بعثت بدلاً ! وما حملك على ذلك ؟ » قال : « انه حبس ابي وكان شيخاً كبيراً . » قال : « أولست القائل :

هَمَمتُ ، ولم أفعلْ ، وكِدتُ ، ولَيتَني
تَرَكتُ على عُثمانَ تَبكي حَلائِلُه !

اني لأحسب ان في قتلك صلاح المِصْرَين . » وأمر به فضُرب عنقه وأُنهب ماله .

ثم سار الحجاج الى البصرة وخطبهم ، وتوعد من لا يلحق منهم بالمهلّب بعد ثلاثة ايام . فأتاه شَريك بن عمر اليشكُري وكان اعور وبه فتق ، فقال : « اصلح الله الامير ، انّ بي فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرني . »

---

[1] المهلّب بن ابي صُفرة : عامل لبني أمية حارب عنهم الخوارج ، ثم تولى خراسان من قبل الحجاج وظل عليها حتى توفي سنة ٨٣ هـ و ٧٠٢ م واشهر اولاده يزيد بن المهلّب ، والمُغيرة ابن المهلّب ، قاتلَ الخوارج وكانت له معهم وقائع مشهورة .

[2] البعث : الجيش الذي يبعث .

فأمر به فضُرب عنقه . فلم يبق بالبصرة احد من عسكر المهلب الا لحق به. فقال المهلب : « لقد اتى العراق رجلٌ ذكرٌ . اليوم قوتل العدوّ ! » فثبتت مهابة الحجاج في قلوب اهل العراق فدانوا له .

ثم شغب عليه اهل البصرة وعلى رأسهم عبد الله بن الجارود فأخضعهم وقتل ابن الجارود . وخرج عليه شَبيبٌ الخارجيُّ فكانت بينهما وقائع كثيرة كُتب النصر في نهايتها للحجاج . فتفرقت انصار شبيب عنه ، وتردّى به فرسه من فوق جسر فسقط في الماء وغرق .

ثم خرج عليه ابن الاشعث باكثر من مائتي الف ، فاستولى على العراق ، فأمدّ عبدُ الملك الحجاجَ بجيش لجب. فقاتل ابن الاشعث ثمانين وقعة في ستة اشهر حتى هزمه بدير الجماجم[1] واستنقذ العراق من يده ، وقتل خلقاً كثيراً من اصحابه .

ولما حضرت عبدَ الملك الوفاةُ قال لبنيه : « اكرموا الحجاج فانه الذي وطّأ لكم المنابر ، ودوّخ لكم البلاد وأذل الاعداء . » فأقره الوليد بعد ابيه على امارته في العراقين والمشرق .

موته

قيل انه هلك بأكِلةٍ[2] في بطنه ، واصيب بالزمهرير فكانت الكوانين تُجعل حوله مملوءة ناراً وتُدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها . وشكا ما يجده الى الحسن البصري ، فقال : « قد كنت نهيتك ان لا تتعرض للصالحين . »

---

١ دير الجماجم : دير بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البر للسالك الى البصرة .
٢ الاكلة : علة صورتها صورة القروح الا انها تسمى في زمان يسير في مواضع كثيرة ولها رائحة . او هي داء في العضو يأتكل منه .

فقال : «يا حسن لا اسألك ان تسأل الله أن يفرج عني ، ولكن ان يعجّل قبض روحي ، ولا يطيل عذابي . » واقام الحجاج على ذلك خمسة عشر يوماً ، ثم توفي وله من العمر ٥٤ سنة . ومدة امارته على العراق ٢٠ سنة . مات بواسط[١] فدفن بها ، ثم عفّي قبره وأُجري عليه الماء لكي يخفى اثره . وكان هلكه في اواخر خلافة الوليـــد وقد جعله بعضهم سنة ٧١٦ م و ٩٨ هـ . وهذا خطأ ظاهر لان الحجاج مـات قبل الوليد والوليد توفي سنة ٧١٤ م. و٩٦ هـ.

وقد ضُرب المثل بجور الحجاج ، وروي انه أحصي من قتلهم فـكانوا عشرين الفاً ومائة الف. وكان في سجنه بعد موته خمسون الف رجل ، وثلاثون الف امرأة .

آثاره

طائفة من الخطب اكثرها في التهديد . واشهرها خطبة عنـد قدومه العراق ، وأخرى بعد واقعة دير الجماجم . ومن مآثره انه اكثر من نسخ مصحف عثمان ، واوعز الى كاتبه نصر بن عاصم باعجام الحروف للتمييز بين المتشابه منها .

ميزته

ليست حجارة المنجنيق بأشدّ وقعاً عـلى الناس من خطب الحجاج في تهديده ووعيده . فلقد اوتي براعة عجيبة في تصريف الكلام ، عـلى جرأة نادرة تتضاءل دونها جرأة زياد ، فترى في جمله المقطّعة القصيرة قوة لا تراها

---

١ واسط : مدينة بناها الحجاج بين الكوفة والبصرة سنة ٨٣ هـ و ٧٠٢ م .

في غـيره . ويبـدو لك في الفاظه شيء من خشونة البداوة يزيد تعابيره عنفاً على عنف .

وهو في خطبه كثير الاقتباس من القرآن ، كثير الاستشهاد بالاشعار ، ظاهر الحجة ، يستهوي سامعيه ويملك ارادتهم ، فيريهم ظلمه عدلاً ، وعقابه رحمة . ويصوّر لاهل العراق مساوئهم الكثيرة وتغاضيه عنها ، واحسانه اليهم ، حتى يخلبهم ، فيتوهموا انه مصيب في دعواه ، وانهم هم القوم الظالمون .

فاذا أردت ان تتبين بلاغة الحجاج ودهاءه وشدّة بأسه ، فعليك بخطبه في اهل العراق فانها اصدق صور لنفس ذلك الطاغية الداهية الملسان . وما قولك برجل قدم الكوفة في اثني عشر راكباً على النجائب ، فجمع الناس في مسجدها وقام على المنبر يخطبهم مهدداً متوعداً ، على ما في الفاظه من قوة وبداوة ، معتمداً على الشعر آناً ، وعلى الآيات آناً آخر . وكذلك خطبته بعد دير الجماجم ، وفيها يذكّر أهل العراق غدرهم ، وانضمامهم الى الخوارج ، ويذكر لهم الوقائع التي خانوا فيها الخليفة ، وساعدوا اعداءه كافرين بنعمته . فهـذه وتلك تشتملان على اكثر خصائص الحجاج في تفكيره وتعبيره . فقد صوّر لاهل العراق غدرهم ونفاقهم ، فجعل الشيطان يستبطنهم ويعشش فيهم ويفرّخ ، فهم لا يذكرون حسنةً ، ولا يشكرون نعمة . وما اكثر نِعَم الحجاج على اهل العراق ، بعد ان ارهقهم تقتيلا وحبساً ! ولكنه كان يسحرهم بفصاحته ، ويذهلهم بمثل هذه الاقوال ، فيريهم نقمته نعمةً .

ولا ينبغي ان تغفل عن تأثره الشديد باسلوب القرآن ولا سيما حين يقول : « ثم يوم الزاوية ، ومـــا يوم الزاوية ... ثم يوم دير الجماجم ، وما يوم دير الجماجم ؟ »

منزلته

قال الحسن البصري : «تشبّه زياد بعمر فأفرط ، وتشبّه الحجاجُ بزياد فأهلك الناس .» وقال عبد الملك لبنيه لما حضرته الوفاة : «اكرموا الحجاج فانه الذي وطّأ لكم المنابر ، ودوّخ لكم البلاد ، وأذلّ الاعداء .» الا وان في كلا القولين لأصدق وصف للحجاج ، فان هذا الجبّار كان شديد الاعجاب بزياد، فتأثره مقتفراً[1] رسومه، ففاقه في تهديده، وفاقه في احكامه، ولولا هو لذهب ملك بني أمية بعد معاوية وبنيه . فانه وطد لهم العرش وازال خلافة ابن الزبير ، وردّ عنهم الخوارج . وكان قلبه ولسانه يجريان الى نحور اعدائه فرسَي رهان .

•

---

[1] مقتفراً : متتبعاً .

الكتابة

قلنا في كلامنا على النثر الجاهلي ان الانسان الفطري لم يحتج الى الكتابة ، لان هذا الفن إنما ينشأ بنشوء الجماعات المنظمة ، وينمو بنمو القوى المفكرة ، ويعظم بعظم الحاجة اليه . وقد ظلّ العرب في جاهليتهم لا يصطنعون الكتابة الا قليلاً ، حتى جاء الاسلام بفتوحاته ، وأنشأ دولة منظمة مترامية الاطراف ، فمست الحاجة الى الكتابة ، لان مصالح المملكة قضت بان يكون لها دواوين تضبط شؤونها ، وان يكون الخلفاء على اتصال بعمالهم ، والعمال بخلفائهم ، وما من سبيل الى ذلك الا بالكتابة ، فجُعل للدواوين كتّاب يتوفرون على تنظيمها . ولم يكن للعرب يومئذ من الثقافة ما يمكنهم من الاضطلاع بهذه الامور ، فجُعلت الدواوين على عاتق الموالي ابناء الشعوب الاعجمية المتحضرة التي قهرها المسلمون وافتتحوا بلادها . وكان هؤلاء الموالي لا يحسنون العربيـة في اول أمرهم ، فنظموا شؤون الدولة بلغاتهم ، فكانت اليونانية في الشام ، والقبطية في مصر ، والفارسية في العراق وفارس .

وظلت كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان ، فشُرع في نقلها الى العربية شيئاً فشيئاً . وكان الموالي قد تعلموا لغة العرب واتقنوها ، فاستمرت ادارة الدواوين في ايديهم لبراعتهم في تنظيمها ، ولأن العرب كانوا لا يرتاحون الى هذه الصناعات ، وربما أنفوا منها .

واما لغة الرسائل بين الخلفاء والعمال فكانت عربية خالصة ، قصيرة الجمل ، بليغة التعبير ، لا فرق بينها وبين لغة الخطابة . وكانت موجزة ، وربما اقتصرت على جملتين او ثلاث تامة المعنى ، كما في رسالة عمر بن

الخطاب الى عمرو بن العاص يستنجده في مجاعة :

« من عبد الله عمر امير المؤمنين الى العاصي ابن العاصي سلام. اما بعد، فلعمري يا عمرو ، ما تبالي اذا شبِعْتَ انت ومن معك ان اهلك انا ومن معي . فيا غَوثاهُ ! ثم يا غَوثاه ! »

ثم في جواب ابن العاص له :

« الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص . اما بعد ، فيا لَبَّيْكَ ! ثم يا لَبَّيك ! قد بعثتُ اليك بِعِيرٍ[1] اولها عندك وآخرها عندي والسلام ! »

ولم تطل الرسائل ، وتوضع لها الأصول إلاّ بعد ان نبغ عبد الحميد ابن يحيى وكتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فكان هذا المولى طليعة المترسلين البلغاء .

---

١ العير : القافلة .

عبد الحميد الكاتب

٧٤٩ م و ١٣٢ هـ

حياته

هو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى الملقب بالكاتب . شامي الأصل ، نشأ بين العرب ولم يكن عربياً ، وقيل ان ولاءه في بني عامر . وكان في اول امره يعلّم الصبية وينتقل في البلدان ، وحكي انه علّم في الكوفة حتى اتصل بمروان بن محمد الأموي ، وكان أميراً على أرمينية ، فكتب له . فلمّا بويع بالخلافة أخذه معه الى الشام . فبقي ملازماً له لا يفارقه ، مع اشتداد الثورة الخراسانية وضعفه عن اخمادها . واشتد الطلب على مروان وتتابعت هزائمه ، فقال لعبد الحميد : «القوم محتاجون اليك لأدبك ، وان اعجابهم بك يدعوهم الى حسن الظن بك. فاستأمن اليهم وأظهر الغدر بي ، فلعلك تنفعني في حياتي او بعد مماتي . » فقال عبد الحميد :

أُسِرُّ وفاءً ، ثم أُظهِر غَدرةً ، فمن لي بعُذرٍ يوسِعُ الناسَ ظاهِرُهُ؟

ثم قال : «يا أمير المؤمنين ، ان الذي أمرتني به انفعُ الأمرين لك وأقبحهما لي . ولكن أصبرُ حتى يفتح الله عليك او أُقتل معك . » فلمّا قُتل مروان استخفى عبد الحميد عند صديقه ابن المقفع ، وفاجأهما الطلب وهما في بيت واحد . فقال الذين دخلوا : «ايكما عبد الحميد ؟» فقال كل واحد منهما : «انا» خوفاً على صاحبه . الى ان عُرف عبد الحميد فأُخذ . وسلمه السفاح الى عبد الجبار صاحب شرطته ، فكان يحمي له طشتاً ويضعه

على رأسه الى ان مات سنة ١٣٢ هـ. وقيـل انه قُتل مع مروان في مصر. وذكر المسعودي انه رأى له عقباً بفسطاط مصر يُعرفون ببني مهاجر، وقد كان منهم عدة يكتبون لآل طولون.

آثاره

كان عبد الحميد كاتب دواوين، ولم يُعرف عنه انه عني بتصنيف الكتب كصديقه ابن المقفع. بيد انه نظم الشعر مثله على قلة، فرويت له ابيات لا تعدوها الجودة، وان كانت لا تجعله في طبقات الشعراء. فان صاحبنا توفر على انشاء الرسائل دون غيرها، وبرع فيها، وكان له اثر بيّن في تبديـل اسلوبهـا القديم. قال ابن خِلّكان: «ان مجموع رسائله مقـدار ألف ورقة.» ولكن لم يصل الينـا منها سوى رسالة ولي العهـــد، ورسالة الشطرنج، ورسالة الكتّاب، ورسائل اخرى قصيرة، او هي قطع من رسائل لم تبلغ الينا تامة، منها رسالة في وصف الاخاء، ورسالة الى اهله وهو منهزم مع مروان. وانتهى الينا عنه عدة تحميدات مستقلة او مقتطعة من صدور كتبه.

وقيل انه لمّا ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس كتب اليه عن مروان كتاباً يستميله ويضمنه ما لو قرىء لأوقع الاختلاف بين اصحاب أبي مسلم. وكان من عظمه يحمل على جمل. ثم قال لمروان: «قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره. فان يكن ذلك والا فالهلاك.» فلمّا ورد الكتاب على أبي مسلم لم يقرأه، وأمر بنار فاحرقـه، وكتب على جُزازة منه الى مروان:

محا السَّيفُ اسطارَ البلاغـة ، وانتحى
عليـكَ ليوثُ الغابِ من كلِّ جانبِ

ومهما يكن من امر هـذه الرسالة التي حُملت على جمـل وخشية ابي مسلم منها حتى امر باحراقها ، فانها تشير ، على علاتها ، الى ان الايجاز الذي تعودناه في رسائل صدر الاسلام قد حل محله الاسهاب ؛ وان عبد الحميد اول من شذ عنه وأطال الرسائل فبلغ بها عدة صفحات ، ودليلنا على ذلك رسالة ولي العهـد فانها تزيد على خمس وعشرين صفحة من القطع العادي . وآثاره متفرقـــة في كتب الأدب ، جمعها محمد كرد علي في كتـاب « رسائل البلغاء » .

السياسة والاجتماع : بين الشعر والنثر

كانت الأبحاث السياسية ، قبـل عبد الحميد ، تكاد تُقصر على الشعر والشعراء . واذا عرض لها الخطباء في خطبهم فبلغة تشبه لغة الشعر ، وبايجاز لا يختلف عن ايجـازه ، اذا استثنينا ما أُضيف الى علي بن ابي طالب من الخطب الطويلة والعهود المسهبة المفصلة . مع ان هذه الأبحاث خليقة بالنثر أكثر منها بالشعر ، والمنثور خليق بها اكثر من المنظوم. فتناول عبد الحميد المسائل السياسية والاجتماعية باسهاب وتفصيل ولغة مختلفة عن اللغة الشعرية التي عُرف بها الخطباء في الجاهلية وصدر الاسلام ، فجاء كلامهم نثراً له من الشعر ايقاعه ومجازه وايجازه ، ولكن ليس هو الشعر الفني بصفاء جوهره ، وله من النثر تصرفه في الأوزان والقوافي ، ونزوعـه الى المنطق والايضاح والتعليل ، ولكن ليس هو النـثر الفني بخالص صفاته . ففصل عبد الحميد برسائله بين الشعر والنثر ، ومـــيز باسلوبه احدهما عن الآخر ، وجعل

الأبحاث السياسية في موطنهـا الصحيح ، وان يكن الشعراء بعده لم يتخلوا عنها اصلًا ، فكان فيهم من له في السياسة جولات ، ولكن النثر استطاع ان يوفيها حقها عنـد ابن المقفع والجاحظ والفارابي وابن سينا ومن جـاء معهم أو بعدهم من الكتّاب الذين ذللوا اوضاع اللغـة للبحوث العلمية والفلسفية ، فلانت لهم اصلاب متونها ، وأسلست قيادها في حقيقتها ومجازها. وكان لعبد الحميد فضل المتقدم في تخطيط طرائقها ، وتأسيس بَنِيّاتها ، فله من اصله العجمي ما يصدفـه عن التقليد العربي الموروث ، ومن ثقافتـه الحضرية ما يغريه باسلوب طريف تقتضيه الحياة الاجتماعية الجديدة ، فانه لم يقتصر على العربية وآدابها بل كانت له مشاركة في العلوم الدخيلة كغيره من أبناء الموالي المثقفـين . وبوسعنا ان نعلم ما ينبغي للكاتب من العلوم في عصره من رسالته التي وجهها الى الكتّاب ، وبيَّن لهم فيها آداب الكتابة وثقافتهـا فقال : «فتنافسوا ، يا معشر الكتّاب ، في صنوف الآداب ، وتفقّهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله ، عزّ وجلّ ، والفرائض ؛ ثم العربية فانها ثِقاف ألسنتكم ، ثم اجيدوا الخط فانه حِلية كتبكم . وارووا الأشعار واعرفوا غريبهـا ومعانيها ، وايام العرب والعجم وسِيَرَها ، فان ذلك مُعيـن لكم على ما تسمو اليه هممكم ؛ ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قِوام كتاب الخراج . »

فاذا كانت عامـة الكتّاب لا تستغني عن هـذه العلوم ، فأولى بكاتب الخليفة ووزيره ان يكون واقفاً عليها ، متزيّداً في غيرها لما نجد في رسائله من أثر اليونانية والفارسية تنمّ عليـه اقسامها المنطقية الى اغراض وشُعَب مفصلة ، وما تشتمل عليه من الآداب السياسية لتقويم ولاة الأمور ورجال

الدولة ، وتنظيم الخطط والحركات العسكرية في الحروب ، وما الى ذلك من المواعظ والحِكَم التي تصلح بها الشؤون الاجتماعية ، وتتهذب الأخلاق.

وقد يكون عبد الحميد استفاد من سالم كاتب هشام بن عبد الملك ، فانه كان مقرّباً اليه متصلاً به ، وربما كلفه الخليفة ان يكتب الى بعض عماله ، فلدينا من آثاره الباقية رسالة كتب بها عن هشام الى يوسف بن عمر عامله في اليمن . وكان سالم يعرف اليونانية لأن صاحب الفهرست يخبرنا عنه انه نقل الى العربية رسائل ارسطو الى الاسكندر ، ولكن لم يبلغنا من آثار هذا المولى ما يتيح لنا ان نحكم على مبلغ تأثيره في كاتب مروان ، ولا على مقدار جهده في تجديد النثر ، بيد ان المؤرخين القدماء يجمعون على ان الفضل في تطويل الرسائل ووضع اصولها وتنويع فصولها يعود الى عبد الحميد دون سواه .

اثر الدين

تصطبغ رسائل عبد الحميد بصبغة دينية ظاهرة لما للقرآن من التأثير في نفوس المسلمين . وكانت آثاره في النثر أبلغ منها في الشعر ، كما تبدو في خطب الاسلاميين . لأن الخطيب يتوخى ، في الغالب ، غايتين وهما اثارة العواطف والاقناع ، ولا يتوخى الشاعر ، في الغالب ، غير الغاية الاولى ، فكانت حاجة الخطباء الى الدين أشدّ من حاجة الشعراء ، لأنه ليس كالقرآن من كفيل باثارة عواطف المؤمن واقناعه ، اذا دعي الى جهاد او طاعة او عصيان . وجرى عبد الحميد في رسائله على سُنّة الخطباء لأنه كان يقصد بها الى ما يقصدون بخطبهم ، وهو ، الى ذلك ، كاتب امير المؤمنين ، ناطق بلسانه ، فلا ينبغي ان تبتعد كتبه عن روح القرآن . ففيها التحميدات

الطويلة ، وفيهـا المواعظ والوصايا الدينية ، وفيها الآيات الكثيرة يستشهد بها او يتوسع في تفصيلها وتحليل معانيها ، مثل قوله في الرسالة التي كتبهـا عن هشام الى يوسف بن عمر ، ناظراً الى الآية التي تقول : لـئن شكرتم لأزيدنّكم : «لتحمـد الله وتشكره به . فان الشكر من الله بأحسن المواضع ، وأعظم المنازل . فازدد منه تَزدَّد به . وحافظ عليه وتحفّظ به . وارغب فيه تَهدِ اليك مزيد الخير ، ونفائس المواهب ، وبقاء النعم . فأقرىء على من قِبَلك كتاب امير المؤمنين اليك ليسرّ به جندك ورعيتك ، ومن حمَّله الله النِّعَم بأمير المؤمنين ، ليحمدوا ربهم على ما رزق الله عباده من سلامة امير المؤمنين في بدنه ، ورأفته بهم ، واعتنائه بامورهم . فان زيادة الله تعلو شكر الشاكرين ، والسلام ! »

على اننا لا نعلم شيئاً عن حياته الدينية لنتبين مبلغ انسجامها مع كتاباته ، وانما نعلم انه صديق حميم لابن المقفع ، ولم يكن هذا الفارسي على شيء من الاسلام ، بل كان مجوسيّاً على دين آبائه واجداده ، وأسلم في بني العبـاس ارضاء للامراء الذين حظي عندهم ، وظل ، مع ذلك ، متهماً بعقيدته . فهل جمعت الصداقـة بين المؤمن والكافر دون ان تتفاعل العاطفة الدينيـة في قلبيهما معاً ، فيجتمعا على كفر او على ايمان ، كما اجتمعا على المودة والوفاء؟ او لم يكن يجري بينهما ما يجري عادةً بين صديقين مثقّفين ، يميـلان الى الحياة العقلية ، من مجادلات فلسفية تقودهما الى البحث في العقائد والأديان وكلاهما مرتاض بالآداب الفارسية والحكمة اليونانية ، فيحاول ان يؤثر في صاحبه ويقنعه ويجتذبه الى رأيه ومذهبه ؟

لا نستطيع ان نقطع في الجواب عن هذين السؤالين ، وان كنا نعلم ان

ابن المقفع لم يجحد مجوسيته في بني اميـــة ، وان عبد الحميد لم يُغمز في عقيدته الاسلامية ، مع تأثير الفكر الأعجمي فيه ، حتى انه ما كان يستشهد بشعر ولا مثَل عربي ، شأنه ، في ذلك ، شأن ابن المقفع ، وانما يؤثر مثله الأمثال التي تذكّرنا بالحكمة الفارسية الهندية، مثل قوله في رسالة الكتّاب:
« وقد علمتم ان سائس البهيمة ، اذا كان بصيراً بسياستها ، التمس معرفـة اخلاقها . فان كانت جموحاً لم يَهِجها اذا ركبهـــا . وان كانت شَبوباً اتّقاها من قِبَل يدَيها . وان خاف منها شروداً توقّاها من ناحية رأسها . وان كانت حَروناً قمـع برفقٍ هواها في طرقها . فان استمرّت عطفهـا يسيراً فَيَسلَس له قيادهـا . وفي هذا الوصف من السياسة دليـل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم . »

فكل ما نستطيع ان نقوله هو ان الاسلام ابلغ اثراً في كتاباته منه في كتابات ابن المقفع بعد اسلامه ، فان صح فيه ان الانشاء صورة لصاحبه ، فخليق به ان يكون مسلماً راسخ الايمان .

الأهل

لم ينقل الينا المؤرخون خبراً عن اسرته وحياته البيتية نستوضح منه نوراً يضيء مجاهل رب المنزل واحواله الداخلية. فنحن لا نعرف شيئاً عن امرأته وبنيه لنحكم على سياسة الزوج والوالد مع اهله ، ومبلغ عطفـه على نسائه وعنايته بأولاده ، إلاّ ما امكننا ان نستخلصه من رسائله الباقية وليس فيه كبير غناء . فله رسالة كتب بها الى اخيه يبشره بأول مولود رزقه الله اياه فشد به ازره على حين حاجته اليه ، ولعل هذا الولد البكر هو غالب الذي يتكنى بـه ، لأنه لم يذكر اسمه في كتابه ، وانما قال انـه سماه فلاناً ،

وأمّل ببقائه بعده حياة وذكرى وحسن خلافة ، وشكر الله فيه وحمده على آلائه ، وصوّر عطف الوالد ورقته ، وامتلاء قلبه من الغبطة والفرح ابلغ تصوير حيث يقول : « فاذا نظرتُ الى شخصه ، تحرك به وجدي ، وظهر به سروري ، وتعطفت عليه مني أَنَسة الوالد ، وتولّت عني وَحشة الوَحدة . فانا به جَذِل في مغيبي ومشهدي ، أحاول مَسَّ جسده بيدي في الظُّلَم ، وتارة أعانقه وأرشُفه ، ليس يَعدِله عندي عظيمات الفوائد ، ولا مُنفِسات الرغائب[1] . »

وكأنه كان ينظر اليه وهو يتحرك ويصيح ، فيكاد لا يصدق حلول هذه النعمة عليه ، مع ما وهبه الله من النِّعم السالفة ، فيخشى زوالها عنه ، فيقول: « ما يُدركني به من رقة الشفقة عليه مخافة مجاذبة المنايا اياه ، ووجلا من عواصف الأيام عليه . » ويسأل الله ان يجعل ما يَهَب من سلامته والمَدّة في عمره موصولاً بالزيادة ، مقروناً بالعافية ، محوطاً من المكروه.

فهذه الرسالة ناطقة بحب الوالد الشفيق وحنوه على اولاده . ومثلها رسالة اخرى كتبها وهو منهزم مع مروان ، تطارده الأعداء ، وترهقه الكوارث ، فلم تشغله الهموم والأحزان عن تحبيرها الى اهله ، يذكر لهم فيها مصائب الدنيا وكرائهها ، وما يلقى من الأسى في ابتعاده عنهم ؛ ويبين لهم حرج الموقف وما يحدق به من خطر الاسر المهين ، او خطر الهجرة الطويلة لا رجوع بعدها اليهم ، ولكنه لا يقنط من رحمة الله ومعونته . قال فيها : « وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً ، واليكم وجداً ، فان تتمّ البليّة الى اقصى مدتها ، يكن آخر العهد بكم وبنا ، وان يلحقنا ظُفْر جارح

[1] المنفسات : الأشياء التي يُتنافس بها . الرغائب : العطايا الكثيرة ، جمع رغيبة .

من اظفار من يليكم ، نرجع اليكم بذلّ الاسار ، والذلّ شر جار . نسأل الله الذي يُعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء ان يهَب لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فانه رب العالمين وارحم الراحمين ! »

فاذا كان المؤرخون قد اهملوا امر التحدث عن حياته في اسرته ، فمن هاتين الرسالتين نتنسم آصرة الكاتب على اهله وولده .

الصديق

كان عبد الحميد ، كصديقه ابن المقفع ، يُجلّ الصداقة ويُعظم شأنها ، فقد سئل مرة : « أيُّما أحبُّ اليك اخوك ام صديقك ؟ » فقال : « إنما أحِبُّ أخي اذا كان صديقي . » وقال ابن المقفع في كتابه « الأدب الكبير » : « ابذل لصديقك دمك ومالك . » ولما قُتل مروان واستخفى عبد الحميد عنده وفاجأهما الطلب ، لم يتأخر عن تحقيق ما اوصى به ، فأراد ان يبذل دمه لصديقه ، ولكن عبد الحميد أبى ان يُقتل صاحبه فدًى له ، فيكون اوفى وأكرم منه نفساً ، وأبان عن حقيقة امره ، واستسلم الى جلاديه . ولم يكن دونه وفاء وحفاظاً على المودة عندما دعاه مروان الى اظهار الغدر به ، والازدلاف الى العباسيين الظافرين لعله ينفعه في حياته او بعد مماته ، فانكر واستنكف ، وآثر ان يُقتل معه على ان تلحقه معرّة الخيانة ، وان كان فيها نفع له او للخليفة المقهور . ومن ساواك بنفسه ما ظلمك . فالصداقة عنده لا تدنّس بالغدر ، ولو ظاهراً ، لأنه يفسدها ويكدر صفاءها في نظر الناس الذين تخدعهم الظواهر ، فما ينبغي ان ينالها حيف منه ، على ما لها في نفسه من كرامة وقداسة ، وان أراق في سبيلها دمه ، ورفض ان يساوم عليها مروان رجاء ان ينتفع في

حياته او بعد مماته . فمن الخير ان يصبر حتى يفتح الله عليه او يُقتل معه . وقبيح به ان يُسرّ الوفاء ويظهر الغدر : « فمن لي بعذر يوسع الناسَ ظاهرُهُ ! » مع انه لو جارى نزعته الاعجمية ، او لو تحركت فيه روح شعوبية ، لوجد الصلاح لابناء قومه في مناصرة الدعوة العباسية ، وقد دعمتها اسنة الفرس لتعيد مجد الاعاجم وترفع رأس الموالي . ولكن وفاءه للامويين جعله يتنكر لها ويحض فِرَق العرب على دفعها حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد العباسي ، فقال من رسالة كتبها عن مروان :

« فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية من يد الفئة الاعجمية ، واثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة ، ونصحو من هذه السكرة ، فسينضب السيل ، وتمحى آية الليل ، والله مع الصابرين ، والعاقبة للمتقين . »

ولو شاء ان يستأمن الى العباسيين ملبياً صوت عجميته لرأى من اعجابهم بادبه وحاجتهم الى براعته ما يحملهم على تأمينه وتقريبه وحسن الظن به ، كما قال له مروان . فصوت الشعوبية كان اخف وقعاً في اذنيه من صوت الصداقة والوفاء ، فسار في ركب الامويين حتى تقطعت الآمال وقُطّعت الاعناق .

ولم تقتصر آراؤه في الصداقة على ما اوردنا من اقواله المقتطفة بل هناك رسالة له ، في الاخاء ، يبين فيها اسباب المودات الخالصة ودعائمها باسلوب خطابي تكثر فيه الاوصاف المجازية التي تلمس المعنى عن بعد وترسله مطلق الجناح بدون تقييد . وهي ، في جملتها ، لا تعدو اقواله وافعاله التي تقدم ذكرها ، مع ما فيها من اتساع التعبير وتقليب الجمل على المعاني المتقاربة .

فاهل المودات يصلون الى الاخاء بصدق التقوى ، ويبنون دعائمه على اساس البر، يشيّده مستعذب العشرة، فيكون قوياً صافياً من الكدر: « تسكن به القلوب ، وتسمو من مواصلته الهمم عن كل زائغ معتاف ومخوف عارض . » لا يدخل على صاحبه سآمة ولا ضعف عند عوارض الاقدار وحوادث الزمان بل يؤاسي في الازمات ، مقتحماً غمرات المهالك : « حتى تصير به الاقدار الى تناهيها ، ويبلغ به القضاء مقداره ، غير مَنّان النُصرة ، ولا بَرِم التعب . يرى تعبه غُنْماً ، ونَصَبه دَعة ، وكَلَفه فائدة ، وعمله مقصّراً . »

بمثل هذه الاوصاف حدد عبد الحميد اخاء اهل المودات في رسالة كتبها الى صديق جواباً عن سؤال له عرض فيه لهذه العلاقة الاجتماعية ، وكان يود لو توسع في الموضوع ، فشعّب الكلام في تصنيف طبقات الرجال ، ومن اين دخل عليهم نقص الاخاء ، ولكن ورد عليه سؤال صديقه ، وهو محصور العقل ، متقسّم الذهن في مشاغل الدولة ، وما يكافه الامير من تدبير شؤونها ، والاهتمام باحوال الخَزَر وبعث الرسل الى جبال اللان والطَبَران وما والاهما بنوافذ امره . فلم يتسنّ له ان يحقق رغبته ، فاكتفى بهذا القدر من صفات الاخاء ، ومودة اهل الحجى ، فكان فيه صادق التعبير عما يشعر به من جلال الصداقة الفاضلة وقداسة حرمتها ، كما ميزها ارسطو ، لا صداقة المنفعة التي ليس لها بقاء الا ببقاء عائدتها .

الرئيس والمرؤوس

يجعل عبد الحميد للفضائل الدينية والخلقية مكان الصدارة في سياسة الدولة ، فينبغي للرئيس والمرؤوس ان يتزينا بها في اعمالهما وعلائقهما .

فرسالة ولي العهد عظة بليغة في آداب الملوك ، تطلعنا على مدى معرفته بالصفات التي تلزم الامراء في تدبير الملك وتصريف اموره ، وما يتصل بها من خصال يأخذون بها نفوسهم ، وخصال يأخذون بها مَن دونهم . كتب بها الى الامير عبد الله عن ابيه مروان سنة ١٢٨ هـ يأمره بان يسير الى ملاقاة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي ، وكان قد استولى على الموصل وكُوَرها ، وعبد الله يومئذ نائبه على الجزيرة . فجاءت الرسالة على قسمين كبيرين ، احدهما يتعلق بالسياسة المدنية ، والآخر بالسياسة العسكرية . وفي كليهما ظهرت حُنكة الكاتب ، وشمول ثقافته ، وسعة اطلاعه ، وحسن تدبيره . وغرضنا الآن القسم الاول منها ، فانه يشتمل على ما يحتاج اليه ولي العهد من امور دينه ودنياه ، فيذكّره ان الخليفة لم يندبه الى هذه المهمة الخطيرة الا لثقته بمزاياه الدينية والخلقية ، فيدعوه الى التوكل على الله ، وان يقرأ كل يوم جزءاً من القرآن مهتدياً بهديه ، ويحذّره من الغفلة وغيرها من دخائل النقص التي يخشى عليه منها .

ويشير عليه ان تكون حاشيته وجلساؤه من المجرّبين الذين عُرفوا بالفقه والورع والطاعة وصدق النصيحة ؛ والا يأذن لاهل مجلسه بالاسترسال في الحكايات والمضاحك التي يأنس بها ذَوو الجهالة ، حفاظاً على الشرف ودفعاً لمثالب الحاسدين .

ومن عيوب ذوي السلطان ، وعلى الامير ان يبرأ منها ، ضعفهم عن ضبط انفسهم في مواكبهم . اذا سايروا العامة ، يستخفهم اجتماع الناس حولهم ، فيكثرون من التلفت زهواً وأشراً . وربما اقبل احدهم على مداعبة مسايره ، مع انه يحسن بالسلطان ان يظل مطرق النظر لا يلتفت الى محدثه

في موكبه ، ولا يُقبل عليه بوجهه ، ولا يخفّ في السير فيقلقل اعضاءه بالتحريك .

وعليه ان يتحرز من اصحاب السعاية الذين يتظاهرون بالنصيحة ، وغايتهم اغراؤه بغيرهم من الناس ليوقع بهم . فينبغي ان يكلف صاحب شرطته او بعض قواده استماع اقاويلهم والفحص عنها ، ليتبين صادقها من كاذبها ، فاذا حقت العقوبة تولاها الفاحص بنفسه ، فان اخطأ نسب الخطأ اليه ، ولا يجري مكروه على يد الامير . واما العفو والرحمة واخلاء السبيل فيتولاها الامير دون غيره ، وبذلك يقرن خصلتين : ثواب الله في الآخرة ، ومحمود الذكر في العاجلة .

ولا ينبغي ان يصل اليه احد من جنده وخاصته وبطانته او من الوفود والرسل بمسألة الا بواسطة كاتبه ، فان اراد قضاءها استقبله وقضاها له ، وإن لم يرد قضاءها ، جعل رده على يد كاتبه ، فيحمل اللوم عنه .

ويجمل به أن يمنع اهل بطانته وسواهم من اغتياب الناس وتمزيق اعراضهم في حضرته ، وان يستقبل محدثه والناظر اليه باطراق جميل وسكون ، فذلك ادعى للهيبة والوقار ، وان يتصفح وجوه قواده ليعرف من حضر منهم ومن غاب ، فيسألهم عن اشغالهم التي منعتهم عن الحضور .

وعليه ان يتجنب حشو الكلام وترديد فضوله من نحو : اسمع ، او اعجل ، او ألا ترى ، فانها تُزري بالعاقل وتنسبه الى العيّ . ومن معايب الملوك والسوقة كثرة التنخم ، والتبزّق ، والتنحنح ، والتثاؤب ، والجشاء ، والتمطي ، وتنقيض الاصابع وتحريكها ، والعبث باللحية والشارب والمِخصرة وذؤابة السيف ، والايماض بالنظر والاشارة بالطرف الى احد

لخدم ، والسرار في المجلس ، والاستعجال في الاكل والشرب .

ويختم هذا القسم بقوله : « وهذه جوامع من خصال قد لخصها امير المؤمنين ، وجمع شواهدها مؤلفاً واهداها لك مرشداً ، تقف عند اوامرها ، وتنتهي عند زواجرها الخ . » لأن الرسالة ، في مجموعها ، امر ونهي وترغيب وترهيب ، فلا يصح ان يخاطب بها وليّ العهد الا ابوه . وهي ، الى ذلك ، تناسب الحكم المطلق بالممالك الاوتوقراطية في تصنيف الرعية ثلاث طبقات ، ارفعها الاشراف ورجال الدين ، وادناها طبقة العامة ؛ وفي ضرورة تحمُّل المرؤوس تبعات الخطإ ومساوئه ، ونسبة الصلاح والصواب الى الرئيس ، وهذا ما نجده ، بعد عبد الحميد ، في رسالة السياسة المدنية المأثورة عن الفارابي . على انها لا تغفل الشورى ، ولا تهمل النظر في احوال السوقة واصلاح امورها ، واقامة قسطاس العدل في قضاياها ، وفتح باب الرحمة عليها ، فكانت رسالة جامعة للآداب العامة والآداب الخاصة بالملوك .

ومثلها الرسالة التي وجهها الى كتّاب الدواوين ، يوصيهم فيها بان يلتزموا الخلال التي ينبغي ان يتحلوا بها ليكونوا خلقاء بالعمل الموكول اليهم ، مبيناً لهم قيمة الكتابة وشرفها . فعلى الكاتب : « ان يكون حليماً في موضع الحلم ، فهيماً في موضع الفهم ، مقداماً في موضع الاقدام ، محجاماً في موضع الاحجام . » وان يُعرف بالعفاف فلا يختلس من مال الدولة ولا يرتشي ؛ وبالعدل فلا يجور على الرعية ؛ وبكتم الاسرار فلا يذيعها ؛ وبالوفاء عند الشدائد . وان تكون له ثقافة عامة ومعرفة بالعلوم التي لا يستغني عنها في حرفته ، وقد تقدم ذكرها في كلام سابق .

واذا كان سائس البهيمة بصيراً بسياستها التمس معرفة اخلاقها ليحسن

قيادها ومداراتها ، والكاتب ، بفضل ادبه وشريف صنعتـه ، اولى بالرفق من سائس البهيمة : « فليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم منصفاً، فان الخلق عيال الله ، واحبهم اليه ارفقهم بعياله . ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللاشراف مكرّماً ، وللفيء موفّراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألفاً ، وعن أذاهم متخلفاً . وليكن في مجلسه متواضعاً حليمـاً ، وفي سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقاً . »

ومراده بالرفق ألا يتحيّف بيتَ المال في جباية الضرائب ، والا يعنف على الشعب في استئدائها .

ويدعوهم الى التعاون في الملمات ، كما تتعاون النقابات في زماننـا : « وان نبا الزمان برجل منهم عطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليـه حاله ؛ وان اقعد احداً منهم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه ، زاروه وعظموه ، واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته . وان عرضت في الشغل محمدة ، فعلى الكاتب ان يصرفها الى صاحبه ؛ وان عرضت مذمـة ، فليحملها هو من دونه . » الى ما هنالك من الوصايا التي تليق بشرف الكتابة ، وتحث على التزين بمكارم الاخلاق .

وكذلك رسالة الشِطْرَنج ، فانها تطلعنا على مبلغ عناية الراعي بتقويم اود رعيته اذا جارت عن النهج السويّ ، فقد كتب بهـا الى بعض الولاة يعلمه فيها انه بلغ امير المؤمنين ان جماعة من المسلمين في ناحيته ينصرفون الى لعب الشطرنج ، ملتهين به عن الصلوات، تاركين اعمالهم، لا ينفكون عنه من الصبح الى المساء ، مع ما يتخلله من مداعبات سمجة والفاظ قبيحة يظهرون بهـا في الاندية والمجالس ؛ فاستفظع امير المؤمنين ذلك منهم ،

فاحب ان ينذرهم متقدماً اليه بأن يأمر عامل شرطته في انزال العقوبة بهم ، واطالة حبس من يؤخذ منهم وهو مظهر اللعب معتكف عليه، ويوصيه بان يطرح اسمه من ديوان امير المؤمنين .

وهناك رسائل قصيرة او قطع رسائل تتصل بسياسة الدولة في ما ينبغي ان تعرفه الرعية من الانباء التي تطلعها على عظمة الملك وقوته ، وفتوحه ، او على اهتمام السلطان بامورها ، وتفقد احوالها ، وتبشيرها بسلامته عندما تدعو الحاجة ، تودداً اليها ، واشعاراً لها انه واثق باخلاصها ومحبتها ، وسرورها بهذه البشرى ، لعلمها انه لا خير لها يرجى الا في دولته وبقاء عرشه، ويقطع بذلك قالة السوء على الذين يذيعون الاخبار الكاذبة او الصادقة، خصوصاً بعد انشقاق البيت المالك بعضه على بعض ، مع تألب الاحزاب والخوارج ، وتفاقم خطر الدعوة العباسية في خراسان . ولو انتهت الينا رسائل عبد الحميد باجمعها لأمكننا ان نتبين فيها من اثر السياسة المتقلبة وحالة العصر شيئاً اكثر واوضح ، وان يكن ما بقي منها كافياً للدلالة على ما قام به في السياسة المدنية من العمل الصالح للخير والاصلاح .

السياسة العسكرية

يطلعنا القسم الثاني من رسالة ولي العهد على ما بلغ اليه عبد الحميد من ثقافة عسكرية ، وعلم بفنون القتال ، وعلى ما للاعاجم المستعربين من فضل في تنظيم الجيوش العربية وحسن تدريبها ، اذا نظرنا الى حالتها في الجاهلية واوائل صدر الاسلام. ونرى ذلك ظاهراً في انواع السلاح، ثم في الآداب العسكرية التي تُعرف اليوم عندنا بالانضباط، ثم في الخطط الحربية، ثم في حركات القتال .

السلاح

تبدو خبرة الوزير الكاتب بانواع السلاح المعروفة يومئذ ، وطرق توزيعها واستعمالها، عندما يوصي ولي العهد ان يكون للطلائع سلاح مخصوص، وللفرسان الذين يختارهم للقاء العدو ، اول ما يلقاه ، سلاح آخر. فالطلائع، في انفرادها عن الجيش الاعظم ، مستهدفة للمخاطر ، فينبغي ان يكون سلاحها وافياً واقياً ، من دروع ماذيّة الحديد ، اي ليّنة لا تشق على لابسها، متقاربة الحلق، متلاحمة المسامير. وأسْوُق الحديد مموّهة الرُكَب، خفيفة الصوغ ، لوقاية سيقانهم . وسواعد بأكفّ وافية ، طبعها هندي ، وصوغها فارسي . ويَلَق[1] البَيْض ، لحماية الرأس ، فارسية الصوغ ، سابغة الملبس ، وافية اللين ، مستديرة الطبع ، مبهمة[2] السرد ، وافية الوزن ، كتريك[3] النعام في الصنعة ، مُعلَمة باصناف الحرير وألوان الصبغ ، فانها أهيب لعدوهم . هذا ما عدا السيوف والرماح والقِسي ، وتلك ينبغي ان تكون من شجر الشَوحط او النَبع[4] ، اعرابية التعقيب ، رومية النصول، فانها ابلغ في الغاية وانفذ في الدروع . ويحسن بهم ان يعلقوا حقائبهم على متون خيولهم ، مستخفّين من الآلة والامتعة ، الا ما لا غنى عنه . ويجب ان تكون خيولهم اناثاً مهلوبة ، اي مقطوعة الاذناب ، فانها اسرع طلباً ، وابعد في اللحوق غاية ، واصبر في معترك الابطال اقداماً .

---

١ اليلق : الابيض من كل شيء .
٢ مبهمة : مغلقة .
٣ التريك : جمع تريكة وهي بيضة النعام بعد ان يخرج الفرخ منها .
٤ الشَوحط : شجر تتخذ منه القسي او هو ضرب من النبع والشريان، فما كان في قلّة الجبل فنبع ، وما كان في سفحه فشريان ، وما كان في الحضيض فشوحط .

واما الفرسان المختارة للقاء العدو فينبغي ان تكون دوابهم اناثَ عتاق الخيــول ، واسلحتهم سوابغ الدروع وكمال آلة المحارب ؛ وان يكونوا مُلبِدين بالترِسة الفارسية ، صينية التعقيب ، مُعلَّمة المقابض بحلق الحديد . انحاؤها مربّعة ، ومحارزها بالتجليد مضاعفة ؛ وان تكون القسيّ اعرابيــة الصنعة ، مختلفة الاجناس ، ونصول النبل مسمومــــة ، تركيبها عراقي ، وتريشها بدوي . والفارسية منها مقلوبة المقابض ، منبسطة السِيَة[1] ، سهلة الانعطاف ، واسعة الاسهم .

وقلما ذكر حركة عسكرية الا بيّن سلاحها وسبيل استعماله فيهــا . فالدبّابات[2] التي تهاجم بها الحصون يتولى ركابها حراسة الجيش نُوَباً بينهم ، ويقوم العسس مقامهم في الليل مخافــة البَيات . واذا وقع البيات وطرق العدو على غرّة ، فلا يسمح لاهل الناحية المبيّتة ان يجالدوه بالسيوف ، لئلا يختلطوا به ، فلا يميز الصاحب منهم صاحبــه . ولكنهم يشرعون رماحهم مادّين لها في وجوههم ، ويرشقونهم بالنبال ، مُلبِدين بترِستهم ، لازمين لمراكزهم . وكذلك يكون سلاح الذين يرسلون مدداً لهم . فمن هنــا يتبين ما كان عليه عبد الحميد من الخبرة بالسلاح على اختلاف انواعــه واساليب استعماله .

الآداب العسكرية

تكلم عبد الحميد على الآداب العسكرية في مواضع شتى من رسالته ، فألمّ بالنظام والطاعة والتهذيب ، وما اليها من الخصال الكريمة التي تُطلب من الجندي ليستكمل مزاياه الرفيعة ، فكان فيهــا المؤدب الفاضل للجيش

١ سية القوس : ما عطف من طرفيها .
٢ الدبابة : آلة تتخذ للحروب ، فتدفع في اصل الحصن ، فينقبون وهم في جوفها .

العربي القديم ، يسنّ له النظم الصالحة لتدريبه وازكاء هباته العسكرية ، وهي في جملتها توافق الانظمة الحديثة في عصرنا ، وان تكن دونها دقة وشمولاً واتساعاً . ولها قيمة تاريخية لا تُنكر ، لدلالتها على افضل الصفات العسكرية في العصور الخالية ، وعناية الامويين بتقويم جنودهم ورياضة اخلاقهم . فالقواد مسؤولون عن آداب رجالهم ، مفوّض اليهم الأخذ على ايديهم وتدريبهم على السمع والطاعة لامرائهم ؛ حتى يتبعوا امرهم ، ويقفوا عند نهيهم . لان استخفافهم بقوادهم استخفاف بولي العهد القائد الاكبر ، وتضييعهم لاوامرهم دخول الضياع على اعماله . فيجب ان يُقمعوا عن الاخلال بمراكزهم لشيء مما وُكّلوا به من اعمالهم ، فان ذلك مَفسدة للجند ، معيٍ للقواد من الجدّ والمناصحة والتقدم في الاحكام . ولا يؤذن لهم في الحرب ان ينتشروا ويضطربوا ويتقدموا طائفتهم ، لئلا تصاب منهم غرة يجترىء بها العدو ويقوى ويداخله الطمع .

فعلى القواد الا يتوانوا في قمعهم وتقويمهم ورياضتهم على الطاعة . ويحق لهم ان يعاقبوهم عقوبة تأديب وتثقيف أَود ، ولكن لا يجوز لهم ان يبلغوا بها تلف المهجة واقامة الحد في قطعٍ او افراطٍ في ضرب ، او اخذ مال ، او عقوبة في سفر . فهذه الاحكام يقوم بها ولي العهد بنفسه ، او صاحب شرطته بامره ، وعن رأيه وإذنه . فانه لا ينبغي ان يذل الجند لقوادهم . فاذا ذل الجند صعب على الامير ، بعد ذلك ، ان يعنّف القواد ويعاقبهم اذا اخطأوا ، او فرط منهم تقصير في شيء اسنده اليهم .

ويحسن بولي العهد ان يجعل على ساقته[1] اوثق أهل عسكره ، يأمره بالعطف

---

[1] الساقة : مؤخر الجيش .

على ذوي الضعف من جنده ، ومن استرخت به دابته ، او اصابته نكبة من مرض او رَجلة او آفة . ولا يأذن لاحد منهم في التنحي عن عسكره ، أو التخلف بعد ترجله ، الا المجهود او المطروق بآفة . واذا مرّ به احد متسللاً من المعسكر شدّه وثاقاً ، واوقره حديداً ، وعاقبه موجعاً ، او وجّهه الى الامير لينهكه عقوبة ، ويجعله عظه لغيره من الجند .

ومن فضائل الجندي ان يكف معرته عمن يمر به من اهل الذمة او من المسلمين ، فيكون معهم حسن السيرة ، عفيف النفس ، متحلياً بالوقار .

واذا تدانى الصفان واحتضرت الحرب ، فعلى الجند ان يلزموا الصمت وقلة التلفت الى المشار له ، وكثرة التكبير في نفوسهم ، والتسبيح بضمائرهم ، لا يظهرون تكبيراً الا في الحملات والكرات والاقتراب من العدو ؛ فاما وهم وقوف فان ذلك من الفشل والجبن .

وان فاجأهم العدو وبيّتهم ليلاً ، فلا ينبغي ان يرفع احد صوته بالتكبير ، معلناً للارهاب ، الا الناحية التي وقع فيها العدو ، ويظل سائر الجند هادئين .

واذا اتبعوا العدو ، بعد كسره ، فليكونوا في سكون ريح ، لا يتلفظون بالكلام القبيح ، بل يكثرون التسبيح والتهليل بلا لجب وضجة ولا ارتفاع ضوضاء .

فهذا مجمل ما جاء في الرسالة من تبيان فضائل الجندي المدرب ، وهي ، على ايجازها في هذا الموضوع ، محيطة بنواحٍ مختلفة من الآداب العسكرية ، او نظام الانضباط .

الخطط الحربية

عني عبد الحميد بان يبين لولي العهد الخطط التي يحسن به ان يترسمها في

مقاتلة العدو ليأمن الكسرة ، وينال النصر عليه . وانها ، وان لم تكن خططاً واسعة النطاق ، لتتلاءم السلاح الذي يحاربون به ، والارض التي تتحرك العساكر عليها ، واسباب المواصلات في الزمان الحالي . فقد اوصاه بان يكون موضع نزول الجند مستديراً ضاماً جامعاً ، وألا يكون منتشراً ولا ممتداً ، فيشق ذلك على صاحب الاحراس الذي يتولى رعاية الجيش من المفاجآت ، ويكون فيه النهزة للعدو والبعد عن المادة ان طرق طارق في الليل .

و ينبغي له ان يتعرف المواضع والمياه التي ينزل بها ، فربما كان الموضع ضيقـــاً والمياه قليلة ، فـــلا يمكنه القيـــام به ولا مطاولة العـــدو ومكايدته ، ولا يأمن هجومه عليه لازعاجه منه . ومن الخير ان يجعل نزوله في خندق او حصن يأمن به البيات ، فيقطع لكل قائد ذرعاً من الارض بقدر اصحابه ، يحتفرونه عليهم ويطرحون له الحسك دون الرماح والتِرَسة ، لتنشب في ارجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين ، على ان يكون له بابان يحرس كل واحد منهما قائد في مائة من اصحابه .

ويحسن بالامير ان يجعل الحيل والخدع في مقدمة خططه المرسومة ، فان الحرب خدعة كما جاء في الحديث ، والجواسيس رأس المكيدة ، فعليه ان يبثهم في معسكر العدو متطلعاً لعلم احوالهم ومنازلهم ومطامعهم . واذا تناقضوا في الاخبار ، فلا يعجل اليهم بسوء الظن والعقوبة لانه لا يدري صادقهم من كاذبهم ، ولعل اموراً جرت فجعلتهم يتناقضون . وليحذر ان يعرف بعضهم بعضاً لئلا يتواطأوا عليه ويمالئوا العدو ؛ او ان يُعرفوا في معسكره ، وللعدو عيون راصدة ، فلا يأمن ان يُبلغوا خبرهم الى صاحبهم فيُنزل بهم العقوبة ، ويكسر من نشاطهم ، فيعدلوا عن استقصاء الاخبار الى

اخذها عن عُرُضٍ من غير ثقة ولا معاينة .

ويفيض في الحديث عن الجواسيس وما يترتب على اخبارهم وصدقهم وغشهم من النتائج مما يدل على ان شأنهم في العصور القديمة لا يقل عن شأنهم في عصرنا الحاضر .

ومن المكايد ان يعتمد الحيلة لشق عسكر العدو واخراج القواد عن رئيسهم ، وذلك بان يكاتبهم ويعدهم المنالات والولايات لعلهم ينتقضون عليه؛ او ان يطرح الى بعضهم كتباً كأنها جوابات عن كتب جاءته منهم ؛ وان يكتب على السنتهم كتباً تبلغ صاحبهم ، فتحمله على اتهامهم ، فقد تفضي هذه المكيدة الى افتراق كلمتهم ، وتشتت جمعهم .

وعلى الجملة فالامير مسؤول عن جميع الخطط الحربية التي تمهد طريق النصر وتساند الحركات العسكرية اذا كان لا مخلص له من القتال .

الحركات العسكرية

كان قواد العرب يرتبون الجيش صفاً صفاً في اوائل الاسلام ، ثم عمدوا الى تقسيمه كراديس فعلهم في واقعة اليرموك ، ثم اتخذوا الطريقة الفضلى التي أطلق بها على الجيش اسم الخميس لترتيبه على اقسام خمسة ، وهي المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب ، على اشكال مختلفة من مربّع او هلالي . وهذه الطريقة يوصي بها عبد الحميد ولي العهد في رسالته اليه . فاذا كان من عدوه على مسافة دانية ، سار بالجيش على هذه الاهبة ، قد شهروا السلاح ونشروا البنود والاعلام . ويولي شرطته وامر عسكره اوثق قواده ، ويحسن ان يكون معروف البيت مشهور الحسب ، فذلك اضمن لهيبته ومناصرة عشيرته له .

ويرى ان الطلائع اول مكيدة المحارب ، لانها تسعى الى جس نبض

العدو واستدراجه ، والكشف عن احواله ، فيشير على الامير ان ينتخب لها رجالاً ذوي نجدة وبأس وخبرة ، كما يشير عليه ان يعنى باقامة الاحراس ، واذكاء العيون ، وحفظ الاطراف ؛ وان يجعل على الساقة اوثق اهل عسكره ليعاقب الهارب ، ويعطف على الضعيف والمريض ؛ وخلف الساقة رجلا من وجوه القواد في خمسين فارساً جليداً ، ليُلحق من يتخلف من الجند بعد عقوبته ، وليلقى الكمين اذا ظهر في مؤخرة الجيش .

وعليه ان يوكل بخزائنه ودواوينه رجلا أميناً ذا ورع ، ومعه فرسان ترافق الخزائن ، ويكون العسكر مجانباً لها ، متخلفاً عنها خوفاً من تحوله اليها عند الجولة والفزعة .

وينبغي ان يكون الرحيل ابّاناً واحداً ، ووقتاً معلوماً ، لتخف المؤنة على الجند في معالجة اطعمتهم واعلاف دوابهم ، متى عرفوا اوان رحيلهم . ولا ينادى بالرحيل حتى يأمر صاحب التعبية العسكر بالاستعداد لكل مفاجأة وعدوان ، فيرحل الناس والخيل واقفة ، والاهبة معدّة ، ويسيرون بسكون ريح وهدوء . ولا ينزلون في موضع الا بعد الفحص عنه والتوثّق فيه ، والتحصين له ، ونشر الدبابات والاحراس حوله ، لئلا يطرقهم العدو وهم على غير منعة ووقاية .

فان ابتلي ببيات عدوّه ، ظلت الناحية المطروقة لازمة مراكزها ، لا تتقدم للمجالدة بالسيوف ، بل تمد الرماح وترشق بالنبال ، وتكبّر ثلاثاً ليعرف مكانها ، فيرسل اليها المدد ليفرج عنها برماحه ونشّابه .

واذا حان اللقاء اختار من جيشه ذوي البأس والجد ممن قد اعتاد طراد الكماة ، وعُرف بالصبر على اهوال الليل ، لم تضعفه السن ، ولا ابطرته

الحداثة ، فيعرضهم رأي العين ، على كُراعهم[1] واسلحتهم ، ثم يولي على كل مائة منهم رجلاً من اهل خاصته وثقاته ، ويتقدم اليه في ضبطهم ، فيكونون له عدة في المفاجآت والطوارق ، اذ لا يدري اي الساعات يحتاج اليهم ، فيبعث منهم المائة بعد الاخرى بحسب حاجته .

وعندما يتواقف الجمعان للقتال فليس الا الصمت وقلة الجزع والتوكل على الله والتسبيح والتكبير في القلوب .

واوصى الامير ان يبعث مكبّرين بالليل والنهار يطوفون على العسكر قبل المواقعة ، يحضونهم على القتال ، ويحرضونهم على عدوهم ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكّرونهم الجنة ورخاء اهلها وسكانها . ويجمل به ، اذا استطاع ، ان يباشر تعبية الجند بنفسه مع رجال من ثقات فرسانه ذوي سن وتجربة ؛ وينبغي الا يخوض غمار الحرب الا بعد ان يدعو العدو الى الطاعة وترك العصيان .

فرسالة ولي العهد وثيقة تاريخية تطلعنا على ما بلغت اليه العرب ، في فنون الحرب ، من التنظيم والارتقاء زمن الامويين .

اسلوب عبد الحميد

بلغت صناعة الترسّل عند عبد الحميد درجة رفيعة من البلاغة ، وخرج بها النثر الفنّي الى ميزته التي استقل او كاد يستقل بها عن الشعر ، فلم تغلب عليه النغمات والنبرات الصوتية التي نجدها في خطب عليّ وزياد والحجاج ، ولا تلك الصور الشعرية المتلألئة في التشابيه والكنايات والاستعارات ؛ ولا ذاك الخيال المُغرب الذي يرين على الحقيقة فيموهها باغرائه وفتونه ؛ ولا

---

[1] الكراع : الخيل .

ذلك الايجاز الذي يكثر فيه الحذف والتلويح، ولا يخلو بعض الاحيان عن الاخلال . فقد كتب عبد الحميد رسائله بلغة ادبية رصينة ، متينة على غير خشونة ، خالية من العبث والمضاحك على غير جفاف ، تنبض الحياة فيها نشيطة على غير خفة وأشر. وعالج الابحاث السياسية والاجتماعية بروية العاقل واسلوب الاديب ، لا ينتقص الفكر ، ولا يتحيّف الفن ؛ يؤثر الاسهاب على الايجاز، ويميل الى التفصيل اكثر منه الى الاجمال. يتوخى بلوغ الحقيقة، ولا يعرض عن المجاز ، فيكثر من الكنايات والاستعارات، ولكنها قريبة المدلول لا تجنح الى الاغراب. وتقل عنده الصور التشبيهية ، فنكاد لا نرى منها الا ما جاء من باب المحاكاة والمماثلة مثل قوله : « وسيحتال لك كاحتيالك له ، ويُعدّ لك كاعتدادك له. » ولا نظفر بالتشبيه التصويري الا نادراً حيث يقول : « مُبهمة السرد ، وافية الوزن ، كتريك النعام في الصنعة . » بيد انه يعنى بالنعوت عناية ظاهرة ، وقد يتوالى بعضها اثر بعض ، فلا تثقل ولا تتنافر لما بينها من اضافات فاصلة كقوله : « وليُولّ عليهم رجلاً ركيناً مجرّباً ، جريء الاقدام ، ذكي الصرامة ، جلد الجوارح ، بصيراً بموضع احراسه ، غير مصانع ولا مشفّع للناس . »

وتتوافر المنصوبات متتابعة في الجمل المقطعة المتوازنة ، فهنا المصادر والمفاعيل ، وهناك الحال والتمييز ، تتداعى اصواتها متجاوبة ، فتحدث في السمع وقعاً جميلاً لا يُجحَد تأثيره في التعبير الادبي .

وموازنة الجمل لها مكان الصدارة في اسلوبه ، يؤثر القصيرة منها ، فاذا طالت لا تسرف في الطول . ويمدّها بواو العطف ، فتتعاقب موصولة الاطراف ، متعاشقة الاجزاء . وربما وردت مترادفة ، يقلبها على المعاني

المتشابهة والمتقاربة ، رغبة في الاسهاب والتبليغ ، واستطراباً لانسجامها وحسن موقعها . فيقول :

« جريئاً على مخاطر التلف، متقدّماً على ادّراع الموت، مكابراً لمرهوب الهول ، متقحماً مخشيّ الحتوف ، خائضاً غمرات المهالك . »

وهذه المماثلات والمترادفات لم ينهكها التعمل وفساد الذوق ، فان له من سلامة الطبع ورهافة الحس الفني ما يقصيه عن التكلف الممقوت . فأتت هذه الأشياء ونظائرها جارية على سجية النفس ، ملبّية صوت البلاغة ، حرة مطمئنة في منازلها ، لا مقودة مكرهة مُتعبة . ولم تكن الصناعة البديعية من طلباته ، فقلّت اسجاعه ومجانساته ، فلا تشعر بها الا اذا تلمستها ، لانها تمر خفيفة على الاسماع ، خفيّة عن الانظار ، كأن بها حياء ، فـــلا تُرنّن خلاخيلها ودماجلها ، ولا تعرض زينتها وتبرجها .

ومع ما في رسائله من تقسيمات منطقية لاغراضها واجزائها ، ومـــع ما فيها من ابحاث عقلية في السياسة والاجتماع ، فانه لم يأنس بالقياس المنطقي الذي حفلت به مصنفات صديقه ابن المقفع . وقلما ضرب الامثال لتأييد حجته كمثل سائس البهيمة . فليس في رسائله سوى ادلة خطابية واوصاف ادبية تحدث تأثيراً في النفس، ولا يصح ان تُعد دعامة عقلية لآرائه. وهي الى ذلك مطلقة العنان محطمة القيود؛ والامثلة عليها كثيرة ، ولا سيما تحديده للاخاء .

ولعل ذلك يعود الى ان اللغة لم تكتسب في بني أمية دقة التعبير العلمي الذي احرزته في بني العباس ، على ما في طبيعة اللسان العربي نفسه من السعة والاحتمال، في استشفاف التعابير ومعاني الالفاظ ، فكثر في كلامهم التأويل واختلفت الشروح والتفاسير .

وانشاء عبد الحميد ، على جزالته وشدة اسره ، لم يخالطه التعقيد ، ولا نبا عنه الوضوح والسهولة ، وان لم يبلغ بهما مبلغ ابن المقفع . وربما وقعت على الفاظ غريبة ، ولكنها ليست من الحوشي المستوذل ، ولا تخلو عن الرواسم المأثورة مثل قوله : « كشر عن ناجذه في الحرب ، وقام على ساق في منازلة الاقران ، مستحصِد المريرة[1] » وهي من ثقافته العربية الاصيلة في بني أمية . ونجد معها الفاظاً جديدة عُرفت في الاسلام بعد خروج العرب من الصحراء ، كالحسك والسواعد والسوق لبعض انواع السلاح .

وعلى الجملة ، فعبد الحميد من اصحاب الاساليب الشخصية التي تعرف بها اصحابها ، وانشاؤه صورة جلية تبعث على الارتياح الى التأمل في آداب نفسه واخلاقه الانسانية .

منزلته

اذا ذُكر عبد الحميد قيل انه اول من وضع اصول الرسائل وأطالها وفصلها ، واكثر من التحميدات ، واستعمل في بعض كتبه الايجاز البليغ ، وفي بعضها الاسهاب المفرط على ما اقتضاه الحال . وقيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد . » وقال ابن خلّكان : « وكان في الكتابة وفي كل فن من العلم والادب اماماً . وعنه اخذ المترسلون ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا ، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل . » وضُرب المثل به فقيل : ابلغ من عبد الحميد . وكان احمد بن يوسف يقول في رسائله : « الفـاظ محككة وتجارب محنكة . » وقال ابن نُباتة : « انه البالغ

---

١ مستحصد المريرة : اي قوي الشكيمة ، مستحكم العزيمة . مأخوذ من قولهم : استحصد الحبل ، اي استحكم . والمريرة : الحبل الشديد الفتل .

الى اعلى المراتب في الكتابة البليغة .» وقال جعفر بن يحيى البرمكي : «عبد الحميد اصل ، وسهل بن هارون فرع ، وابن المقفع ثمر ، واحمد بن يوسف زهر . » وكان ابو جعفر المنصور يقول : « غلبنا بنو أمية بثلاثة اشياء : بالحجاج وعبد الحميد والمؤذن البعلبكي . »

فمن هذه الأقوال تظهر منزلة الكاتب الوزير عند الأقدمين ، واتفاقهم على الاعجاب به ، والاشادة ببلاغته ، وتقديمه في التوسل ووضع اصوله وتنويع فصوله .

ومن كلام له تستدل على رأيه في الكتابة وما فيه من ملاءمة لاسلوبه ، قال : «القلم شجرة ، ثمرتها الألفاظ . والفكر بحر ، لؤلؤه الحكمة . » ومن اقواله : « خير الكلام ما كان لفظه فحلًا ، ومعناه بكراً . »

وسئل مرة : « ما الذي مكّنك من البلاغة ؟» فقال : « حفظ كلام الاصلع . » يعني علي بن ابي طالب . ولا خلاف ان كلام الامام قدوة البلغاء . واذا وجد التشابه بينه وبين عبد الحميد في بعض النواحي ، فهما يفترقان في سائرها ، وكلاهما بلغ الدرجة العليا في انشائه على طريقته واسلوبه . فان كان الامام افخم لفظاً ، واعرق تعبيراً ، واظهر حكمة ، واقوى شخصية ؛ فعبد الحميد اكثر تفصيلًا وايضاحاً ، وابرع سياسة ، واوسع تدبيراً ، وله الفضل الذي لا يُنكر في تعبيد طريق النثر الفني ، وفي ابتداع سُنّة الرسائل على نهجها الجديد .

العلوم

كان من اثر اختلاط العرب بالموالي وتزاوجهم ، أن فسدت ملكة اللغة ، وفشا اللحن في الكلام. وكان الخلفاء جدّ حِراص على صحة قراءة القرآن، فأشفقوا من ان يفضي هـذا اللحن في اللفظ الى افساد المعنى ؛ فشرعوا في ضبط اعراب الكلمات ، وتحريك الحروف وإعجامها . وأول من نظر في النحو أبو الأسود الدؤلي ، ويقال ان أول باب وضعه كان التعجب . وهو ايضاً اول من وضع الحركات على شكل نقط فجعل الفتحة نقطة فوق الحرف ، والضمة نقطة بين يدي الحرف ، والكسرة نقطة من تحت الحرف . وكانوا ينقطون هذه الحركات بمداد من غير لون المداد الذي يكتبون به الكلمات.

وظلت الحركات كذلك حتى زمن الحجّـاج بن يوسف فجُعلت النقط لإعجام الحروف المتشابهة ، ثم كتبت الحركات بصورتها المعروفة الآن .

ولم يقتصر اختلاط العرب بالموالي على وضع النحو والحركات والنقط ، بل تعداه الى ابعد من ذلك ؛ فان هؤلاء الأعاجم من روم وفرس حملوا الى الامة العربية حضارة عاديّة ، وعلوماً مزدهرة ، فنبهت بها كامن الفكر على طلب العلم ، وكان لهـا من القرآن والحديث حافزٌ على ذلك ، فتولّد في نفسها نزوع الى التحضر والاشتغال بالعلوم. فعُنيت اولاً بدراسة القرآن وتفهم اسراره ، واستنباط الاحكام منه ، فنشأ علم التفسير ممهداً طريق علم الفقه . وقد اشتهر من علمـاء التفسير طائفة من الصحابة وغير الصحابـة . وكان للموالي حظ وافر منه ، فنبغ منهم ائمة كبار كالحسن البصري ، وابن سيرين ، ومجاهد بن جبر وغيرهم .

ثم عُنيت بالتاريخ رغبة في الاطـلاع على احوال الامم القديمة ، فكان

القصاصون من عربٍ وموالٍ يروون لها اخبار الملوك والعظماء . ذكر المسعودي : «ان معاوية كان يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة بعد العشاء ، فيقصون عليه أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها في رعيتها ، وسائر ملوك الامم وحروبها ومكايدها . ثم ينام ثلث الليل ويقوم فيأتيه غلمان وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سِيَر الملوك ، واخبار الحروب ومكايدها ، وأنواع السياسات . وعني المسلمون ايضاً بتدوين سيرة النبي ، واعمال صحابته . وكان يعرف علم التاريخ عندهم «بعلم اخبار الماضين» .

وعرف العرب في العصر الاموي شيئاً من العلوم الدخيلة كالفلسفة ، والطب ، والنجوم ، والكيمياء . ويرجع الفضل في ذلك الى المدارس السريانية كمدرسة الرُها ونصيبين ، فان المسلمين بعد ان افتتحوا تلك البلاد تركوا هذه المدارس تتابع اعمالها فاستفادوا من علومها . واخرجت لهم اطباء عُرفوا في ذلك العهد كابن آثال النصراني وكان طبيباً لمعاوية ، وماسرجويه وكان سرياني الجنس يهودي المذهب . قيل انه نقل كتاباً في الطب في ايام مروان بن الحكم .

وكان اول من اشتغل بهذه العلوم من العرب خالد بن يزيد بن معاوية فانه درس صناعة الكيمياء على راهب رومي يدعى مريانوس ، فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية ، فنقلها له رجل اسمه اسطفان . وذكر صاحب الفهرست ان سالماً كاتب هشام بن عبد الملك نقل رسائل ارسطو الى الاسكندر.

بيد ان صدر الاسلام لم يترك لنا من العلوم الدخيلة وغير الدخيلة الا اخبارها فلا يصح لنا ان نبحث عنها في هذا العصر ، ولكن في عصر بني العباس.

الرواة

كان لكل شاعر في الجاهلية راوية يروي شعره ويُرَوِّيه غيره ، لان الكتابة لم تكن شائعة في ذاك العصر . ولولا الرواة لما وصل الينا شيء من الشعر الجاهلي .

ثم شاعت الكتابة في الاسلام بعد ان تمّ الأمر لبني أمية ولكن الشعر ظلّ محفوظاً في صدور الرواة او في اوراق خاصة بهم ، ولم يعمّ تدوينه الا في العصر العباسي الاول . على ان الرواة كثر عددهم في العصر الاموي ، لأن المسلمين لمّا شرعوا بتفسير القرآن وضبط ألفاظه ، اضطروا الى جمع اشعار العرب وامثالهم ليستعينوا بها على تفهم الآيات وادراك اسرارها . وكان ابن عباس يقول : « اذا قرأتم شيئاً من كتاب الله لم تعرفوه ، فاطلبوه في اشعار العرب لان الشعر ديوان العرب . »

وكان لتنافس الاحزاب السياسية يدٌ في ازدياد الرواية ، فكانت كل فئة تفاخر الاخرى بشعرائها وعظمائها ، وتروي اخبارهم واقوالهم . وآنس الرواة من الامويين ارتياحاً الى معرفة نوادر الاعراب واشعارهم ، فراحوا يتلقفونها بين الخيام من كل قبيلة خالصة البداوة ، ويأتون بها اليهم فيصيبون عليها نوالاً عظيماً .

غير ان هذه الروايات لم تسلم من النحل والكذب ، لان الرواة لم يتورعوا من اضافة شعر الى غير قائله ، واختراع قصة لا أصل لها ؛ إما للاتيان بشاهد يُعتمد عليه في المعاني او في النحو ، واما لارضاء شخص او حزب بذكر مآثر من ينتمي اليه ، او لمفاكهة الخلفاء والامراء وسواهم من الناس . فنشأ

عن ذلك الشعر المنحول ، ونشأ ايضاً فن القصص الخيالية كأخبار مجنون ليلى ، وجميل بثينة ، وعنترة وسواهم .

واذا كان الرواة اساؤوا الى التاريخ بما اصطنعوه من الاشعار والاخبار ، فقد خدموه اجلّ خدمة بما حفظوا من اقوال اهل الخيام وعاداتهم واخلاقهم.

ومن الرواة من عُرف بصدق الرواية كقَتادة بن دِعامة السدوسي[1] وأبي عمرو بن العلاء[2] . ومنهم من عُرف بالكذب والنحل كحمّادٍ ، وهو اشهر الرواة الامويين .

---

١ قَتادة : عالم من اهل البصرة توفي سنة ٧٣٥ م و ١١٧ ﻫ .

٢ ابو عمرو بن العلاء : من اشراف العرب واعلمهم بالقراءات واللغة والايام. وكان له شغف بالرواية يأخذها عن اعراب ادركوا الجاهلية . وكان يقول : «ما انتهى اليكم مما قاله العرب الا اقله . » توفي سنة ٧٧٠ م و ١٥٤ ﻫ .

حماد

٧٧٢ م و ١٥٦ هـ (؟)

حياته : ديلمي كوفي من موالي بني بكر . يلقب بالراوية لسعة روايته . حظي عند الامويين . لم يحظ عند العباسيين . موته .

منزلته : اول من جمع السبع الطوال واكثر اشعار العرب ، ولكن ضاعت مجموعاته . قوة حافظته . كذبه . نحله . قول الضبي فيه . قول ابن سلام . المهدي يبطل روايته .

حياته — منزلته

هو ابو القاسم حَمّـاد بن مَيْسَرة الديلمي الكوفي من موالي بكر بن وائل، ويلقب بالراوية لانه كان اعلم الناس بايام العرب، واشعارها ، واخبارها ، وانسابها، ولغاتها. وكان في اول امره يصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلةً على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الانصار فقرأه حماد فاستحلاه وتحفّظه. ثم طلب الشعر وايام العرب ولغاتهم، وترك ما كان عليه، فبلغ من العلم مرتبة سامية. واشتهر بقوة الحافظة فرويت عنه اخبار كثيرة لا تخلو من الغلو ، منها : انه كان يروي سبع مائة قصيدة، اول كل واحدة منها بانت سعاد. وانه سمع الطِّرِمّاح الشاعر ينشد قصيدة ، عددها ستون بيتاً ، فقال له : « ليست لك . » قال : « كيف لا ؟ » قال : « اني انشدها بزيادة عشرين بيتاً لتعلم انها ليست لك . » ثم انشدها وزاد فيها من نظمه .

وحظي حماد عند الامويين فكانوا يستقدمونه ويسألونه عن ايام العرب واشعارها ولغاتها ، فيروي لهم وينال جوائزهم . قيل: سأله الوليد بن يزيد يوماً: « بِمَ استحققت ان تلقب بالراوية ؟ » قال: « اني اروي لكل شاعر

تعرفه او سمعت به ، ثم اروي لاكثر منهم ممن تعرف انك لا تعرفه ولم تسمع به . ثم لا ينشدني احد شعراً قديماً او حديثاً الا ميزت بينهما . » فقال له : « كم مقدار ما تحفظه من الشعر ؟ » قال : « كثير ، ولكني انشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات ، وذلك من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام . » قال : « فاني ممتحنك . » ثم امره بالانشاد فجعل ينشد حتى ضجر الوليد فوكل به من يسمع بقية القصائد واستحلفه ان يصدقه ، فانشد حماد ٢٩٠٠ قصيدة للجاهلية .

ومهما كان في هذا الخبر وما قبله من المبالغة فانه يدل على حافظة عجيبة ، ورواية واسعة عُرف بهما حماد .

وادرك راويتنا دولة العباسيين ، ولكنه لم يحظ عندهم حظوته عند الامويين فخمل ذكره . وقيل انه ادرك المهدي ، وان الخليفة العباسي كان يستدعيه ويستنشده ، ولكنه كان يؤثر عليه المفضّل الضّبيّ لصدق روايته . وخلافة المهدي تبتدىء سنة ١٥٨ للهجرة اي بعد سنتين من وفاة حماد ، فالخطأ واضح كما ترى .

وكما عُرف بالعلم وسعة الرواية ، عُرف بالكذب والوضع ، فكان يزيد في الاشعار التي يرويها لغيره من شعره ، او ينتحل من شعر غيره مما هو قديم لا يرويه احد غيره ويضمه الى شعره ، فيختلط بعضه ببعض . قال المفضل الضبي : « قد سُلّط على الشعر من حماد الراوية ما افسده ، فلا يصلح ابداً . » فقيل له : « وكيف ذلك ، أيخطىء في روايته ام يلحن ؟ » قال : « ليته كان كذلك ، فان اهل العلم يردّون من اخطأ الى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب واشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ،

فلا يزال يقول الشعر ، يشبّه به مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط اشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد ؛ واين ذلك ؟ »

واستحلف المهديُّ حماداً في امر الزيادة في اشعار الناس، فاقرّ له بابيات اضافها الى زهير بن ابي سلمى ، فأمر المهديُّ بابطال روايته، ووصل المفضل لصدقه وصحة روايته ، ولعل ذلك حدث قبل مبايعته بالخلافة .

قال ابن سلام : « وكان اول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الاشعار . » وقال يونس: « العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر . »

وحماد اول من جمع السبع الطوال ، وجمع اشعار اكثر القبائل ، واكثر شعراء بني أمية ، قيل انه جعل شعر كل قبيلةٍ او شاعرٍ في كتاب. فكان عنده كتاب لشعر قريش ، وآخر لشعر ثقيف ، وآخر لغيرهم ، ولكنها ضاعت كلها وروى الناس عنه . غير ان الادباء المدققين الذين جاؤوا بعده لم يعتمدوا على الروايات التي انفرد بها دون غيره . وقد اظهر ابن سلام والاصفهاني وسواهما كثيراً من منتحلاته واكاذيبه .

*

فقد رأيت ان الصدر الثاني للاسلام كان عصر يقظة وتفكير وعمل ، عصر تنعم وترف ، ولكن لم يطل عمره فيتم ما بدأ به ، بل اديل منه العصر العباسي ، عصر حضارة الاسلام ، ونهضة العلم والادب ، عصر التدوين والتأليف .

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤	١٤	بالعبّاد	بالعِبَاد
٥٥	٤	شعوره الغني	شعوره الفنّي
٦٥	١	الشعر	السفر
٦٧	١٣	فقد اخزامم	لقد أخزامم
٨٣	٢	ُيحسنُ	ُيحسنَ
١٢٩	٨	انما فيه	وانما فيه
١٤٨	٥	مستقِر	ُمستعِر
١٨٦	٢٠	قوادا	قَوَداً
١٩٥	١٢	شواعرها	مشاعرها
٢٠١	١٣	يُطردها	يَطّردها
٢١٦	٧	فضّلت	فضّلك
٢١٧	٥	عَنْزة	عَنَزة
٢٥٢	٤	الشواعر	المشاعر
٢٥٧	١٥	بيت او اكثر	بيت واحد
٢٥٧	١٥ - ١٦	بيت او اكثر	بيت آخر
٤٣١	١٣	حريّة بالتصديق	غير حريّة بالتصديق

الفهرست

العصر الجاهلي

صدر الاسلام